A L I B A D E R

رواية
NOVEL

علي بدر

حارس التبغ

الطبعة الثانية

مكتبة الفكر الجديد

حمار الشيخ

مكتبة
الفكر
الجديد

حارس التبغ / رواية عربيّة
علي بدر / مؤلّف من العراق
الطبعة الثانية ، 2009
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 ، الأردنّ
هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكتروني : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والخطوط والإشراف الفنّي :
لوحة الغلاف : **أميديو موديلياني / إيطاليا**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.
ISBN 978-9953-36-253-X

مكتبة
الفكر
الجديد

NOVEL

علي بدر

حارس التبغ

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

كلي الشوكولاتة يا صغيرة
كلي الشوكولاتة !
لا توجد ميتافيزيقا تُضاهي الشوكولاتة
والديانات لا تُعلّم أكثر مما تعلمه المِقشدة
كُلي أيتها الصغيرة القذرة كلي!

«Tobacco shop»

Fernando Pessoa

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة الفكر الجديد

الجزء الأول

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

-I-

بيوغرافيا، خرائط، ووثائق خاصة

في الثالث من أبريل من العام ٢٠٠٦ وجدت جثة الموسيقار العراقي كمال مدحت مرمية على مقربة من جسر الجمهورية على نهر دجلة ، من جهة الرصافة . . كان قد عثر على الجثة بعد أقل من شهر تقريباً على اختطافه ، على يد جماعة مسلحة من محل قريب من منزله في مدينة المنصور .

نشرت الصحف العراقية خبر وفاته مثل أي خبر آخر ، وبلا تفاصيل ، لكن الانعطافة الحقيقية التي حدثت هي حينما نشرت صحيفة التودي نيوز الأميركية خبراً ، ذكرت فيها أن الموسيقار العراقي كمال مدحت هو يوسف سامي صالح ، من عائلة قوجمان ، هاجر إلى إسرائيل في العام ١٩٥٠ في عملية أطلق عليها عزرة ونحمية ، أي بعد قرار إسقاط الجنسية العراقية عن اليهود ومصادرة أملاكهم . . كان متزوجاً من فريدة روبين ، وقد ولد ابنه مئير في العراق قبل عام من هجرته . إلا أن يوسف لم يطق العيش في تل أبيب ، فهرب إلى إيران عن طريق موسكو في العام ١٩٥٣ ، بجواز سفر مزور باسم حيدر سلمان ، وفي طهران تزوج من طاهرة ابنة التاجر الثري إسماعيل الطباطبائي التي ولدت له ابنه حسين ، ودخل بغداد مع عائلته في العام ١٩٥٨ ، وبقي في بغداد حتى العام ١٩٨٠ حيث تم تهجيره إلى طهران كونه من التبعية الإيرانية ، وقد توفيت زوجته

مكتبة الفكر الجديد

طاهرة أثناء التهجير ، وسجن ابنه حسين أكثر من ثلاثة أعوام ، ثم أطلق سراحه وتم تهجيره إلى إيران أيضاً ، إلا أنه لم يعثر على والده هناك .

عاش حيدر سلمان في طهران أكثر من عام لاجئاً ، ثم استطاع الهرب إلى دمشق نهاية العام ١٩٨١ بجواز عراقي مزور باسم كمال مدحت ، وقد بقي في دمشق أقل من عام ، تزوج هناك من سيدة عراقية ثرية اسمها نادية العمري ، ودخل بغداد أول العام ١٩٨٢ بجوازه المزور ، ولدت له نادية العمري ابنه عمر في بغداد ، وفي الثمانينات أصبح أشهر موسيقار في الشرق الأوسط .

هذا موجز للخبر الذي نشرته الصحيفة الأميركية بعد العثور على جثته في بغداد بخمسة أيام .

بعد يومين من نشر الخبر في الصحيفة الأميركية ، اتصلت بي صحيفة التودي نيوز الأميركية وطلبت مني الذهاب إلى بغداد ، وكتابة ريبورتاج بألف كلمة عنه ، على أن لا ينشر هذا الريبورتاج باسمي ، إنما باسم جون بار وهو أحد المراسلين المهمين في الصحيفة ، وهو ما يطلق عليه في العمل الصحفي البلاك رايتر ، وهو كاتب يذهب إلى المناطق الخطرة لكتابة تقرير صحفي عن موضوعة ساخنة ، لكن التقرير ينشر باسم أحد الصحفيين الكبار في الصحيفة ، أما الصحفي المحلي فلا يتقاضى سوى ثمن أتعابه ، كما طلبت وكالة التعاون الصحفي والأي سي ميديا آند نيوز وضع كتاب شامل عن حياته ، مع تغطية مستلزمات سفري إلى المدن التي عاش فيها ، على أن يكون هذا الكتاب مدعماً بمعلومات وثائقية ومقابلات حقيقية ، وقد زودتني بالكثير من الوثائق ، والصحف ، والرسائل ، وهيأتني لمقابلة عدد من الأشخاص الذين تعرفوا عليه من مختلف الأماكن في العالم ، ثم خطط لي أن أسافر إلى المدن التي عاش فيها ، وهي بغداد

مكتبة الفكر الجديد

حيث بقيت في مكتب الوكالة الكائن في المنطقة الخضراء أكثر من شهر ، ثم زرت طهران وتتبعت الأماكن التي قطن فيها إبان ذاك ، وبقيت شهرين في دمشق لتغطية المحطة الأخيرة لهجرته .

صورة وصفية عن كمال مدحت

ومن أجل تسهيل العمل على هذه الشخصية الملغزة ، قمت بتجميع مجموعة من الخيوط لتكوين صورة وصفية عن كمال مدحت :

فهو شخص طويل القامة ، نحيل جداً ، بشعر طويل ولحية خفيفة ، يرتدي نظارة ذات إطار بلاستيكي ، أنيق الملبس ، علاقاته النسائية متعددة وعواطفه غامضة ، اهتماماته موسوعية ، مثل الفن الحديث ، الشعر ، الرواية ، العلوم السياسية ، له إيمان كبير بالقوى الغامضة ، غير محدد من جهة مواقفه السياسية ، قراءاته الفلسفية واسعة ولكنها انتقائية .

كما كان كمال مدحت عازف فيولون (كمان) ماهراً جداً ، حصل على العديد من الجوائز العالمية في الموسيقى ، وهو يجيد القراءة والتكلم بست لغات : العبرية والعربية اكتسبهما من خلال العائلة ، الإنكليزية والفرنسية درسهما في مدارس بغداد ، الروسية درسها أثناء دراسته للموسيقى في كونسرفتوار جايكوفسكي في موسكو ، والفارسية تعلمها أثناء وجوده في طهران .

هذه هي الصورة الوصفية التي يمكن تكوينها عنه ، وأثناء العمل على كتابة سيرته حدثت لي مجموعة من المفاجآت التي غيرت مجرى كتابتي برمتها ، منها عثوري على كتاب شعر في منزله ، وقصيدة أجنبية كان قد علق عليها ، من المهم ذكرها هنا قبل البحث في تفصيلات هذا التأثير :

في الواقع حين زرت منزل كمال مدحت في المنصور ، أثناء التحقيق

مكتبة الفكر الجديد

في مقتله وجدت كتابين ، الأول هو مذكرات عازف الفيولون الفرنسي ستيفان غرابيلي ، وكتاباً آخر باللغة الإنكليزية ، أحمر الغلاف ، مرمياً على طاولة صغيرة من خشب الساج في حجرته ، وهو ديوان دكان التبغ للشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا ، وقد علق على القصائد بقلم الرصاص تعليقات وشروحًا كثيرة ، وحينما خرجت من المنزل كنت أخذت هذا الكتاب معي ، ولم أقلبه أول الأمر ، بل وضعته في درج مكتبي إلى اليوم التالي ، في البداية لم أكن أعلم مغزى هذ الديوان وأهميته في حياته ، وفي الصباح بدأت بقراءته ، وقراءة تعليقاته عليه وشروحه على قصائده ، فهالني ما وجدت ، لقد أدركت أن في هذا الكتاب الكثير من أسرار حياته ، حينها تحولت إلى دراسته وفهمه ، لأن فيه إلى حد كبير بعض المفاتيح الأساسية لحل أسرار حياته وألغازه .

يقدم بيسوا في ديوان دكان التبغ ثلاث شخصيات مختلفة ، وهم عبارة عن ثلاث حالات تقمص ، كل شخصية من هذه الشخصيات المخترعة هي وجه من وجوه بيسوا ، مقدماً لكل واحدة منها اسماً خاصاً بها ، وعمراً محدداً ، وحياة مختلفة ، وأفكاراً وقناعات ، وملامح مختلفة عن الشخصية الأخرى ؛ وكل مرة يطور شكلاً للهوية أعمق وأكثر اتساعاً ، ولكننا نصل فيما بعد إلى التباس حقيقي للهوية ، الشخصية الأولى لحارس القطيع واسمه البرتو كايرو ، والثانية للمحروس وهو ريكاردو ريس ، والثالثة للتبغجي وهو الفارو دي كامبوس ، فنجد أنفسنا فجأة أمام لعبة ثلاثية الأطراف ، أو رسم تكعيبي ثلاثي لوجه واحد .

وهكذا قد فعل كمال مدحت ، فكانت له ثلاث شخصيات ، كل شخصية لها اسم ، وعمر ، وملامح ، وقناعات ، ومذهب مختلف عن الشخصيات الأخرى ، فسامي صالح هو الموسيقار اليهودي ، الليبرالي

مكتبة
الفكر
الجديد

والمتنور، ولد في العام ١٩٢٦ في بغداد، وحين بحثت في موسوعة الموسيقى العراقية وجدت تاريخ وفاته في العام ١٩٥٥ في إسرائيل (الغريب أن كمال مدحت هو الذي كتب عن حياة سامي صالح وحيدر سلمان في موسوعة الموسيقى العراقية)، وحين دخل طهران اتخذ لنفسه شخصية حيدر سلمان، وهو موسيقار ولد في عائلة شيعية متوسطة، وتاريخ ولادته أكبر من شخصيته الأولى بعامين، وقد ارتبط بالحركة الشيوعية طوال الستينيات، وتقول موسوعة الموسيقى العراقية إنه توفي في طهران في العام ١٩٨١، وحين دخل من دمشق إلى بغداد دخل بشخصيته الثالثة وهي شخصية كمال مدحت وهو الموسيقار المعروف، ولد في عائلة من التجار تقطن في الموصل في العام ١٩٣٣، وهي من كبار العائلات السنية، وقد ارتبط بعلاقة خاصة مع السلطة السياسية في بغداد في الثمانينات، وأصبح من المقربين من الرئيس صدام حسين. وهكذا بينت حياته بشكل لا لبس فيه زيف ما كانوا يطلقون عليه الهوية الجوهرية، ذلك لأن حياته تبين إمكانية التحول من هوية إلى هوية عبر مجموعة من اللعبات السردية، فتتحول الهوية إلى قصة يمكن الحياة فيها وتقمصها، وهنا يطلق هذا الفنان ضحكة ساخرة من صراع الهويات القاتلة عبر لعبة من الأسماء المستعارة والشخصيات الملتبسة والأقنعة الزائفة، وفي غمرة الحرب الطائفية في بغداد قبل مقتله، زاره أبناؤه الثلاثة، فكشفوا عن هذا الإسقاط الهوياتي بصورة واضحة، فمئير يهودي من أصل عراقي هاجر من إسرائيل إلى أميركا، والتحق بالمارينز وجاء ضابطاً في الجيش الأميركي إلى بغداد، وهو ثمرة شخصيته الأولى، وحسين بعد تهجيره إلى طهران ارتبط بهوية شيعية، وانتظم في الحركة السياسية الشيعية وهو ثمرة شخصية الأب الثانية، وعمر كان سنياً يحاول أن يدعم

مكتبة الفكر الجديد

هويته من تراجيديا إزاحة السنة عن الحكم في العراق بعد العام ٢٠٠٣ وهو نتاج شخصيته الثالثة ، وكل واحد منهم كان يدافع عن قصة مصنوعة ومفبركة ومزودة بالكثير من العناصر السردية والوهمية ، والتي يعيش كل واحد منهم فيها بوصفها حقيقة .

وهكذا تبين حياة كمال مدحت أن الهوية ترتبط على الدوام بواقعة سردية ، فهي حكاية تلفق أو تفبرك أو تسرد في لحظة هي مطلقة الاعتباطية ، في لحظة تاريخية بموضعة يتحول الآخرون فيها إلى آخرين ، وأغراب ، وأجناب ، ومنبوذين أيضاً . وهكذا تبين حكاية هذا الفنان أن الهوية هي حركة من حركات التموضع وسياسته ، فما إن تجد لها موضعاً في حركة تاريخية معينة ، حتى تغيره في لحظة تأريخية أخرى ، فكل هذه الجاميع التخييلية تبدأ بسرد مفبرك ومخترع لتنفي الاختلاط وتداخل الهويات ، كما أنها تكشف عن هذه الأطر المتوهمة والمصنوعة والمفبركة في لحظة تاريخية معينة ، فهي مفتريات روائية Fiction ، وهي سرد Naration فكل جماعة وهي تفقد جذورها في الزمان فإنها تعمد إلى استعادة أفقها المفقود ، ولا يمكن لها استعادته إلا من خلال السرد والخيال .

بيوغرافيا صغيرة

وهكذا كلما كنت أتوغل في قراءة ديوان بيسوا أتعرف على هذه الشخصية المثيرة ، وقبل سفري إلى بغداد كنت جمعت معلومات كثيرة ومفصلة عن حياته ، وقبل الشروع بكتابة السيرة بدأت بتهيئة خرائط مدن الشرق الأوسط التي كانت محطات رحلته ، ثم قمت بعمل بيوغرافيا صغيرة عن حياته :

١٩٢٦ : في الثالث من نوفمبر ، ولد يوسف سامي صالح من عائلة

مكتبة الفكر الجديد

قوجمان ، وهي عائلة يهودية عراقية من الطبقة الوسطى ، أي إنه ولد في العام ذاته الذي تم فيه توقيع المعاهدة العراقية-البريطانية كتعديل لمعاهدة عام ١٩٢٢ ، وقد صادق عليها البرلمان العراقي في ١/١٨ . وفي العام ذاته ولد بدر شاكر السياب ، أهم شاعر عراقي حديث ، وولد فؤاد التكرلي أهم روائي عراقي حديث . وقد عاش يوسف بن سامي صالح في شارع الرشيد ، في محلة التوراة وهو حي يهودي من الأحياء القديمة جداً في بغداد ، كانت تقطنه الكثير من العائلات اليهودية قبل منتصف القرن الماضي .

١٩٢٧ : تدفق النفط في بئر رقم واحد في العراق ، السائل الذي سيلعب الدور الأكبر في صياغة تاريخ البلاد ومستقبلها .

١٩٣٢ : أصبح العراق العضو رقم ٥٧ في عصبة الأمم المتحدة كأول دولة عربية مستقلة ، وأعلن نهاية الانتداب البريطاني رسمياً .

١٩٣٣ : درس يوسف سامي صالح موسيقى الكمان على يد عازف أرمني متخرج من كونسرفتوار جايكوفسكي في موسكو . في العام ذاته صدر أول بيان شيوعي في العراق ، كتبه (فهد) القائد التاريخي للحزب الشيوعي العراقي .

١٩٣٦ : بثت إذاعة بغداد برامجها لأول مرة ، فعزف يوسف سامي صالح موسيقى لموزارت . حدث في هذا العام التاريخي أيضاً انقلاب الفريق بكر صدقي على حكومة ياسين الهاشمي ، وهو أول انقلاب عسكري في العراق ، وفي المنطقة العربية .

١٩٤١ : في العاشر من آذار التقى يوسف سامي صالح بعازف الكمان الروسي الشهير ميشيل بوريزنكو (M. Boricenco) ، وقدم أمامه أول عزف سنفرد على آلة الكمان لباخ وباغانيني وإيساي Bach, Ysaye, Paganini ،

مكتبة الفكر الجديد

على صالة صغيرة في النادي الإنكليزي في بغداد ، وتقديراً وإعجاباً لعزفه أهداه كماناً وقوساً راقيين . وفي شهر مايس من العام ذاته اندلعت الحرب العراقية-البريطانية ، مصحوبة بثورة قومية متأثرة بالنازية ، وحالة فوضى هائلة تعم البلاد ، وتعرضت الطائفة اليهودية إلى الاعتداء والنهب والسلب والقتل ، حيث أحرقت مسعودة دلال خالة يوسف سامي صالح أمام عينيه ، ونهبت أموالها .

١٩٤٦ : تم تشكيل الوزارة السعيدية التاسعة يوم ٢١ تشرين الثاني ، وصادف أيضاً وصول المطربة المصرية أم كلثوم إلى بغداد ، وإقامتها في فندق «قصر دجله» في شهر مايس ، وقد أحيت بعض الحفلات الغنائية بمناسبة عيد ميلاد الملك فيصل الثاني . وفي العام ذاته افتتح «استوديو بغداد» والذي يعتبر البداية الفعلية لتاريخ السينما العراقية .

١٩٤٨ : تم توقيع معاهدة بورتسموث بين رئيس الوزراء العراقي صالح جبر ووزير الخارجية البريطاني بيتفن ، فأعلن الطلاب الإضراب العام ، والقيام بمظاهرات سلميه لمدة ثلاثة أيام ، مع الهتاف بسقوط مجلس النواب والوزارة ، حينها أصدر نائب رئيس الوزراء بياناً استفز فيه الطلاب المتظاهرين ، وأمر الشرطة بضرب المظاهرات بالرصاص ، فسقط العديد من الطلاب قتلى وجرحى على الجسر ، بعدها بيوم واحد اقتحمت سيارات الشرطة بناية المستشفى الملكي في الباب المعظم عند تسلم جثث الطلاب ، وفتحت النار ، فقتلت طلاباً آخرين من كلية الصيدلة .

بعدها بدأت حرب الثمانية والأربعين ، وهي نكسة العرب وإعلان دولة إسرائيل .

وفي العام ذاته حصل يوسف سامي صالح على جائزة الملك فيصل للعزف على الكمان ، وبدأ سلسلة حفلات في النادي الإنكليزي ،

مكتبة الفكر الجديد

حضرتها أهم العائلات البغدادية ، حيث برع في تطويع الكمان لأصابعه ولا سيما في سوناتا الكمان المنفرد لباخ Bach ، وفي العام ذاته تزوج من فريدة روبين .

١٩٤٩ : صادف إعدام قادة الحزب الشيوعي المؤسسين يوسف سلمان (فهد) ، وحسين محمد الشبيبي (حازم) ، وزكي بسيم (حازم) علناً في شوارع بغداد . وفي نهاية العام ولد مئير ابنه الوحيد من فريدة روبين .

١٩٥٠ : وصول «محمد ظاهر شاه» ملك الأفغان إلى بغداد يوم ٢١ آذار في طريقه إلى أوربا .

تأسيس «جماعة الرواد» الفنية من بعض الفنانين التشكيليين في بغداد . إصدار قانون إسقاط الجنسية العراقية عن اليهود . وقد هاجر يوسف سامي صالح إلى إسرائيل في عملية أطلق عليها عملية عزرة ونحمية ، حيث تم السماح لجاميع كبيرة من العائلات اليهودية بالهجرة أوان ذاك ، بعد الاستيلاء على عقاراتهم ومصادرة أملاكهم .

١٩٥٢ : انتقل يوسف سامي صالح إلى تل أبيب ليعيش في كيوبتس كفار Kfar .

١٩٥٣ : رحل إلى موسكو لحضور حفلة موسيقية وزيارة كونسرفتوار تشايكوفسكي ، حيث تعرف على عازف الكمان الشهير سيرجي اويستراخ (Sergey Oistrakh) ، وساعده الأخير على الهرب إلى إيران أيام حكم الشاه رضا بهلوي ، مروراً ببراغ حيث تعرف على عازف الكمان الشهير كارل باروش ، وبدأت بينهما صداقة لم تنته إلا بوفاة الأخير . في العام ذاته بدأ حياة جديدة في طهران باسم حيدر سلمان ، حيث احتضنته عائلة الثري العراقي إسماعيل الطباطبائي ، وتزوج من ابنته طاهرة ، وبدأ سلسلة حفلات في دار الأوبرا في طهران ، وتعرف على أشهر العازفين الإيرانيين .

مكتبة الفكر الجديد

١٩٥٥ : عقد الاجتماع الافتتاحي لدول «ميثاق بغداد» المؤلف من «العراق ، إيران ، تركيا ، باكستان ، والمملكة المتحدة» في يومي ٢١-٢٢ تشرين الثاني في بغداد ، وفي يوم ٢٥ تشرين الثاني أعلنت الصحف الإسرائيلية خبر وفاة يوسف سامي صالح بالاعتماد على خبر نشرته زوجته فريدة روبين .

١٩٥٦ : العدوان الثلاثي على مصر عقب تأميم عبد الناصر لقناة السويس ، مظاهرات صاخبة في بغداد وفي أكثر العواصم العربية .

١٩٥٧ : في الثالث من أيلول عزف يوسف سامي صالح عزفاً منفرداً للمقطوعة رقم ٤ من دى مول ل : هنري فيوتان ، بعبقرية مطلقة وتنغيم مرهف أمام الطبقة الأرستقراطية الإيرانية .

١٩٥٨ : في الرابع عشر من تموز أعلن عن انقلاب عسكري في بغداد بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم وتم إعلان الجمهورية بدلاً من الملكية ، حيث أصبح عبد الكريم قاسم رئيساً للوزراء ، ووزيراً للدفاع ، ورافق الانقلاب مجزرة قصر الرحاب ، حيث قتلت العائلة المالكة مع النساء والأطفال .

(دخل يوسف سامي صالح العراق باسم حيدر سلمان ، ولد في بغداد في العام ١٩٢٤ ، درس الموسيقى في موسكو وطهران ، وعائلته من تجار سوق الاستربادي في الكاظمية) وولد في العام ذاته ابنه حسين .

١٩٥٩ : تعرف حيدر سلمان على النحات الكبير جواد سليم ، ودخل الأوساط الثقافية ولا سيما جماعة بغداد للفن الحديث ، وفي هذا العام قدم حفلات موسيقية متنوعة ، منها معزوفات باغانيني بأسلوب ساحر ، ثم برع ذلك الوقت في عزف باخ . .

أشيع في تلك الفترة عن علاقة بينه وبين الرسامة المعروفة ناهدة

مكتبة الفكر الجديد

السعيد .

١٩٦٠ : بدأ بالتأليف الموسيقي ، وذهب إلى موسكو عاماً واحداً للدراسة في كونسرفتوار موسكو على القيادة والتأليف الموسيقي .

١٩٦١ : في الخامس من آب ، فاز بمسابقة ملكة بلجيكا السابقة إليزابيث ، وأقامت الملكة حفلاً وزعت فيه الميداليات التقديرية على الفائزين .

١٩٦٣ : في الثامن من فبراير حدث انقلاب عسكري بقيادة البعث والقوميين أطاح بحكم الزعيم قاسم ، وقد حدثت مقاومة شعبية ضارية قادها الشيوعيون استمرت عدة أيام . أصبح عبد السلام عارف رئيساً للجمهورية ، وتم إعدام الزعيم عبد الكريم قاسم ، وفاضل عباس المهداوي ، وطه الشيخ أحمد ، وأعقبتها مجزرة كبيرة ضد الشيوعيين راح ضحيتها الألاف ، ومن ضمنهم زعيم الحزب الشيوعي سلام عادل الذي مات أثناء التعذيب .

وفي نهاية فبراير من العام ذاته تم تهريب حيدر سلمان إلى طهران ، ومن طهران وصل إلى موسكو ، حيث كانت زوجته طاهرة بانتظاره ، بينما أعدمت الرسامة ناهدة السعيد شنقاً .

١٩٦٤ : في الخامس والعشرين من شهر آب بدأ حيدر سلمان بتدريس الفيولون في كونسرفتوار تشايكوفسكي ، وتعرف على أشهر العازفين الروس . وأشيع عن علاقة بينه وبين عازفة البيانو الروسية آدا برونشتين .

١٩٦٥ : اشترك بمسابقة جاك تيبو بباريس .

١٩٦٦ : اشترك في مسابقة ليفنتريت في نيويورك والتي أقيمت في قاعة كارنيجي .

مكتبة الفكر الجديد

١٩٦٧ : في الخامس من حزيران ، حدثت حرب الأيام الستة ، وقد احتلت إسرائيل سيناء من مصر ، والجولان من سوريا ، والضفة الغربية الفلسطينية . فقاطع حيدر سلمان العزف مع أوركسترا السيمفوني لمدينة نيويورك احتجاجاً على العدوان وعاد إلى العراق ، وانتهت بذلك علاقته مع العازفة الروسية آدا برونشتين .

١٩٦٨ : في السابع عشر من تموز حدث انقلاب البعثيين في بغداد ، وقد أصبح أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية ، وصدام حسين نائباً له ، وتم نفي رئيس الجمهورية المخلوع عبد الرحمن عارف إلى تركيا .

مايس ١٩٦٨ : أعلن الشيوعيون الكفاح المسلح وقادوا ثورة جنوب العراق في الأهوار ، غير أن الثورة فشلت وتم اعتقال عزيز الحاج رئيس القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ، الذي أدلى باعترافات مفصلة أدت إلى القبض على جميع أعضاء المكتب السياسي ، وفي العام ذاته أقدم البعثيون على إعدام مجاميع كبيرة من السياسيين بتهمة التآمر ، وتم إعدام مجموعة من التجار علناً بتهمة التجسس في ساحة التحرير ببغداد ، وسط صخب الجماهير والغوغاء .

١٩٧٤ : في الأول من شهر فبراير ، هاجر ولده مئير من إسرائيل إلى أميركا ، حيث تجنس بالجنسية الأميركية هناك ، والتحق بقوات المارينز .

١٩٧٩ : حدثت الثورة الإيرانية ، وفي الأول من فبراير عاد الخميني إلى قم بينما رحل الشاه نهائياً عن إيران ، وفي العام ذاته قاد صدام حسين انقلاباً سرياً وتولى مقاليد السلطة ، بينما تنحى أحمد حسن البكر عن جميع مناصبه ، وأعقبها مجزرة حزب البعث وتصفية جميع قياداته غير المنضوية تحت نفوذ صدام حسين .

١٩٨٠ : في الرابع من شهر أيلول ، بدأت الحرب العراقية الإيرانية ،

مكتبة الفكر الجديد

وتم إعلان إسقاط الجنسية العراقية عن المواطنين العراقيين من التبعية الإيرانية وتم تسفيرهم إلى إيران ، بعد مصادرة أملاكهم وتصفية الشباب بين الخامسة عشرة والأربعين . وقد تم ترحيل حيدر سلمان مع زوجته طاهرة بعد أن صودرت أمواله ، ومنزله وأملاكه ، ورمته أوان ذاك السلطات العراقية هو وزوجته في شاحنة على الحدود الإيرانية ، توفيت زوجته طاهرة التي كانت مريضة على الحدود ، وأودع ابنه حسين السجن في بغداد ، في عملية احتجاز للشباب العراقيين من أصل إيراني ، تم تصفية البعض ، والبعض الآخر تم تسفيره إلى إيران .

١٩٨١ : شهد أيام الثورة في إيران ولاسيما الحرب بين الليبراليين والأصوليين ، وأشيع عن علاقة حب بينه وبين باري ، ابنة محمد تقي مضيفه في طهران ، وفي الثالث من شهر نوفمبر انتقل حيدر سلمان إلى دمشق بجواز سفر مزور باسم كمال مدحت ، وهذا الاسم لتاجر عراقي مات في حادث سيارة في طهران ، وهو الزوج الثاني لامرأة ثرية عراقية كانت تعيش في دمشق اسمها نادية العمري ، أما زوجها الأول وهو سوري الجنسية ، فقد قتل في الحرب الأهلية التي دارت في الثمانينات بين البعثيين والإخوان المسلمين .

١٩٨٢ : دخل بغداد بهوية تحمل اسم كمال مدحت ، من مواليد العام ١٩٣٣ في الموصل ، من عائلة تجار بين الموصل وحلب .

١٩٨٣ : في الخامس من شهر مارس ، ولد ابنه عمر من زوجته نادية العمري . وفي العام ذاته التحق بالفرقة السيمفونية الوطنية العراقية ، حيث لمع نجمه ، وأصبح موسيقياً مشهوراً ، ولا سيما بعد أن اشترك مع وليد غلمية في عزف سمفونية «الشهيد» ، ثم أصبح شخصية فنية معروفة ومقربة من السلطات السياسية ولا سيما الرئيس العراقي السابق صدام

مكتبة الفكر الجديد

حسين . وأشيع عن علاقة له مع عازفة تشيلو في الفرقة السيمفونية الوطنية اسمها وداد أحمد ، كانت مسئولة عن توطيد علاقته مع النظام الحاكم ذلك الوقت ، وأشيع أيضاً عن علاقة له مع امرأة مشبوهة اسمها جانيت كانت عازفة بيانو فاشلة .

١٩٨٦ : في السادس والعشرين من شهر نوفمبر ، عزف كمال مدحت فانتازيا مؤلفة شملت حركات الكادينزا (Cadenza) الأولى بشكل رائع في القصر الرئاسي ، أمام صدام حسين وبعض رموز السلطة .

١٩٨٨ : في الثامن من شهر آب نهاية الحرب العراقية الإيرانية . وبعد الحرب بعام سافر ابنه عمر للعيش عند خالته في مصر .

١٩٩٠ : في الثاني من آب ، اجتاح الجيش العراقي الكويت وأعلن إقامة حكومة انتقالية فيها ، وفي الثامن من الشهر ذاته أصدر العراق قرارا بضم الكويت إليه واعتبارها المحافظة التاسعة عشرة .

١٩٩١ : في السابع عشر من يناير بدأت حرب الخليج الثانية ، حيث بدأت قوات الحلفاء بطرد العراق من الكويت بقيادة الولايات المتحدة الأميركية ، وفي الرابع والعشرين من الشهر بدأت الحرب البرية ، في السادس والعشرين من فبراير وافق صدام حسين على قرار الأمم المتحدة ٦٦٠ وانسحب من مدينة الكويت التي دخلتها قوات الحلفاء ، توفيت نادية العمري التي كانت مريضة ذلك الوقت ، والحديث عن علاقة بينه وبين خادمة ريفية اسمها فوزية .

١٩٩١- ٢٠٠٣ : عاش كمال مدحت في بغداد في ظل استمرار الحصار على العراق ، الفقر ، الأمراض ، الحرب ، تراجع الفنون . استمر في الكتابة الموسيقية مع اعتزال للحياة .

٢٠٠٣ : في العشرين من شهر مارس ، بدأت الولايات المتحدة حرب

مكتبة الفكر الجديد

الخليج الثالثة لإسقاط الرئيس العراقي صدام حسين ، وفي التاسع من ابريل دخلت القوات الأمريكية مدينة بغداد وبمشهد دراماتيكي تم إسقاط تمثال صدام ، ودخل ابنه مثير وكان برتبة عميد مع قوات الحلفاء .

٢٠٠٤ : عودة ابنه حسين من طهران مع القوى السياسية الشيعية والانضمام إلى الحكم ، وعودة ابنه عمر من القاهرة ومعارضته للاحتلال الأميركي ، ومعارضة العملية السياسية في العراق .

٢٠٠٦ : في الخامس من مارس ، اختطفته إحدى الجماعات المسلحة على خلفية غامضة ، في الثالث من أبريل ، وجدت جثته مرمية قرب جسر الجمهورية على نهر دجلة في بغداد .

هذه هي البيوغرافيا الصغيرة التي أعددتها قبل السفر إلى بغداد لكتابة حياته ، وكنت أعددتها لشخص واحد في حين كان يمكنني أن أعدها لثلاثة أشخاص ، ثم نشرت ريبورتاج كاملاً عن حياته باسم جون بار ، الصحفي الشهير الذي يعمل في صحيفة تودي نيوز الأميركية ، أي أن أكون أنا بلاك رايتر ، فبعد تفاقم الصراع منذ العام ٢٠٠٤ أصبح من المتعذر على الصحفيين الأجانب الدخول إلى بغداد ، فقررت الصحف ووكالات الأنباء والمحطات التلفزيونية والإذاعية نقل جميع طواقمها إلى العواصم العربية المحيطة ، مثل عمان ، أو دمشق ، أو بيروت ، ومن هناك يتم تكليف أحد الصحفيين العراقيين بإعداد التقارير على أن لا ينشر التقرير باسمه ، إنما باسم أحد مراسلي الوكالة أو الصحيفة أو المحطة التلفزيونية المشهورين ، لكي تعطي الصحيفة انطباعاً لقرائها بوجودها على الرغم من تفاقم الأوضاع وخطورتها ، بينما البلاك رايتر ، المنفذ الحقيقي للتقرير ، يقبض الثمن فقط .

وفي هذه النقطة عدنا مرة أخرى إلى لعبة الأسماء المستعارة والهويات

مكتبة الفكر الجديد

الملتبسة ، فالشخصية التي تغير أسماءها هي شخصية حارس التبغ كما هي في قصيدة بيسوا ، أما البلاك رايتر فهو الذي يرهن وجوده إلى وجود آخر . إذن هنالك اختلاف نوعي بين البلاك رايتر وحارس التبغ ، فحارس التبغ كما هو في قصيدة بسوا يحتفظ الشخص الواحد بثلاث شخصيات ، أو أكثر ، بينما البلاك رايتر يعير وجوده إلى اسم آخر ، وفي الغالب اسم غربي ، ومن هنا من وجهة نظري يبرز ما يطلق عليه بالنصية الاستعمارية ، وهي نوع من أنواع الامتصاص ، أو نوع من أنوع الشفط والتي تقوم على محو وجود الكائن كلياً وتركه خالياً ، ومن أجل أن أوضح كيف عملت هذا التقرير ، أود في البداية أن أشرح كيف وصلت إلى الوكالات في عمل البلاك رايتر :

مكتبة الفكر الجديد

-II-

البلاك رايتر جنة متخيلة أم رحلة إلى المجهول

أول التسعينيات ، أي بعد انتهاء حرب الخليج الثانية ، كنت تسرحت ذلك الوقت من الجيش بعد وقف إطلاق النار مباشرة ، وقد أمضيت الصيف كله بلا عمل ، كنت أقطن مع أهلي في منزلنا القديم في الكرادة ، أترجم أشعاراً مختلفة عن الإنكليزية أو الفرنسية دون أن أنشرها ، وأحاول كتابة رواية طويلة عن حياتي كجندي في الحرب وما واجهته من مخاطر وقتها إلا أني فشلت ، فقد كتبت العديد من الخطاطات ، والمسودات التي لم تكن أية واحدة منها لها قيمة ، أو على الأقل أقنعتني لإتمامها .

إبان ذاك كانت أشجار البرتقال في حديقتنا قد أزهرت ، الزيتون أخذ يحمل ، وكنت أذهب من وقت إلى وقت إلى مسبح نادي الهندية ، أعوم تحت عريشة السقف في المياه الصافية ، منتشياً باللون الأزرق تحت شمس بغداد الصيفية الساطعة . لم أغادر بغداد طيلة أشهر بعد الحرب مطلقاً ، وعوضاً عن ذلك ، كنت أتردد على صديق ثري جداً ، يقيم في منزله الصغير حفلات صاخبة ، عشرات من الصبايا والشباب ، والكثير من الأجانب هم من زواره ، تمتد حفلاته حتى الصباح ، وكل فجر أترنح عائداً إلى المنزل مخموراً ، في دروب ضيقة ، وأصعد درجات السلم منتشياً بالتسلية والصيف .

لم أكن أعرف كم من الناس كانوا يموتون ذلك الوقت بسبب

مكتبة الفكر الجديد

التعذيب ، أو الفقر ، أو السياسة ، كنت منشغلاً بنفسي ، وبحفلات صديقي ، وبالنساء اللواتي أتعرف عليهن ، وبالحكايات الذهبية التي أود كتابتها ، غير أني بالمصادفة ، وفي إحدى هذه الحفلات الصاخبة تعرفت على ناشطة ألمانية من أصل عراقي اسمها كاترينا حسون ، تعمل مراسلة صحفية لإحدى الصحف السويسرية الشهيرة والناطقة بالألمانية في مدينة زويرخ هي «نويا تسايتنغ تسويرش» ، كما أنها تعمل أيضاً مساعدة في منظمات حقوق الإنسان ، وكانت تزور بغداد في التسعينيات بشكل متكرر .

في ذلك المساء كنا توقفنا معاً نشرب النبيذ الأبيض تحت القمرية الخضراء الصغيرة في منزل صديقي ، كانت الموسيقى تصدح ، ونسائم النهر تأتينا عذبة ومخدرة ، فأخذت كاترينا حسون تحدثني عن عملها المجهد في بغداد ، ولا سيما مع السلطات ، ولم أكن أصغي لها كثيراً ، أو أبدي اهتماماً كاملاً ، إنما كنت أتكلف الإصغاء ، فقد كنت ذلك الوقت أبعد ما أكون عن هذه الاهتمامات ، بل لا أعير اهتماماً حتى للأخبار اليومية في الصحف والإذاعات على الرغم من شعوري الكامل أن الوضع السياسي في بغداد كان في تفاقم مستمر . غير أن الانعطافة الكبيرة التي حدثت في هذه الحكاية الصغير برمتها هي أن كاترينا حسون طلبت مني أن أعمل معها مترجماً لقاء مرتب ، لأنها لا تعرف العربية بشكل جيد ، في ذلك الوقت لم يكن لدي عمل ، كما أني لم أستطع التقدم في كتابة رواية على الإطلاق ، فوافقت ، وكان غرضي هو المال بالدرجة الأساس ، وهكذا تعرفت في منزلها الذي استأجرته في شارع السعدون على مجموعة من معوقي الحرب ، وعلى شيوعيين سابقين حبسوا وعذبوا ، وعلى نساء فقدن أزواجاً ، وأمهات فقدن أبناء في الحرب أو في السجون ،

مكتبة الفكر الجديد

ولم يكن الأمر يهمني كثيراً ، كنت أسمع هذه القصص كما لو كانت تحدث في بلد بعيد ، فأنا من جانبي لم أكن أتدخل كثيراً في هذه الأمور ، كنت أترجم فقط ، وأبقى في مراقبة صامتة قرب النافذة حتى يذهب أخر زائر .

وفي يوم من الأيام وأنا عائد من عملي ، ألقي القبض علي من قبل رجال الأمن ، وطلبوا مني أسماء الناس الذين كانوا يزورون هذه الناشطة وماذا كانوا يحدثونها . . لقد وجدت نفسي فجأة منشبكاً في أحداث جاهدت طوال حياتي أن لا أتورط بها ، فقد كان فهمي لحقائق بلادي ذلك الوقت قليلاً جداً ، كنت منشغلاً بشرب النبيذ وتدخين سجائر متنوعة ومصاحبة النساء من كل جنس ونوع ، ولم أكن أعرف شيئاً عما كان يعانيه الناس أبداً ، ولكني فيما بعد أخذت أهتم حقيقة بما يجري ، فأخذت أكتب تقارير صحفية لهذه الناشطة بأسماء مستعارة ، وكنت أتخذ الأسماء الأكثر بعداً عن الاشتباه ، وهي أسماء أجنبية بطبيعة الأمر .

من كاترينا حسون سمعت للمرة الأولى بقصيدة دكان التبغ لفرديناندو بيسوا ، القصيدة التي كتبتها الشخصية الثالثة من شخصيات بيسوا ، وكاترين هي التي اقترحت علي الكتابة أول الأمر تحت اسم حارس التبغ ، غير أن حقوقي أخذت تضيع ، وأقصد حقوقي المعنوية والمالية ، حتى اقترحت علي هذه الناشطة عمل البلاك رايتر ، وهو أن أكتب التقارير المهمة عن العراق ولكنها تنشر باسم أحد الصحفيين المشهورين ، وأنا أقبض ثمناً لقاء ذلك .

أنا أعتقد أن الفرق بين حارس التبغ والبلاك رايتر واضح ، حارس التبغ هو كما يقول فيرناندو بيسوا في داخل كل واحد منا كائنان . الأول ، الحقيقي ، ذاك الذي يتبدى في رؤانا وفي أحلامنا ، والثاني ، الزائف ،

مكتبة الفكر الجديد

المتجلي في التمظهرات، وفي خطاباتنا، وأفعالنا، وكتاباتنا، بينما البلاك رايتر هو نوع من السلب، نوع من التجريد، وهو شكل من أشكال النصية الاستعمارية التي تقوم على الامتصاص والنبذ.

**

قبل أن ترحل كاترينا حسون بأشهر كانت قد عرفتني على مراسلة في صحيفة الأميركان تودي نيوز في بغداد، وهي لبنانية الأصل اسمها عايدة شاهين، ارتبطنا هي وأنا بصداقة حميمة ذلك الوقت، وقد كلفتني بعمل مجموعة من الريبورتاجات الغريبة، أو على الأقل ذات الطابع الاستثنائي غير المألوف، فنفذت لها الكثير من الريبورتاجات المميزة، وقد اشتهر من بينها التقرير الذي كتبته عن حياة الروائية الإنكليزية أغاثا كريستي في بغداد، فقد كتبت عن زيارة وعيش كاتبة الروايات البوليسية هذه في مدينة بغداد في الأربعينيات والخمسينيات، إذ تتبعت المنازل التي أجّرتها أو الموتيلات التي قطنتها هي وزوجها عالم الآثار الشهير «ماكس مالوان»، ووصفت الشوارع التي كتبت عنها في روايتها «جريمة في بغداد»، والقطارات التي كانت تستقلها في رحلاتها إلى حلب أو تركيا، وأماكن اللهو التي كانت تقضي بها أمسيات الصيف الطويلة في حي الرصافة، وقد شجع هذا التقرير الصحيفة على تكليفي بالكثير من الريبورتاجات، ولا سيما عن الفنانين الأجانب، والكتاب، والمستشرقين، الذين زاروا بغداد، وعن المنازل التي شيدها الغربيون قرب نهر دجلة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وهكذا بقيت أعمل سراً مع هذه الصحيفة، ومع بعض الصحف الأجنبية الأخرى، حتى تعرفت على فرانسواز لوني، وهي صحفية فرنسية، كانت تعمل أيضاً مخرجة أفلام تسجيلية، كما أنها كانت

مكتبة الفكر الجديد

مراسلة شهيرة . تعرفت عليها في بغداد أيام الحصار ، حين كانت بغداد مادة إعلامية ممتازة ، بل كانت مركز استقطاب صحفيين وصحفيات من كل أنحاء العالم ، بسبب حالة التعاطف مع شعب كان يقاسي من عنف السلطة من جهة ، ومن جهة أخرى من عقوبات دولية عليه ، فعملت معها عدداً من الأفلام التسجيلية بعد أن اتخذت لنفسي اسماً مستعاراً أيضاً ، بناء على رغبتها ، من بينها الفيلم الذي نفذناه معاً عن الآثار العراقية القديمة ، غير أننا تعرضنا لمضايقات مختلفة من قبل السلطات ، على الرغم من أن عملي العلني مع فرانسواز كنت أحصره في أعمال تسجيلية لا تتعلق على الإطلاق بالسياسة ، إنما كانت أفلاماً عن آثار بابل ، أو المهن القديمة في الشرق الأوسط ، أو الآلات الموسيقية البابلية ، ولم أستخدم اسمي الحقيقي بالمرة ، حتى كنت نسيته ، ذلك أنها تناديني بالاسم المستعار حتى أخذت عليه . .

**

بعد فترة من الزمن شعرت فرانسواز أن بقاءها في بغداد خطر عليها ، وعلى حياتي أيضاً ، فطلبت مني أن أصطحبها في السفر إلى طرابلس لتنفيذ فيلم عن الآثار الليبية بعنوان كنوز الساحل ، وذهبنا معاً ، وعملنا ستة أشهر متواصلة بين طبرق وزوارة ، ثم تنقلنا على مدى عامين بين دمشق ، وبيروت ، وكازابلانكا . . كانت هذه الرحلات هي رحلات حب أكثر منها رحلات عمل ، بل أمضيت مع فرانسواز لوني أجمل الأوقات في حياتي .

كانت فرانسواز امرأة استثنائية بحق ، فهي تمارس جاذبية وسحراً جنسياً لكل العاملين في الوسط الصحفي ، وكانت هي بطبيعة الأمر سيدة في فنون الإغواء ، لم يكن يهمها الولوغ في قصة حب عاصفة أبداً ، بل

مكتبة الفكر الجديد

كانت المتع الجنسية والدفء والانغماس في العالم الاجتماعي أكبر بكثير من التوق الرومانسي الذي كنت أنا عليه أوان ذاك .

وهكذا ، وبدلاً من العمل الذي كنا غارقين فيه ، والأفلام التي كنا ننفذها في أماكن متعددة ، جرتني فرانسواز إلى عالم آخر ، بعد أن حصلنا على كمية من المال جيدة من فلم اسمه «نساء الشوارع» ، وهو عن الدعارة في الشرق الأوسط ، وقد نجح هذا الفيلم نجاحاً كبيراً ، حيث عرض في كثير من المهرجانات السينمائية المعروفة ، كما أنه عرض في الكثير من المحطات التلفزيونية الأوربية ، عندئذ اصطحبتني معها في رحلة عاصفة ومجنونة إلى المغرب ، إلى المدن الساحلية أول الصيف ، ولا أعرف كيف أفسر هذا الطيش أوان ذاك ، فقد شعرنا أن المدن المغربية الكبيرة التي زرناها قد فتحت الأبواب لنا ، لقد فتحت الأبواب لشابين تواقين للعيش بنزق وترف كاملين ، ومن ثم كانت محطتنا بعد ذلك كازابلانكا التي كانت ذلك الوقت على حافة أسطورة جنسية ، سادوم كما وصفتها مرة فرانسواز في أحد تقاريرها ، موطن فساد ورذيلة وكنا هي وأنا على حافة الهاوية والدمار ، كنا منغمسين كلياً بالمتع واللذائذ والأهواء من يوم إلى آخر ، مسارح ، وبارات ، وأحواض سباحة ، وجنس ، وخمور وسهر حتى الصباح . . .

ومثل أي عمل يقوم بالأساس على علاقة حب ، وهي علاقة الحب التي نشأت بيني وبين الصحفية الفرنسية ، فقد انتهى العمل بانتهاء الحب وهكذا انفصلنا سريعاً ، عادت هي إلى باريس ، أما أنا فلم أعد أعرف أين أذهب أبداً ، كانت العودة إلى بغداد مستحيلة ، ولم يكن لي عمل كي أبقى في كازابلانكا ، وليس لدي أصدقاء هناك أيضاً ، فجأة عادت عايدة شاهين مرة أخرى وبقوة إلى حياتي ، فقد كتبت لها رسالة

مكتبة الفكر الجديد

طويلة على عنوانها في بيروت ، أطلب منها أن تجد لي عملاً وسكناً ، ذلك أني عرفت أنها عادت إلى بيروت ، وكان عملها ممتازاً ، كما أني عرفت أنها ما زالت تعمل حتى الآن مراسلة لصحيفة الأميركان تودي نيوز .

في الواقع ، بعد أسبوعين من وصولي إلى بيروت ، انتقلت للعيش معها في شقتها في شارع الحمرا ، كانت عايدة مصورة فوتوغرافية عبقرية وكاتبة تقارير صحفية متوسطة ، وما كان يميزها أنها طيبة ، غير أن هذه الطيبة سرعان ما تتلاشى تحت مجموعة من الخصال الرديئة في شخصيتها ، فهي كثيرة الانتقاد والملاحظة ، تتكلم كثيراً ، وتشكو كثيراً ، فنشأت بيننا علاقة مضطربة ومتذبذبة أيضاً ، ومن الأشياء الإيجابية التي علي أن أذكرها أيضاً ، أنها هي التي أعادتني للعمل في الصحيفة معها ، كما أنها تدبرت لي عملاً في مؤسسة تلفزيونية خليجية كانت السبب في الكثير من رحلاتي كمحلل للأخبار ولمناطق من العالم متعددة .

فقد ذهبت إلى تشاد عقب الانقلاب العسكري الفاشل في التسعينيات ، وذهبت إلى رواندا عقب الحرب الأهلية ، وذهبت إلى الصحراء المغربية عند تفاقم الوضع السياسي هناك ، كما شهدت ذلك الوقت التغيرات الدراماتيكية في أوربا الشرقية ، والتحولات الجذرية في الانقلابات السياسية والتحول كلياً عن الشيوعية ، ومن هناك كتبت عن حرب البوسنة والهرسك . كما أنني كتبت للأميركان تودي نيوز تقارير مهمة عن حياة الشيوعيين العراقيين في أفريقيا ، ولا سيما أولئك الذين هربوا إلى أديس أبابا بعد صعود منغستو في الثمانينات ، وقد وصلوا هناك هاربين من جحيم صدام حسين ، وكان غرضهم هو إشعال الثورة ضد المصالح الغربية في أفريقيا ، ووجدتهم في أفريقيا محبطين وقد زال وهم الثورة نهائياً من حياتهم . وذهبت أيضاً لأكتب بعض التقارير عن سجون

مكتبة الفكر الجديد

الفاشية في البرتغال وأسبانيا وأقارنها مع السجون في الشرق الأوسط، كما شهدت التحولات الكبرى في أفغانستان ولا سيما بعد الحادي عشر من سبتمبر، والاجتياح الدولي لكابول ونهاية حكم طالبان، لقد شهدت تحولات كبيرة في كل أنحاء العالم تقريباً: قسوة الحروب الأهلية، الفظاعات المخيفة من كل نوع، الوحشية في مظاهر التشرد والعوز، ورأيت في أفريقيا كل ما لا يمكن أن أراه في مكان آخر، حيوانات غريبة، وطيورًا بأجنحة هائلة، وتماسيح تواجه الانقراض، كما شهدت وأنا ساهر حتى الفجر المآذن الزرقاء في طهران وهي تخترق الفضاء، وأسراباً من الطيور الشائهة ترف على قبابها.

**

غير أن علاقتي مع عايدة لم تدم كثيراً، ذلك أنها متقلبة المزاج، كثيرة المطالب، وقد ألحق بي مزاجها أضراراً كثيرة، وسرعان ما تغيرت المعطيات، فقد عرفتني -لا أدري إن كان هذا خطئاً منها- على صحفية أميركية من أصل فلسطيني اسمها نانسي عودة، رأيناها أول مرة في بار في بيروت، وقد انجذبنا -نانسي وأنا- لبعضنا من اللقاء الأول، وكانت كلما تعمقت علاقتي مع نانسي عودة، كانت علاقتي تتأزم مع عايدة شاهين، وقد بذلت محاولات مرعبة كي أوضح لها أننا يجب أن ننفصل، ولكن الجهود الأكبر الذي كان علي بذله هو أن أقنعها بأننا - نانسي وأنا - سنعيش معاً، وبعد جهد كبير اقتنعت بأننا لا يمكننا الاستمرار، وعندما انتقلت إلى شقة نانسي في الأشرفية، أهدتني تذكاراً جميلاً جداً، هو البلوزة التي كانت ترتديها أول مرة يوم تعارفنا، مما جعلني محرجاً ومتلكئاً.

**

مكتبة الفكر الجديد

كان الصحفيون الأجانب يأتون إلى بيروت لأنها بركان كل تناقضات الشرق الأوسط ، هي المكان الذي تتصارع فيه جميع القوى الموجودة في المنطقة ، إنها ساحة حرب دائمة تنفذ فيها الخطط والستراتيجيات العالمية والإقليمية ، وفوق هذا النسيج المعقد من التناقضات هنالك مدينة بحرية على الدوام مفتوحة ، حياتها على الحافة أن تكون شرقية وعلى الحافة أن تكون غربية ، وهذا هو ما يميزها ، كما أنها نقطة تردد دائم للمراسلين الأجانب المهتمين بالشرق الأوسط ، وكانوا يتوافدون عليها باستمرار ويفضلونها على كل مدن الشرق الأوسط الأخرى ، لأن فيها بالنسبة لهم الكثير من المزايا ، وما يجعل حياتهم سهلة هو هذا الكم الهائل من البارات ، والمقاهي ، والصالونات .

ومن الغريب أيضاً أن تصنيف المراسلين والصحفيين هناك يتم من خلال البارات التي يرتادونها ، وكانوا يصنفونها حسب التوجهات السياسية للصحفيين ولكنهم يضعونها تحت رموز ساخرة مختلفة ، فهنالك بار مجرمي الحرب ، وبار الإرهابيين ، وبار قتلة العاهرات ، أما البار الذي كنت أرتاده مع نانسي فلم يكن تحت عنوان أفضل من تلك التي ذكرتها .

كانت نانسي ذلك الوقت تعمل مراسلة لواحدة من المحطات الأميركية المعروفة ، وبما أنها درست الصحافة في نيويورك ، وعملت ممثلة ثانوية في إذاعة في بوسطن ، فقد كانت على علاقة كبيرة مع الأوساط الصحفية هناك ، وقد تدبرت لي أكثر من عمل ، وكلفتني بأكثر من مهمة ، مع أن هذه الأعمال لم تكن تستمر طويلاً ، لأسباب متعددة ، إلا أنها كانت معيناً كبيراً لي في حياتي ذلك الوقت ، وجعلتني على احتكاك دائم مع الأوساط الصحفية . أما علاقتي مع نانسي فقد وصلت ذروتها إبان ذاك ، ذلك أنها كانت نموذجاً طاغياً من الأنوثة والجاذبية : كانت

مكتبة الفكر الجديد

طويلة ، سمراء ، نحيلة ، رقيقة بملامح ناعمة ، لها بنية تصلح لأن تكون عارضة أزياء ، كما أنها قد جذبتني أيضاً بوجهها الذي يرشح عذوبة ورقة ، وبجسدها المتناسق تحت ملابسها الأنيقة ؛ كانت نانسي قد تزوجت من قبل وهي في سن الثالثة والعشرين من عمرها ، لكنها حصلت على الطلاق من زوجها الذي كان يعمل إذاعياً مشهوراً في البي دي أر في نيويورك . مع ذلك ، لم تدم قصة الحب هذه طويلاً ، فاعترتنا الكثير من المشاكل والاختلافات ، وأخيراً قررنا الانفصال ، وانتقلت أنا إلى دمشق للعمل مع مخرج إيطالي على فيلم وثائقي عن العراقيين المنفيين في سوريا ، وعادت هي إلى نيويورك ، وحين عدت بعد شهرين إلى بيروت وجدتها أيضاً ، وكانت عائدة منذ شهر تقريباً ، ومع أنها كانت على علاقة مع خوسيه باز الصحفي البرازيلي الشهير الذي عمل طويلاً في لبنان ، إلا أن اتصالاً غامضاً استمر بيننا يخص العمل ، حيث بقينا طوال تلك المدة صديقين حميمين ، كنت ألتقي بها في بيروت ، وفي أماكن متعددة من وقت إلى وقت ، وكانت تجهد نفسها لتجد لي عملاً يسير حياتي ولو قليلاً ، ولكن وضعي النهائي هو أني عاطل عن العمل ، حيث بقيت أكثر من ثلاثة شهور دون عمل حقيقي لا في الصحافة ولا في التلفزيون .

في الواقع بدأ وضعي حينها يسوء بصورة متسارعة ، إذ بدأ مالي الذي أدخرته من عمل الفيلم التسجيلي في دمشق ينفد ، ومع أني كنت أعتقد ذلك الوقت أن انتقالي إلى بيروت هو فاتحة ومقدمة لعملي ككاتب باللغة العربية ، إلا أن آمالي سرعان ما تبددت ، فقد كانت علاقاتي برمتها مع صحفيين أجانب من أوربا وأميركا ، وهذا جعلني أحصل على بعض التسهيلات ككاتب في الصحف التي هي خارج العالم العربي تماماً ، ولكني لم أكتب في الصحافة العربية مطلقاً ، ولم أكن معروفاً من أحد ،

مكتبة الفكر الجديد

كما أني لم أكن على علاقة بالكتاب أو الصحفيين أو الناشرين العرب أبداً ، وهي الوسيلة الوحيدة للحصول على عمل ، ومن الغريب أن عملي يرتبط دائماً بقصة حب أو علاقة ما ، وفي ذلك الوقت كانت قصة حبي مع نانسي منتهية تقريباً ، وبما أن عملي في الصحافة يعتمد اعتماداً كلياً على هذه العلاقات ، فقد وجدت نفسي وحيداً ومعزولاً أيضاً .

وكنت أعرف إن لم أسع إلى إقامة أي علاقة أظل بلا عمل تقريباً ، ولكني وبينما كنت أبحث عن علاقة مع امرأة في الوسط الصحفي العربي ، بدأت بكتابة بعض الأفكار حول رواية تدور أحداثها في بغداد ، غير أني لم أكملها ، وهذا ما زاد من إحباطي ، حينها التقيت بنانسي مع صديقها في بار قتلة العاهرات ، ووقفنا طويلاً نتحدث ، وكانت متأثرة جداً على ما وصلت إليه ، فطلبت مني أن أذهب إلى دمشق ، وألتقي بجاكلين مغيرب وهي سيدة شامية لديها الكثير من العلاقات مع الأوساط الصحفية والإعلامية العربية والأجنبية ؛ وبالفعل عدت مرة أخرى إلى سوريا ، وعند جاكلين مغيرب تعرفت على مخرج عراقي يعمل في إحدى المحطات التلفزيونية ، وأخذت أساعده في بعض أعماله ، لم تكن أعمالاً كبيرة في واقع الأمر ، إنما هي تقارير إخبارية قصيرة يبيعها إلى المحطات ، كما أن عملي معه لم يكن عملاً مستمراً مطلقاً ، بل كان متذبذباً جداً ، يعتمد على الأحداث السريعة المتوالية وعلى ما تكلفه به المحطات ، حينها ضجرت جداً ، ومن أجل إتمام مشروعي في الكتابة باللغة العربية قررت الانتقال إلى عمان ، وصلت عمان محبطاً تقريباً ، فقد استأجرت شقة صغيرة ، أو استوديو بالأحرى رخيصاً جداً ، وانقطعت كلياً عن الاتصال بأحد ، بل حجرت نفسي بين المكتبة والاستوديو ، وأخذت حينها أتردد على الصحف اليومية ، وتعرفت هناك على صالح ، يعمل رئيساً للقسم

مكتبة الفكر الجديد

الثقافي في صحيفة يومية ، وقد كلفني بكتابة مقالات عامة في الأدب ، ولا سيما الأدب الأجنبي ، كما كنت أترجم لصحيفته فصولاً من روايات حديثة أو مقالات نقدية كان يكلفني هو بها من وقت إلى وقت ، وكلها أشغال ميكانيكية تقريباً ، لا أراها مسلية على الإطلاق .

كانت مدينة عمان المضجرة أتاحت لي وقتاً كبيراً للقراءة ، ولمشاهدة أفلام كثيرة ، ولحضور حفلات موسيقية ، وكلها وسائل لتزجية الوقت أكثر منها نشاطات تبعث فيَّ الحماسة ، حيث لم يطل بي البقاء هناك ، وسرعان ما انتقلت إلى مدينة دمشق ؛ في الواقع كنت انتقلت إلى دمشق بناء على دعوة أحد أصدقائي العاملين في مؤسسة سينمائية هناك ، وكلفني بكتابة سيناريو فيلم لصالح مؤسسة ثقافية عراقية أسسها الشيوعيون العراقيون بعد الجزرة التي فتكت بهم في العام ١٩٨٠ ، وبقيت هناك عدة أشهر لكتابة السيناريو ، وبعد أن أتممت السيناريو وأصبح لدي بعض المال قررت البقاء هناك واستئجار حجرة في فندق غريب جداً في ساروجة في دمشق ؛ كان هذا الفندق عبارة عن أوتيل صغير ورخيص فيه الكثير من الأجانب ، وبه مكتبة ممتازة تحوي كتباً بكل اللغات ، ومن هذه الحجرة الصغيرة في الأوتيل الغريب أخذت أبعث متابعات عن السينما والمسرح لصحيفة فرنسية مهتمة بهذه الأحداث في كل أنحاء العالم ، وكلها أعمال ما إن تتوهج حتى تنطفئ مباشرة .

في غضون تلك الأيام الصعبة اتصلت بي نانسي ، قالت لي إنها عثرت لي على عمل في استوديو أحد التلفزيونات العربية كمحرر لدعايات وإعلانات تلفزيونية ، مع أني لم أغادر دمشق ، وبقيت في حجرة الأوتيل ، ومن ذلك المكان الساحر كنت أكتب هذه الدعايات التلفزيونية المسلية ، وكنت أخترع بعض هذه الجمل المثيرة والدعائية التي تخص

مكتبة الفكر الجديد

المنظفات وصناعة إطارات السيارات ومصنوعات المطاط وغيرها ؛ وهذا العمل البسيط ، في واقع الأمر هو الذي هيأني للانتقال من الأوتيل الرخيص الذي كنت أقطنه إلى شقة صغيرة أو استوديو في باب توما ، على مقربة من منزل جاكلين مغيرب وزوجها حنا مغيرب .

كنت بقيت هكذا حتى العام ٢٠٠٣ ، وهي نقطة الانقلاب الحقيقية في حياتي كمراسل صحفي ، أي بعد احتلال قوات المارينز لبغداد وسقوط نظام صدام ، فقد أصبحت هذه المدينة الشرق أوسطية نقطة جذب للمراسلين والصحفيين ومخرجي الأفلام التسجيلية من كل مكان في العالم ، ليس بسبب موضوعة الحرب وحدها ، إنما كانت نقطة انقلاب حقيقية في السياسة العالمية ، فمن جهة أعادت النصية الاستعمارية إلى الواجهة ، ومن جهة أخرى قدمت اقتراح التغيير لكل الشرق الأوسط ، وهكذا كانت التوقعات العالمية والصحفية ، أن بغداد هي نقطة تحول عالمية ، وكان من المتوقع أن تصبح مدينة حديثة حداثة سياسية واقتصادية واجتماعية ، غير أن بغداد بدلاً من أن تصبح ، حسب التوقعات ، مدينة أمنة للسياسيين والصحفيين أصبحت نقطة العنف الحقيقية في العالم ، بل هي المكان الأكثر خطراً في العالم كله ، وقد صنع هذا الأمر صورتين متناقضتين لهذه المدينة التي كانت على حافة الحرب الأهلية ، فهي من جهة ازدادت أهميتها الإعلامية أكثر بكثير من السابق ، ومن جهة أخرى أصبحت ممنوعة وخطرة على الصحفيين بصورة مطلقة . فماذا على الصحفيين أن يفعلوا؟ كان على الصحفيين ذلك الوقت الخروج من بغداد إلى عواصم الدول المجاورة : عمان ، دمشق ، بيروت بصفة خاصة ، وعليهم أن يستقروا هناك كأماكن قريبة من بغداد نسبياً ، كما أنها مناطق أمنة أيضاً وهذا يسهل عليهم الاتصال من هناك للحصول على المعلومات

مكتبة الفكر الجديد

والتقارير والأخبار الصحفية حول بغداد . . من هنا بدأت حياتي كبلاك رايتر أو كصحفي أسود ، وهو المصطلح التي كانت تطلقه علي نانسي عودة كلما رأتني في مكان . أراها جالسة ببنيتها القوية ونهديها الممتلئين كأنها شعلة من الشهوات بسيقان طويلة ، تصرخ أول ما تراني : «هاي ماي بلاك رايتر . .»

وبفضل نانسي عودة حصلت على الكثير من عمل البلاك رايتر ، وحصلت على الكثير من الامتيازات ، وكانت أكثر الصحف والمحطات التلفزيونية قد عرفتني بفضلها ، وقد قدمتني إلى الكثير من وكالات الأنباء والمحطات التلفزيونية العربية والأجنبية ، التي عملت لها تقارير وأفلاماً تسجيلية عن العراق في غضون تلك الأيام ، ومما لا ينسى لها أنها هي التي عرفتني بالكثير من الصحفيين والمراسلين المشهورين في العالم ، ولن أنسى أبداً أنها هي التي عرفتني على روبرت فسك ، وجان لويزار ، وطارق علي وغيرهم . .

كانت نانسي بحق صديقة حميمة للجميع ، ولديها مسؤوليات أخلاقية مع أصدقائها ، بل كانت مختلفة عن كل الذين عرفتهم أوان ذاك ، فالمراسلون الآخرون الذين عرفتهم لم يكونوا سوى فقاعات من الألوان الزاهية ، وكان أكثرهم من المتكبرين والمغرورين والمتحذلقين ، أما هي فقد كانت مختلفة كلياً ، وقد اشتهرت بمصطلحها الذي أطلقته علي .

في الواقع لم يكن أحد من الصحفيين الأجانب يجرؤ على الدخول إلى العراق ذلك الوقت ، إنما أنا من كنت أكتب الأخبار والتقارير والريبورتاجات ، كنت أكتبها لأكثر الصحف الأوربية شهرة ، وكانت أسماء كتابهم الكبار هي التي تتلألأ على يسارها ، بينما في الواقع كانوا هم يجلسون في البارات والمقاهي الكثيرة في مدينة عمان أو في دمشق أو في

مكتبة الفكر الجديد

بيروت يحتسون البيرة المثلجة ويأكلون المقبلات الشهية ، لم يكن عملهم يتطلب الكثير من الجهد ، كانوا فقط يتصلون بي كي أذهب إلى بغداد ، أو البصرة ، أو الرمادي ، أو الموصل ، كي أكتب لهم هذه التقارير ، بينما هم يراقبون من بعيد وأحياناً يوجهون التقرير الوجهة التي يريدونها . كنت أتنقل بين أكثر الأماكن خطراً ، وأنجو من الموت مرة بعد مرة ، لكي أكتب التقارير وأحصل على المال .

ومن أجل توضيح أبعاد المهمة الجديدة في حصولي على عملي الأخير عن كمال مدحت علي ، أن أشرع علاقتي بجاكلين مغيرب التي كان لها أكبر الأثر في ذلك .

جاكلين مغيرب

كانت جاكلين مغيرب سيدة سورية تعيش في الطابق العلوي من منزل صغير في الحي المسيحي باب توما ، في دمشق . كان هذا المنزل الذي تقطنه قديماً جداً ، يحتل الطابق الأول منه ، أي في الواجهة ، فرن صغير يمتلكه شيعي لبناني اسمه جعفر ، قدم إلى دمشق من جنوب لبنان قبل ثلاثين عاماً ، وهو رجل كبير السن ولديه خمسة خبازين شباب - سوريين من مدينة الصالحية ، ومهاجرون عراقيون - يحضرون الخبز على الطريقة النجفية ، كما أنه يبيع في الفرن أيضاً مجموعة من المعجنات الساخنة على الطريقة اللبنانية ، يمكنك أن تشم ضوع رائحتها من مكان بعيد ؛ وإلى جانب الفرن هنالك حلاق درزي اسمر اسمه نبيل ، لديه ببغاء جميل جداً ، بلونين أحمر وأخضر وبذنب طويل جداً ، يقول إن عمه جلبه له من البحر الكاريبي ، وكان أحد الخبازين العراقيين يشاغبه صارخاً :

مكتبة الفكر الجديد

«ماذا يعمل عمك في البحر الكاريبي . . سمكة؟»

يتعلق هذا الببغاء على حبل طويل في باب دكانه ، ويطلق على المارة بعض التحيات بالإسبانية والعربية ؛ وهنالك أيضاً بار صغير ، عتيق جداً ، يملكه مسيحي من عائلة بطرس التي تقطن وادي النصارى في حمص ، وهي عائلة مشهورة فيما مضى بتحضير العرق وتقطيره ، يعلق صوراً على شكل بوسترات للعديد من ممثلات هوليوود ، ويحتل هذا البار الغريب جزءاً صغيراً من ركن المنزل الأيسر ؛ أما أنا فقد قطنت على مبعدة شارع واحد تقريباً من هذا المنزل الذي تقطنه جاكلين مغيرب ، وهو نزل كبير في وسطه نافورة صغيرة ، كنا نطلق عليه «كاتانيا هاوس» ، وهذا الاسم مأخوذ من اسم المرأة التي تديره : «كتانيا» ، وهي فتاة في الثلاثين من عمرها ، جميلة الملامح ، سمراء ، وبدينة تقريباً ، ترتدي الحجاب على الطريقة السورية ؛ أما ملابسها فقد كانت محتشمة ، وهي تدير المنزل منذ عشرة أعوام لمالكته المسيحية السورية التي تقطن في مدينة نيويورك في الولايات المتحدة ، وتسمي هذه المرأة نفسها كتانيا وهو اسم مسيحي ، لتوهم المرأة البعيدة بأنها مسيحية أيضاً . وطالما أن المرأة المالكة لا تراها مطلقاً ، وما بينهما هو التلفون ، وما ترسله لدى المحامي من إيجارات شهرية ، فقد ظنت هناك أن مديرة منزلها في دمشق هي من طائفتها .

كنت أحب باب توما جداً ، وكان سكني هناك يعيد إلي لحظات غائبة من حياتي في بغداد ، بسبب تشابه هذا الحي مع حي الكرادة في بغداد ، ولا سيما الوجود الدائم للأجانب ، والبارات ، والصخب الدائم من الصباح حتى الفجر ، وهنالك أيضاً الفوضى الصاخبة على الطريقة الشرقية ، حيث تتجاور أعمال ودكاكين متناقضة جداً : كوافيرات نسائية ، بارات رخيصة ، مطاعم شعبية ، وعلى مسافة شارع صغير من المنزل

مكتبة الفكر الجديد

هنالك محلات وبقالات مختلفة : باعة كعك وحلويات محلية متنوعة ، خبازون إيرانيون وعرب ، حذاؤون ، خياطون ، مكتبات صغيرة ، كنيسة بطراز حديث ، وعيادة أسنان ، وفضلاً عن النزلاء الذين يتغيرون بصورة مستمرة ولا سيما الطلاب الأجانب القادمون من أميركا وفرنسا وإيطاليا وحتى من آسيا ، يعيش في هذا الحي حرفيون مسيحيون ، وموظفون صغار من كل الطوائف ، ونجارون ، وخياطون ، ويهود فقراء ، وهنالك رسامون سوريون جعلوا من منازلهم متاحف راقية ، وهي تجذب كل مساء الطبقة الراقية في دمشق ، من عراقيين مهاجرين ومن سوريين ، وبين كل هذه الفوضى الأممية هنالك فنانون عراقيون : رسامون ، صحفيون ، مخرجون سينمائيون ، روائيون ، مصورون فوتوغرافيون ، راقصون ، موسيقيون ، ممثلون . . وكلهم يعيشون في منازل قديمة شبه متهالكة ، في أماكن مختلفة من هذا الحي الكوزموبوليتاني .

أما المنزل الذي أقطنه ، فكانت هنالك سبع غرف ، أو ثمان ، فقد يتحول المخزن إلى غرفة وأحيانا الغرفة الواحدة تتحول إلى غرفتين ، كانت التحولات الجارية لوجستية وتخص مواسم السياحة ووفود العراقيين ، وأشياء متعددة أخرى ، ولكن الثابت في الأمر هنالك ثلاث غرف في الأسفل ، وثلاث غرف في الأعلى فضلاً عن الباحة التي تقابل حوض النافورة ، وسط المنزل ، حيث توجد هناك على الدوام أرائك واسعة لينام فيها من يريد أن يمضي مساءه على هواء دمشق المنعش في الصيف ؛ وهنالك أيضاً مطبخ صغير بأدوات طبخ بسيطة ، وتواليتات مشتركة كنت أتقابل فيها دائما مع قاطني المنزل ، ولا سيما في الصباح .

كان يقطن في الحجرة الأولى من المنزل مخرجان سينمائيان عراقيان ، هما نزار وعادل ، وعلى مقربة منهما أختان قادمتان من اللاذقية ، تعملان

مكتبة الفكر الجديد

في شركة خياطة في دمشق، كانتا بغاية الجمال والأناقة، الأولى كان يطلق عليها قاطنو المنزل «الرومانتيكية»، لأنها كانت تجلس على الدوام ساهمة أمام الشباك، أو تجلس على الأريكة الواسعة في الباحة، أمام النافورة تمسك بيدها كتاباً، أما شقيقتها الأخرى، فكانوا يطلقون عليها، وعلى النقيض من لقب عادل المبتكر، لقب «الرمزية».

أما في الأعلى، أي الطابق الثاني، هنالك شاب عراقي غريب الأطوار، يقال إنه فيما مضى كان يعمل في المخابرات العراقية، أي مخابرات صدام، اسمه حلمي، ولا نعرف اسمه الثاني، فهو لم يكن يتحدث كثيراً مع القاطنين، ولكنه كان يقف على الدوام أمام مرآة خارجية قريباً من النافورة التي تتوسط باحة المنزل، ويظل يمشط شعره لساعات متواصلة.

أما الحجرتان الأخريان، فالأولى تقطنها المصورة والصحفية الأميركية شيرل ميندز، والأخرى يقطنها كريم، وهو إيطالي من أصل سوري يعمل في منظمات غير حكومية لمساعدة الفنانين العراقيين ولا سيما السينمائيين.

**

كنت في تلك الفترة دائم التردد على شقة جاكلين مغيرب هي وزوجها الطبيب حنا مغيرب، وهو طبيب سوري لم يكن ثرياً أبداً، ولكنه كان مضيافاً جداً، ولا يرفض طلباً لزوجته على الإطلاق، كان يحبها حباً جماً، مع أن نانسي بفضل نميمتها قالت إنه على علاقة بممثلة شابة أيضاً، كانت تقطن فيما مضى في كتانيا هاوس، دون علم زوجته، إلا أنه كان ينفذ كل طلبات الزوجة المثقفة الماركسية.

لقد أصبحت أنا، كما هي نانسي عودة أيضاً، من رواد جلساتها، أو

مكتبة الفكر الجديد

من المترددين الثابتين على شقتها كل خميس ، بل أصبحتُ أكثر حظوة لديها من الآخرين ، ففضلاً عن الزيارة الثابتة في مساءات كل يوم خميس من كل أسبوع مع مجموعة كبيرة من المثقفين السوريين والأجانب ، كنت ألتقيها مساء كل يوم أحد تقريباً في بار على مفترق طريق بين باب توما وباب شرقي ، أو كنا ندخن الأراجيل -هي وزوجها وأنا- على رصيف مقهى دومينو ، وهو مقهى شعبي يقع في الساحة الرئيسية لباب توما قرب مخفر البوليس ، إلى جانبه محل لبيع البيتزا ، غالباً ما ننهي سهرتنا بالعشاء عنده .

كانت جاكلين مثقفة متنورة ، تجيد الإنكليزية والفرنسية ، وتحمل شهادة محاماة من جامعة السوربون ، أما أفكارها فقد كانت شيوعية بالكامل ، وقد عملت أيام كانت في باريس مع الشيوعيين الفرنسيين حتى عودتها إلى دمشق ، غير أنها ولأسباب لا أعرفها ، لم تكن على علاقة وثيقة مع الشيوعيين السوريين ، ولكنها كانت تتعاطف مع الشيوعيين العراقيين إلى درجة كبيرة جداً ، ربما لأنهم على خلاف كل الشيوعيين العرب ، أسسوا مليشيات مسلحة من أجل تغيير السلطة ، فقد كانت جاكلين تؤمن إيماناً كاملاً بالثقافة الانقلابية ، وكانت تعتقد أن التغيير لا يمكن أن يكون من غير الكفاح المسلح ، وهكذا أصبحت ترعى من الشيوعيين العراقيين نخبة كبيرة ولا سيما من الفنانين والصحفيين .

كنت أجد لديها على الدوام مجموعة من المراسلين سواء الذين كانوا يعملون في بغداد وهربوا من هناك ، أو من الذين يعيشون في الخارج ويزورون دمشق من وقت إلى وقت . وهنالك طائفة أخرى تراها في شقتها ، ومن زوارها الدائمين : مخرجون سينمائيون ، رسامون ، شعراء ، كتاب سياسيون ، أما الفئة الأثيرة والتي لا تخلو جلساتها منهم فهم أبطال

مكتبة الفكر الجديد

حرب العصابات ، أو الذين قاتلوا مع الأنصار ، القوات الشيوعية التي اعتصمت في جبال كردستان لمقاتلة البعثيين ، أو لقتال القوات الحكومية حتى سقوط النظام ، ولهذه الحقبة التاريخية قصة مثيرة بالتأكيد .

**

في الواقع ، لم تكن جاكلين ترى فيَّ صحافياً كبيراً ، أو نجماً أدبياً ، ولكنها -وزوجها أيضاً- كانا يعتقدان أن ما أقوم به هو أكبر بكثير من قدرة الصحفيين الأجانب الميتة ، وغير القادرين على فهم المنطقة ، فلم يكونا ، لا جاكلين ولا زوجها ، على ثقة كبيرة بالغرب ، أو بالغربيين ، ولا سيما بالصحفيين ، وخصوصاً الأميركان ، وهي شكوك ربما اكتسباها من الأخلاق الشيوعية القديمة واستمرت في حياتهما لفترة ليست قصيرة ، مع ذلك فإن هذا الأمر لا يؤثر كثيراً لا على جاكلين ولا على زوجها ، فلم يكونا متعصبين ، وبالذات جاكلين ، كانت جاكلين مختلفة عن كل الذين عرفتهم ، لم أجدها يوماً كئيبة ، أو متشائمة ، أو كارهة ، لقد كانت طيبة إلى حد كبير ، ومحبوبة ، ولا علاقة لها بعالم الدسائس التي كان يقوم بها بعض الصحفيين .

ففي الشقة المتواضعة في دمشق ، أو الطابق العلوي من المنزل ، الذي كانا يعيشان به ، هي وزوجها ، تجد على الدوام جمهرة من الصحفيين والمراسلين والممثلين والمخرجين ، عرباً وأجانب من كل نوع وجنس ، ومن ضمنهم الأميركان أيضاً ، كانا ودودين جداً مع الجميع ، ويقدمان كل مساعدة ممكنة ، وهذه الشقة التي أزورها بشكل ثابت كانت مزدحمة بما لا يتيح لك مجالاً للجلوس ، ومن هذا الخليط الاجتماعي المذهل نعقد الكثير من المشاريع والأعمال الصحفية والأفلام ؛ فقد كان الصحفيون الأجانب برمتهم تقريباً -إلا قلة منهم طبعاً- يستقرون في بيروت ، أو في

مكتبة الفكر الجديد

دمشق أو عمان ، وأحياناً في كردستان العراق ، ويريدون عمل تقرير عن الاختطاف ، أو عن الحرب الطائفية ، أو عن العنف ضد المرأة ، أو عن القتلى مجهولي الهوية ، أو عن حرب المدن أو عن الجيش الأميركي ، وفي الغالب يمضون على الأقل ، أثناء رحلتهم إلى الشرق الأوسط ، مساء أو مساءين في شقة جاكلين وحنا مغيرب ، وفي الغالب ألتقي بهم ، ألتقي بهؤلاء الصحفيين الذين يبحثون عن بلاك رايتر ، ومن هنالك تتم الصفقة ، حيث يتم إرسالي هناك وأنفذ لهم كل ما يتعلق بالتقرير ، التقاط الصور ، الحوارات ، آراء الناس ، وحتى مقابلات السياسيين ، ولقاء ذلك كنت أقبض ثمناً ممتازاً على ما أقوم به ، ولم يكن يهمني أن التقرير كان يسجل باسم أحد الصحفيين الآخرين ، أو باسم الصحيفة ، أو باسم وكالات الأنباء ، أو أي شخص آخر ، ولكن جاكلين كانت تستاء كثيراً من ذلك .

مع ذلك هي التي كانت تعرفني عليهم ، فبفضل جاكلين كنت حصلت على الكثير من هذه الأعمال من الصحف والوكالات الأجنبية ، حتى اشتهرت بالأداء الجيد الذي كنت أقوم به ، وقد كلفتني أكبر الوكالات والمحطات التلفزيونية بكتابة تقارير وتصوير أفلام تحليلية ، وليست تقارير وريبورتاجات خبرية كما كان يفعل المراسلون ، فهم لديهم مراسلون محليون للأخبار اليومية ، ولكن كانت حاجتهم أكبر من ذلك ، فبدؤوا بتكليفي بمهمات كبيرة حتى أصبح دخلي المالي عالياً جداً ، أصبحت ملابسي أنيقة ، وأشرب البيرة في أفخم المطاعم ، ولي أصدقاء وصديقات كثر ، ومن وقت إلى وقت تتصل بي الصحف والوكالات الأجنبية لتكليفي بعمل ما في بغداد . .

**

مكتبة الفكر الجديد

حين تتوقف أعمالي الصحفية ، كانت جاكلين توظفني في مساع متعددة ، وأكثرها لتدبير أعمال للمثقفين العراقيين الهاربين من العراق ، أو لتهيئة سكن لهم مع بعض الأصدقاء ، أو لحل مشاكلهم الأخرى ، أو لتهريب من يريد منهم إلى أوربا للحصول على الجنسية والبقاء هناك .

ولدى جاكلين خبرة كبيرة في هذه الأشياء ، فقد كانت فيما مضى ، ولا سيما بعد ضرب صدام حسين للحركات اليسارية أواخر السبعينيات ، تساعد الشيوعيين الهاربين ، سواء بإيجاد مأوى لهم في دمشق وبيروت ، أو للمناضلين منهم وذلك للإعداد للثورة التي ستجعل من العراق أول بلد شيوعي في المنطقة ؛ وقد توسطت للعديد منهم ذلك الوقت من أجل الخلاص من جحيم بغداد ، وذلك عن طريقين اثنين ، الأول في الحصول لهم على عمل منتظم وبراتب ثابت في بيروت لدى منظمات التحرير الفلسطينية ، ولا سيما في الإعلام الفلسطيني الذي اجتذب عدداً كبيراً منهم ، كما كانت تساعد البعض الآخر على تلقي تدريبات عسكرية والذهاب إلى شمال العراق ، أي للاعتصام في الجبال وقتال القوات الحكومية بعد الالتحاق مع قوات الأنصار الشيوعية .

وعلى الرغم من أنها دخلت السجن في سوريا أكثر من مرة ، بسبب نشاطاتها التآمرية السرية ، إلا أنها لم تفلت منها معلومة واحدة تلحق الضرر بأحد رفاقها العراقيين من الشيوعيين أو قوات الأنصار ؛ فقد كان الشيوعيون في أوج صراعهم مع البعثيين ، بل كانت المواجهة في قمتها إبان ذاك ، والحرب العراقية الإيرانية قد وصلت الذروة ، والحركة الشيوعية تحولت إلى حركة مسلحة ، ومن الواضح أن الشيوعيين بأجنحتهم المتعددة كانوا وقتها يلتزمون خط سوريا في الصراع مع صدام ، وحين كان الهاربون من العراق لا يستطيعون الالتحاق بالجبال مباشرة ، بسبب الحصار الصارم

مكتبة الفكر الجديد

الذي فرضه صدام على كردستان ، فقد كانوا يهربون إلى سوريا كنقطة مرور دائم ، وكانوا في الغالب يحملون بطاقة معينة لجاكلين لتتعرف عليهم بصفتهم من الشيوعيين ، حين ذاك فقط تتولى جاكلين إيواءهم ، ومن دون البطاقة كانت تشك بالقادم بكونه من مخابرات صدام ، وقد حدثتني عن الكثير من الأشخاص الذين لم يكونوا سوى جواسيس ارتابت بأعمالهم .

**

في الواقع طرأت تغييرات شديدة على برنامجها بعد العام ٢٠٠٣ ، فتحولت من راعية وحامية للشيوعيين إلى راعية وحامية للصحفيين والكتاب ، ولا سيما بعد أن طالهم العنف بعد عام من دخول الأميركان إلى العراق ، فكانت تطلعني على بعض التعقيدات في خططها الخاصة بالعراقيين ، وكانت تطلب مني أن أقدم لها بعض المساعدات في هذه المهام ، فأعاونها في حجز غرف في فنادق بائسة ، نحشر فيها صحفيين ومصورين ، كل اثنين أو كل ثلاثة بحجرة واحدة ، حسب الظروف ، مرة تحايلنا على عامل فندق وحشرنا عشرة صحفيين في حجرة واحدة ، وحينما يكون عامل الفندق مصرياً فتكون مهمتنا دائما سهلة ، فالمصريون متعاطفون على الدوام مع الفقر وميالون على الدوام إلى تسهيل المهمات الإنسانية ، وأحيانا يتعذر وجود المال الكافي لدينا ، أو المكان اللازم فتجعلهم يبيتون في شقتها ، ولكثرة هؤلاء الذين يفضلون شقتها ، يتعذر أحياناً بقاءها هي وزوجها أيضاً ، فيغادران كلاهما إلى مكان آخر ، ريثما تدبر للقادمين الجدد مكاناً .

في الكتانيا هاوس . . كأنك لا تعيش في الشرق الأوسط . . إنها حياة غربية بالكامل ، شباب مثقفون ، عراقيون وغربيون ، رجال ونساء

مكتبة الفكر الجديد

يعيشون معاً ، من باحة المنزل تنطلق أصوات الموسيقى العالية ، أغاني بوب أو راب ، قديمة وحديثة ، أو موسيقى كلاسيكية عالية : فاغنر ، شوبان ، فيردي . . وفي الغرف تجد أهم الكتب الصادرة بالعربية أو بلغات مختلفة ، هنالك لوحات حديثة وقعها رسامون شباب ، أفلام مخرجوها وممثلوها يجلسون معك أو يضحكون معك وهم يتمددون على الأسرة ، وفي مساء كل يوم تقريباً ، يجلب كل شخص معه مشروبه المفضل ، وتبدأ حفلة الرقص على أنغام الموسيقى ، فالكتانيا هاوس هي محط اجتذاب الكثير من المثقفين العراقيين الشباب ، إنهم الجيل الثاني من الهاربين من جحيم بغداد ، كان الجيل الأول قد هرب من جحيم صدام ودكتاتوريته التي أطيح بها ، أما الجيل الثاني فقد هرب من الإرهاب والمليشيات والاحتلال والرقابة الدينية ، ومثلما كان الجيل الأول يرقص على أنغام أغاني البيتلز ، وكليف ريتشارد ، وشادوز ، ودورز ، ويتحدثون عن الثورة المسلحة والدولة الاشتراكية ، يرقص الجيل الثاني على أنغام أغاني الراب والهيب هوب ، أغاني الفيفتي سنت ، والأمنام ، وفيرغي ، وهم يتحدثون عن الديمقراطية وحقوق الإنسان ؛ وهنالك مشاريع الهجرة إلى أوربا ، عراقيون يذهبون مرحلة بعد مرحلة ، يهاجرون للانضمام إلى أصدقائهم هناك ولكنهم يبقون متعلقين بمن بقي في الداخل ولا سيما في دمشق ، وهكذا تعمل جاكلين على تسهيل حياة هؤلاء المولعين بالثقافة الغربية والموسيقى والحياة الحرة .

في الواقع كان يأتي من بغداد أيضاً ، عدد من الصحفيين والمثقفين الإسلاميين ، بعضهم سرعان ما ينخرط في موسيقى البوب ، وحياة الاختلاط ، ولبس الملابس الغريبة ، والزينات من كل نوع ، كما تراه بعد مدة وقد حلق لحيته وأطال شعره ، وأصبح أحد المنبهرين بالحياة الحرة في الغرب ، ومؤمناً بالقيم الغربية ، وبعضهم لا . . يبقى على حاله ، ولكنه

مكتبة الفكر الجديد

يتعلم نوعاً جديداً من الرفض الجماعي للمؤسسة البرجوازية ، ولكنها نزعة سلمية تصبو إلى متعة وفوضوية مروضة بحب الطبيعة والحيوانات ، ورفض الأخلاق التقليدية .

**

هنالك كل يوم تقريباً مناظرات ثقافية دائمة ، تجد الروايات العربية في حقائبهم ، وفوق فرشهم ، على الكومدينو موسيقى ليو فيريه أو جورج براسنس ، أحيانا تجدهم في صالات السينما الراقية ، يذهبون لأسبوع الأفلام الفرنسي أو الأميركي ، أما مرجعياتهم فهي مرجعيات الشباب المتمردين في كل وقت ، السهر في البارات والحدائق ، قراءة كتب طارق علي ضد الحرب وضد الإرهاب ، كما تجدهم في كل حشد ثقافي ، وسط جوقات حاشدة يرقصون على أنغام مغنين معبودين عظام وممسوسين ، أو تجدهم في صالات الديسكو ، حيث يعلون هذه القيمة كرمز لثقافة معادية للثقافة التقليدية ، أو تجدهم في المسارح مأخوذين بمقاطع من مسرحيات العراقي جواد الأسدي أو صلاح القصب ، حيث المسرحيات العظيمة تستحوذ على عقولهم ، ورؤية إخراجية جديدة تنحفر في الذاكرة بقوة .

مكتبة الفكر الجديد

-III-
صحفيون في دكان التبغ

في يوم من أيام الصيف الصاخبة ، كنت في شقة جاكلين وزوجها ألبير مغيرب ، هناك حيث نمضي أحد الأماسي الصيفية المذهلة ، وكانت الشقة قائمة على فوضاها وصخبها : نقاشات من كل نوع ، ضحكات ، رنات كؤوس ، كان هذا المكان يذهلني حقاً ويجعلني منشغلاً بالآخرين أكثر من الانشغال بنفسي ، فجأة صاحت بي جاكلين ، وقالت لي إن نانسي على التلفون وتريد أن تحكي معي . . فأخذت منها السماعة وصرت أصرخ بقوة ، وأطلب من الآخرين أن يصمتوا كي أسمع ، كان الصخب حولي عالياً جداً ، ومع ذلك كنت أصيح بسماعة التلفون : «نانسي . . شلونك . .؟»

جاء صوتها هادئاً عبر السماعة : «اتصلت بجاكلين أسأل عنك . . عندي لك شغل . . تعال إلى عمان بسرعة . . عندي عمل مهم . . لازم أشوفك . .»

«هسه . .؟» قلت لها متعجباً وأنا أحاول تهدئة الضجة المحيطة بي .

«أيه . . هلق . .» قالت بصوتها العذب ، فأجبتها :

«ما ممكن نؤجلها للصبح . .؟»

«لا . . تعال هلق . .» كان صوتها واثقاً ومتحمساً . . «هلق يعني هلق .»

مكتبة الفكر الجديد

عدت إلى الكتانيا هاوس ، وجدت الصخب على أشده ، والموسيقى عالية جداً ، طرقت الباب بقوة ، ثم فتحت الباب إحدى الفتيات الثملات . صعدت السلم مسرعاً ودخلت إلى حجرتي في الأعلى ، أخرجت صوري الفوتوغرافية من أطرها ووضعتها في الحقيبة ، ووضعت أيضاً بعض الكتب التي تلازمني دائماً ، كما وضعت بعض الأقلام في الحقيبة ، وحزمت الكامرة بكيس من الجلد ، وأخذت معي أيضاً أشياء صغيرة أخرى تمنحني نوعاً من المتعة ، أشياء صغيرة لا أهمية لها ، ولكنها كانت تمنحني الحظ ، أو هكذا كنت أعتقد ، مثل : كأس من خشب الصندل ، دواة فارغة ولكنها تحوي الرائحة المبتذلة للحبر ، خاتم قديم جداً لكنه فضي وله فص يلمع في الظلام . كنت أشعر أنه بعد دوامة العمل تأتي الأشياء الملموسة الدافئة ، حتى لو كانت هذه الأشياء هي أشياء سقيمة وفجة ، كنت أتفاءل باللون الأزرق ، فاشتريت شالاً أزرق ووضعته في الحقيبة ، حملت اللابتوب على كتفي ، والكامرة في رقبتي ، والمسجلة الصغيرة في الجيب الجانبي للبنطلون وهرعت إلى كراج السيارات ؛ كان علي أن أقف على الحدود ساعات . . أتحمل كل استجوابات ضباط الحدود . . من أجل أن أصل إلى عمان ، حيث تنتظرني نانسي عودة هناك . .

**

وصلت عمان مساء ، ذهبت بالتاكسي مباشرة إلى أوتيل صغير وجميل اسمه سيلكت ، وهو بناء بثلاثة طوابق من الحجر ، وبابه مصنوعة من الزجاج ، وفي أعلى الباب لوحة مكتوب عليها باللغتين العربية والإنكليزية سيليكت ، يقع هذا الأوتيل في جبل اللويبدة ، وضعت حقائبي ودخلت مباشرة إلى بار قريب من الأوتيل ، اسمه «نغرسكو» .

مكتبة الفكر الجديد

كان البار صغيراً إلى حد ما ، يقع في ضاحية راقية هادئة تقع على مقربة من الميدان الحيوي الصاخب لمدينة عمان ، غير أن هذا البار هو المكان الأثير الذي يتردد عليه الصحفيون والمراسلون ومحللو الأخبار الأجانب ، بل هو نقطة تجمع مراسلي الصحف الأجنبية ، والتلفزيونات ، والإذاعات ، ووكالات الأخبار ، وجميعهم يعملون في العراق أيام اندلاع الحرب قبل وبعد الأشهر الأولى من العام ٢٠٠٣ . لا يميز هذا البار أي شيء ، سوى أنه ذو طابع أميركي بطاولاته الخشبية ، ولوحاته التي تعكس ذوقاً وحشياً ، وموسيقى الجاز التي تتعالى منه ، ورائحة التخمر والأضواء الخافتة .

حين دخلت ، كان البار يعج بالصحفيين السكارى وبفوضاهم العارمة : ضحك ، أصوات كؤوس ، صياح ، نقاشات ، كانت المصابيح خافتة تقريباً ، ورائحة دخان السجائر والروائح الغريبة تفوح من منافض السجائر المليئة بالأعقاب وعيدان الثقاب المحروقة ، فوضى صحون الطعام والمازات تخبر عما يحدث في المكان ، وكان الندل يهرعون من هذا الجانب إلى ذاك الجانب ، لم يكن هنالك مكان لي كي أجلس ، تفحصت المكان ، فرأيت نانسي تجلس مع مجموعة من مراسلين عرب يعملون في محطة أجنبية على ما أعتقد ، وإلى جوارها صحفي عراقي اسمه فارس حسن كنت أكرهه كراهية مطلقة ، كان يتحدث بصوت عال جداً ، وضحكاته المجلجلة تملأ المكان صخباً .

كان انطباعي الأول عن هذا الصحفي سيئاً جداً ؛ فلم أكن أحب الاقتراب منه مطلقاً ، فهو ثرثار يتحدث على الدوام كخبير في شؤون الشرق الأوسط ، وريبورتاجاته عن العراق التي يبيعها لصحف أجنبية أكثرها ملفق ومبالغ به ، لم يكن بيني وبينه أي عمل ، ولم أكن أطيقه مطلقاً ، المرة الوحيدة التي تحدثت إليه بود هي المرة التي رأيته فيها في شقة

مكتبة الفكر الجديد

جاكلين مغيرب ، وقد حضر هناك برفقة سالينا قريشي الصحفية الأفغانية التي كتبت تقريراً شهيراً عن حركة طالبان بعد الاجتياح الأميركي ، وبعد ذلك ، سلم علي مرة في بار البوكس كافيه ، وسط مدينة عمان ، منذ عامين تقريباً .

**

وقبل أن ينتبه لوجودي أو تنتبه نانسي إلى وجودي كنت غادرت المكان ، اختفيت وراء الحاجز واجتزت الباب . وقفت قليلاً في الشارع قبل أن أقرر الذهاب إلى مطعم البيكاديلي ، وهو مطعم صغير على الطراز الإنكليزي يقع على مسافة قريبة من بار نيغرسكو في اللويبدة ، وهو أيضاً نقطة تجمع صغيرة لبعض الصحفيين والمراسلين الذين لا يجدون مكاناً في نيغرسكو . دفعت الباب ، ودخلت . وجدت اثنين من المراسلين الأجانب الذين أعرفهم ، وهما : صحفي أميركي طويل أشقر يعمل في الكريستيان ساينس مونيتر ، وصحفية ألمانية أظنها من أصل سوري تعمل في تلفزيون سويسري .

جلست معهما . كانا يتحدثان عن الموضوع ذاته ، أنهما لا يستطيعان دخول بغداد بسبب أخطار متعددة ، خصوصاً بعد عمليات الخطف والقتل التي طالت الصحفيين الأجانب بعد العام ٢٠٠٤ . بدأ النادل بإزالة الصحون والقناني الفارغة من الموائد ، وجددوا الطلب مرة أخرى ، لم يكن لدي ما أقوله ، وبدلاً من ذلك أخذت أنظر إلى المشهد الليلي من النافذة ؛ ما جذبني لحظتها هو إطلالة هذا المطعم الغامضة على شارع واسع ، وأنا جالس ، كان يمكنني أن أرقب ضياء القمر وهو ينير التلال الوعرة التي تحاذي المنازل الكبيرة والعمارات ، وهنالك أفق يمحوه الضباب ، ومصابيح تنير بأشعتها الطراوة المدهشة التي تقطر ببطء .

مكتبة الفكر الجديد

فجأة دخلت نانسي المطعم ، كانت ترتدي تنورة جينز قصيرة وقميصاً وردياً ، بينما كان زر الصدر مفتوحاً ، وبرفقتها فارس حسن بملابسه ذاتها التي رأيته بها قبل عام تقريباً ، جاكيت من الكتان لونه عسلي ، وبنطلون كاكي بجيوب كثيرة . تقدما نحوي ، عانقاني كلاهما ، وجلسا على الطاولة ذاتها بعد أن دبر لهما النادل كرسيين ، جلست نانسي إلى جانبي ، وجلس فارس حسن قبالتي ، كانت تبسم لي بعينيها الخضراوين ووجهها الأبيض المتورد ، أزاحت شعرها عن عينيها وقالت لي مباشرة : « جاءك . . عمل . . أيها البلاك رايتر . .»

«ما هو؟» أنا سألت . . وقلت لها هامساً إن كان هذا الحمار على علم بالموضوع . . وكنت أقصد به فارس حسن . . قالت :

« اسمع . . هناك موسيقي عراقي كبير . . قتل على خلفية غامضة في محلة المنصور في بغداد . . نريد تقريراً مفصلاً عن مقتله للتودي نيوز ونريد كتاباً لوكالة التعاون الصحفي . .»

قلت لها : «كمال مدحت؟»

«أنت تعرفه؟»

«كعازف هو مشهور جداً . . أما عن مقتله فقد قرأت عن ذلك في الصحف . . أعطيني بعض المعلومات وماذا تريدين بالضبط وأنا أجهز لك التقرير . .»

قالت : «هنالك شيء آخر مهم . .»

«ما هو؟»

«هذا الحمار الذي تكرهه سيصاحبك . .» قلت لها : «غير ممكن سأتخلى عن هذا العمل حتماً . .»

«لم يكن ممكناً غير ذلك . . أعرف رأيك به من الأول . . ولكن . .»

مكتبة الفكر الجديد

«صدقيني لا يمكن أن أعمل مع هذا البغل .لا يمكنني ذلك . .»
«ولكن هو اللي كشف بعض المعلومات المهمة عنه . .»
«ما هي هذه المعلومات التي عرفها هذا الغبي أبو رأسين ولا يعرفها غيره؟»
«شرح الأمر يطول . . غدا نلتقي نحن الثلاثة ونتناقش في الأمر . .»
«تناقشي أنت وهو بالموضوع . . واتركيني أرجوك . .»
«أرجوك اسمعني ولا تترك رأسك الصلب يتحكم بك . .»
«أنا أعمل مع هذا البغل . .؟» قلت لها ، بينما كان هذا البغل يطلق ضحكاته الجلجلة في الهواء ويتحدث مع الأميركي بإنكليزية تقرف البدن . .

كانت نانسي تعمل في وكالة تحليل أخبار ، أو ما يطلق عليها مؤسسة تعاون صحفي ، وهذه المرة تريد ريبورتاجاً صغيراً ينشر في صحيفة ، وبعد ذلك تريد كتاباً عن هذه الشخصية المثيرة . . وبعد ذلك صرنا نتحدث عن أشياء متنوعة ، دون ذكر الموضوع الرئيس الذي جئت من عمان للحديث عنه معها ، وبدلاً من ذلك أخذت تحدثني على طريقة الصحفيين ذلك الوقت ، حيث تبدأ بسؤال تعرف هي جوابه ثم تدخل لك في صلب الموضوع ، مثلاً :

«هل عملت في السودان . .»
أقول لها : «ذهبت مرتين . .»
فتتحدث لي عن تجاربها وحياتها عاماً كاملاً في دارفور . .
«هل يخيفك وضع الشرق الأوسط؟» سؤال كأنها تطرحه على سياسي ، ثم واصلت حديثها ، قالت إن ما يخيفها هنا هو أن بلدان الشرق الأوسط على شفير أن تتفكك وتنقصم ، أو تتطاير مزقاً ، وقبل أن تكمل

مكتبة الفكر الجديد

حديثها جاء الويتر ليسألنا عن طلباتنا .

شربنا مرة أخرى ، وكانت نانسي تتحدث ، بينما بقي فارس ينظر إلي من وقت إلى وقت دون أن يتكلم . يخرج علبة السجائر من جيبه ، يخرج السيجارة بعصبية يشعلها بعود الشخاط ، يهز يده ليطفىء العود ثم يرميه بعشوائية ، لا يهمه إن صار في المنفضة أم لا ، يضع كأس الويسكي أمامه ، يأخذ الرشفة بسرعة ثم يعيده إلى مكانه ، حين يتحدث كان ينظر في العينين مباشرة ، وإذا ناقش في موضوع لا يترك محدبثه يكمل رأيه مطلقاً ، هذا هو انطباعي الأول عنه ، وهنالك ما هو أهم ، وهو يخص العمل بالتأكيد : التقارير .

كنت أكره التقارير التي يكتبها بشدة ، حين كان يكتب تقاريره فهو يبالغ كثيراً ليجلب الانتباه لما يقول ، ليس لديه أدنى تعاطف تجاه الناس في الحرب أو تأثيرها المزلزل على حياتهم ، كان يكتب بصورة يظهر من خلالها التفوق على موضوعه بصورة قاسية ، لا بل كان يكتب عن الناس بازدراء كبير ، لا يهمه شعور أحد ، ولا سيما من القراء ، فقد كان يظهر مشاهد خشنة ، دموية ، قاسية ومتصلبة ؛ وحين يتحدث عن ما كان يحصل في العراق ، يتحدث بصوت عال ، وهو يشرب ويضحك ، مثلاً :

تحدث مرة عن جندي عراقي رآه ملقى فوق البلاطات وقد تهشمت أضلاعه ، وكان يصف أمعاءه وهي في يده ، كانت مدلاة من بطنه وكأنها معكرونة ؛ أما عينه فقد كانت على مسافة منه ، وحين تحرك فقد حمل يده من عند العتبة مثل عصا . هكذا كان يصف مشهداً من الحرب دون أن يعبأ بأثر هذا الوصف على الآخرين مطلقاً . . بل لم يترك مشهداً بشعاً لم يلتقط معه صورة ، انفجار في سوق شعبي ، بقايا معركة ، ولا يهمه إن كانت هناك الجثث المتفحمة متناثرة ، والنعال البلاستيكية في كل مكان ،

مكتبة الفكر الجديد

والدم الرائب على الإسفلت، والأحشاء البشرية مثل بقايا مبشرة الجوز، فهو يقف أمامها ويلتقط صورة . .

في الواقع لم أكن أعرف شيئاً عن علاقاته الغرامية، ولكن كلنا يعرف أنه كانت له علاقة مع فتاة برازيلية، اسمها باولا، تعمل في تلفزيون محلي في سان باولو، كانت خلاسية وطويلة جداً، لها جسد فتي ومتهيج على الدوام، وقد رأيتهما معا أكثر من مرة، في دمشق، في بيروت، في عمان، وبعد العام ٢٠٠٣ كنت رأيتهما معاً في بغداد، وقد أحدثا ضجة كبيرة في الأوتيل الذي نزلنا فيه حيث لم يكن يهمه مكان مضاجعتها، ومع حالة القلق التي اجتاحت العراق إبان الحرب، ومع حالات التمرد الكبيرة، والعنف والقتل، وتشكل الأحزاب والجمعيات، وحالات الفوضى، كان يذهب معها إلى أقرب حمام لمضاجعتها .

المرة الأولى التي جلست فيها على طاولة معه، كان جالساً يشرب الويسكي بصورة متواصلة في الكتانيا هاوس في دمشق، وكان يشرح لمجموعة من القاطنين في المنزل المرة الأولى التي ضاجع بها امرأة، وذلك حينما كان جندياً في الجبهة، لم أكن وصلت من البداية، ولكني وصلت وهو مستمر في الكلام، قال لهم إنها بدت مغلوبةً على أمرها وهي تهبط معه السلم، أما هو فقد أخذ يضيء لها بالتورج مواطئ قدمها، وبعد لحظات عاد ليمرر نور التورج على جسدها، حرك مشهد الفخذين الأسمرين المنارين رغبته، فرفعت ثوبها من جديد لتهبط السلم، مس بيده فخذها، فشتمته بصوت خافت، وبكلمتين اختارتهما كي تثيره، شعر فجأة برغبة جامحة في مضاجعتها، فالتصق بها، ولأن المكان لا يتسع إلا لاثنين، وكان مصباحه موجهاً إلى الأسفل، مد يده إلى جسدها، فتركت نفسها تنزلق إليه متعلقة بكتفيه، ولم يبد على المرأة الانزعاج بل وسعت

مكتبة الفكر الجديد

ابتسامتها لتصبح أكثر إثارة ، وبدلاً من أن تسحب نفسها منه ، تسللت يداها إلى رقبته ، وقربت وجهها من وجهه ؛ فاخذ هو يلتهمها بنظراته ، بلع ريقه ، بينما هي مدت يدها إلى الأسفل وفكت الزر الأول من بنطلونه ؛ ثم انفتح الزر الثاني ، فمد هو يده تحت الثوب المرفوع ليستكشف جسدها ، وقد شعر به ساخناً وأملس تحت أصابعه ، ومرتعشاً عند مداعبته ، وأصبحت أنفاسه أقصر ، فأسندت ظهرها إلى الحائط وشدته إليها .

هذا كل ما أعرفه عن هذا الصحفي كي أعمل معه .

**

كنت أويت إلى حجرتي في أوتيل سليكت ، كانت الحجرة نظيفة وصغيرة ، تقع في الطابق الأعلى من الأوتيل ، وهي مطلة على باحة واسعة ، مغروس في منتصفها شجرة صنوبر كبيرة وعالية ؛ جلست على كرسي قريب من النافذة ، وأخذت أتطلع إلى مشهد كنيسة جميلة تقع على مسافة شارعين ، فتحت جهاز اللابتوب وأخذت أكتب بعض الفقرات التي استوحيتها من لقائي الأخير مع نانسي ، غير أني شعرت بيأس كامل ، كنت أخشى أن أضيع هذا العمل من يدي ، لم يكن الأمر في نظري يتعلق بالمال هذه المرة ، ولكنني أحب هذا العمل بصورة شديدة ، مع أني كنت أنتظر وقتاً أفضل لكتابة رواية ، وكنت أمني النفس أن تكون رواية ناجحة تدر علي بعض المال ، أو تترجم وتنجح في الغرب وبذلك أحصل على مورد يمكنه أن يعين حياتي ، غير أني لم أفعل ذلك حتى الآن ، وذلك بسبب عملي في الصحافة أولاً ، كما أن علاقاتي وصداقاتي مع الصحفيين ، ولا سيما مع المراسلين ، ومخرجي الأفلام التسجيلية ، كانت أكثر بكثير من علاقتي مع الكتاب . إن كان علي أن أذكر حقيقة ، فقد كنت أكره سحنة الروائيين الميتة ، وحياة الشعراء التي تخلو من

مكتبة الفكر الجديد

الحياة ، كما كنت أتقزز من الحديث مع الأدباء الذين يجلسون في مقاه مملوءة بالدخان ، يدخنون الأراجيل ويتحدثون بصوت أجش عن : السيمياء ، والبنية ، وكل ذلك الحديث الممل الذي يلوكون به لوكاً .

مرة قلت لنانسي ذلك : «أنا أكره الكتاب . .»

«ماذا؟» قالت باستنكار تقريباً .

«أكره ملابسهم المعتنى بها ووجوههم الحليقة ، أمقت حياتهم الكسولة والمضجرة ، ومن البداية فضلت عليها حياة المراسلين الذين يخوضون في الحياة خوضاً ، ويذهبون للأماكن الخطرة» .

الآن أتذكر هذه الجملة التي قلتها لنانسي يوماً ، وعجزت نانسي أن تجد لي سبباً في ذلك ، ولكن ربما لأني كنت أحب السفر كثيراً ، وكنت أحب التنقل كثيراً ، فلا يمكنني أن أبقى في مكان واحد مدة طويلة ، كنت أحب أن أتنقل من مكان إلى مكان ، وأنا أنظر للحياة وهي تتغير وتتفجر ، كنت شغوفاً بالحياة شغف الكتّاب بالقفازات والأحذية والمال والكراهية التي كانت تنبعث منهم كما تنبعث رائحة القار ، رائحة تنبعث من كلام يخرج من أشخاص صدئت أرواحهم رغم ضجيج الشارع ، رغم الشذى اللذيذ والبرودة الرهيفة القادمة من زهيرة على الطاولة ، رغم ملابسهم المكوية النظيفة كانوا حبيسين في حجرات خانقة .

قالت هذا لا يعني أن الصحافة لا تجتذب أيضاً كمية من الكتبة الخطرين ؛ ويبدو لي أن عددهم أخذ يتزايد ، بل أخذ يفوق الكتاب عدداً ، وكلهم من هذه العملة الزائفة ، عملة أولئك الذين نراهم على الدوام يقفون أمام المجازر بدم بارد ، ليتحدثوا كما لو كانوا مصلحين اجتماعيين ، أو مرشدين جنسيين ، أو عملة أولئك الذين يكتبون تقاريرهم وكأنهم مالكو حقائق غير قابلة للدحض ، أو أولئك الذين يستندون على بعض الكتبة

مكتبة الفكر الجديد

الذين يحلون المشاكل الأثنية بطريقة حسابية ، أو الذين يقرؤون الديمقراطية طبقاً لأجندة المشايخ ورجال الدين . . أو أولئك الذين كلمة واحدة بحقهم تجعلهم مجرمين وممسوسين . .

**

كان صوت نانسي في التلفون حدثاً صادراً عن العناية الإلهية ، حقن صوتها مصلاً من الحنان في أمسيتي البائسة ، كان الوقت فجراً ، حوالي الرابعة أو الخامسة صباحاً ، وقد أخرجني رنين الهاتف من أحلامي مذعوراً . لقد رَن مرات عديدة إلى أن فتحت عيني ، ثم بحثت عن السماعة متلمساً ، رفعتها . . فجاءني صوتها حاداً وواثقاً : «لا تقطع المكالمة . .» . كنت أشعر بصوتها وهو يمتزج بنبرة توسل هذه المرة :

«بدي أحكي معك كلمة . .» قالت وصمتت .

«لا يمكن نانسي أن أعمل مع هذا الشخص . . لا يمكن . .»

«اسمع . . ما ممكن تروح على بغداد . . هناك مخاطرة كبيرة على حياتك . .»

«ذهبت عشرات المرات . .»

«هلق الوضع أسوأ . .»

قلت لها : «أنا جربت كل الأوضاع نانسي . . أعرف الأمور زين . .»

«لا تغتر بنفسك . .»

«وشيريد يسوي هذا الـ . . ما أقدر أسويه أنا . .»

«يا عزيزي هذا له قدرة فائقة على التعامل مع المسلحين ، إنه يتولى بعض الأحيان إدخال صحفيين وإخراجهم ، لديه علاقات . . الكل يعرف أنها مشبوهة ، ولكنه قادر على التعامل مع المسلحين ، فهو الذي يسرب للصحافة ما يريدونه من أخبار ، وأحياناً هو الذي يقدم التسجيلات التي

مكتبة الفكر الجديد

يعملونها للمحطات . . بيانات . . ذبح أحد الأجانب وجزه من حنجرته . . ومقابل هذا يحصل منهم على تسهيلات . . ستكون أكثر أماناً معه . .»

«أكثر أماناً مع هذا الذي يجلب كاسيتات أفلام تصور المسلحين وهم يذبحون صحفياً أو عاملاً أو امرأة تعمل ممرضة في مستشفى . . ماذا تقولين؟» .

«نعم يا صديقي مع الأسف هو يعمل ذلك . . ولكنه طيب ومفيد . . وأنا لن أدعك تذهب وحدك هذه المرة . . الوضع في أكثر مراحل خطورته . . لا يمكن أن تذهب . . وليس هذا رأيي فقط ، هذا رأي الوكالة أيضاً .»

كنت سعيداً لأنها كانت مهتمة بي جداً ، وكلما كنت أصرّ كنت أشعر بقلقها أكثر .

قطعتُ المكالمة ، لم أعد قادراً على إغماض عيني طوال ما تبقى من الليل ، ظللتُ مغموماً ، أشعر بالاستياء ، إلى أن رأيت طلوع الفجر شاحباً وكريهاً في سماء عمان ، كنت أراه من خلال نوافذ ستائر النافذة المفتوحة .

**

في اليوم التالي التقينا نحن الثلاثة في مطعم فخر الدين ، وهو مطعم فاخر في جبل عمان ، على هيئة قصر كبير بحدائق واسعة ، أما الطاولات فتنتشر في حجر متداخلة ، وهنالك فضاء دافئ وحميمي على الدوام . جلس فارس على كرسي من الجلد الأسود قبالتي ، كان هادئاً ذلك اليوم بشكل غير متوقع على الإطلاق ، لم أكن قد رأيته يوماً هكذا أبداً ، وكان مهذباً جداً ، ويتحدث بهدوء ، بل كان يرفع يديه كأنه يصلي وهو يطلب

مكتبة الفكر الجديد

من النادل أن يصب له الواين ، أما شكله الغريب فقد ذكرني بشخصية من شخصيات هتشكوك الشهيرة ، أعتقد أنه المحقق في فيلم الشباك .

وكنت أمام فكرتين اثنتين تلك اللحظة : إما أن نانسي عملت على تسكين وتهدئة حماقاته وثرثراته ، أو أن الصورة التي أحملها عنه لم تكن واقعية ، بل كانت هنالك صورة أخرى خلف هذه الصورة المقدمة عنه .

بدا لي فارس ذلك اليوم أشبه بريفي حديث يستجيب لتحديات اجتماعية كان يرغب فيها ويتوق إليها . . لم يكن شخصاً محبوباً ولكنه على الأقل أظهر لي مزاجاً متشرداً ، عاشقاً للطعام والشراب بشكل مذهل ، طويلاً جداً ولكنه أقل من عملاق ، لا يمكن أن يكون شعبياً من النظرة الأولى ، كما كان بطيئاً عند الإفصاح عن رأيه أو حين يكشف عن رأيه ، وفي هذه الجلسة كشف لي أن له شخصية أخرى هي شخصية أسعد زكي .

«ماذا أنت أسعد زكي . .؟» قلت له . . وكأني أقبض على أسعد الذي أصبح حضوره متعذراً . .

«ايه . . أنا أسعد زكي . .» قالها بفخر . .

«ولكن أسعد عاش في البرازيل .؟» قلت له محتجاً .

**

بمجرد أن نطق باسم أسعد زكي ضعفت العاطفة المتناقضة والعدائية التي كنت أواجهه بها ، بل وضعتها في الطاقة صفر تقريباً ، لماذا؟

كانت جاكلين مغيرب هي التي حدثتني عن أسعد زكي ، وكنت رأيت له صورة منشورة في مجلة كل العرب ، كان شابا نحيلاً له وجه شبيه بوجه السنجاب ، وعيناه غائمتان تقريباً ، كان مراسلاً بارعاً ، ذكياً ، وله علاقات واسعة مع الصحفيين القادمين من أميركا اللاتينية ، وقد قطن-إن

مكتبة الفكر الجديد

لم أكن مخطئاً- في الكتانيا هاوس ، في الغرفة ذاتها التي احتلتها فيما بعد الأختان القادمتان من اللاذقية ، بقي مدة من الزمن هناك ، ثم رحل إلى بيروت للعمل في الصحافة ، ثم في التلفزيون . هذا ما عرفته عنه ، ولكني لم ألتق به مطلقاً . وكنت رأيت له عشرات الريبورتاجات الصحفية في التلفزيون ، وكل من عمل معه كان يتحدث عن موهبة وإمكانيات نادرة ، فهو المصور والمونتير والمعلق والمحلل ، بل هو طاقم كامل في واحد ، كما أن شجاعته وجرأته كانتا مثار إعجاب الجميع .

لكن كيف اخترع له صورة . . وحياة أيضاً .

قال إنه هو الذي فبرك هذه الصورة ، وفبرك حياته أيضاً ، ليكون بمنأى عن أذى المخابرات العراقية ذلك الوقت . بعد قليل اكتشفت أن فارس حسن الاسم هو أيضاً مخترع ومفبرك . . إذن ما هو اسمه الحقيقي؟ اسم والده الحقيقي محمود زكي ، عمل زمناً طويلاً في المحاماة ، وهو على درجة من الثقافة ، اتهمته السلطات بالانتماء إلى الحزب الشيوعي ، وهي تهمة خطيرة جداً ذلك الوقت ، وأثناء حملة الاعتقالات والمطاردات الشهيرة ضد الشيوعيين التي قام بها صدام حسين ، ألقي القبض عليه ، سجن أكثر من عام ، وعذب بشكل وحشي من قبل السلطات ، وبعد إطلاق سراحه بفترة قصيرة تمكن من الهرب هو وعائلته إلى سوريا ، ومن هناك رحل إلى وارسو .

غير أنه لم يستطع البقاء طويلاً في بولونيا ، إذ لم يجد له عملاً منتظماً ، ولم يكن يستطيع الصمود طويلاً ، فقد كان يشعر أن هذه الأنظمة مهددة بالانهيار ، مع أنه بذل جهداً واسعاً لمواجهة حقيقة نهاية حلم الاشتراكية بمظاهر جديدة : التضخم الساحق ، البطالة الواسعة ، والانهزامية ، لكنه أراد أن يتفادى السقوط في حالة اليأس التي كانت

مكتبة الفكر الجديد

تهيمن على كل المهاجرين في زمنه ، وهكذا قرر الهجرة والعودة إلى العالم العربي ، وسرعان ما انتقل إلى بيروت ، عمل أول الأمر بائعاً في مكتبة صغيرة في ساحة رشيد الصلح ، ثم وجد عملاً آخر ، غريباً بعض الشيء ، ولكنه كان يدر عليه مبلغاً لا بأس به من المال ، فقد أخذ ينحت شواهد القبور ، وأشياء مصنوعة أخرى من المرمر ، كتذكارات ، فجمع مالاً كافياً للهجرة إلى البرازيل .

في سان باولو ، عمل والده في التجارة ، وقد نجح نجاحاً باهراً ، وأصبح من العراقيين الأثرياء ، وهي جالية صغيرة تعيش على هامش الجاليتين اللبنانية والسورية الكبيرتين وتندمج بهما ، وهناك تعلم (عماد) ، (هذا هو اسمه الحقيقي ، عماد محمود زكي) الصحافة ، إذ درس في البرازيل وفي جامعاتها ، ثم عمل في التلفزيون البرازيلي كمراسل متنقل بين بيروت ودمشق وعمان والدار البيضاء .

وهكذا كنت بين شخصيتين متناقضتين تماماً . . واحدة أحبها جداً وأخرى أكرهها ولا أطيقها . . وأعادتني هذه الفكرة مرة أخرى إلى شخصيات دكان التبغ .

لم يكن أمر تقبل هذا الأمر سهلاً علي ، غير أن نانسي مارست ضغوطاً كبيرة لتستخرج من فارس شخصية أخرى غير الشخصية التي أعرفها عنه ، كانت نانسي ذلك اليوم أشبه بدراماتورج ، تحاول أن تستخرج من هذا الممثل العظيم أفضل ما عنده ، فتسأله أسئلة متعددة عن نفسه ، تسأله عن أشياء سمعتها منه ربما عشرات المرات ، وكانت تحفظها لكثرة ما رددها هو أمامها ، ولكنها كانت مصرة على استخراج درره جميعها أمامي .

فسألته عن عمله كمراسل حربي في أفغانستان ، وعمله هناك في فترة نهاية حكم طالبان ، وقد شرح لنا تفاصيل زيارته لمزار شريف وقندهار ،

مكتبة الفكر الجديد

وزيارته للمعتقلات التي كانت تحوي على الكثير من المقاتلين العرب ؛ وفي تلك الفترة كنت أنا أيضاً موجوداً في قندهار ، غير أننا لم نلتق هناك مطلقاً ، وهكذا كان يتحدث هو وكنت أكمل أنا له حديثه ، أو كنت أتحدث أنا ويكمل هو لي حديثي ، حتى أصبح الحديث بيننا متناغماً ومتوافقاً جداً .

لقد حدثنا فارس بأشياء كثيرة ، والحق أقول مع أني كنت في قندهار وكابول ومزار شريف إلا أني لم أكن أعرفها مثلما هو يعرفها ، فقد كانت له قدرة فائقة على تذكر تفاصيل دقيقة ، لا يمكن أن تبقى طويلاً في الذاكرة ، يتحدث عن رذاذ المطر فوق قلنسوات المحاربين ، أو زيارته لبعض معسكرات الطاجيك بين ركام الثلوج ، وكان يعرف أسماء المرتفعات واحداً واحداً ، ولا يترك في حديثه وصف البغال وهي تحمل جليكانات الماء وتصعد الجبل ، ولا قوافل الجِمال وهي تدخل كابول ، وحين تحدث عن مزار شريف وصف المزار الذي يعتقد الأفغان أن الإمام علي مدفون فيه بدقة ، بل سحرنا بوصف الحمامات البيض على قبابه ، وتلألؤ حروف أفضل النقاشين في الإقليم على جدرانه وأقواسه المشكّلة ، كما أنه تحدث عن أسماء الساحات وبقايا التماثيل وإشارات المرور ، وعربات الخيول ، وأنواع الجِمال لنقل البضائع الثقيلة ، والحمير ، وكيف صعد مع الأفغان بأسلحتهم في سيارة جيب ودخل المعسكر .

**

كما كان يعرف أشياء سرية كثيرة لم يكن سهلاً عليّ التعامل معها هناك ، وكان على علاقة مع الجنرال روزي وهو من أمراء الحرب البارزين ، وكان على علاقة أيضاً مع الجنرال عطا أسود ، وهو الذي حمل رسالة من عطا أسود إلى الأوزبكي عبد الرشيد دوستم ؛ ثم تحدث عن الحرب الأهلية ، وأمراء الحرب ، وعسكرة البلاد ، وكان على الدوام حاضراً أو

مكتبة الفكر الجديد

شاهداً ، وكان أحياناً يقوم بأعمال ومهمات خارج واجبه الصحفي .

فقد كان يبسط الأمور أحياناً ، وأحياناً أخرى يقول أسراراً لم نكن نعرفها ، وفي تحليلاته نبرة مختلفة عن تلك النبرة الصحفية أو العلمية .

ومع أنه كان يتحدث ببساطة شديدة وبتحليلات دقيقة جداً ، إلا أنه حينما كان يتحدث عن نفسه كان يتحدث بطريقة إعلانية مضجرة ، وأعتقد أن نانسي أخبرته برأيي به ، فحاول ذلك اليوم أن يقدم لنفسه صورة غير الصورة التي كنا جميعاً نعرفها عنه ، وكانت نانسي سعيدة دون شك لأنها أثبتت لي أن ما أعرفه عن هذا الشخص هو محض هراء ، وأنه يتمتع بمواهب أخرى ، مواهب ليست عادية ، وليس كما كنت أتوقعها منه . . على العموم ، هذه هي المرة الأولى التي أتقبل فيها هذا الصحفي المغرور ، والذي ضعت بين شخصيتين من شخصياته ، واحدة أحبها جداً ، وأخرى أكرهها جداً .

ولكن من هو؟

تكلم ذلك اليوم عن ذكرياته وعن ريبورتاجاته التي نشرها في الصحف الأجنبية ، ومن طريف الصدف أنه عمل مدة من الزمن هو الآخر في مجال الإعلان ، أي إنه قام بكتابة إعلانات دعائية عن الرز المكسيكي ، وعن برك السباحة والساونا في فنادق الدرجة الأولى ، وتحدث عن الخدمة في فصل السياحة ، وقبعات السباحة ، وأدوات الصيد . . وعمل فترة من الزمن في صناعة أفلام الأطفال الكارتونية ، وربما بسبب هذا -كما يقول- اكتسب شعبية لدى الأطفال ، أي قبل كتابته لمقالات في صحف عربية وأجنبية متعددة ، وقبل انتقاله للعمل في محطات تلفزيونية معروفة ومشهورة . . وكلها كانت بأسماء مستعارة . . أما ما وجدته شيئاً مشتركاً بيننا : فإن فارس حسن كان يريد هو الآخر أن يكتب

مكتبة الفكر الجديد

رواية ، أو على الأقل كان يعتقد نفسه أنه كاتب أكثر مما هو صحفي ، وهذه صفة ملازمة للعديد من الصحفيين الذين كانوا يرون الكتّاب في رتبة أعلى منهم .

قلت له : «أنت تعتقد هذا الاعتقاد العادي . . أن الكاتب أحسن من الصحفي . .» قلت له ذلك ، دون أن أذكر له شيئاً عن نفسي ، أو على الأقل لم أذكر له بأني أنا أيضاً أعتقد ذلك ، غير أنه لم يدافع عن هذه الحجة ، بل اعتبر الأمر وكأنه أمر حقيقي وواقعي ولا جدال فيه ، أو أنه أمر مفروغ منه ، ولكنه بدلاً من ذلك ذكر لي أن السبب الرئيس الذي جعله يعمل في الصحافة ، هو أنه لا يريد أن يكسب عيشه من عمل لا علاقة له بالكتابة ، كان يريد أن يكسب عيشه من الكتابة ، مهما كان نوع الكتابة . . «كما أن الصحافة» قال «علمته حرفة التحرير» وهذه ستخدمه بشكل جيد في كتابة رواية مهمة . . وللمرة الأولى أشعر فيها أنه يتكلم بأسلوب واقعي ، أسلوب يصور به ما يريده تصويراً ، بل كان يصور الأحداث بدعابة وسخرية كبيرة ، سخرية معززة بحالة نفسية من اليأس . . وهذا الحديث قربني من هذا الشخص الذي كنت أكنّ له احتقاراً كبيراً من قبل . .

**

التقينا اليوم التالي باجتماع عمل ، كان ذلك في مطعم الكانفاس في حبل اللويبدة ، وهو مطعم راق لا يقترب منه الصحفيون مطلقا بسبب أسعاره ، كانت نانسي تسميه المقصلة ، وكانت تطلق على نذله بالجزارين ؛ وكنا جلسنا في حديقة خارجية نشرب النبيذ ونأكل السمك المشوي ونناقش الأمر من جميع وجوهه ، والآن أذكر كم كانت معلوماتنا عن هذا الموضوع شحيحة ، لم يكن أحد منا يعرف عنه أشياء كثيرة مطلقاً ، كان

مكتبة
الفكر
الجديد

الحديث عنه في البداية جافاً، متعثراً، أشبه بشخص يخوض في أرض موحلة، نانسي تتحدث وتصمت لأن قليلاً من اللقاح الأصفر الذي تنثره أشجار الربيع يتعلق بحواجبها ورموشها . . . تمسح رموشها بورق الكلينكس، تصمت، ثم تلتفت لنا . . فارس حسن يمسح وجهه كمن خرج من حوض الاستحمام، وبحركة غير متوقعة من جسد طويل ضامر مثل جسده، قال: «فلنذهب سريعاً إلى بغداد» .

ومن ثم انتقلنا إلى بار النغرسكو، حانة الصحفيين التقليدية في عمان، كنا نشرب وسط صخب المراسلين الذين يدخلون ويخرجون، وسط ركض الندل من مكان إلى مكان وهم يحملون الكؤوس والزجاجات والصحون، وهنالك كاميرات، وأوراق وحقائق ووجوه متعددة وذقون، وشعر طويل، وأضواء خافتة، ورائحة تخمر قوية، وصياح، وأحاديث متنوعة، وصخب عال، وتداخل لغات، وهو المكان الذي كنت أحبه كثيراً . نانسي إلى جانبي، وساقها كانت تلامس ساقي، وكنت أتحدث معها وأنا أضع كتفي لصق كتفها وأومض لها في عينيها تقريباً، وكانت تشعر بي، تشعر بأنفاسي الحرى، وبلمساتي الصغيرة، وبكلماتي التي أعتني باختيارها كي أثيرها، وكانت تضحك بقوة وتمسح جبينها .

كنا نتحدث دون شك عن الموسيقار العراقي القتيل، كنا نتحدث عن رحلة بغداد، وعن المعلومات المتوفرة، من وقت إلى وقت، وسط الصخب والصياح، وفارس يجلس أمامنا وهو الذي يتولى الطلبات، والكلام مع الندل، وكأسه في يده كما لو كان يمسكها بإصبعين، والسيجارة بين إصبعين ويصيح على واحد هناك أو واحدة تجلس على مقربة، ويتركني أدس رأسي قرب رأس نانسي لأذكرها بشيء بيننا، وفي الغالب بعلاقتنا حينما كنا في بيروت، إلى أن هدأ المطعم تقريباً، وأخذ الصحفيون

مكتبة الفكر الجديد

يخرجون سكارى إلى فنادقهم ومنازلهم .

فعدنا بإلحاح من نانسي إلى الحديث عن كمال مدحت .

**

في اليوم التالي رحل فارس إلى بغداد على أمل أن يهيئ لي مكاناً في موقع الوكالة في المنطقة الخضراء ، في بناية قريبة من الأسوشيتد بريس ، أما أنا فقد بقيت في عمان ومن هناك بدأت برحلة البحث عن المعلومات ، كان علي أن أعد بيوغرافيا صغيرة عن كمال مدحت ، ثم أعد خرائط تفصيلية للعواصم التي عاش فيها ، وهي بغداد وطهران ودمشق ، وأن أحضر خرائط أيضا لهذه العواصم في السنوات التي عاش فيها كمال مدحت ، وأن أقيس التغيرات التي حدثت في تلك المدن .

عدت في الظهيرة إلى الأوتيل ، وحالما دخلت البهو رأيت نانسي جالسة في الزاوية تنتظرني مع سائقها ، رأتني أدخل فهرعت نحوي ، قالت لي إن فارس قد وصل بغداد وهيأ كل شيء هناك ، وهو يستقبلك في المطار ، ثم قدمت لي بطاقة سفري ، وبطاقة عليها بعض المعلومات المهمة ، وباجاً يعلق بخيط أزرق في الرقبة وهو بطاقة الصحافة ، عليها شعار الوكالة والختم والتصريح . كانت نانسي متعبة جداً ، كأنما تقلبات الجو في الشرق الأوسط قد وهجت وجهها ويديها ، وعلى الرغم من أنها في الثلاثين من عمرها ، إلا أن تجاعيد شعرها الناعمة بدت وكأنها بلون الرماد ، كانت أشبه ما تكون في جنازة ، متعبة شاحبة وعصبية ولم تتوقف عن التدخين مطلقاً ، وقد أثار هذا الانطباع أشياء غريبة ومتناقضة في نفسي . قلت لها إننا من المفترض أن نلتقي في المساء لنسهر معا قبل سفري ، غير أنها اعتذرت بسبب عمل لها سريع في دمشق .

وهكذا كنت في الفجر قد رحلت بالطائرة إلى بغداد .

مكتبة الفكر الجديد

-IV-

المدينة الامبريالية وحانات الزمرد

«وين سفرك؟ . .» قال لي وهو يقف على بوابة صالة المطار بشاربه الكث الذي يخفي شفتيه، وبيريته الزرقاء التي يدنيها على جبينه .

«بغداد . .» قلت له وأنا أضع حقيبتي على الأرض . فز قليلاً ، ونظر في عيني مباشرة وسألني :

«شو بتشتغل . .؟» .

«صحفي . .!» قلت له ذلك ، وأريته البطاقة التي أحملها بقيطان أزرق على صدري .

فتشني بيديه بدقة ، جاس على ظهري وكتفي ، وبين ساقي ، ثم أمرني أن أخلع حذائي أيضاً ؛ خلعت حذائي ، وقمصلتي الكاكية ، ونظارتي ، وموبايلي ، وحزامي ، وقطع النقود المعدنية ، ووضعتها كلها في صحن من البلاستيك ، رصاصي اللون ، ثم مررها ، ومررني بعدها من البوابة الإلكترونية ؛ كانت هنالك امرأة تحمل حقيبة جلدية فاخرة ، تسير مع رجل يرتدي بذلة بيضاء وربطة عنق حريرية ويضع في إصبعه خاتماً من الذهب ، أجنبي يضع في فمه سيجاراً ، وشخص آخر يضع بين أصابع يده اليمنى مسبحة الصلاة ، ويتحدث مع شرطي ضخم منغرس في مقعد جلدي .

وضعت حقيبتي الجلدية السوداء الصغيرة ، وكامرة فيديو من نوع

مكتبة الفكر الجديد

سوني DCR-TRV461E ، ووضعت مساند الكامرة على عربة صغيرة بعجلات ، وأخذت أدفعها أمامي ؛ سرت مسرعاً نحو منصة خشبية في الصالة ، رفعت رأسي إلى أعلى الجدار الذي أمامي ، كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل ، وقد كان عمال المطار ببذلاتهم الزرق على المصطبات الخشبية يجلسون ويتثاءبون . بعضهم كان ممدداً ، والبعض الآخر كان غارقاً في النوم ؛ وصلت المنصة الخشبية فحملت حقائبي ووضعتها على الميزان ، قطعت لي موظفة المطار بطاقة البوردنغ ، وأشارت لي بالذهاب إلى ضابط الجوازات ، سرت نحو المنصة البيضاء ، فجأة سمعت النداء الأخير لطائرة بريطانية متوجهة إلى قبرص ، جعل هذا النداء أحد المسافرين يقفز بخطوات سريعة ويجتاز المنصة .

**

قدمت جوازي لموظف المطار ، أخذ يقلبه يميناً وشمالاً ، كان وجهه الأسمر عابساً ، ونظراته غريبة ، تأخر تقريباً وهو يقرأ جوازي ، ثم سألني عن جهة سفري ، قلت له : «بغداد . .» ، دون أن أزيد كلمة واحدة ، ثم شعرت بأن الوقت قد طال تقريباً ، فبدأت أتململ أمامه ، رفع رأسه ونظر إلي نظرة خاطفة ، ثم ختم الجواز بسرعة وناولني إياه ، تنفست الصعداء ودسسته في جيب قمصلتي ، حملت حقيبتي الصغيرة ووضعتها على كتفي وسرت . كانت صالة مطار عالية في عمان مزدحمة بجنود المارينز الذاهبين إلى العراق .

جلست على مصطبة خشبية وأخذت أرقبهم ، تجمعوا في مكان واحد تقريباً وأخذوا يتكلمون بأصوات عالية ، بل كانت أصواتهم حادة ومتقطعة تشبه صوت كرة مرتدة في لعبة التنس . . ملابس مرقطة ، شعور محلوقة . أجساد ضخمة ، يحملون الصرار الكاكية والأكياس على الظهور ،

مكتبة الفكر الجديد

بعضهم يتمدد على الأرض ، والبعض الآخر يجلس على المصطبات ، ومن الواضح أنهم سيكونون معنا على الطائرة ذاتها الذاهبة إلى بغداد .

عند الحاجز الخشبي ، كان ثمة موظفون حكوميون سيصعدون معنا أيضاً إلى الطائرة ، كانوا يرتدون بذلات أنيقة وربطات عنق ممتدة ، ويحملون حقائب السامسونايت ؛ ثم ازداد عدد المسافرين ، فانضم لهم عدد من رجال الدين باللحى والعمائم السود وهم يمسكون مسابح طويلة بأيديهم ويكرون بها ، ووقفت على مقربة منهم نساؤهم المحجبات ؛ أما من يجلس على المصطبات فقد كانت عائلات تتهيأ للسفر إلى بغداد أيضاً ، يتكلمون اللغة الإنكليزية بطلاقة وبلا لكنة ، ومن الواضح أنهم من العائلات العراقية التي كانت تعيش في أوربا وأميركا في الفترات السابقة ، وهم يعودون إلى بغداد بعد أن عاد بعضهم وأخذ يعمل في الحكومة الجديدة : صبايا بالبناطيل الجينز والتيشرتات الجميلة ، شباب بملابسهم الحديثة ، وقصات شعرهم الغريبة ، وهم يدورون بين المسافرين بثقة عالية ومرح وكأنهم ذاهبون إلى حفلة ، ذلك أن وجهتهم الحقيقية هي إلى المنطقة الخضراء ، مقر الحكومة والسفارات الأجنبية ، وليس إلى المنطقة الحمراء وهي أخطر منطقة في العالم .

أما الأجانب الآخرون من غير المارينز فهم من العمال الآسيويين : فلبينيين ، أو ماليزيين ، أو باكستانيين . . وهؤلاء يعملون في القواعد العسكرية الأميركية : كمنظفين ، طباخين ، عتالين ، غسالي صحون ، مكوجية ، بائعين ، وخدم من كل نوع . وهناك آسيويون آخرون يرتدون بذلات سوداء ، وربطات عنق نحيفة متدلية ، من الواضح أنهم يعملون في الحراسات الخاصة ، حراسات رجال الأعمال والمقاولين والمستثمرين المغامرين .

**

مكتبة الفكر الجديد

كان الجميع يتحرك حركات بطيئة ، وهم يتقدمون من الصالة البعيدة نحو فاصل خشبي بخط ذهبي عريض ، وعندما دخلنا الصالة كان الحشد يتسع ويتنوع كثيراً : رهبان يرتدون المسوح الدينية السود ، ويجلسون على المصطبة البعيدة ، أحدهم شعره أبيض مثل القطن ، يرتدي طاقية سوداء صغيرة ، يدير رأسه لامرأة جالسة على مقربة منه وهو يصغي لصوت طفلها العابث . أكراد بشراويلهم وملابسهم المميزة ، وعلى مقربة من الحاجز كان ثمة امرأة طويلة تقف مستندة إلى الحائط ، شكلها مثير ومغر ، بنطلونها ضيق ، قميصها ذو لون وردي خفيف يكشف عن تكورات صدرها . . وضعت على الأرض ستاند الكاميرة وجراباً طويلاً أزرق فيه معدات متنوعة ، ومن هيئتها تبدو أنها مراسلة . . لا أعرف أين رأيتها من قبل . . ولكني شاهدتها في أكثر من مكان .

في الزاوية الأبعد ثمة مجموعة من المسافرين يتحركون ، وكنت أسمع منهم همهمات عصبية المزاج . . وإشارات ، وما إن كنت أرقبهم حتى دخل من البوابة الصغيرة حراس بلاك ووتر الأميركيون وهم يحملون حقائبهم وأمتعتهم ، فرؤيتهم تخطف الأنظار ، لا يمكنك أن تخلطهم مع أحد آخر ، لا بسبب ملابسهم المميزة فقط : بناطيلهم المنتفخة ، وقمصانهم السود المفتوحة من عند الصدر ، إنما بسبب أجسادهم البطولية المميزة : زنودهم العارية الكثيرة العضل ، وجلودهم النحاسية اللون ، وصدورهم العريضة وهي تتقدم إلى أمام ، ورؤوسهم الحليقة ، كأنهم ممثلون في أحد أفلام الأكشن الأميركية . .

**

فجأة لاح لي شخص أعرفه ، يعمل في تلفزيون محلي ، كان يتحدث مع هذه الصحفية التي رأيتها وهي تعلك بشكل مثير ، وترتدي بنطلوناً

مكتبة الفكر الجديد

ضيقاً ، كان يكتسحها بجمله السريعة المتلاحقة ، حين رآني رفع يده لي مبتسماً ، فاتجهت نحوه ، ما إن وصلت إليه حتى قدمني لهذه المرأة ، وذكر لي اسمها بصوت خفيض . «نرمين حيدر . .» ، لا أدري أين سمعت باسمها ، ولكنه كرر لي أنها مخرجة أفلام وثائقية ، قلت لها : «ربما رأيت لك فيلماً فيما مضى . .» . لا أعرف فيما إذا كان هذا الصحفي يعرفها منذ زمن بعيد ، أو تعرف عليها اليوم ، فكانت تشعر بنوع من الانقباض منه ، مع ذلك جرها من يدها وذهب بها إلى السوق الحرة ، وعاد بعد نصف ساعة محملاً بأكياس عديدة : مشروبات ، عطور ، أربطة ، مسابح ، حلي صغيرة ، سكارفات ، كتب دينية . . قال لي إنه اشتراها لتسهيل مهماته كصحفي في بغداد .

مرت حوالي ساعتين ونحن في الانتظار ، ليس هنالك من نسأله عن سبب التأخير ، وكان هذا الصحفي الذي نسيت اسمه يتصل بأشخاص عديدين في بغداد ، يسألهم بعض الأسئلة الأساسية التي تخص الفندق الذي سيقطن به ، ويطلب بعض التسهيلات لعمله في بغداد ، كان يمسك الموبايل ويتحدث ، بينما يمتزج صوته مع أصوات المسافرين الآخرين . ثم ذهب مسرعاً نحو الكافتريا ، حمل أكواب قهوة بصينية ، أعطاني واحداً ، وأعطى نرمين كوباً أيضاً ، وتوقفنا عند الحاجز نشرب ونثرثر بأشياء عابرة .

**

في الطائرة كان التزاحم أشد ، لأن المقاعد دون ترقيم ، وأخذ المسافرون ولا سيما من العائلات ورجال الدين مقاعدهم ، وضعنا الحقائب الصغيرة والأكياس في الرفوف العلوية ، ثم دخلت أنا أولاً وجلست قريباً من النافذة ، بعد ذلك اندفع هذا الصحفي الذي لا أعرف اسمه وجلس إلى جانبي ، ثم جلست في الطرف الآخر نرمين حيدر ببنطلونها الضيق

مكتبة الفكر الجديد

وقميصها الذي يكشف عن تكورات صدرها ، رفعت يدها ولفت شعرها الذي كان ينسدل على الأكتاف بأستيكة من المطاط ، ثم تناولت بعض الأوراق من حقيبتها الصغيرة ووضعتها على ركبتيها ، وكان قد جلس بالاتجاه ذاته على الكراسي الموازية لنا ، ثلاثة جنود مارينز عائدين من الإجازة ، ومن الواضح أنهم من أصل مكسيكي ، يتضح ذلك من سحنتهم ومن لغتهم التي يتكلمون بها ، وجلس أمامنا جنديان أيضاً من جزر فيجي ، وجلست مجندة بدينة إلى جانبهما ، كانت شقراء تلف شعرها بشد كاكي ، وقد تركت قمصلتها المرقطة مفتوحة بينما ارتدت تحته فانيلا كاكية ، وعلى الكراسي القريبة منا جلس شباب من العائلات العراقية وثلاث مجندات ، كانت واحدة منهن شقراء بعينين زرقاوين ، طويلة جداً ، تحمل وشماً صغيراً على ذراعها ، وكان هنالك ضابط أسود يقف إلى جانبها ويحدثها ، ومن الواضح أن كرسيه في مكان آخر ، ولكنه يستغل أكبر وقت ممكن للتحدث معها قبل أن تحلق الطائرة ، وكان يحشر نفسه إلى كرسيها ، كلما مرت المضيفات بسرعة ، وهن يرحن ويجئن لإتمام الإجراءات قبل أن تأخذ الطائرة مكانها في الإقلاع . .

**

كنت أتممت شرب علبة البيرة المثلجة ورميتها فارغة في كيس أسود قربي ، فالتفت الصحفي الذي أجهل اسمه وسألني فيما إذا كنت أريد واحدة أخرى ، لقد وافقته ، فمد يده في الكيس الكبير وأخرج علبة أخرى ، فتح سدادتها وناولني إياها ، كان جدارها بارداً وعليها قطرات ندى صغيرة .

«وين راح تسكن» سألني وهو يمسح جبينه بالمنديل :

«فارس حسن تعرفه . .» قلت له .

مكتبة الفكر الجديد

قال : « نعم»

«هو راح يجي للمطار ويأخذني معه . .» .هكذا تخلصت بسرعة من سؤاله ، ولم أسأله عن وجهته أبداً ، لذا أخرج منديلاً من جيبه ومسح به فمه ، وأخذ يشرب من علبة البيرة التي في يده ، وفي اليد الأخرى كان يمسك كيساً من شبس الليز الحار بعلامة الفلفل الأحمر ويلتهمه ، بينما أخذت أنا أشرب من علبة البيرة المثلجة ، ومن وقت إلى وقت يهز لي كيس الشيبس المتبل والمرسومة عليه الفلفلة الحمراء ، فأمد يدي في الكيس ، أقبض على كمية وأضعها في فمي ، وأعاجل بشرب البيرة الباردة لأتخلص من لسعته الحارة .

لم أجب هذا الصحفي الذي لا أتذكر اسمه ، ولم أكشف له عن مهمتي الأصلية ، ولكي أهرب من فضوله تظاهرت بأني نائم ، حتى جاء نداء الطيار بشد الأحزمة للهبوط .

في الواقع كان الهبوط مرعباً ، فقد دارت الطائرة دورات لولبية شاقولية وهي هابطة إلى أسفل ، لكي تبقى في محيط المطار ، لأن بعض المسلحين كانوا يستهدفون الطائرات المدنية في حالة هبوطها التدريجي بصواريخ ستريلا وهي صواريخ روسية محمولة على الكتف ، وبعد أن حطت الطائرة وتوقفت نهضنا جميعاً من أماكننا ، كانت السماء تمطر مطراً ربيعياً غزيراً ، وكان جنود المارينز والآسيويون أول من هبط من سلم الطائرة نحو صالة المطار وهم يتذمرون من المطر ، ما عدا المجندة الشقراء ذات الوشم ، وقد ساعدها شاب على حمل حقيبتها الثقيلة ، رفعها لها كي تضعها على كتفها ، شكرته دون أن تنظر في وجهه ، وطلبت من الآخرين أن يفسحوا لها المجال ثم اندفعت بسرعة هابطة إلى الأسفل ، وهكذا تحرك الحشد أمامي ، فاستدرت كي آخذ الصحف معي ، أخرجتها من السلة ووضعتها

مكتبة الفكر الجديد

في حقيبتي ، ثم دست علبة البيرة الفارغة مكانها ، وأخرجت من حقيبتي الجلدية الصغيرة جواز السفر والموبايل ووضعتها على كتفي ، ثم خرجت من الطائرة .

توقفنا نحن الثلاثة ، الصحفي الذي أجهل اسمه ، ونرمين مخرجة الأفلام الوثائقية وأنا في الدور ، فقد ذهب الجنود والضباط المارينز والعمال الآسيويون من جانب آخر ، إلا المجندة ذات الوشم فقد تأخرت بسبب حقيبتها الكبيرة التي حملتها على ظهرها ، إلا أنها لحقت بهم أخيراً ، وقد رافقها الضابط الأسود وخرجا من المكان الذي نحن فيه ؛ كان الطقس رديئاً ، بقعة منبسطة خضراء ، وجملون بارز ، وأطلال طائرة محطمة من زمن الحرب لم يرفع حطامها بعد ، والكل يركض ما إن وضعوا أقدامهم على الأرض حتى انطلقوا للباص للاحتماء من المطر .

كانت نرمين تتحدث طوال الوقت مع عائلة مكونة من شابتين الأولى سمراء ترتدي بنطلوناً ضيقاً جداً يكشف عن الساق حتى الركبة ، والأخرى أكثر جمالاً منها ، إلا أنها كانت بدينة تقريباً ، ترتدي تنورة مربعات وقميصاً أزرق ، وتلف شعرها بشرابة زرقاء تشبه لون عينيها ، أما الأم فكانت في الخمسين من عمرها ، نحيفة وأنيقة جداً ، شعرها طويل ترميه على كتفيها ، ترتدي نظارة طبية دائرية ، وتحمل كتاباً بالإنكليزية في يدها ، قالت لنا إن زوجها صحفي أيضاً ، يعمل في صحيفة صادرة حديثاً في بغداد ، وهم يعيشون في استوكهولم منذ عشرين عاماً ، وعادوا للعيش في بغداد بعد سقوط نظام صدام حسين ، وكانت تتحدث عن مصاعب الحياة وتعقد مقارنات بين بغداد قبل عشرين عاماً وبين الآن ، وفي الحقيقة لم أكن مهتماً كثيراً بحديثها ، ولم أكن أصغي لها ، إنما كنت من وقت إلى وقت أتابع بنظري زحام المسافرين وأجناسهم داخل المطار ، وأنظر من

مكتبة الفكر الجديد

الزجاج العالي إلى الفضاء، فقد انحسر جزء من الغيوم، وأخذت أشعة الشمس تلقي بدفئها وضوئها على الجندي الأميركي الذي يقف وهو يحمل سلاحه وينظر نحونا، بينما من الجهة الأخرى كان المطر يهطل بصورة متواصلة؛ ثم أصبحنا بالدور على كيوسك الجوازات، نظر ضابط الجوازات بابتسامة لي وختم الجواز بسرعة دون أن يقول لي شيئاً.

سرنا خطوات في الصالة ثم وقفنا جميعاً أمام حزام الحقائب الذي كان يدور ببطء، والأعين شاخصة نحوه، بعد ذلك جاء ثلاثة من الموظفين طوال ونحيفو القامة من جزر فيجي، تصطحبهم كلاب مدربة على اكتشاف مادة الـ«تي إن تي» الشديدة الانفجار، فساروا حول الحقائب بكلابهم التي تتشممها واحدة بعد أخرى، ثم خرج من البوابة المقابلة لنا أحد الجنود وهو يرتدي ملابس خاكية، اقترب منا وهو يزر قميصه، تفحص أوراقنا وجوازاتنا وسمح لنا بالمرور نحو صالة أخرى، كان زجاج الصالة عالياً جداً يكشف عن حديقة كبيرة مزروعة بالأشجار المثمرة وأشجار الصفصاف، ومحاطة من كل جوانبها بسياج مشبك يصعب اجتيازه، فضلاً عن أنه لا يمكن للمرء الخروج منه إلا من خلال بوابة تحرسها نقطة للمارينز تقف أمامها سيارة الرتل الخاصة.

كان فارس يقف بانتظاري في الصالة، وأنا أدفع عربة بعجلات عليها حقائبي، وإلى يميني نرمين وهذا الصحفي الذي لا أعرف اسمه يدفعان بعربتيهما أيضاً، فرآني ولوح بيده لي من بعيد، فلوحت له بيدي أنا أيضاً، وحين اقترب مني صافحني، ثم صافح هذا الصحفي الذي برفقتي ببرود كامل، وصافح نرمين بحرارة، وتوقف معي ليترك هذا الصحفي مع نرمين مستمرين بدفع عربتيهما إلى الأمام، وحين التفتا نحوي أشرت لهما بيدي مودعاً.

مكتبة الفكر الجديد

قال فارس : «هل تعرفه . .» يقصد الصحفي .

«لا . . ولكنه سألني عن مهمتي . . ما قصته؟»

«شخص مشبوه . . لا أحد يعرف ما هي قصته» .

كان فارس يحمل بيده فنجان قهوة اشتراه من كافتريا المطار ، يرتدي سروالاً خاكياً ، لم أره به من قبل ، بدا وكأن وزنه نقص بمقدار معين ، وقامته قد تضاءلت ؛ بدا مختلفاً ، ربما أصبح شاحباً قليلاً ، وعظامه قد برزت بفعل التعب وكأنه في شيخوخة مبكرة ، وظهر أن كل ما فيه صار قاصراً حتى بدا وكأنه لن يستطيع إتمام هذه المهمة ، لكن حركاته السريعة ، تبدو من الحيوية كما لو كانت لشخص آخر ، لم يكن يطيق الوقوف ، وحين ذهبت إلى مكتب الصرافة لتحويل بعض الدولارات إلى الدينار العراقي أخذ يمشي دون توقف دائراً حول لا شيء ؛ أما القهوة الساخنة فقد أتمها بثلاث رشفات سريعة ، كان يشربها كما لو كان يشرب شراباً سحرياً ، دون أن يقول أية كلمة ، وقفنا بالدور أيضاً للخروج من باب ضيقة ، من الجهة الأخرى كان الجنود المارينز يقفون بالدور أيضاً ، وجوههم الحليقة ، شعورهم الشقر ، صدروهم المفتوحة وهم يحملون الأكياس الخاكية ، وأمامهم موظفة لم تكف عن الابتسام ، بينما كان أمامنا موظف عابس بوجه شاحب ، وشعر لم يمشط ، يبدو أنه استيقظ من النوم تواً ، وهو يتثاءب على الدوام .

خرجنا من المطار ، كان الميكروباص من نوع كيا رصاصي اللون باستقبالنا ، يتكىء على بنيدها سائق بدين وهو يدخن سيجارته ، كان شعره حليقاً ، ببنطلون عريض ، وقميصه يزره من أعلى دون ربطة ، ولم يحلق ذقنه ، وضعنا حقائبنا وأغراضنا بسرعة على كراسيها الخلفية ، صرخ فارس : «اللابتوب معك» .

مكتبة الفكر الجديد

«نعم . .» قلت له ، قال : «لا تضعه في الصندوق» .
«الكاميرة وين؟»
«معي أيضاً . .» ، قال : «ضعها معك على المقعد الخلفي» ، بينما حمل هو حقيبته الصغيرة على ظهره ، والسيجارة في فمه ، وهو يعدل نظارته من وقت إلى وقت بإصبعه على أنفه ؛ جلس في المقدمة ، وأنا جلست على المقعد الخلفي ، وانطلق الميكروباص بسرعة ، استقبلتنا قواطع كونكريتية عالية ، وحواجز شاهقة بارتفاع أربعة أو خمسة أمتار ، كانت قد رسمت عليها رسوم متنوعة ، أبطال أسطوريون ، أشجار وطيور سمان ، منازل فخمة وأشياء ملونة متعددة لتخفي خلفها الصورة الجامدة للإسمنت والكونكريت ؛ كانت هنالك أنوار باهرة منبعثة من مصابيح كهربائية معلقة هنا وهناك بدأت تنطفئ ، مع صعود الشمس واشتداد نورها ، وكنا نرى لوحات معلقة من الكارتون ، لافتات تموج واهنة في تيار من الهواء الهاب ، نداءات سياسية متعددة بعضها ضد الإرهاب ، وبعضها يحرض على السلم الأهلي ، وبعضها الآخر يطالب بالانتخابات ، وهنالك صور لسياسيين ورجال دين من كل الأحجام ، الصفة الغالبة على ما هو موجود هي البوسترات أو الملصقات السياسية والإعلانية ، بعضها مستنسخة من الثقافة الثورية والمرئية الإيرانية ، وتتكون من أشكال جريئة وألوان شديدة السطوع للغاية ، مثل اللون الأحمر ، والأخضر والأسود وهي الألوان المقدسة في الإسلام الشيعي ، وكثيراً ما تشتمل هذه البوسترات على الكتابة ، كنوع من تلازم الكلام مع الصورة لإحداث أكبر قدر من التأثير ، أما نوعيتها فهي شكل من أشكال فن الكيتش أو الفن السوقي والمبتذل الذي كان سائدا في زمن صدام ، وربما أنتجتها ورش فنانين هواة هم أنفسهم كانوا يملأون الساحات العامة بهذا الفن فيما مضى ، ولكن هذه

مكتبة الفكر الجديد

البوسترات الجديدة تقوم اليوم بإعادة تعريف القيم الثقافية والاجتماعية في العراق ، وتعبر عن عصر هيجان جديد ، وهي من جهة أخرى نوع من الاحتجاج السياسي ، فهي داخليا قائمة لتشويه جدران المباني التي شيدها نظام صدام كرموز لتدعيم سلطته وهيمنته .

**

في الطريق كانت أرتال من السيارات السوداء تمر ، ورجال ببذلات سوداء ونظارات سوداء يحملون الأسلحة ويهبطون أحياناً بسرعة ، وبصورة حازمة يصوبون مسدساتهم نحو أية عربة تقترب منهم ، قال فارس : «بلاك ووتر» هكذا وصمت ، وهي شركة أميركية لرجال الحراسات الخاصة بالسفارات الأجنبية والشركات الأمريكية التي تعمل في العراق . . .

كانت معالم شوارع بغداد ممحوة بسبب الحرب ، نهر دجلة جفت مياهه ، الأزهار ذابلة ، الأشجار محترقة الأغصان ، الهواء مملوء بالتراب ، الحدائق ذبلت خضرتها ، بنايات ومنازل بدت بعيدة عن الانسجام ، الغبار يغطي الأشجار الباهتة الخضرة ، زبالة مركونة ومتراكمة على الأرصفة ، مطبات وحفر تدور فيها المياه الآسنة ، قواطع كونكريتية عالية يظللها سعف أصفر ذابل ، وأشجار برتقال يابسة وقد خبت رائحتها ، أما رائحة الموت فقد كانت في كل مكان ، صورة الموت تغطي كل شيء ؛ زجاج النوافذ الذي تكسر من أصوات الانفجارات ، الجدران الجانبية المشققة ، والشوارع التي سودها دخان الانفجارات .

**

ما إن وصلت الميكروباص التي تقلنا إلى جدار إسمنتي عال وسميك حتى عرفت بأننا سندخل المنطقة الخضراء ، توقفنا عند نقطة تفتيش اميركية تعد مدخلاً لأهم منطقة في الشرق الأوسط ، فهنالك جدران

مكتبة الفكر الجديد

موضوعة بصورة متقاطعة ، تمر بينها الميكروباص بصورة زاكزاك ، ويقف عند النقطة مجموعة من الجنود الأميركيين بكامل بزة الميدان يصوبون مدافعهم الرشاشة نحونا ، بينما يسير السائق بهدوء ويتبع التعليمات التي توجه له ، حتى توقفت السيارة على مقربة من الكيوسك الخشبي الذي أطل منه جنديان طويلان جداً ، يرتديان ملابس المارينز ، أمرونا بالهبوط من السيارة ، وحين ترجلنا ارتفعت ثلاثة طائرات هيلكوبتر من طراز ١٣٠ أس أم الحربية من وراء السياج الكونكريتي ، كانت أصوات مروحياتها تخفق مثل طبل ، وتستدير إلى جهة الشمال وتبتعد مثل حشرات سود في البعيد ، كانت الشمس قد اشتد نورها ، وكان اللون الطيني الذي يهيمن على الحياة وما يتصل بها في بغداد يختفي ، ويحل محله لون الخضرة الزاهية ، كانت الساعة في يدي تشير إلى الثانية عشرة ظهراً ، ودرجة الحرارة قد قاربت الثلاثين ، وكان الهواء الرطب يهب بنسمات منعشة من جهة النهر ، ويحرك السعف الذي تتحرك ظلاله أمامي ، تقدم العريف الأميركي لينظر إلى وجوهنا واحداً واحداً ، ثم أخذ يتفحص جوازاتنا وما نحمله من هويات وأوراق ، السائق أولاً ، فارس بعده ، وأخيراً وضع مدفعه الرشاش على كتفه وتناول جوازي بيده ، لم يكن وجهه ظاهراً بشكل كامل بسبب خوذته الحديدية ، والسير الذي يحد ذقنه . وقف ، ومن خلفه أربعة جنود آخرين يتفرسون بوجوهنا ، قال لي :

«ما هي مهنتك . .» وهو ينظر نحو وجهي ويتفحص الصورة في جوازي .

«صحفي . .»

«بطاقة الصحافة . .» قال لي دون أن ينظر إلي ، فناولتها له .

«منذ متى أنت خارج العراق؟»

مكتبة الفكر الجديد

«منذ عام كنت هنا . .»

هز لي رأسه ، ناولني الجواز وبطاقة الصحافة ، وأمر أحد الجنود بتدوير الكلب المتخصص باكتشاف المتفجرات حول سيارتنا ، ثم مررنا جميعاً من بوابة إلكترونية .

مسافة خطوات ملتوية أخرى بين جدران إسمنتية وأسلاك شائكة حتى انطلقنا في شارع واسع ومعبد ونظيف جداً ، تظلله الأشجار الكثة الخضراء ، لقد دخلنا فجأة إلى مدينة حديثة جداً ، بل هي مدينة أقرب في انتمائها إلى الميدل ويست منها إلى الميدل إيست ، وبعد أن اقتربنا من استدارة صغيرة وسط المدينة اجتازتنا سيارتان سوداوان اندفعتا داخل بوابة حديدية كبيرة ، وتوقفتا أمام مبنى واجهته حجرية ، فهبط من السيارة الأولى رجلان بملابس رسمية ، ومن الثانية هبط حراسهما بسرعة ، وهم يرتدون الملابس السود والنظارات السود أيضاً ، وكان الشارع برمته مملوءاً بالمباني الفخمة ، والسيارات الراقية ، والحراس ، وكاميرات المراقبة .

توقف الميكروباص أمام بناية حديثة ، وصعدنا مع الحقائب إلى الطابق الثاني ، ثم تبعت فارس إلى شقة أنيقة ، مكونة من ثلاث غرف مؤثثة بشكل جيد ، مع صالة واسعة ومؤثثة بأثاث غربي وستائر ، ومكتب خشبي ، ومكتبة كبيرة ، وشرفة خارجية جميلة .

قلت لفارس : «بكم أجرتها؟»

«بألف دولار» قال وهو يدخل حقائبي إلى حجرة من المفترض أن تكون حجرتي ، فيها سرير ومنضدة وخزانة ثياب ، وكرسي . دخلت الحجرة وراءه وجلت بنظري فيها ، ثم خرجت لأجلس على أريكة جلدية سوداء واسعة تقع تحت النافذة مباشرة ، وأخذت أجيل بنظري في الصالة ، بينما دخل فارس إلى الحجرة الثانية وجاء بمحفظة كبيرة ، وقال : «هل

مكتبة الفكر الجديد

تشعر بالجوع؟» .

«نعم . .»

«سنذهب إلى بار هنا ومن ثم نذهب إلى وكالة التعاون الصحفي والأي سي ميديا آند نيوز» .

حانة الخوارنة parsons pub

وما إن خرجنا إلى الشارع ، سألته : «لقد تغيرت المنطقة الخضراء كثيراً . . هل توجد هنا حانات جديدة . .؟»

قال وهو يسير : «توجد هنا سبع حانات ، وديسكو ليلة الخميس ، بار رياضي ، حانة بريطانية ، حانة فوق السطح تديرها جنرال إلكتريك ، وحانة مقطورة تديرها شركة بكتيل . . .»

«أيهما تفضل . .؟» قلت له .

«هنالك حانة جيدة تسمى الخوارنة parsons يمكننا الذهاب إليها فهي مفتوحة على الدوام للعراقيين» .

«عراقيون فقط . .» .

«لا . . يأتي إليها ناس من أجناس مختلفة . . ولكنهم في الغالب من الصحفيين»

ثم مررنا من حانة جميلة ، فسألته عنها ، قال ، هذه هي الحانة الأفخر ، وهي مؤثثة بالخيزران ، الشائعات بين الصحفيين تقول أنها حانة وكالة المخابرات المركزية المعروفة بـ«حانة أو جي أي» ، ثم التفت إلي مبتسماً وقال «هذا هو الاسم الكودي لوكالة المخابرات المركزية» .

«هل هي راقية؟» كنت أريد أن أعرف فيما إذا كان قد دخلها من قبل ، فقال : « نعم دخلتها مرة كضيف ، فيها ساحة رقص ، وكرة ديسكو

مكتبة الفكر الجديد

دوارة مغطاة بالمرايا، وغرفة ألعاب» . وبعد أن سرنا مسافة كان هنالك محل بيتزا، ومطعمان صينيان، ومطعم ماكدونالد، ولم نسر طويلاً حتى وصلنا إلى بار الخوارنة . قبل الوصول إلى البار شاهدت خيمة كبيرة نصبت في موقف سيارات، من الواضح أنها كانت محطة بنزين فيما مضى، وهي أحد أماكن الاستراحة الأكثر إثارة في المنطقة الخضراء، كما قال لي فارس، ويجمع هذا المقهى مزيجاً عشوائياً من جنود المارينز والسياسيين والمترجمين والمراسلين الصحفيين، الذين يأتون هنا لتغطية المؤتمرات الصحفية، ونحن نسير بالقرب من الخيمة، كان يمكننا أن نرى مجندات أميركيات يرتدين الملابس المرقطة ويدخن الأراجيل، وعلى مقربة منهن مدافعهن الرشاشة، ومقاولين مغامرين يقهقهون وهم يشربون البيرة، وخبراء الإستراتجية وهم يرتدون أحذية الصحراء الخفيفة، والقمصان البيض والسراويل الخاكية، يشربون البيرة أو يلعبون لعبة المخاطر الرسك وهي لعبة طاولة الهيمنة على العالم، فجأة قفزت من بين الجالسين نرمين حيدر التي كنت معها في الطائرة هذا اليوم، وتقدمت ببنطلونها الجينز وقميصها المفتوح الذي يكشف عن تكورات صدرها، تقدمت وصافحتنا، وقالت لي: «ها .. إنت هناه ..»، فسألتها عن الصحفي الذي كان معها، فقالت لي: «لا أعرف كيف تخلصت منه ..»

«طيب نحن رايحين على البار نريد أن نتغدى ونشرب بيرة .. ومن ثم نذهب إلى وكالة التعاون الصحفي والأي سي ميديا آند نيوز .. تجين معنا ..؟»

صمتت قليلاً، ثم قالت: «ما يخالف أجي بعدين ..»

دخلنا البار، كان على شكل كوخ، شبه معتم من الداخل، وما إن تجاوزنا البوابة الرئيسية حتى اقترب منا حارس أسود من جنوب أفريقيا .

مكتبة الفكر الجديد

كانت لهجته صعبة الفهم ، وطلب منا أن نسجل أسماءنا في سجل الضيوف . كانت الحانة جميلة جداً ، أشبه بالحانات الشعبية في لوس أنجلس وميامي ، تتكون من صالة بمناضد وكراسي عديدة ، وعلى الحائط رقعة نبال ، كان أحد الموظفين الأميركان يمسك بيده كأس البيرة ويضرب بالنبلات واحدة بعد أخرى عليها ، وفي المقدمة ثمة برميل بيرة خشبي موضوع لصب الدرافت ، وكانت الحانة نفسها كبيرة ، مزودة بغرف عديدة ، وهنالك عدد من الغارسونات السود يقفون وراء البار الخشبي ، وخلفهم قناني الخمور بكل أنواعها ، وعلى اليمين هنالك غرفة خلفية صغيرة جداً تضم مخزن مشروبات كحولية ، حيث قناني الويسكي والفودكا والنبيذ ، وتباع تقريباً بضعف أسعارها خارج المنطقة الخضراء .

توقف فارس على حافة البار وطلب كأسي بيرة ، وكان سعر كل واحدة منهما دولارين .

«هل ستكتب كتابك عن كمال مدحت هنا في بغداد . .»

« سأكتب الجزء الخاص ببغداد هنا ، وخصوصاً بعد أن أمر على الوكالة فلديهم بعض الوثائق المهمة» ، قلت له وأنا أمسح فمي بالمنديل من زبد البيرة على شفتي .

«هل دورك في هذا الكتاب عن كمال مدحت هو بلاك رايتر؟» ، قال لي .

« لا . . أبداً . . سيكون الكتاب باسمي هذه المرة» ، قلت له ذلك فهز رأسه موافقاً ، ثم أكملت وأنا أمسح فمي : «أنت تعرف أنا كتبت العديد من التقارير باسمهم ، لكن هذه المرة أريد أن أكتب هذا الكتاب باسمي . .» ثم بدأت ، لا أعرف كيف ، بالحديث عن مقارنة تفسيرية لصورتين كانتا تهيمنان على عقلي ذلك الوقت ، صورة التبغجي كما هي

مكتبة الفكر الجديد

في قصيدة بيسوا ، أو كما أسميها أنا حارس التبغ ، وصورة البلاك رايتر ، قلت لفارس إن كل واحد منا يطور في داخله شخصيتين ، واحدة يولد بها مثل شخصية حارس القطيع في دكان التبغ ، والأخرى يتخذها لنفسه مثل شخصية المحروس ، ولكن قلة من الناس الذين يتمكنون من منح الشخصية الثانية اسماً وعمراً مختلفاً وتأريخاً متمايزاً عن الشخصية الأولى ، أي أن تصبح مثل شخصية ريس . ولكن ما هو نادر حقاً هو أن نجد من يتمكن من ولادة شخصية حارس التبغ ، كامبوس ، هذا الذي يعيش متبطراً على حساب الشخصيتين الأخريين ، يسافر كي يجلب التبغ ، ثم يحرسه ، ويدخنه ، ويعيش بقية حياته منتشياً على غيمة بين سحابات الدخان . .

كان نقاشي ذلك اليوم مع فارس حسن عن ديوان دكان التبغ مثل هذيان ولم يكن هو قد قرأ القصيدة بعد ، قلت له : «اقرأها . . » وأنا أشرب كأس البيرة . . ومع ذلك أتممت حديثي الهذياني معه ، وقلت له أنا أعتقد أن عمل البلاك رايتر هو غير عمل حارس التبغ تماماً ، ربما حارس التبغ هو الوحيد الذي يثرى بشخصيتين اثنتين ، بينما شخصية البلاك رايتر هي الشخصية المسحوقة على الدوام ، هي الغائبة الوجود كلياً ، وظاهرة في وجود آخر لا يمت لك بصلة ، إنما تشعر بنفسك مثل وجود فارغ ، تشعر بنفسك وأنت تعيش بخواء مطلق . . وما إن كنت منغمساً بشرح نظريتي حتى دخلت نرمين المكان ، وكان البار قد ازدحم برواد كثيرين ، وقفت على طولي وأشرت لها ، تقدمت نحونا ، وجلست إلى جانب فارس بمواجهتي ، رفعت يديها وشدت شعرها بالأستيكة ، وهذه هي المرة الأولى التي أنظر وجهها بدقة ، كانت جميلة ، تقاطيعها ناعمة ، شعرها أسود كث ، وأنفها ناعم جداً ، بينما شفتاها الغليظتان منحتاها تعبيراً مثيراً .

«تشربين شيئاً . .» سألتها . .

مكتبة الفكر الجديد

«بيرة . .» قالت مبتسمة .

كان فارس هو الذي سألها عن عملها الذي تعمل به الآن ، قالت له إنها تعمل في محطة تلفزيون البي بي سي ، وتعمل لصالحهم فيلماً وثائقياً عن بغداد . وبعد ذلك تعرفنا من نرمين حيدر على الكثير من أسرار المدينة الخضراء ذلك اليوم ، قالت لنا هنالك أكثر من نوع باج يتيح للقاطنين هنا التنقل بها ، الباج هو مفتاح المنطقة الخضراء ، فعلينا أن نحصل أولاً على باج (الأي دي) وهو خاص بالصحافة العسكرية ، مليتاري بريس ، والآخر هو الأنترنشنال زون ، الاسم الرسمي للمنطقة الخضراء ، الأول لونه أحمر أما الثاني فلونه وردي ، والوردي هو الأفضل ، ولا يحمله هنا سوى الأميركيين بطبيعة الحال والمسئولين الحكوميين .

كانت نرمين تشرب وتحدثنا عن حراس المنطقة الخضراء ، «فهم الأخطر في العالم» قالت ، «إنهم قوة مخولة بالقتل . . فعليكم الابتعاد عنهم بمسافة كافية . .» .

بعد ذلك شرحت لنا نقاط التفتيش واختلاف كل واحدة عن الأخرى ، فالقريبة من سكننا يسيطر عليها الجورخا وهم قوات الحراسات الخاصة القادمون من النيبال ، وهم شرسون جداً ، والبعيدة يسيطر عليها عناصر الحراسات الخاصة الأيرلندية .

«وعلى العموم . . السكان هنا متنوعون جداً» قالت .

«كيف يعيش العراقيون هنا . .؟» سألتها ، فقد كنت أزور المنطقة الخضراء من وقت إلى وقت دون أن أتعرف عليها جيداً ، ولكن من الواضح أن ملاحظات نرمين حيدر كانت خصبة جداً .

قالت : «هنالك سوء فهم دائم ، المترجم وهو من دارسي الأدب الأميركي والإنكليزي يعتقد أن الجندي أو الضابط الأميركي على معرفة

مكتبة الفكر الجديد

بالأدب والثقافة . . وإذا به يقابل شخصاً أمياً بكل معنى الكلمة ، ومن هنا تنشأ العداوة ، الأميركي يعتقد أن هؤلاء الناس كلهم من الجهلة والأميين وحين يفاجأ بنفسه لا يعرف شيئاً أمام شخص يعرف أكثر منه بثقافته ، والعراقي الذي كان يعتقد أن الأميركي يعرف والت ويتمان وجون شتاينبك ، يجد أمامه أمياً لا تتعدى معلوماته المجلات الجنسية وأخبار الرياضية . . ومن هنا ينشأ الصراع . .»

ثم تحدثت عن النساء العراقيات ، قالت : « لدى المرأة العراقية على الدوام صورة موهومة عن الأميركي أخذتها من أفلام هوليوود ، حينما تأتي هنا تعتقد أن الأميركي يحترم المرأة وهو متحرر ومثقف . . وإذا به لا ينظر لها سوى بوصفها عاهرة . . الأميركي لا يعامل المرأة العراقية العاملة هنا سوى بكونها عاهرة . .» ثم تحدثت عن صحفية عراقية كانت جميلة جداً ، ذهبت لعمل مقابلة مع الجنود الأميركيين غير أنها لم تعد مطلقاً ، وهي تعتقد أنهم اختطفوها ، اغتصبوها ، ثم قتلوها . . وأخفوا آثار الجريمة كلياً . .

**

كان المترجمون ذلك الوقت يدخلون ويخرجون إلى الحانة ، وكنت أعرفهم عن كثب طبعاً ، وهم ظاهرة تستحق التوقف ، أكثرهم شباب يافعون قد تخرجوا من الجامعات من وقت قريب ، ولم يحصلوا على عمل بعد انهيار الدولة كلياً في العام ٢٠٠٣ ، فلم يجدوا سوى عمل مترجم في المنطقة الخضراء ، وهي مهنة خطرة جداً ، حياتهم هي الأكثر عرضة للخطر دائماً ، وهم موجودون في كل مكان ، في الشوارع ، مع القوات الأجنبية ، عند نقاط التفتيش ، وهم في الغالب أنيقون جداً ، ولعلاقتهم بالآداب الغربية ، فهم متحضرون ومتأوربون جداً ، أكثر بكثير من الجنود والضباط الأميركان الذين يعاملونهم باحتقار شديد .

مكتبة الفكر الجديد

المثير حقاً في عملهم-على الأقل فيما يخص موضوعي هنا- هو أن كل واحـد منهم له اسم غـربي . مـايكل ، جـون ، روبرت ، سـام . . ولا يتسمون بأسمائهم العربية أبداً ، وحينما سألت نرمين عن هذه الظاهرة ، قالت إن الأميركي يجد صعوبة كبيرة في لفظ الأسماء العربية ، فلا يمكنه أن يصيح عبد الرحمن ومجيد وربحي . . وفخري . . والخ . . فيستعيض عنها بهذه الأسماء المستعارة ، والتي هي قريبة عليه ، وسهلة ، ولا يشعر بحاجز سيكولوجي معها ، فالأسماء العراقية مهما كانت تشعره بنوع من العداوة الخفية ، وأما المترجمون ، فهم من جانبهم ، تمنحهم هذه الأسماء سمة نسيان الوجود ، أي إنه يشعر بنفسه أميركياً بالكامل . وهذا ما يجعله متغطرساً على الدوام ، يشعر بأنه يأخذ لنفسه قناع الأميركي ليعيش فيه ، يتخذ لنفسه قناعاً أبيض ، وهذا ما كان يعنيه فرانز فانون ببشرة سوداء وأقنعة بيض ، فواقعة الاستعمار عملياً تسحق الناس سحقاً ، تجوفهم من الداخل ، وتصنع في داخلهم صورة مهشمة لشخصيتهم الأولى ، أي شخصية حارس القطيع في ديوان دكان التبغ ، وتصنع محلها شخصية أخرى . شخصية المحروس ، باسم جديد ، اسم أميركي على الدوام ، هي شخصية خيالية ولكنها غير متحققة ، بسبب وجود الأميركي الذي يذل ويهين . وهكذا فهي غير محروسة أبداً ، لأن الشخصية الأولى شخصية حارس القطيع منبوذة ومرمية مثل نفاية ، وهكذا في واقعة الاستعمار يصبح الصراع طاحناً بين شخصيتين ، هي شخصية الفارو كيرو وشخصية ريكاردو ريس ، وهذا الصراع يجعل حضور حارس التبغ أو شخصية كامبوس متعذرة تقريباً .

مكتبة الفكر الجديد

-٧-

بوريس وسمير ورسائل فريدة روبين

تقع وكالة التعاون الصحفي والأي سي ميديا آند نيوز في منطقة هادئة، عبارة عن عمارات واطئة أشبه بحي أرستقراطي قديم بمنازله الحجرية وشجره الكث، وعند منعطف الشارع رقم ٧ تقع البناية التي تضم الوكالة مع دوائر صحفية أخرى.

دخلنا الباب الذي قادنا إلى سلم يتلوى عبر ثلاثة طوابق، ثم باب ابيض صغير مكتوب عليه بخط ناعم AC media and News، وهي وكالة صحفية عالمية تقف على مسافة محايدة من الأحداث في العراق، ولديها مهمات أخرى، فهي تساعد العراقيين على التخلص من آثار الاحتلال، وتخفف من النزعة الطائفية، وتهتم ببناء هوية عراقية مستقلة، يرأسها شخص اسمه الصغير بوريس، وهو صحفي قديم من أصل روسي، ضخم الجثة ورأسه أقرع كبير يشبه رأس خروشيف، أما المسئول عن شؤون العراق فهو سمير محمد، وهو صحفي ألماني من أصل عراقي، غير أنه لا يتكلم اللغة العربية مطلقاً.

كان سمير شخصية مثيرة للاهتمام، رأيت صورته أول مرة على غلاف مجلة أجنبية، لا أتذكر أميركية أو فرنسية، وكنت تفاجأت، لم تكن سحنته شبيهة بعراقي قد عاش في الداخل أو في الخارج، كان يظهر في المقابلة ببشرته الصدفية المتوردة، وشعره الذهبي الشاحب وعينيه

مكتبة الفكر الجديد

الخضراوين وبهيئة تستعصي على أن تكون شرق أوسطية مطلقاً . حين زرته في الشتاء الماضي ، وهي المرة الأولى التي أزوره في مكتبه ، كان ودوداً جداً معي ، جلسنا أكثر من ساعة ، شربنا الشاي ، وتحادثنا عن أشياء مختلفة ، كانت الجلسة حميمة جداً ، هنالك لهب هادئ في المدفأة القريبة ، ومقاعد الحجرة ذات أذرع مكسوة بالساتان الأبيض مع طاولة مغلفة بجلد أسود ، جلس سمير أمامي مباشرة ، وجلست إلى جانبه امرأة جميلة ترتدي ملابس عادية جداً ، حديثها كان غريباً قليلاً ، وبالغ الخفوت ، عرفت منها أنها مترجمة ، وقد شرعت بترجمة رواية عراقية إلى اللغة الإنكليزية .

أثناء جلستنا القصيرة سألتني هذه المترجمة بعض الأسئلة عن الأدب العراقي المترجم إلى الفرنسية . . غير أننا لم نستغرق طويلاً في الحديث ، كان لقائي الأول قصيراً جداً مع سمير ، إلا أنه كان حميماً ، وكنت جئت بناء على طلبه ، فقد كتبت تقريراً أو ريبورتاجاً طويلاً عن مشاكل صيادي السمك في خليج البصرة بعد العام ٢٠٠٣ ، تحول هذا الريبورتاج فيما بعد إلى ريبورتاج تلفزيوني لإحدى القنوات الفرنسية ، وبعد فترة طويلة ، كدت أنسى موضوع التقرير تماماً ، لأن الحديث عن الصيادين والإسكافية والباعة أصبح أمراً تافهاً بالقياس إلى عمليات الاختطاف والاغتيال وتهريب النفط وسيطرة المليشيات على ميناء البصرة ، ومع ذلك وجدت من يتصل بي ويبعث لي رسالة يطلب فيها لقائي ، وفي هذا اللقاء أراد سمير تكليفي بعمل تقرير أو ريبورتاج عن أوضاع المرأة العراقية في مدينة البصرة ، بسبب حالات القتل والاختطاف التي تتعرض لها يومياً تقريباً ، فقد وضع بين يدي وثائق عديدة تتحدث عن عصابات متعددة للخطف ، وجماعات متخصصة بقتل المرأة ، وهنالك

مكتبة الفكر الجديد

صور فوتوغرافية لتحذيرات وتهديدات بالقتل مكتوبة على الجدران تتوعد المرأة التي لا ترتدي الزي الإسلامي أو الحجاب .

**

هذه هي المرة الثانية التي أزور فيها سمير في مكتبه ، وقد عرفني مباشرة ، وقال إننا التقينا مرتين فيما مضى ، فاندهشت لأنني أذكر منها مرة واحدة ، تلك التي زرته فيها في مكتبه قبل أشهر .

بعد ذلك سمعت منه وهو يصافحني عبارات مجاملة مغمغمة لم أفهم منها شيئاً ، ثم قادنا من الباب إلى داخل الوكالة وهو يسير أمامنا مسرعاً ، وكنا نسير وراءه ، فارس حسن وأنا ، وقبل أن يدعونا للجلوس في مكتبه ، توقفنا قليلاً عند مكتب فارس ، وفي هذه اللحظة فقط عرفت أن لفارس مكتباً خاصاً في الوكالة ، هذا يعني أنه يعمل معهم بشكل رسمي .

ثم بدأ سمير بالحديث في الموضوع مباشرة ، كان عملياً جداً ، وقليل المجاملات ، ومن خصائصه الواضحة الأخرى أنه لا ينظر في الوجه أو العينين ، كان يتحدث وعيناه تذهبان إلى مكان آخر ، ويداه تتحركان بسرعة ، ويخف منطلقاً من مكان إلى مكان في المكتب ، ويجعلنا نذهب مسرعين وراءه ، فقد قادنا أولاً إلى صالة صغيرة قرب المطبخ ، وقد خرج منها عامل سيريلانكي يحمل أكواب الشاي ، ثم دخل أمامنا مباشرة إلى مكتبه وطلب منا اللحاق به .

تناول بعض الكتب الموجودة في الرف ووضعها على الطاولة الطويلة التي لم تكن منظمة مطلقاً إنما تبعثرت عليها الأوراق ، والصحف ، والمجلات ، وكوب الشاي ، والأقلام ، واللابتوب ، وأشياء أخرى متناثرة هنا وهناك ، كان يتحدث وهو يزيح بعض المظاريف والمغلفات وكأنه يبحث عن

مكتبة الفكر الجديد

شيء آخر ، يؤدي هذه الحركات دون أن يتوقف عن الحديث مطلقاً .

حين دخلنا مكتبه شعرت بارتياح كبير ، شعرت بسرور لا أعرف مصدره ، فقد كانت الشمس تدخل من النافذة المفتوحة ، وهذا الفضاء المشمس الجميل خلق نقيضاً كاملاً لفضاء زيارتي الأولى التي كانت في الشتاء ، فقد أسدلت الستائر الداخلية ذلك الوقت ، وحتى الشباك الخارجي الذي كان على شكل أكورديون فقد كان مسدلاً تماماً ، وكانت الصالة باردة رطبة ، على الرغم من المدفئة التي كان يتراقص داخلها لهب أزرق ، أما اليوم ، وفي هذا الوقت من الربيع المزهر ، فقد كانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، والشمس تتسلل بأشعتها هادئة في الحجرة ، وكانت النسائم تهب عذبة ، باردة ومتقطعة ، ومن مكاننا ونحن واقفون عند الطاولة الطويلة يمكننا أن نرى منظراً جميلاً وأخاذاً جداً ، فهنالك مساحة خضراء تتخللها زهور حمراء وصفراء ، وشجر كثيف الخضرة يتصاعد بجذوعه الضخمة على شكل خطوط ، ويمكنك وأنت واقف في المكتب أن ترى الشارع المتلوي وهو يعج بالسيارات والسابلة ، أما الدكاكين فقد كانت مفتوحة الأبواب تدلل على مدينة حيوية جداً ، عكس ما منحتنا من انطباع أولي حينما كنا في الميدان .

لم يدعنا سمير للجلوس ، وكأنه أرادنا أن نستمتع كثيراً بإطلالة مكتبه على المساحة الخضراء الجميلة ومن خلفها النهر ، وبقي كأنه يبحث عن أشياء متعددة وضعها مبعثرة هنا وهناك على رفوف مكتبه ، ومن دون أن أعرف بالضبط ما الذي كان يبحث عنه ، أو ما الذي يريد أن يريني إياه أو ما هو الشيء الذي جلبه لي ، فقد تعودت منذ لقائنا الأول في مكتبه في الشتاء الماضي أن أصغي له على الدوام وهو لا يتوقف عن الكلام مطلقاً ، كان يتحدث معي بشكل متحمس جداً ، مثلما رأيته أول مرة وهو

مكتبة الفكر الجديد

يحثني للذهاب للبصرة لكتابة هذا التقرير عن أوضاع المرأة وحياتها في مدن الجنوب ، أما هذه المرة فهو يحثني للذهاب إلى طهران ، وإلى دمشق لأكمل التقرير ، وأنا من جانبي كنت كلي إصغاء له ، بل كان يشرح لي بتفصيل أحياناً أهمية هذا البحث بالنسبة للظروف الحالية للعراق ، بل كان يعلق بدقة على مراحل حياة كامل مدحت ، وقد كان يعرف أكثر مما كنت أعرف عنه ، كان يعرف عنه الكثير من المعلومات التي يذكرها تفصيلياً وكأنه يقر بأني أعرفها سلفاً .

المغلف الأسمر

كنت واقفاً أمامه ، صامتاً تماماً ، أنظر وأحدق في وجهه دون أن أنطق بكلمة واحدة ، لم يكن لدي لحظتها أي رد فعل إزاء ما كان يتحدث به أو يقوله ، إزاء هذه الشخصية التي كانت ذلك الوقت نسبة لي جد ملغزة .

فجأة التفت سمير إلى الوراء وأخرج من الرف مغلفاً أسمر ، سحبه بيديه الاثنتين ناظراً نحوي وهو يقول لي ، بأن هنالك صحيفة يسرها أن تنشر في ملحق الأحد فصولاً مما تكتبه عن هذا الرجل . بينما دخل بوريس الحجرة وتوقف إلى مكتب سمير دون أن ينظر إلي ، وكلم سمير بشيء يخص الوكالة ، فجأة وهو ينتهي من مناقشته مع سمير ، صمت قليلاً ، ثم التفت نحوي مبتسماً وقال :

«أنت جاهز لهذه المهمة . . أليس كذلك؟»

كانت جملة بوريس الواثقة هي إطلاقة الشروع في هذا العمل الذي لا أظنه عملاً سهلاً أو بسيطاً ، وهي لا علاقة لها بما قاله سمير ، فالفرق بينهما واضح على الأقل بالنسبة لي ، هذا الصحفي الروسي القديم والمدرب والمحنك ، إنه أقدم الصحفيين الأجانب الذين عرفتهم هنا على

مكتبة الفكر الجديد

الإطلاق ، وقد زار بلدان منطقة الشرق الأوسط برمتها تقريباً ، وكان حاضراً في كل الأزمات السياسية وسنوات التوتر والحروب الأهلية والانقلابات العسكرية ، ولديه العديد من الكتب عن العراق وإيران وفلسطين ومصر ، وهو يجيد اللغة العربية والتركية والفارسية بطلاقة ، وعرفت أنه عمل في البداية في وكالة نوفستي كمحلل لشؤون الشرق الأوسط السياسية في الاتحاد السوفيتي السابق ، وبعد الانهيار ، ذهب إلى أميركا ، وأصبح من أنشط المتخصصين بشؤون العراق خاصة ، والشرق الأوسط عامة .

وقد كنت محقاً ربما بتكهناتي ، ولا سيما بعد أن وضع سمير المغلف بين يدي . .

«ما هذا . .؟» قلت له باستغراب كامل . .

كان المغلف ثقيلاً وتنبعث منه رائحة القِدم . أشبه بالرزمة مربوطة برباط مطاطي أصفر ضربت عليه براحة يدي غير أنه لا غبار عليه .

قال لي إن هذا المغلف مهم جداً في عملي ، إنه كل الرسائل التي بعثها كمال مدحت إلى زوجته فريدة روبين وعلى مدار عقود طويلة ، وقد حصل عليه بوريس من زوجته وعلي أن أفضه وأستخدمه في كتابة تقريري عنه .

أخذت المغلف ودخلت مع فارس إلى مكتبه .

فتح فارس النوافذ ليكون المشهد الذي كنت منسحراً أمامه في مكتب سمير هو ذاته المشهد في غرفة فارس ، إنه نسخة طبق الأصل . . جلست إلى مكتب فارس الذي كان مغطى بطبقة من الغبار ، هنالك أوراق ، صحف ، صور ، مغلفات ، محبرة ، لابتوب ، وأشياء أخرى متعددة . . وضعت المغلف على المكتب وفتحته ، هالني ما رأيت . .

كانت هنالك العديد من الصور والرسائل التي كتبها كمال مدحت

مكتبة الفكر الجديد

إلى زوجته فريدة بهذا المغلف . . ومن الواضح أن فريدة هي التي بعثتها إلى بوريس ، وبوريس ناولها لسمير ، ثم سمير ناولني إياها على أن تضيء بحثي عن الشخصية . .

كان فارس إلى جانبي ينظر نحوي دون أن يسألني أي سؤال عن المغلف ، أو الرسائل أو الصور ، ولم يبد أية ملاحظة لا صغيرة ولا كبيرة ، من الواضح أنه كان يعرف تماما أمر هذا المغلف ، ويعرف قصته من الأول ، بل كان يعرف بالمراسلات بين فريدة وبوريس نعومكن ، غير أنه لم يبد أي اهتمام بالموضوع .

**

نشرت الصور والرسائل والوثائق الرسمية على المكتب أمامي وأصبحت أقلبها سريعاً ، أمر عليها دون أن أتمكن من قراءتها ، فكلما قرأت التاريخ وقرأت سطراً أو سطرين ، رميتها من يدي وتناولت ورقة أخرى ، كنت أشعر أن الألم الحقيقي هو في هذه الخطية ، وهي سمة الكتابة دون شك ، فعلي أن أمر على كل شيء سطراً ، سطراً ، وكلمة كلمة بالتتابع ، بينما كنت مستعجلاً جداً ، كنت أريد أن ألتهم كل شيء ، وأعرف كل شيء ومن اللحظة الأولى .

نشرت الرسائل والصور أمامي ، ثم نهضت من الكرسي وأخذت أتخطَر في الحجرة رواحاً ومجيئاً كي أتخلص من هذا التوتر .

في هذه الأثناء دخل السيد بوريس وناولني الرسالة التي كتبتها السيدة فريدة روبين إلى مدير الوكالة ، وقد أرسلت معها الرسائل والصور ، فأخذت أقرأها ، منشغلاً كلياً عن سماع فارس الذي كان جالساً على الطاولة ويشرب استكان الشاي .

مكتبة الفكر الجديد

رسالة إلى مدير وكالة التعاون الصحفي في العراق

السيد بوريس نعومكن

ببالغ الحزن علمتُ مما جاء في أحد تقاريركم عن المصيرِ المشئوم الذي لقيه الفنان العراقي كمال مدحت ، وأحب أن أعلمكم أنّ اسم المغدور الحقيقي هو يوسف بن سامي صالح ، وهو زوجي بطبيعة الحال ، كنا قد هاجرنا من بغداد إلى إسرائيل بعد ولادة طفلنا مئير ، غير أن زوجي لم يطق الحياة بعيداً عن بلده العراق ، فهرب إلى إيران وبقي هناك ، وكان يراسلني كثيراً ، حتى تزوج من امرأة مسلمة-شيعية ، اسمها طاهرة الطباطبائي كما ترون الآن في رسائله التي أبعثها لكم ، ودخل العراق باسم حيدر سلمان علي ، ومن الواضح أنه بقي في العراق طوال هذه الفترة ، كما هو موضح في رسالته المؤرخة في السابع من تموز من العام ١٩٥٥ ، واستمرت الرسائل بيننا ولم تنقطع أبداً ، وبما أنه لم يكن قادراً على إرسال رسائل لي من العراق مباشرة إلى إسرائيل فقد كان يرسلها عن طريق وسطاء موسيقيين موجودين في موسكو وبراغ ، وقد شرح لي ظروف حياته في العراق بالتفصيل ، وشرح لي كيف تم تهجيره في العام ١٩٨٠ إلى إيران لأنه من التبعية الإيرانية ، وقد توفيت زوجته طاهرة أثناء الترحيل ، وذكر لي في رسالة أخرى مؤرخة في آب من العام ذاته ، أنه توصل إلى حل ، وذلك بدخوله إلى سوريا ومن سوريا إلى العراق ، وفي إحدى سفراته إلى أوربا ، أرسل لي رسالة قال لي فيها إنه الآن في بغداد ومتزوج من سيدة اسمها نادية العمري ، ولديه ولد منها اسمه عمر ، وشرح لي في الرسالة تفاصيل تعرفه إليها ، وزواجه منها ، كان يسألني عن ابنه مئير ، وقد عرف مني في وقت سابق أن مئير مثله لم يطق العيش في إسرائيل وقد هاجر إلى أميركا ، وعمل في البحرية الأميركية .

مكتبة
الفكر
الجديد

ولكثرة سفراته إلى أوربا ، فقد كان يحرص ، حينما يكون في واحدة من هذه الدول أن يرسل لي الرسائل ويبعث لي الصور ، ولا سيما أنه كان يريد أن يبقى على صلة ما بابنه مثير ، وكنت عرفت الكثير عن حياته من خلال رسائله ، وعرفت الكثير عن شهرته ومواقفه من الفن ذلك الوقت ، ولا سيما في فترة حكومة صدام حسين .

ومن قراءة الخبر الوارد في الصحف عن مقتل الفنان العراقي كمال مدحت وبعد مطابقتي للصورة ، والرسالة التي بعثها لي ابننا مثير ، عرفت بأن يوسف قد قتل .

هكذا إذاً ، يوسف قد غادر الحياة ، وإن بدا لي الأمر غير قابل للتصديق ، ولكنه شيء كنت أنتظره بين لحظة وأخرى ، وكنت أعتقد أنه سوف يلقى القبض عليه ، ويعدم بتهمة جاسوس أو أية تهمة ممكنة اخرى .

ما أريده حقاً ، هو الكيفية التي قتل بها ، ومن هو وراء مقتله ، ولماذا قتل أصلاً؟ كما عرفت أنه موجود إلى اليوم في ثلاجة المستشفى ولم يدفنه أحد . وقد فصلت في وثائق أخرى الكثير من المعلومات لعلها تمكنكم من كتابة هذا التقرير عنه ، وأنا لا أظن أن هذا التقرير سيكون نافعاً لي وحدي ، لو كان ذلك لما تجشمت العناء في الكتابة والبحث ، ولكني أظن أنه مهم للناس الذين أحبوه أو الذين كرهوه حتى وصل بهم الأمر إلى مقتله .

تقبل تقديري واحترامي

البروفسورة فريدة روبين

جامعة القدس

قسم الدراسات العربية

مكتبة الفكر الجديد

ملاحظة : بعد كل رسالة من الرسائل أضفتُ لها بعض الملاحظات ، من أجل توضيح تفاصيل أو مفاهيم أخرى ، فضلاً عن الصور الفوتوغرافية المرسلة ، ودفاتر يومياته ، وهنالك أشياء لا تتضمنها الرسائل ، فأشرت إليها بتعليقات جانبية ، وهنالك أمور سياسية كان علي شرحها أيضاً ، كما أني كتبت ما لم أجده في الرسائل ، ورأيت أنه من اللازم شرحه من أجل اكتمال الصورة ، وكتبت لكم في ورقة منفصلة بعض الأسماء التي أعلم أن لديها معلومات إضافية عنه ، معلومات لا أعرفها أنا ، كما كتبت لكم بعض العناوين التي أجد من اللازم معرفتها من أجل تتبع سيرة حياته .

هذه هي رسالة فريدة ، هكذا تنتهي .

**

بعد أيام جلست على الشرفة قبل أن أنام مصغياً إلى هدوء المنطقة الخضراء ، شوارعها الكبيرة ، قصورها الفخمة ، وصالات الاستقبال المشيدة على طراز قصر فرساي ومحاطة بسور صلب من كل النواحي ، كنت أتأمل وبيدي سيجارة أخذت أدخنها ببطء . كنت أميز أنوار المباني المتوهجة المحيطة بي بينما بغداد كلها تنام في الظلام ، شاهدت وأنا جالس صحفياً يقرأ بكتاب ، ومن خلال النوافذ كنت أرى سياسياً يتحدث بالهاتف ، وآخر يكتب تقاريره .

بعض البنايات مضاءة وأخرى غارقة في الظلام الدامس ، ولمحت في الظلام من بعيد هيئة دبابة ، ورجالاً في الخيمة يلعبون لعبة المخاطرة (رسك) مع نرجيلة وبضعة أقداح من البيرة .

في هذا المساء بدأت الكتابة عن كمال مدحت ، وقد شجعتني ثلاثة أشياء ، رحلتي إلى منزله في بغداد وعثوري على قصيدة بيسوا ، ورسائل فريدة روبين ، واللقاءات الكثيرة التي عقدناها مع الذين سبق لهم أن عرفوا

مكتبة الفكر الجديد

عن شخصياته الثلاث شيئاً وهم بالأخص فوزية آخر عشيقاته ، وكاكه حمه صديقه الذي يعرف الشخصيات الثلاث مجتمعة ، فقبل يوم واحد فقط من بدء كتابة حياة الموسيقار كنت التقيت عصراً بكاكه حمه ، وهو واحد من أغرب الشخصيات التي التقيتها على الإطلاق ، شخصية غريبة في كل شيء تقريباً ، ولأنه يعرف الكثير عن يوسف سامي صالح وقد رافقه لزمن طويل جداً ، بقيت معه حتى ساعة متأخرة من الليل ، وما دفعني بقوة للاتصال به هو إحدى الهوامش التي كتبتها فريدة زوجته على إحدى الرسائل المؤرخة في شهر آب من العام ١٩٥٦ أي أثناء حياة يوسف في طهران ، منها بدأت بالبحث عنه ، وقد وجدت من المناسب اللقاء به قبل الذهاب إلى طهران .

ومن اللازم أن أقدم بعض المعلومات عنه ، فهو شيوعي كردي ، قصير القامة بشكل لافت ، وبدين تقريباً ، أما بذلته الواسعة التي كان يرتديها أثناء لقائي معه وعلى الرغم من أناقتها جعلت شكله مضحكاً تقريباً . كان شعره أبيض بلون الحليب ، له عينان واسعتان تتلاقطان بصورة سريعة ، أما شعره فقد كان منفوشاً ، ومن الواضح أنه من النادر أن يحلق ذقنه .

كان الكثير من الناس يقدرونه ، بالرغم من أنه كان ثرثاراً يتكلم كثيراً ، ويفتقر إلى الكياسة ، ولديه جشع واضح إلى احتكار الحديث . أما لكنته الكردية فقد منحته عربية فصيحة جميلة ، كان يتكلم بأسلوب فخم ، مع تلونات الكلام ، ونبراته واستخداماته المحلية ، مما يجعله يبدو في أحيان كثيرة مسلياً جداً في رواية حياة يوسف سامي صالح ، لقد فتنني بشخصية هذا الموسيقي العبقري الصبياني وجعلني أقضي ساعات في الاستماع إليه ، وكنت ملتصقاً بحديثه مثل رخوية تلتصق على ساق نبتة .

مكتبة الفكر الجديد

وقد كان حديثه مع زيارتي لمنزل كمال مدحت في المنصور والعثور على قصائد بسوا هو الذي حفزني على تقسيم كتابة حياته إلى أقسام ثلاثة : حارس القطيع ، المحروس ، وحارس التبغ . .

مكتبة الفكر الجديد

الجزء الثاني

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

-VI-

حارس القطيع

من حياة يوسف سامي صالح

(١٩٢٦-١٩٥٥)

أنا أؤمن بالعالم مثلما أؤمن بزهرة مخملية ،

أراه ، ولا أفكر به فأنا بلا فلسفة ، ولكن عندي أحاسيس

.. هناك ميتافيزيقيا كافية في أن لا تفكّر بشأن أيّ شيء

Tobacco shop

Alberto Caeiro

The Keeper of Flocks

حياة الموسيقار، سياسة كيتش وأعداء أجانب

«هل الحياة هي شيء آخر ، غير أن يجد المرء نفسه غريباً ومجهولاً بين الآخرين الغريبين والمجهولين؟»

هكذا كتب يوسف في واحدة من أجمل بطاقاته المرسلة إلى زوجته فريدة حينما كان يشعر بيأس كامل وهو في طهران نهاية شهر أبريل من العام ١٩٥٦ ، كانت البطاقة تصور مشهداً طبيعياً قاسياً مأخوذاً من جبال البورز الضخمة ، وكان هذا المقطع الصغير الذي كتبه لزوجته أشبه

مكتبة الفكر الجديد

بالصرخة القاسية المكتومة ، وسط فراغ هائل ولا محدود .

هذا المقطع يذكر بقوة بمقطع لألبيرتو كايرو يقول به : «نوافذ غرفتي ، غرفة واحد من هؤلاء الملايين فى العالم لا أحد يعرف من هو ، حتى لو عُرف ، ماذا سيُعرف عنه؟» أتذكر هذا المقطع وأنا أصغي إلى كلمات كاكه حمه الجالس أمامي ، حينما كان يحدثني بصوته الأخن ، وبشفاهه الغليظة ، وبأنفه الكبير ، مثل كاهن يتلاشى أمامي ببذلته الواسعة وبوجهه الأحمر ، كان يحدثني بحماسة عن زمن طويل من الترحال والتجوال ، عن مدن بلا نهايات ، كان يتحدث بقوة ، وبعينين لامعتين ، ووجهه حليق ، فيهتز شارباه المرسومان مثل خطي حليب .

لا أدري لماذا منحه الحديث عن يوسف سامي صالح هذه السعادة كلها ، لقد كان سعيداً سعادة عميقة ، أشبه بحشرة صغيرة تدفىء نفسها تحت أشعة الشمس ، كان يتحدث وهو يحرك يديه القصيرتين يميناً وشمالاً ، ومن خلفه كنت أرى صورة له قديمة بلباس أنيق جداً ، تقف إلى جانبه امرأة جميلة ترتدي ملابس كردية ملونة ، ومن وقت إلى وقت كنت أتطلع إلى الصورة التي خلفه ، أصغي له وهو يستعيد تأريخاً طويلاً مضى ، فأشم من حديثه روائح الخزانات العتيقة ، وعبق الدروج القديمة ، وروائح الكراسي الخشبية الباردة ، وكنت أسجل في دفتري الصغير الذي اصطحبته معي أسماء مختلفة ، ومدناً مختلفة ، ومطارات عواصم من الشمال ومن الجنوب .

تودد كاكه حمه لي بلطف وهو يشبع قلبه النهم بتسلسل تأريخي عجيب ، وكأنه يتتبع سيرة الرسائل التي صنفتها حسب التواريخ في مغلف بوريس ، كما لو كان يجلسني على كرسي صغير ويريني من فتحة الكامرة حياة قديمة مضت لن تعود ، وأنا أسجل وأسجل لئلا يفلت مني

مكتبة الفكر الجديد

شيء ، أسماء جديدة ، تواريخ ، مدن ، تحولات وتنقلات غير منقطعة . . أود في البداية أن أعقد مقارنة بين الشخصيتين ، هل كان من يتحدث عنه هو حارس القطيع ، ألبرتو كايرو ، الشخصية الأولى التي اتخذها بيسوا لنفسه في ديوان دكان التبغ ، فيوسف سامي صالح كان بريئاً مثل حارس القطيع البرتو كايرو . كان ينظر الأشياء بالعيون فقط لا بالعقل : ألم يكن كايرو كذلك؟

ومن جهة أخرى فإنه لا يولد أيّة أفكار كبيرة عندما يحدق أو ينظر إلى أي من الأشياء المحيطة به ، كانت نظرته للأشياء محدقة ، ثاقبة لكنها نظرة محايدة ، إنه يعتقل الأشياء من خلال أحاسيسه ، فهو لا يستجوب أيّ شيء أبداً ؛ هذا الموسيقي العظيم مثل الشاعر بيسوا يقبل بالعالم بشكل هادئ ، يقبل به كما هو بعيداً عن التشابك الغيبي ، إذ ليس هنالك في حياته من معنى خفي ، إنه طفل واسع العينين في التشكيلة اللانهائية للطبيعة ، ومن دون شك فقد كانت شخصية يوسف صالح تقع بالتقابل أو بالتناقض مع شخصيتيه الأخريين ، شخصية حيدر سلمان ، وشخصية كمال مدحت ، فإن كانت الشخصية الثانية متعلقة بالشكل والرموز (مثل شخصية ريكاردو ريس في دكان التبغ) ، والشخصية الثالثة متعلقة بالإحساس (مثل شخصية ألفارو كامبوس) فإن شخصية يوسف صالح لم تكن تؤمن بشيء . . هكذا كانت الشخصية الأولى للموسيقار ، هذه الشخصية التي وقعت نفسها باسم يوسف سامي صالح ، ووقعت موتها في العام ١٩٥٥ ، في العام ذاته الذي ولدت فيه شخصية سلمان حيدر ، ومن الغريب أن شخصية البرتو كايرو الذي ولد في العام ١٨٨٩ في لشبونة وتوفي في العام ١٩١٥ بمرض السل بعد أن أصدر ديوانه حارس القطيع ، كان قد كتب حياته الفارو دي كامبوس وهو الشخصية المنتحلة

مكتبة الفكر الجديد

الثالثة لبيسوا ، وحينما بحثت في موسوعة الموسيقى العراقية في حياة يوسف سامي صالح ، وجدت أن الذي كتب المادة حول الموسيقار يوسف سامي صالح هو كمال مدحت .

فكيف كانت هذه الشخصية :

ولد يوسف في محلة التوراة في بغداد ، في اليوم الأول من شهر تموز من العام ١٩٢٦ ، والده سامي بن صالح من عائلة قوجمان ، كان يعمل موظفاً صغيراً في مذخر جوري للأدوية في الكرادة ، وأمه حوري بنت رحمين دلال ، والدها كان ثرياً في بداية حياته ، فقد عمل في سوق العطاطير ثم في سوق البقالخانة في بغداد ، لكنه أفقر بعد الحرب العالمية الأولى ، الصورة التي تظهره في طفولته مهترئة قليلاً ، لكنها تظهر طفلاً صغيراً ، له قسمات ناعمة ، وشعر أسود مسرح يهطل على جبينه ، كان يرتدي ذلك الوقت شورتاً قصيراً وقميصاً أبيض واسعاً على جسده النحيف .

عمل صالح جد يوسف في بيع الشيرج وهو دهن السمسم ، في محل يقع على الجانب الأيسر من شارع الرشيد ، قرب جدار المدرسة المرجانية حيث كانت هنالك العديد من المعاصر التي يمتلكها اليهود في سوق الشورجة ، ثم عمل ضماناً لبساتين النخل في بستان مامو فترة من الزمن ثم أخذ يتوسط في بيع التمر في فترة ما بين الحربين بين تجار البصرة وتجا بغداد ، أما شقيق جده فهو الحاخام شموئيل قوجمان مؤلف كتاب «اليهودية والحياة» والمطبوع في مطبعة شوحيط ، وقد صدر باللغة العبرية في الثلاثينات ، ولم ينس يوسف منزل جده ، بل بقي سنوات وهو يتذكر حرارة يد جده وهي تمسك به خوفاً عليه من الضياع ، وهما يتنزهان في شارع الرشيد ، ورائحة نفتالين ثقيلة تنبعث من المشجب الذي يعلق جا

مكتبة الفكر الجديد

فيه بذلاته وسداراته السود ، والتي كان البغداديون يرتدونها ، وكان وجه جدته المرسوم بعناية ، وأثوابها السوداء الحزينة ترهبه ، كانت تتابع صمتها في غرفتها العالية السقف ، وكان الصمت يفرض على العائلة برمتها بسبب مرض الجدة ، ولم ينس يوسف في رسائله إلى فريدة وجهها الأبيض المتغضن أبداً ، فقد كتب في رسالة مرسلة في العام ١٩٥٤ أنه كان يدخل الحجرة مع والدته التي تنظفها من الغبار بمنفضة الريش ، والجدة تغمض عينيها وتغيب كأنها ميتة .

كانت عائلة يوسف مثقفة بين العائلات البغدادية ، بالرغم من الفقر الذي ألحق بها ، ولا سيما بعد الكساد الذي أصاب التجارة في بغداد بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان جميع أفرادها يقرؤون الكتب والصحف والمجلات ، بل كان منزلهم الصغير مملوءاً بالمخطوطات والكتب الضخمة . يصف يوسف في واحدة من رسائله بأن الكتب كانت في كل مكان ، كانت الكتب بين الأدراج ، على الجدران ، تحت درابزين الحجر ، وحتى في الغرف الواسعة المزخرفة السقوف ، وهو مثار تندر العائلات اليهودية التي كانت قد أثرت كثيراً من التجارة التي ازدهرت بعد تأسيس الدولة العراقية في العشرينيات والثلاثينيات ، غير أن هذه العائلة بدأت تفتقر شيئاً فشيئاً ، فباعت المنزل ، ولم يعد لهم من الثراء القديم سوى السجاد القاشاني ، والملاعق والسكاكين التي صنعها العجم .

أما والدته حوري بنت رحمين دلال فقد اتسمت طوال حياتها بقلق غامض وعميق ، كانت قد درست في مدرسة البنات التي كانت تديرها مدام دانون في بداية القرن ، وقد اشتهرت كخياطة تعمل في مشغل لتطريز الوسائد بخيوط الذهب والفضة في نادي لورا خضوري ، وقد كرمها الملك فيصل الأول عند زيارته للنادي في الثلاثينات ، وكان أهلها يفتخرون

مكتبة الفكر الجديد

أن الرحالة التركي الشهير أوليا جلبي حين زار بغداد، مكث في منزلهم طويلاً وأكل من طعامهم التبيت الذي كانوا يصنعه اليهود أيام السبوت.

**

في واحدة من رسائله المؤرخة من إيران في رحلته الأولى في الخمسينيات، يقدم يوسف صورة باهرة عن أمه، كانت مثل يرقانة نحيفة تلجأ على الدوام إلى العزلة، لقد فقدت البهجة الرشيقة بسبب العمل. ابتسامتها الساذجة، حركاتها الهادئة المتملقة، قدرتها الكلية على الضعف، جعلت منها خليطاً ملتبساً بين امرأة سطحية وامرأة تراجيدية، حينما كانت تجلس على الكنفة الكبيرة في صالة المنزل الضيقة، وقد فرشت ببسط الصوف الملونة، تجلس هادئة، ساكنة، تمسك الصنارة وتطرز وسادة من الساتان، بينما تتدحرج كرات الصوف الملونة عند قدميها، هناك يجلس يوسف الصغير أمامها، مأخوذاً بصمتها وحزنها، ثم يحاول أن يجرب بعض الألحان على فيولونه، ولا سيما بعد أن أخذ يدرس الفيولون على يد أشهر عازف فيولون أرمني في بغداد وهو آرام غريبيان، وما إن ينطلق اللحن في صالة المنزل الصغيرة حتى تنصت الأم هادئة، صامتة، مثل تمثال.

**

الصورة الوحيدة لوالدته التي بعثتها زوجته فريدة في مغلف بوريس الذي ناولني إياه بوريس نعومكن في الوكالة تظهر هذه المرأة بوضوح:

كانت امرأة متوسطة الجمال، ملامحها ناعمة، نحيفة جداً، يطبع عينيها الجميلتين حزن شفيف، كانت في الثلاثينات من عمرها، ترتدي عدستين طبيتين مدورتين صغيرتين، وكانت ملابسها محتشمة جداً،

مكتبة الفكر الجديد

يقف إلى جانبها زوجها سامي ، وهو رجل نحيف وطويل ، أطول منها ، يرتدي بذلة عتيقة على شكل مربعات صغيرة ، قميصه الأبيض كان مكوياً ، وربطة عنقه تمتد مثل خيط ، له أنف طويل وجبهة عالية .

كتب على الصورة من الخلف : سامي صالح وزوجته في العام ١٩٤٢ ، المصور الحاج أمري سليم في منزل إبراهيم طويق .

كانت هذه الصورة تقدم لي ، فضلاً عن الرسائل التي بعثها يوسف إلى فريدة ، والذكريات التي رددها علي أصدقاؤه ، ومنهم كاكة حمه ، صورة حية نابضة على ما سيصبح عليه يوسف فيما بعد ، وأنا هنا لا أتحدث فقط عن هذه الصورة المهمة والتي بقيت في يدي طويلاً حتى حفظت جميع تفاصيلها ، إنما هنالك صور أخرى كنت مهتماً بها قبل سفري . . وإن كان علي الآن أن أذكر واحدة منها ، علي أن أذكر الصورة الوحيدة ، حسب علمي ، التي تجمع مجموعة من الشيوعيين في بغداد الأربعينيات ، وهي صورة نادرة حقاً ، صورة متهرئة الحواف ، وموقعة من الخلف بتاريخ الثالث من آب من العام ١٩٤٦ ، تظهر الصورة كلاً من فكتور منشي يوسف وهو يمسك فنجان قهوة يوصله إلى شفتيه ، وسعيدة ساسون منشرحة الأسارير ، وذنون أيوب بقميصه نصف الكم وعضلاته الشهيرة ، فضلاً عن سامي صالح والد يوسف الذي كان طويلاً ونحيفاً جداً ، ينظر بعينين عميقتين إلى شيء مجهول ، كانوا يقفون جميعهم في صالة منزل فيكتور منشي ، وتظهر الصورة من الخلف أقواس المنزل الطابوقية وقناطره الداخلية ، وهنالك عمودان من خشب الصنوبر عند الجدار .

تظهر هذه الصورة بوضوح شديد الأب في شبابه ، وهو شبه الابن في شبابه أيضاً ، ومن خلال وقفته واعتداده بنفسه كنت أصل بصورة ثابتة إلى تصلب هذا الرجل ، وإلى الثبات الذي يحشد قوته قبل أن يندفع ، بل

مكتبة الفكر الجديد

أصل أحياناً إلى عمق إيمانه ؛ شخص ما يصارع من أجل الحرية ويخلص روحه من جميع الأعشاب الضارة التي تغزوها ، قلب يحرث ويزرع في الفراغ جاهلاً مصيره ، وهو ما يشير إليه يوسف في واحدة من رسائله المهمة التي بعثها من طهران ، إذ كان يوسف يتحدث بحماسة عن والده بوصفه الرجل الأمثل الذي آمن على الدوام بالعدالة الإنسانية ، بل يذكر يوسف بوضوح أنه لم يعثر على رجل في حياته كان مؤمناً حقيقياً مثل والده ، فكيف كان؟

**

استيقظ يوسف على صوت والده الهادئ ، استيقظ على صوته المبحوح ، فرك عينيه بيديه ، رمش قليلاً لكي يرى بوضوح ، فوجد الأب واقفاً عند النافذة ، شعره المنتصب قليلاً ، ياقته المرتفعة ، ونظرته الثابتة . . . بعد فترة صمت ، ارتدى قبعته وأمسك عصاه بيده وخرج بهدوء من الباب إلى الخارج . وكان يوسف يدرك أن المعلمين بملابسهم القديمة المكوية ، والزبالين ، والصباغين ، وعمال البناء ، وصبية المقاهي ، والعاهرات ، والطبالين في مقهى المحلة ، والمختار والشرطي ، وبائعات الخضرة ، كلهم يعرفون من هو سامي صالح . .

كل الذين قابلتهم يؤكدون أن عصر كل يوم تقريباً ، بعد أن يعود من عمله في مذخر أدوية جوري ، يبدأ سامي صالح مسيرة تجواله الطويلة ، مسيرة متواصلة في شوارع محلة التوراة ، أو في سوق حنون ، أو في بستان مامو ، كان يسير تحت الأروقة المقنطرة ، والأعمدة ، والسقوف العالية في شارع الرشيد ؛ كان طويلاً جداً ، له وجه أسمر يستدق من عند الحنك ، عيناه سوداوان صافيتان ومؤثرتان ، يعتقد الجميع أنهما من إرث جده الحبر الكبير الذي ما زالت آثاره تخيم على العائلة برمتها ، والتي ما زالت تقطن

مكتبة الفكر الجديد

في بغداد القديمة حتى الآن . .

كان سامي صالح يسير أمام دكاكين الملابس ساهماً ، مفكراً ، يسير بهدوء أمام محلات التوابل في سوق الشورجة ، ومغازات الملابس ، أو أمام الدكاكين التي تبيع الحلوى في العلب المدورة ، تنتابه على الدوام هواجس غامضة ، يتشمم رائحة التربة المشغولة في الحدائق ، يلتقط قطعة من الجص ويسحقها بين أصابعه ، يسير وهو رافع رأسه على الدوام إلى أعلى ، كأنه يحدق بالناس من فوق ، كانت عيناه الضيقتان تحدقان بالناس الذين يمرون مثل دود في حقل أصفر . كان يسير وحيداً بمعطفه الأسود الطويل ، وبحذاءيه الكبيرتين ، وقبعته الجعدة الواسعة ، ونظارته التي فقدت إحدى عدساتها .

وكان الناس في محلته يطلقون عليه اسم «الرفيق» وذلك لتعلقه الشديد بالحركة الشيوعية ، ومناصرته للقوى اليسارية لا في العراق وحده ، إنما في كل مكان في العالم ، هذا اليهودي الأمي الذي يجد نفسه متوحداً مع العمال بأيديهم الخشنة مثل جلود التماسيح ، متوحداً مع الحمالين الذين يعملون تحت الشمس الملتهبة ، قد اعتقل أكثر من مرة ، سجن أكثر من مرة ، ولم يتخل عن إيمانه على الإطلاق ، كان مشبعاً بالسياسة مثل قطنة ناقعة بالماء ، لا يقابل أحداً في الشارع وهو يضرب الرصيف بعصاه الخيزران الرفيعة دون أن يحدثه في السياسة ، ينظر له أول الأمر بعينيه الغائمتين الحالمتين ثم يتحدث معه في السياسة ، كان يحول كل الأخبار العامة إلى أخبار سياسية ، كل خبر كبير أو صغير يؤوله عن سياسة الدولة الاقتصادية ، أو عن البرلمان ، أو عن الدستور ، أو عن الفرق بين الاشتراكية والرأسمالية ، كانت جيوب جاكتته منتفخة على الدوام ، محشوة بالصحف والمجلات ، وكان سامي يعتقد اعتقاداً جازماً أن عليه واجباً

مكتبة الفكر الجديد

واحداً ، واجب أن ينور الناس بحقوقهم . .

**

ها هو سامي صالح ، يمشي متيقظاً صامتاً حالماً ، غائباً في مسيرته المعروفة يومياً ، يتنشق في الربيع غبار الطلع ويعطس ، وفي الصيف يداعب البوابات والنقوش الخشبية والنباتات كأنه يودعها ، وفي الشتاء يحمل مظلته المطرية ، ويذهب إلى مقهى سلمان براس العقد ، يسير والماء يقطر من مظلته ، يسير بأقدامه المبللة ، وجسده يرتعش من البرد ، يعطس وينظف أنفه بيده لأنه بلا منديل ، ومرة شاهد كلباً ضخماً أسود اللون ، يقف تحت الأمطار ، ينظر إليه بعينين حزينتين ، وقد غمر جسمه الماء . فجره وراءه . . استدار ماشياً بطريق عودته إلى المنزل من الزقاق الجانبي ، والكلب الأسود المبلل والراجف والحزين يسير وراءه ، غير أن سكان محلة التوراة الذين كانوا يعرفون سامي بن صالح حق المعرفة ، ويعرفون امرأته حوري بنت رحمين دلال ، وأولاده يعيشون من دون كلب ، أخذوا يصرخون من السطوح ، أو وهم واقفون أمام الدكاكين بأرضيتها الموحلة ، أو عند أعتاب البيوت ، أو من كرويتات المقاهي : «رفيق سامي هذا شنو الكلب اللي يركض وراك ؟ . . .»

يقول لهم ساخراً : « هذا أحسن منكم وأشجع منكم . . كلمته كلمتين عن وضعه البائس وقرر أن يلتحق بالحركة الثورية . .»

حين وصل المنزل خرجت حوري من الباحة وهي ترتدي وزرتها على خصرها ، وشعرها الأبيض المنكوش ، ونظارتها الدائرية ، ووجهها الأصفر المتعب المريض ، وحين رأته تيبست في مكانها ، فتحت عينيها على اتساعهما وتجمدت وهي رافعة يديها ، في إحداها تحمل ملعقة خشبية كبيرة كانت تخوط فيها مرقة البامية . .

مكتبة الفكر الجديد

ثم صرخت بوجهه :

«لك . . سامي . . بقه أنت اشجايب لي . . ما يكفيني عجاياك بقه . .»

«حوري اشفارق لك . . قابل أخليه يموت بالمطر . .»

هكذا عاش والده وقد احتفظ يوسف منه بعد وفاته بمعطفه عند الشماعة ، قبعاته ، كتبه ، ومظلاته ، وواقيات المطر ، وأحذيته الكبيرة حتى يوم هجرته في العام ١٩٥٠ .

**

(قصص التندر كثيرة على والده ، لكن يوسف يرسم في رسائله صورة جميلة عن طفولته على الرغم من فقر العائلة ، ولا سيما الرسائل التي أرسلها من طهران بين شهر آب من العام ١٩٥٤ ، وشهر تموز من العام ١٩٥٥ ، أما رسائل العام ١٩٥٦ فكانت تتحدث عن حياته الفنية والتحاقه بالفرقة السمفونية الوطنية الإيرانية)

**

كانت صورة الموسيقى تطابق صورة الأم . . مذ كان طفلاً ، أسرته صورة والدته ، أصابع يديها الطويلة ، قامتها النحيفة ، صدرها الفاتن وسط تقويرة الثوب ، كان مأسوراً بها وهو يراها في حجرة نومها ، وهو يرى أنوثتها التي لم تذوبها الأمومة مطلقاً ، ينظر لها :

مرآة كبيرة معلقة في صدر الحجرة ، إطارها من خشب الساج ، تقف أمامها لتستعرض جسدها قبل أن تصحبه إلى حفلات الموسيقى ، كان يشعر بجمالها ، وبثقل أنوثتها ، منذهلاً من الملابس المثيرة في حجرتها ، وبالرغم من أنهم لم يكونوا أغنياء ، إلا أنها كانت لها هيئة امرأة أرستقراطية كبيرة ، وملابسها الجميلة كانت تخيطها بنفسها بماكنة الصنجر

مكتبة الفكر الجديد

الموضوعة في حجرتها ، وكان إبراهيم ناجي شميل الثري الشريك في مذخر أدوية جوري ، الذي سقط في غرامها يوماً من الأيام ، هو الذي كان يقدم لها ثمن بطاقات الحفلات والكونسيرتات الموسيقية التي تأخذ ابنها لها بكل تواضع واحترام .

كان يوسف يدخل الصالة بجسمه الصغير ، ساقاه رفيعتان في الشورت الأزرق ، وقميصه الأبيض عريض على جسده ، عيناه حالمتان ووجهه ساكن وجميل ، كان يبقى هناك ساعات طويلة ، رصيناً صامتاً ، كان منذهلاً أكثر مما كان مبتهجاً ، هذا ما لاحظته عليه أمه ، وقد كانت الموسيقى الكلاسيكية نسبة له أشبه بالتعبد أو الصلاة ، كان يقضي الوقت صامتاً وعيناه ثابتتان تتابعان الألحان وهي تتداخل ، إذ لم يكن يكترث على الإطلاق لما كان يدور حوله إذا بدأت هذه الموسيقى ، كان رومانسيا ميئوساً منه ، متمسكاً بالفن كآخر خيط يربطه بالحياة ، ومن الواضح أنه أكمل دراسته للموسيقى عند دخوله المعهد الموسيقي العراقي والذي كان يرأسه ذلك الوقت جوليان هرتز ، ومن ثم أسهم في تأسيس جمعية بغداد الفولهارمونيك مع بطرس حنا ، وساندو ألبو ، وجميل سعيد ، وأندريه تورير ، وبقي معهم حتى هجرته إلى إسرائيل ، ولكن التجربة العظيمة الحقيقية التي حدثت له في حياته ، هي المنحة التي حصل عليها يوسف سامي صالح من ثري بغدادي للسفر إلى موسكو وهو في الخامسة عشرة من عمره لمدة شهر ، حيث أتيح له الاستماع إلى أعمال أوركسترالية ، ومؤلفات لموسيقى الحجرة في قاعات البولشوي ، واستمع إلى رخمانينوف ، وزار جمعية المؤلفين الروس ، وأكاديمية الموسيقى ، ومسرح الأوبرا في مدينة بريانسك . . . وقد أثرت عليه هذه الزيارة أكبر الأثر ، بل هي التي صاغت حياته برمتها فيما بعد ، ذلك أنه للمرة الأولى في حياته يرى هذا العدد

مكتبة الفكر الجديد

الكبير من الموسيقيين والمتفرجين أيضا ، فقد وقف هناك مندهشاً لمرآهم ، منسحراً بأشكالهم ، وملابسهم ، وهندامهم الأنيق ، لقد بقي مبهوتاً وهو ينظر إليهم بإعجاب كبير ، ومن هناك أراد أن يتشبه بهم ، أراد أن يكون مثلهم ، فقد اشترى معطفاً بجيوب واسعة ، ونظارة دائرية ذات إطار ذهبي أنيق ، وحذاء جلدياً ، وبابيوناً قرمزياً ، لقد كان منسحراً بوجوه هؤلاء العازفين وبلحاهم الطويلة ، وكان يتمنى أن تكون له لحية ليطلقها مثلهم .

لم يكن يوسف وسيماً إلى درجة كبيرة ، وجنتاه بارزتان ، وفمه واسع ، وأنفه يميل إلى الصغر ، وجهه معبر وحزين ، وضحكته واطئة ، ولم يكن يتكلم كثيراً ، وعند عودته شعر بأنه أصبح كبيراً ، أصبح رجلاً على الرغم من أن عمره لم يتجاوز الخامسة عشرة بعد ، ولهذا السبب شعر بأعمق حادثة حب في حياته ، حادثة حب ضربته مثل إعصار ، هدته مثل قلعة ، حطمته إربا وطمرته بالرمل ، كانت حادثة الحب هي حبه لابنة خالته كلادس ، والتي جعلته يستيقظ صباح كل يوم على صوت صياح الديكة من منزل موشه ، موشه الخياط في سوق التكية ، أو على زقزقة العصافير على أشجار اليوكالبتس ، فيبقى منذ الفجر وحتى الصباح متيقظاً ومتنبهاً ، يبقى منذ الفجر حتى طلوع الشمس مفكراً في حجرته ، وعندما يقبض على الفكرة بصنارة عقله يمسك بيده فيولونه ويرسمها بالأصوات ، لقد عرف يوسف بشكل لا يقبل الجدل أن هذا الحب هو الذي جعله يعزف بمشاعر رهيفة ، هذا الحب وحده الذي جعله يعزف بوله حقيقي ، جعله يستخرج اللحن من أعماق قلبه ، وهكذا عرف أنه في دوامة حب حقيقية وعنيفة ، عرف بأنه هابط بسرعة لا تتوقف إلى نهاية القعر ، مع ذلك كان يشعر أن لا أحد ممن كان يعرفهم يحفل بموسيقاه ، لا كلادس التي كان يحبها ولا أية فتاة أخرى سبق له أن عراها في تفكيره ،

مكتبة الفكر الجديد

أو حلم بها في الفراش حتى شهق من المتعة واللذة .

ولكن هل كان هذا الحب من دون جدوى؟

أبداً ، لولا هذا الحب ما كان بإمكانه أن يعزف من كل مشاعره ، ما كان بإمكانه أن يعزف بكل حس كان يمتلكه ، بكل عاطفة كانت تنطلق من داخله ، كان يكافح من أجل أن يكون موسيقاراً كبيراً ، ومهما قدمت له الحياة من خيارات ومتع كان يرفضها عن طيب خاطر ، لم يكن يريد سوى أن يكون موسيقاراً ، وهناك في موسكو . . وقف أول مرة في حياته أمام أكبر مايسترو في العالم ، كان المايسترو نحيفاً ، يرتدي بذلة سوداء وبابيوناً قرمزياً وله لحية طويلة ووجهه أحمر مثل النبيذ ، وقد نصحه هذا المايسترو أن يستوحي فنه وموسيقاه من شعبه لا من مكان آخر :

كان المايسترو واقفاً بمعطفه السميك ، وبوجهه الأحمر الذي يشبه النبيذ . قال له : «من أين أنت؟»

«من العراق . . » قال يوسف وقد تعرقت راحتا يده .

«جيد حاول أن تجد مشهداً من شعبك وبلدك لتحوله إلى موسيقى»

قال له المايسترو ذلك دون أن يعرف أين يقع العراق أصلاً ، ولكي يعزي يوسف نفسه بعد عودته من موسكو ، قال إنه سوف يؤلف مقطوعة موسيقية يستوحيها من صراخ بائع الفجل الذي كان يملأ الدرب ، من صورة العربنجي الذي يمر بعربته ومنبهها الذي يزعق طوط طوط ، من مشهد حمادي البائع الذي كان يسير في الشارع ببغله الأجرب الحرون ، وهو مربوط بعربة تحمل الشلغم من مزرعة سيد حسن ، ومزوقة بجميع القطع الملونة ، يستمد موسيقاه من لحن متسولة كردية بموالها الشجي ، وهي تستجدي السكان أن يمنحوها الخبز اليابس لتبيعه إلى دكاكين باعة النخالة بالجملة . . . أو من واقعة الحب ، حبه لكلادس ابنة خالته ، ومتعة أكل

مكتبة الفكر الجديد

الكباب بملاعق وشوكات فضية في منزلهم، صورة كلادس التي كان يحبها وهي تجلس على الكنفة وهي تمسك بيدها الكتاب المقدس.

نهض من مكانه ذلك اليوم، شعر بأنه وجدها.. وجد هذه الفكرة التي نصحه بها المايسترو الروسي متركزة في صورة كلادس، متركزة في متعة زيارة منزل خالته التي لا توصف، متركزة في هذه البهجة النابعة من مصاحبته لأمه عند زيارتها لمنزل خالته مسعودة دلال في الكرادة، حيث تبقى أخواته البنات ديزي، وراشيل، وسعيدة في المنزل، أما هو فيصاحب أمه ليأكل الكباب بملاعق وشوكات وسكاكين فضية من شغل العجم، وفي منزل خالته سمع الكبار أول مرة وهم يتحدثون عن أشياء خطيرة ومهمة، قد سمع للمرة الأولى في حياته بأسماء ستلازمه طوال حياته، سمع بهتلر وموسليني والنازية والمحور والحلفاء والفتوة وكتائب الشباب.

وكانت ابنة خالته كلادس، التي تقرأ معه الكتاب المقدس، تجلس إلى جانبه، ترفع بيديها الجميلتين إناء كان موضوعاً على المائدة فيرى إبطيها الأبيضين الحليقين وهما يبعثان عطراً طيباً حتى يجعله يتسمر في مكانه ويتخدر، كان ينظر وجهها المحاط بشعرها الذي يعكس لون الحنة، ينظر هذا الجمال الخلاب الذي لم يكن يفارقه ولا حتى في الأحلام، ينظر هذه الشابة الأكثر جاذبية ورشاقة من كل فتيات قومها، الشابة الأكثر تمنعاً، وهي تلاطفه وتريد ممالقته، فترسم ابتسامة لطيفة على شفتيها المكتنزتين، وتضع يدها على كتفه.

مرة، أخذته معها لتجلسه على سور المنزل المصنوع من الطوب الأحمر، حيث أحاطت بهما أرض واسعة معشبة، ثم قادته من يده ليقفا تحت سعف النخل الأخضر، لينظرا إلى عناقيد التمر بغضارته الكثيفة تحت السَّعَف الذي يهزه النسيم، كان سعيداً، مبتهجاً وهو ينظر الدجاج

مكتبة الفكر الجديد

الذي ينق ، ويلقط الحب تحت النخل وحول السور المصنوع من الطوب ، وكانت كلادس ترتدي ثوبها الأبيض الشفاف ، حيث زنداها العاريان ، ورقبتها مثل الوزّ ، وفي المساء أدخلته المنزل حيث علقت لمبة التبت في عيد رأس السنة العبرية ، ووضعت على الطاولة دجاجة محشوة بالتوابل والحمص واللحم .

كان يوسف يعجب بكلادس حين ترمي الكتاب المقدس وتلتقط كتابها المفضل ، كتاب «السيلابير» للغة الفرنسية الذي درسته في مدرسة الأليانس ، تركض وتغني بصوتها الناعم أغنية جميلة ، تغني بإيقاع سريع وهي تلقط التمر المتساقط من النخيل ، فيكتشف الهجوم الذي لا يرحم للكلمات الأجنبية التي لا يفهمها والتي تقتحم سمعه ، مثل صوت طير جارح كبير ، ذلك الوقت اكتشف يوسف ورد الجوري وهو يتفتح في بركة صغيرة من الوحل قرب سياج الطوب ، اكتشف الأزهار وهي تتفتح في الربيع في الحديقة الواسعة الصغيرة . وحينما كانت العائلة تذهب إلى الكنيس اليهودية القريبة كنيس أبو صالح أو كنيس مسعودة شمطوف أو كنيس سامي طويق ، تجلس كلادس إلى جانبه لتقرأ له من كتاب السيلابير وهما ينظران إلى الشجرة القديمة بلحائها الخشن المغطى بالأشنة . كان يوسف يدرك جيداً أنه الذكر الوحيد الذي تلاطفه بنت الخالة ، وفي يوم أدخلته إلى غرفة صغيرة في الحوش ، واضطجعت معه على سرير حديدي صدئ ، كان مهملاً في الحجرة الفوقانية ، وقد أنزلته أمها لعلها تجلب باهيزة ، ابنة الفلاحين المسلمين الذين يملكون زريبة وبقرتين قرب البستان ، كي تخدمها وتنام فيها .

جرت كلادس يوسف الخجلان من يده ، هناك عرته ومددته على الفراش وبدأت بمداعبته . طلبت منه أن يمص لها حلمتها فأطاعها ، مد

مكتبة الفكر الجديد

شفتين راجفتين وأخذ يمص لها حلمة وردية متوهجة ، كان ينظر بترقب وله عينيها اللامعتين ، وحشرجة صوتها ، واحمرار خديها ، كان يشم عطراً بهيّاً في ملابسها البيض النظيفة ، كان يشم شبقها في الفراش ، وهي تشم فيه سحراً ذكورياً وفحولة لا تستطيع مراهقة مقاومتها ، مدت يداً لتطوقه نحوها ، بينما مدت يدها الأخرى من تحت كالسونها ، حتى صعدت الحمى في جسدها وأخذت ترعش ، وهي تحتضنه وتقبله ، وحين شهقت خشي عليها كثيراً ، وظن أنها تتألم أو أنها تموت .

**

في الواقع هذه هي المرة الأولى التي يعيش فيها يوسف لحظات حميمة مع امرأة ، كانت هذه المرة الأولى التي يختلي فيها بامرأة ،لم تكن تجربة سهلة أبداً ، هذه أول تجربة له في رؤية صدر امرأة حقيقي في حياته ، في رؤية صدر أبيض مثل فنجان القهوة ، وهي المرة الأولى التي يضع فيها شفاهه على حلمة وردية حقيقية ، بعد أن حلم بها سنوات وسنوات حتى خشي عليها أن تذوب بين شفتيه ، وقد بقي بعدها بأيام عديدة يشعر بصداع هائل في الرأس ، ويشعر باضطراب كبير في جسده كله ، كان يشعر بشيء من الخفقان والذهول ، وربما هو الذي هزه وأرجفه عندما بدأ بأول عزف له في الإذاعة لمقطوعة طويلة لموزارت ، حيث وصفه المقدم ذلك الوقت بأنه النابغة الأول في هذه البلاد على آلة الفيولون ، وهو العازف الأول في البلاد الذي برع في هذا الفن الكلاسيكي ، وكانت هذه الكلمة الأخيرة التي ذكرها المقدم ذلك اليوم هي ملهمته الأثيرة ، وربما أنسته رعشته ورجفته وصداعه وانذهاله أمام جسد كلادس الفتي ، كيف؟

في الواقع ما كان سهلاً على يوسف أن ينسى هذه اللحظات التي

مكتبة الفكر الجديد

جعلته يعيش أياماً بذهول كبير ، ولا سيما أنه اندهش حين رأى كلادس بعد أيام من هذه الحادثة وهي تتصرف بعادية ما بعدها عادية ، وكانت كلما تقع عيناها عليه يهرب بعينيه إلى مكان آخر ، فهي على العكس منه تماماً ما كانت مهتمة بهذا الأمر أبداً ، بل كانت تتصرف بصورة طبيعية تماماً ، تتحدث معه كأن شيئاً بينهما لم يكن ، وهو من جانبه ولكي يتلافى هذه الحادثة في ذهنه ، كي يمسح أزمة الضمير التي أخذت تعذبه ، ظل يعيد في ذهنه كلمات مقدم الإذاعة مراراً وتكراراً ، علها تمحو هذا المشهد الغريب من ذهنه ، علها تمسح هذا المشهد الغريب المطلوب والمحلوم ولكنه المقزز في الوقت ذاته ، هذا المشهد الذي لم يكن يمر يوماً لم يحلم به أصبح اليوم يقض له مضجعه ، ويحرمه من الوحدة اللذيذة والتفكير الصافي والتأمل ، ذلك أن هذا الرومانتيكي كان يعتقد أن الجنس أرقى بكثير من هذه الصورة الحيوانية ، أنه مثل الموسيقى ألوان وتصعيدات وسمو وارتقاء صوفي إلى الأعلى ، وهو ليس روائح وإفرازات وشهقات وتأوهات مخجلة ، هو نوع من التحليق إلى أعلى وليس جسدا منبطحاً وشفاهاً تصرخ به : . . مص . . مص . . كان وجه كلادس الملائكي وهو يراها تسير في المنزل يتعارض بقوة مع صورتها بشعرها المهوش وعينيها الحمراوين ووجهها المتعرق وشفاهها التي ترتجف وتتأوه وتتكلم بصوت مبحوح . .

وهكذا كلما كان يتذكر الشهقات والتأوهات كان يردد مع نفسه كلمات مقدم الإذاعة على الرغم من أنه لم يكن متأكداً فيما إذا كان هذا المقدم المحلي يعرف معنى الكلاسيكية أم لا ، وبالرغم من أن هذه الكلمة التي أرادها أن تمسح مشهد كلادس تتعارض مع نصيحة المايسترو الروسي الذي أراد منه العودة لاستيحاء الموسيقى من مشاهد شعبه ، هذا يعني :

صورة شارع الرشيد بصباحه البهي ، وميدان الباصات الخشبية

مكتبة الفكر الجديد

بازدحامه الجنون ، وأصوات عربات الربل بجلدها الأسود ، ومصابيحها الذهبية ، هذا يعني أن عليه أن يستوحي الموسيقى من المغازات الكبيرة ، ودكاكين الصاغة ، والمقاهي المتعددة ، أن يستوحيها من رصيف المحطة التي يتجمع عندها باعة الحمص ، وباعة التكة على المناقل السود حيث يقرفص العمال والجنود ، ويدور عليهم باعة السجائر بالمفرق ، أن يستوحي الموسيقى من أعتاب السينمات ، ومن أبواب المنزول حيث يرى بائعات الهوى بملابسهن الفاضحة ، وهن يسرن بغنج تحت العباءات السود ، حيث يمسكنها من المقدمة ويسرن بمهل والعلكة تطق تحت أسنانهن ، أن يستوحيها من مساء بغداد حين يتجمع اللصوص ، والحشاشون ، والمقامرون في المقاهي القريبة من النهر بحذر شديد ، خوفاً من رجال الشرطة الذين يمرون على الخيول بملابسهم الكاكية ، وأحزمتهم الجلد العريضة ، وقبعات رؤوسهم التي تشبه خوذات الفرسان ، وهم يحملون الهراوات السود المروسة بالمسامير .

هل هذا ما كان يعنيه المايسترو الروسي؟ وإن لا! إذن ماذا كان يعني بجملة يستوحي الموسيقى من شعبه؟ ظل يوسف أياماً يرفع يديه مثل حطاب ويصرخ أمام المرآة : ماذا كان يقصد هذا المايسترو الروسي بوجهه الأحمر مثل النبيذ بهذه الجملة ، إذا هو لم يسبق له أن رأى هذه البلاد ولا يعرف شعبها مطلقاً ، طيب . . وماذا كان يقصد مقدم البرامج بكلمة كلاسيكي ، ماذا كان يقصد هذا المسلم بكلمة كلاسيكي ، وقد قالها وهو يمد وجهه الأسمر الذي يشبه وجه يهودي؟

هل هذا يعني أن يصور بغداد في نوتاته الموسيقية ، صورة مدينة ضاجة صاخبة بالعمال والصنايعية والزبالين والعتالين والشرطة؟

أو يذهب بعيدا ليصور أشياء تجريدية لا تخص هذا العالم ولا ذاك؟

مكتبة الفكر الجديد

لم يكن يوسف يشعر بالعجز أبداً من أن يستوحي موسيقاه من حياة الناس البسيطة ، من حياة أخواته ، من صورة أخيه الصغير الذي مات بالتهاب السحايا وهو في سنته الثانية من العمر ، لم يكن يشعر بالعجز من أن يستوحي موسيقاه من باصات شارع الرشيد الخشبية ، من رؤية اليهود القذرين في محلة التوراة ، أو محلة أبو دودو ، أو أبو سيفين ، أن يستوحيها من حديث الناس عن الحرب ، من المدفعية الإنكليزية التي قصفت بغداد ، من ذكريات النزهات الليلية على شاطئ دجلة ، من الخرائب ، من الأشباح ، من السنوات الأولى التي مثّلت له الاكتشاف الخطير للعالم ، من زمن الدهشة والألم الذي لا يّمحي ، ولكن هل هذا هو ما عنى به الموسيقار الروسي الذي لم ير في حياته العراق ، ولا يعرف أين يقع بجملة أن يستوحي الموسيقى من شعبه . .

كيف يفهم ذلك ومن أين يفهم وهو يريد أن يكتب اسكتشات وتمرينات وإتودات وغيرها . .؟

صورتان تتأرجحان في ذهنه ذلك الوقت ، صورة الموسيقى في جوهرها الشعبي والمحلي والتي أرادها له المايسترو الروسي ، وصورة الكلاسيكي التي أرادها له مقدم البرامج المحلي . الصورة الثانية مثل فكرة ألبيرتو كايرو . . في دكان التبغ ، موسيقى لا تعبر عن شيء وهي تعبر عن كل شيء ، تعبر عن خطوط لا عن أفكار ، عن أصوات قادمة من جوهر الوجود لا من الوجود ، تعبر عن الماهية ولكن بلا أشكال ، عليه أن يصنع موسيقى تجعل الوجود ممدداً على طاولة ، يتأمله يوسف ولا يكون أفكاراً عنه ، يصنع جسداً لا يتلاشى لأن الموسيقى لا تتلاشى ، يصنع شعوراً خالداً وأبدياً ، فالشعور وحده الذي لا يزول ، يصنع الموسيقى مثل قفزة في الفراغ ، موسيقى تتعلق بكل ما هو سرمدي وأثيري . هذه الموسيقى التي كان يعني بها مقدم

مكتبة الفكر الجديد

البرامج في الإذاعة الكلاسيكية دون أن يعرف معناها!

**

لكن هنالك ما هو أهم . .

كيف يمكنه الاستمرار في هذا المجتمع الضيق الذي يحيط به ، كيف يمكنه التطور والتحول في هذا المجتمع الذي يطوقه مثل قشرة صدفية صلبة ، هذا المجتمع الذي يحيط به مثل قشرة سميكة لا يمكنه النفاذ من خلالها أو اختراقها أبداً ، فهنالك قشرة العائلة السميكة أولاً ، وهنالك سور المجتمع اليهودي في بغداد الثلاثينات ثانياً ، وهناك قلعة المجتمع المسلم الذي يحيط بالمجتمع اليهودي ثالثاً؟

مع ذلك حدث الانقلاب الأكبر في حياته ، كان أول حادث انقلاب قد غير مسار حياته تماماً وإلى الأبد ، دون أن يعي ذلك أو يدركه أول الأمر ، هو انتقال سكنهم من محلة التوراة المغلقة إلى شارع الرشيد في جديد حسن باشا في العام ١٩٤٥ .

في الواقع كانت هذه هي نقطة الانقلاب الحقيقية في حياته ، وفي شخصيته أيضاً ، بل إن هذه الواقعة هي التي لعبت أكبر الأثر في حياته فيما بعد ، وهي التي حددت طبيعة وجوده للسنوات المقبلة ، كيف؟

لقد خرج يوسف تماماً من قلق المحلة اليهودية المغلقة ، خرج من الغيتو الصغير إلى فضاء العالم الواسع والكبير ، خرج من القشرة الصلبة إلى وجه الشمس ، ولم يكن هذا الأمر هيناً عليه أبداً ، فقد كان هذا الأمر هو اختباره الحقيقي ، كان هو اختباره الوجودي بكل معنى الكلمة ، والذي ظل يتذكره طوال حياته ، ويتذكر على الدوام الفكرة المرعبة وهي أن يعيش أبداً في ظل غيتو ضيق مظلم وصغير .

لقد كان هذا الانتقال قفزة حقيقية في حياته ، فمن جهة خرج

مكتبة الفكر الجديد

لم يكن يوسف يشعر بالعجز أبداً من أن يستوحي موسيقاه من حياة الناس البسيطة ، من حياة أخواته ، من صورة أخيه الصغير الذي مات بالتهاب السحايا وهو في سنته الثانية من العمر ، لم يكن يشعر بالعجز من أن يستوحي موسيقاه من باصات شارع الرشيد الخشبية ، من رؤية اليهود القذرين في محلة التوراة ، أو محلة أبو دودو ، أو أبو سيفين ، أن يستوحيها من حديث الناس عن الحرب ، من المدفعية الإنكليزية التي قصفت بغداد ، من ذكريات النزهات الليلية على شاطئ دجلة ، من الخرائب ، من الأشباح ، من السنوات الأولى التي مثّلت له الاكتشاف الخطير للعالم ، من زمن الدهشة والألم الذي لا يَمحي ، ولكن هل هذا هو ما عنى به الموسيقار الروسي الذي لم ير في حياته العراق ، ولا يعرف أين يقع بجملة أن يستوحي الموسيقى من شعبه . .

كيف يفهم ذلك ومن أين يفهم وهو يريد أن يكتب اسكتشات وتمرينات وإتودات وغيرها . .؟

صورتان تتأرجحان في ذهنه ذلك الوقت ، صورة الموسيقى في جوهرها الشعبي والمحلي والتي أرادها له المايسترو الروسي ، وصورة الكلاسيكي التي أرادها له مقدم البرامج المحلي . الصورة الثانية مثل فكرة ألبيرتو كايرو . . في دكان التبغ ، موسيقى لا تعبر عن شيء وهي تعبر عن كل شيء ، تعبر عن خطوط لا عن أفكار ، عن أصوات قادمة من جوهر الوجود لا من الوجود ، تعبر عن الماهية ولكن بلا أشكال ، عليه أن يصنع موسيقى تجعل الوجود ممدداً على طاولة ، يتأمله يوسف ولا يكون أفكاراً عنه ، يصنع جسداً لا يتلاشى لأن الموسيقى لا تتلاشى ، يصنع شعوراً خالداً وأبدياً ، فالشعور وحده الذي لا يزول ، يصنع الموسيقى مثل قفزة في الفراغ ، موسيقى تتعلق بكل ما هو سرمدي وأثيري . هذه الموسيقى التي كان يعني بها مقدم

مكتبة الفكر الجديد

البرامج في الإذاعة الكلاسيكية دون أن يعرف معناها!

**

لكن هنالك ما هو أهم . .

كيف يمكنه الاستمرار في هذا المجتمع الضيق الذي يحيط به ، كيف يمكنه التطور والتحول في هذا المجتمع الذي يطوقه مثل قشرة صدفية صلبة ، هذا المجتمع الذي يحيط به مثل قشرة سميكة لا يمكنه النفاذ من خلالها أو اختراقها أبداً ، فهنالك قشرة العائلة السميكة أولاً ، وهنالك سور المجتمع اليهودي في بغداد الثلاثينات ثانياً ، وهناك قلعة المجتمع المسلم الذي يحيط بالمجتمع اليهودي ثالثاً؟

مع ذلك حدث الانقلاب الأكبر في حياته ، كان أول حادث انقلاب قد غير مسار حياته تماماً وإلى الأبد ، دون أن يعي ذلك أو يدركه أول الأمر ، هو انتقال سكنهم من محلة التوراة المغلقة إلى شارع الرشيد في جديد حسن باشا في العام ١٩٤٥ .

في الواقع كانت هذه هي نقطة الانقلاب الحقيقية في حياته ، وفي شخصيته أيضاً ، بل إن هذه الواقعة هي التي لعبت أكبر الأثر في حياته فيما بعد ، وهي التي حددت طبيعة وجوده للسنوات المقبلة ، كيف؟

لقد خرج يوسف تماماً من قلق المحلة اليهودية المغلقة ، خرج من الغيتو الصغير إلى فضاء العالم الواسع والكبير ، خرج من القشرة الصلبة إلى وجه الشمس ، ولم يكن هذا الأمر هيناً عليه أبداً ، فقد كان هذا الأمر هو اختباره الحقيقي ، كان هو اختباره الوجودي بكل معنى الكلمة ، والذي ظل يتذكره طوال حياته ، ويتذكر على الدوام الفكرة المرعبة وهي أن يعيش أبداً في ظل غيتو ضيق مظلم وصغير .

لقد كان هذا الانتقال قفزة حقيقية في حياته ، فمن جهة خرج

مكتبة الفكر الجديد

يوسف من الغيتو إلى المجتمع كإنسان كامل ، من جهة أخرى خرج من الطفولة إلى عتبة الرجولة الكاملة ، فلم يعد يرتدي الشورت القصير كما كان في منزلهم القديم في الحي اليهودي ، ولم يعد يأخذ من أمه السكاكر التي تخرجها من خزانة البيت ، وهذا الأمر كان في غاية الأهمية في حياته ، فإن كان الحي اليهودي يوفر له نوعاً من الحماية في الداخل ، كما ذكر في واحدة من رسائله إلى فريدة ، إلا أنه كان يوفر له الخوف أيضاً من الخارج ، كانت الحياة في الأحياء المختلطة هي اختبار من نوع جديد ، اختباره هو حينما يخلصه هذا الوضع الجديد من الخوف من الخارج ، يخلصه من الرعب الذي كان يسكن فيه وهو تحت سور الحي اليهودي ، لقد تعلم يوسف في منزله الجديد أشياء جديدة تهيؤه لأن يقف على قدميه . أولاً : لم يعد يطيق الجلوس طويلاً في المنزل ، لأن هذا من علامات الطفولة ، ثانياً : شعر بأن عليه أن يسير بكبرياء وثبات كي لا ينظر إليه كيهودي جبان ، لقد أصبح شاباً ، واسع الصدر ، يسير متمهلاً بكبرياء . ثالثاً : لم يعد يسير بصحبة والده وعكازته الغليظة في شارع الرشيد ، كما أنه أخذ يشعر شيئاً فشيئاً أنه من أهالي الحي ، لقد شعر يوسف ذلك الوقت بأنه ساكن متجذر لا زائر طارئ ، وقد أخذ يعزم أصدقاءه المسلمين إلى منزله ، فتهرع أمه سعيدة إلى المطبخ لصنع القهوة ، وتخرج الفناجين المفضضة من الخزانة العتيقة ، لقد شاهد يوسف عيني أمه تصبحان أكثر ألقاً ، ووجهها أكثر نضارة ، وهي تسمعه يثرثر بصوت عال عن الجارات المسلمات .

كما أن سكنه الجديد هيأه أن يكون وسط العالم ، وفي رؤيا العالم كذلك ، لقد هيأة أن يكون واحداً من الذين شهدوا ذلك العام الفرق الموسيقية وهي تعزف في شارع الرشيد ألحاناً كثيرة بمناسبة تأسيس

مكتبة الفكر الجديد

المملكة ، شاهد الفرق العسكرية ذات الآلات النحاسية تجوب الشوارع جيئة وذهاباً ، وقد ذكر في واحدة من الرسائل المرسلة إلى فريدة في العام ١٩٥٦ أن هنالك فرقة موسيقية أخرى مؤلفة من اثني عشر عازفاً كانت تعزف لتنشيط حفلات الرقص الصغيرة في كرنفالات النادي الإنكليزي ، ونادي لورا خضوري ، كما جرى ذلك العام وعلى خلاف كل الأعوام الأخرى تنظيم بطولات وطنية في رقصة الدبكات في حدائق الملك ، وقد نجحت هذه الكرنفالات نجاحاً عظيماً على الرغم من تهديدات رجال الدين بتحريمها ، وتنافست حارات المسلمين في لعبة الزورخانة ، وتنافست حارات المسيحيين في صناعة العرق وتنظيم حفلات الرقص الشرقي ، وقد رقصت ذلك العام أكثر من ثلاث راقصات يهوديات وراقصتان مسلمتان ، وراقصة أرمنية واحدة ، وتودد يوسف لأول مرة ، إلى فتاة كردية تقطن في شارع الرشيد ، اسمها دينا ، واستجابت له الفتاة أمام مفاجأة الحي بأسره ، ونسي يوسف خجله وصار يعزف الفيولون أمام الناس في حين أنه لم يتمكن في السابق من الظهور العلني على الإطلاق ، لقد عم ذلك العام نوع من الاضطراب في العلاقات الذي لم يعرف إلى اليوم أحد مصدره ، فقد خطب ضابط مسلم إحدى اليهوديات العاملات في مدارس ساسون خضوري وتزوجها ، وتزوج مسيحي إحدى اليهوديات ، وأحب رجل يهودي شهير خادمته المسلمة وأراد الانتحار حين رفض أهله زواجه منها . . كان شيئاً من الاهتياج العاطفي الذي أصاب محلة شارع الرشيد في الأربعينيات ، كان اهتياجاً واسع النطاق جعل بعض الناس يصابون بالذهول .

**

ولكن ماذا حل بكلادس؟ أين أصبحت . ماذا جرى لحبه لها؟ إنها

مكتبة الفكر الجديد

حبه الأول وربما حبه الأخير على الرغم من العلاقات التي أخذ يكونها تلك الأعوام ، ولكنه لم يستطع نسيانها أبداً ، ولم يكن أمر نسيانها متعلقاً به وحده بطبيعة الأمر ، ذلك أن طبيعة كلادس لا تدع أحداً ينساها . .

من الواضح أن كلادس قد أثرت في حياته تأثيراً بالغاً ولا سيما بعد زواجها من طبيب اسمه فوزي ، وقد شغلت كلادس لا عائلتها وحدها إنما كل المجتمع البغدادي بقصصها وحكاياتها وفضائحها ، وكان يوسف يصغي باعتناء لتفاصيل مغامراتها كل مساء حينما تتجمع العائلة على طقس الشاي والكعك اليومي والذي يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل ، لقد بهرته أوانذاك أخبار كلادس التي لم يعرف بأية طريقة سوف يتناسى حبها ، أو الإعجاب بها ، أو حتى الانبهار بمغامراتها ، وإن كان الكل يحقد عليها ، ويشجب تصرفاتها ، وينتقدها ، ويكرهها ، ويشتمها ، فقد كان يوسف وحده الذي يقف منبهراً بحياتها المثيرة التي تتقلب بين الرفاهية الكبيرة والخيانات الكثيرة ، فقد تزوجت كلادس برغبتها من طبيب وسيم وثري ، وأخذت حياتها تتقلب بين المنزل الفاره والرحلات إلى أوربا ، تتقلب ممزقة بين حبها الجديد لسائق زوجها المسلم ، وبين زوجها الذي يحبها ، وعاشق ثالث أخذ يلاحقها مثل ظلها .

ومن المعروف أيضاً أن زوجها الدكتور فوزي الذي كان يعمل طبيباً جراحاً ، كان هو الآخر مشهوراً في حياته المتقلبة بين النساء ، غير أنه انخرط في حياة عائلية سليمة بعد زواجه من كلادس ، ويقال إنه هو الذي أنقذها من الموت حين تعرضت لحادث سيارة عندما كانت تسوق في يوم ممطر وهي أكثر مرة تساقط فيها المطر في بغداد ، وقد كانت كلادس هي مريضته الجميلة اللامبالية ، ومن اللحظة الأولى سقط بحبها وغرامها ، وبذل جهداً كبيراً حتى أقنعها بالزواج ، غير أنها لم تكن وفية ، فبعد فترة

مكتبة الفكر الجديد

من الزمن ، حامت الشائعات حولها ، وأخذ الجميع يعرف أنها أخذت تحب سائقه المسلم .

يصف يوسف في رسالة طويلة كيف كان يستمع بنهم شديد إلى قصة الخائنة ويعجب بها ، كان يتسقط أخبار المرأة المتزوجة والتي كانت حاملاً ذلك الوقت ، غير أنها لم تكن تبالي لا بزوجها ، ولا بمولودها ، وكان يوسف يدرك ، وقد أصابه قلق حقيقي ، أن الحب يفضي إلى لذة كبيرة ، ومعرفة ، وأنه خلاص للناس من النفي والضياع ، ولكنه أحياناً يكون قاسياً كما كان مع كلادس وزوجها .

وفي العام ذاته ، عام كلادس وفضائحها ، كان قد التقى يوسف بعازف الفيولون الروسي الشهير ميشيل بوريزنكو (M. Boricenco) ، وقدم أمامه أول عزف منفرد على آلة الفيولون لباخ وباغانيني وإيساي Bach, Ysaye, Paganini ، على صالة صغيرة في النادي الإنكليزي في بغداد ، وتقديراً وإعجاباً لعزفه أهداه بوريزنكو فيولوناً وقوساً راقيين . وفي شهر مايس من العام ذاته اندلعت الحرب العراقية-البريطانية ، مصحوبة بثورة قومية متأثرة بالنازية ، وحالة فوضى هائلة عمت البلاد ، وتعرضت الطائفة اليهودية إلى الاعتداء والنهب والسلب والقتل ، حيث أحرقت مسعودة دلال خالة يوسف سامي صالح ووالدة كلادس أمام عينيه ونهبت أموالها .

الرسائل

في الواقع وأنا أكتب سيرة يوسف سامي صالح أو على الأقل وأنا أؤشر هذه الشخصية بالعمر المحدد والحياة والأفكار والتنشئة وهي المقاربة كلياً ، أو المناظرة إلى حد بعيد لشخصية حارس القطيع في ديوان دكان التبغ أشرت مستويين من رسائله المرسلة إلى فريدة روبين ، والتي تتعرض

مكتبة الفكر الجديد

إلى حياته في بغداد ، المستوى الأول يصف به طفولته في بغداد والتي تمتد إلى حادثة الفرهود (مايس من العام ١٩٤١) التي راح ضحيتها المئات من اليهود في بغداد بعد صعود التنظيمات النازية في العراق ، وما بعدها ، ومن ثم حياته بعد انتقالهم في منزلهم الحديث في جديد حسن باشا وحتى هجرتهم إلى إسرائيل في العام ١٩٥٠ ، في ذلك الوقت ، وفي غمرة أحداث حياة كلادس وزوجها حدثت حادثة الفرهود في بغداد بعد ثورة مايس في العام ١٩٤١ ، وكان حادث إحراق مسعودة دلال والدة كلادس قد حطم إلى حد بعيد حياة يوسف ، وقضى نهائياً على كلادس ابنتها .

كما أن هذه هذه الحادثة قد غيرت حياة الناس جميعاً في بغداد ، ويمكننا أن نقول هي نقطة فصل حقيقية في تاريخ هذا المجتمع ، فهي التي فتحت الباب على الاعتداء الأهلي ، لأنها كانت هي أول حادثة اعتداء أهلي ، وعلى الرغم من أن المؤرخين لا يعيرونها الكثير من الاهتمام ، لأن ذاكرتنا الوطنية ضعيفة ، ولكن يمكن أن نرد كل اعتداء أهلي في بغداد اليوم إلى ما حدث في العام ١٩٤١ .

**

هل كانت هذه الحادثة مثل أية حادثة في حياة يوسف سامي صالح ، هل يمكن أن نعدها واحدة من تلك التي تحدث لكل واحد سواء أكان عازف فيولون أم لا ، سواء أكان شبيها ببطل كتاب دكان التبغ أم لا ، سواء أكان يهوديا أم لا ، أبداً لم تكن حادثة اعتيادية على الإطلاق ، بل كانت هذه الحادثة هي التي صنعت له الخوف والرعب المذل والمهين ، صنعت له الجو المتوتر والمشحون والذي قضى على الطقس المسائي العائلي الذي كان يصغي فيه يوسف إلى قصص كلادس مع أكل الكعك وشرب الشاي ، حينها فقط حلت محل القصص الجميلة ، قصص الحب والخيانات على

مكتبة الفكر الجديد

الرغم من أثرها الحاد على أفراد عائلته أخبار انتصارات هتلر ، وصوت يونس بحري المذيع العراقي الذي يهيج الناس على اليهود في إذاعة نازية من مدينة «باري» في إيطاليا «حيي العرب» . لقد حل محل قصص كلادس الغرامية صوت يونس بحري وهو يتحدث بحماسة عن انتصارات المحور في جميع الجبهات الحربية ، ويبشر بزحفه في شمال إفريقيا نحو العلمين ويؤذن باندحار الحلفاء ، وإن كان يوسف في الأيام الأولى غير مهتم أبداً بهذه الأنباء ، وهذه الأخبار التي كان يعتقد بأنها بعيدة ، وتحدث في مكان بعيد جداً ، وما كان يهمه حقاً هو ما تفعله كلادس بعشاقها الثلاثة : الزوج والسائق والثالث الذي يلاحقها مثل ظلها ، ما كان يهمه في تلك الفترة هو أن يرسم في خياله لها أبهى المشاهد الاستحلامية ، أبهى المشاهد التي تهدد نومه بصور رغباتها واشتهاءاتها وتأوهاتها ، لم يكن مهتماً بالزحف الهتلري أو أي زحف آخر . . حتى دقت ساعة الصفر . . حتى حدثت هذه المجزرة أمام عينيه فجعلته يرى في أحلامه بدلاً من جسد كلادس العاري الصور البشعة ، صوراً تشبه شخصيات بروغل أو بوش : أنوف ضخمة ، أجسام مشوّهة ، ابتسامات مخيفة ، وأقدام متشعبة .

فكيف شهد حادثة الفرهود :

كان يوسف قد استيقظ صباحاً ، استيقظ مثل كل يوم بعد أن جرب لحنا أو لحنين على آلة الفيولون ثم وضع الآلة على الطاولة وذهب ليغسل وجهه على المغسلة ، ثم ارتدى بيديه المبلولتين قليلاً شورته الأبيض ، وقميصه العريض على جسده الأسمر النحيف ، ومسد بيديه شعره على المرآة وهو ينظر عينيه المتأملتين ووجهه الموحش ، فجأة سمع صرخة عارية ، التفت ناحية الشباك فلم تكن هنالك سوى عربات الربل التي تسير في

مكتبة الفكر الجديد

الشـارع ، وأشـعـة الشـمـس التي تدخل نافـذته ، وصـوت البـلابل الذي يتجاوب صداه بين جدران المنزل ، ثم سمع صرخة أخرى في المنزل المجاور . انتبه ، فتحرك وفتح نافذة شباكه .

لقـد شـاهد يوسف تلك اللحظة النار وهي تشـتعل في المنزل المقـابل ، وهو منزل خالته مسعودة الثاني غير منزلها الكبير في محلة الكرادة ، ذلك لأن مسعودة ذلك الوقت أخذت تبيت فيه هاربة من منزلها القديم الواقع في محلة كلها من المسلمين ، كانت تعتقد أن محلة التوراة المغلقة أكثر أمناً من المحلات المختلطة في بغداد ، فهذا الحي القديم أشبه بالغيتو المغلق تماماً ولا يدخله أحد من غير اليهود على الإطلاق ، ولم تكن مسعودة تعرف أن هذا المكان سيكون نهباً لوجوه غريبة واضحة التجاعيد ، لوجوه لوحتها الشـمـس وقـد ارتسم عليـهـا الغـضـب ، سـتكون هذه المنازل نهـبـاً لشـبـاب يرتدون العرقشينات ، لرجال يتحزمون بالأنطقة ويشمرون عن سواعدهم المفتولة ، لرجال يقبضون على أعواد الجريد والعصي وأوتاد الحديد ، يلوحون بها لليهود الخائفين .

كـان يوسف من مكانه ينظر المشـهـد الذي يتكون أمامـه دون أن يكون عنه أفكاراً على الإطلاق ، كان يرقبـه بتـأمل بارد كـمـا لو كـان يرقـبـه ألبرتو كـايرو حارس القطيع في دكـان التبغ ، كـان يوسف يقف في شبـاك منزلهم المفتوح فاغراً فمه وهو يرقب العربنجية والحوذيين الذين يمسكون القمجيات ويبـدون اسـتـعـدادهم لحمل المسروقـات لمنازل السـارقين . كـان يوسف من مكانه يرقب حـشـوداً من الراكـضين تحت النور الحاد البطيء المتسلل من العتمة المضطربة ، كان يسمع صراخ اليهود الأجش والمتحشرج صراخ الموت دون أن يكون أفكاراً أبداً ، كان يفعل ما كان يفعله البرتو كايرو في كتاب دكان التبغ :

مكتبة الفكر الجديد

يرقب شاهري السيوف والآلات الحادة وهم يركضون وراء صبرية بنت داود أفندي التي كانت تركض بشعرها المشعث ووراءها مجموعة من المهاجمين الذين جروها من شعرها قبل أن تدخل الدار ، أخذ يرقبهم وهم يسحلونها على الأرض ، يرقبهم وهم يعرونها من ملابسها وهي تصرخ ، يرقبهم وهم يضعون أقدامهم على رأسها ويسحقونه بقوة ، كان يوسف يرقب الرجلين الوسيمين وهما يخلعان أساورها من يديها . يرقب الغاضبين وهم يدخلون البيوت بعد أن يكسروا أبوابها أمام اليهود الخائفين والمرتعشين والمتجمعين في الزوايا ، كانوا يحملون الأثاث على ظهورهم ويهربون ، يرقب القادمين وهم يحملون الأغطية والفرش بعد أن يقلبوا النائمين على الأرض ، أو يدخلوا المطابخ يحملون كل عدة الطبخ حتى القدر الموضوعة على النار يحملونها ويأخذون المغرفة من يد اليهودية الخائفة والفاغرة فمها ، كانوا يدخلون إلى الحجر ويكشون كل شيء بطريقهم ، يأخذون الملابس بالصرار والسجاد والبسط والحصران وملابس الأطفال وحتى الكتب :

«الكتب شلك بيها قابل انت تقرا انكليزي؟»

«يمعود شقره انكليزي انوديها للسوق وانبيعها . . ما كو شي يطلع من بيوت اليهود ما ينباع . .»

كان يوسف يرقب ببرود تام فضاء الموت المتعكر الذي هيمن على المكان كله ، دون أن ينفعل به .

الشيء الذي لا يفارق ذاكرته هو احتراق كتب الحاخام شموئيل ، واحتراق خالته أيضاً .

كان ينظر في البداية نحو الكتب وهي تتقلب في النار ، تتحرك وتئز ، سمع طقطقة أول الأمر ، ثم سمع الجمر وهو يرتعد ، كان اللّهب يتصاعد أعلى فأعلى ليلتهم الملابس والأخشاب ، غير أن الكتب كانت في النار ،

مكتبة الفكر الجديد

رأى جلدة أغلفتها وهي تتلوّى لتأخذ شكل القماش الململوم . وحين بدأت تخفت رأى خالته تجلس أرضاً على ركبتيها العاريتين ، كان جلدها يحترق ، ينسلخ ويسود ، تتقلّص عضلات وجهها ثم تُطقطق عظامها ، كانت النيران تلتهم شعرها ، تغمر ألسنة اللّهب وصوت احتراق جسد الخالة يغطي على صيحاته ، يترك صوته حروفاً غير مفهومة ومرتجفة ، كانت الشرارات ترفرف حول جسدها قبل أن تتحوّل إلى مسحوق فحم يتناثر على الأرض .

سقط على الأرض مغمياً عليه .

فتح عينيه ، ونظر كما لو كان في حلم : كانت خالته على بعد متر أو مترين منه ، ملقاة على الأرض ، جلدها مسلوخ ، جمجمتها مفلوقة ، كانت قد بدأت في الانكماش و التضاؤل حتى لم يبق منها إلاّ ما هو أقلّ وزنا من شعرها الأسود الجميل والطويل .

**

هل كان يوسف يعد تحول سكنهم إلى جديد حسن باشا في حياته تحولاً بارزاً ، بالتأكيد ، كان يعده تحولاً بارزاً ، هل كان انتقالهم من جديد حسن باشا نوعاً من الخلاص من الذعر الذي هيمن وسيطر عليه طويلاً ، نعم بالتأكيد كان يعده كذلك ، فبعد أن كرع خمس كؤوس من الواين ، واحدة بعد أخرى ، مسح فمه بالمنديل أمام أصدقائه وقال لهم إن حياته القديمة الواهنة قد تغيرت تماماً ، فلم يعد الخوف كما كان فيما مضى هو الذي يسيطر عليه ، مطلقاً ، بل شعر بنوع من التحول الكامل في حياته وفي شخصيته ، وكانت الحادثة الأساسية التي أحدثت هذا التغير وأسسته هي حادثة ذهابه مع أصدقائه إلى النهر للسباحة ، في البداية تراجع ، خاف ، تلكأ ، كان ينظر الأمواج وهي تتكسر من بعيد ، ثم ذهب وحده لقهرها ، ذهب يوسف ليمتطيها بصدره ، حينئذ شعر بارتجاجات

مكتبة الفكر الجديد

الموج المتقلب الرشيق على صدره ، فجذف بعيداً بيديه حتى وصل إلى الجسر ، لقد شعر يوسف لحظتها بقوة غير مرئية في جسده وروحه ، شعر بنوع من البهجة الطاغية التي تغمره حتى بدأ بالضحك والتنفس العالي .

كما أنه ذهب ذلك العام إلى الأعظمية في المولد النبوي ، واشترك بالاحتفالات الكبيرة أمام الجامع وشرب العصير ، وقف مع أصدقائه وتناول الطعام الذي كان يمد على طاولات كبيرة ، وتلذذ بأحاديث مختلطة بفوضى الأيدي المتشابكة الممتدة نحو الخروف المحشي ، وقد كتب أيضاً ذلك العام قصيدة طويلة باللغة العربية ، مجد فيها الجيش العراقي في حرب الثمانية وأربعين ضد إسرائيل ، وقد صور شجاعة الجنود العراقيين ، وقال فيها إنهم لم يهزموا إلاّ بسبب الخيانة ، ثم ألقى مونولوجاً طويلاً مجّد فيه الوطن العربي الكبير بعبارات مقفاة .

(لقد كتب يوسف في واحدة من رسائله إلى فريدة أن سباحته في النهر هي التي أطاحت بهذا الخوف المذل والمهين الذي كان يهيمن عليه على الدوام في محلة التوراة ، لقد شعر ذلك الوقت كما لو كان هنالك زلزالٌ بعثَ به الحركة ، زلزال أشعله على القفز ، والنط ، شعر بأن الخوف زال تماماً من نفسه ، لقد أصبح من القوة بحيث أنه قهر هذا الخوف الذي كان يشعر به) .

ولكن هل انتهى الخوف حقيقة وواقعاً ، هل سقط الذعر إلى الأبد ، هل ذهب كل شيء مع زبد الماء ، هل راح حقيقة هكذا ببساطة شديدة وانتهى ، هل يمكن للماء أن يغسل هذا الخوف والرعب الذي كان يشعر به يوسف ، هل انقضى هذا الرعب الذي يجعله يرجف ويرتعش تلك الأيام من تلك الشعارات المكتوبة على جدران المدينة ، شعارات الشباب في الشوارع وبين أفواه أفراد الشعب المتحمسين لانتصارات المحور وهي محفورة

مكتبة الفكر الجديد

فوق طابوق الجدران ، ومنقوشة بعلامات الصليب المعقوف ، هل انتهى مصدر خوفه الحقيقي ، مصدر ذعره من تلك الجمل العديدة التي كانت تمجد الزعيم الألماني هتلر ، وتطلق عليه لقب «هتلر حامي العرب» ، هل انقضى الخوف من أبناء كبار ضباط الجيش الذين يرتدون بزّات عسكرية مزينة بالقايش ، والحزام العريض ، وصولجان القيادة ، وعلى أكتافهم الصغيرة رتب الجيش العالية ، ومن شباب «الفتوة» و«كتائب الشباب» الذين يتبخترون بزيهم العسكري ويفتشون اليهود في الطرقات بحثاً عن اللاسلكي والمرايا وغيرها من أدوات التجسس المزعوم ، لإرسال الإشارات الضوئية للطائرات البريطانية ويصرخون : «أبيدوا المكروبات» .

أبداً . . ما إن يقف يوسف أمام أي واحد منهم حتى تغرورق عيناه بالدموع ، لم يكن يستطع التحدث أمام أي واحد منهم ، كان إذا رآهم يريد الاختباء في بئر عميقة ومهجورة ، كان يستجمع قواه فيتلعثم وتضيع المفردات من فمه ، وحين يسير كان ينظر إلى الجهة الأخرى متحاشياً التقاء نظراته بنظراتهم .

ولكن علينا أن نعترف أن يوسف بعد انتقاله إلى المنزل الجديد أخذ يتخلص من مظاهر الخوف شيئا فشيئاً . أخذ يتخلص من الخوف القادم ذلك الوقت من وجود المسلمين شيئاً فشيئاً ، أصبح شيئاً فشيئاً يجد نفسه في العالم الأكبر ، في الحياة ذاتها ، لا في الخوف والتعفن وراء الجدران ، لم يعد يوسف مختبئاً في المنزل كي يقرأ كما كان ، بل أصبح أسيراً للضوء المنعكس على ماء دجلة ، لقد أخذ يتشبث برطوبة الصيف على النهر ، يتبختر بلباس أبيض ، يرشق بالماء على النباتات والحجر على رصيف النهر من جهة المقاهي والبارات ، لقد شعر بأنه أصبح خفيفاً جداً ، شعر بأنه كائن وموجود في العالم وفي الحياة ، في أبو دودو ، في سوق حنون ، في

مكتبة الفكر الجديد

الأعظمية ، وحتى في منطقة الكرادة ، لقد وجد نفسه حراً في منطقة الهندية التي لم يكن يقترب منها فيما مضى ، وهي المنطقة الأكثر إكزوتيكية في كل بغداد ، لقد أصبح يذهب إلى الريف وإلى المناطق التي لم يكن اليهود يصلونها أبداً .

كتب في رسالة إلى فريدة العبارات الدالة التالية :

(أن تعيشي في منطقة يهودية ، في التوراة مثلاً ، هذا يعني أنك تعيشين يهودية بين اليهود ، تعيشين خائفة ومترددة لأن هنالك محيطاً أكبر منك ، وهكذا أردت كسر هذا المحيط ، لقد كسرت القيد الذي كان يطوقني ، وأصبحت أعيش بين الناس واحداً منهم)

هذا يعني أن يوسف كان يعيش ذلك الوقت مع شباب المسلمين والمسيحيين واحداً منهم ، لقد كسر الخوف إلى الأبد ، وأصبح بهيئته الجديدة كما تصوره واحدة من الصور التي أخذتها من مغلف بوريس : شاب وسيم ، حليق الشارب ، في العشرين من عمره ، يرتدي سدارة سوداء على رأسه ، ويرتدي بذلة بيضاء أنيقة جداً ، كان مبتهجاً بصدره العريض ، وابتسامته الرشيقة ، وبنيته الضخمة ، يضع يديه الكبيرتين على كتفي رفيقيه من اليمين ومن الشمال ، وهما يضحكان ، وخلفهما سيارة شيفروليه بيضاء ، جديدة .

**

لقد أخذ يوسف يذهب كل مساء تقريباً في تلك السنوات مع أصدقائه إلى الخمارات في أبي نواس على نهر دجلة ، وإلى الملاهي والنوادي الليلية التي افتتحت في الميدان أو في باب الأغا ، أخذ يسهر مع أصدقائه المسلمين الليل بطوله تقريباً ، وفي بعض الأحيان كانت أمه هي التي تأتي في الفجر لتأخذه- بعد أن توقع على كفالته- من مركز الشرطة ،

مكتبة الفكر الجديد

فكثيراً ما أصبح يتخاصم في البارات، أو يتضارب بالقناني من أجل العاهرات، كان يسير إلى جانب أمه عائداً إلى البيت مطأطئ الرأس، وهو يلحظ على وجهها تجاعيد كثيرة، كان يلحظ نظرة قاسية في عينيها، كأنها تحاول إخفاء لمسة حنان وإشفاق نحوه، وفي المساء حين يغادر المنزل من جديد تكون هدفاً لنوبات اكتئاب شديدة.

في الواقع كانت قصة حبه للراقصة منيرة ملفتة للنظر ذلك الوقت، فقد ذكر في واحدة من رسائله، أن راقصتين قد قدمتا إلى ملهى الهلال في الميدان، قرب باب المعظم، في الملهى ذاته الذي غنت به أم كلثوم في العام ١٩٣٣، كانت منيرة أقصر قامة بقليل من أختها جميلة وتكبرها بسنة، غير أنها كانت أحلى منها بكثير، وقد كانت هاتان الراقصتان قادمتين من مدينة حلب، وقد ألهبتا قلوب الشباب ذلك الوقت بجمالهما، ولا سيما منيرة التي كان لها شعر أشقر، وملابس مثيرة، وحينما كانت تستقل مع أختها الربل الأسود الذي يقلها من منزلها الجميل في حافظ القاضي إلى عملها في ملهى الهلال في باب المعظم، فإن جميع التجار يخرجون من دكاكينهم للتفرج على هاتين الراقصتين الحلبيتين الجميلتين، وهما جالستان تحت مظلة الربل الأسود، بمصباحه الذهبي في المقدمة، والحوذي الطويل الذي يقف بسوطه النحيف، ويسير بهدوء في شارع الرشيد.

وعندما كان يحضر يوسف الوصلات الراقصة لمنيرة كان يجلس مخدراً أمام المسرح الخشبي، ينظر لها وهي تتلوى بطريقة مغرية ومثيرة، وهي تحرك قسمات وجهها لتجعل ملامحها متطابقة مع الأحاسيس بالموسيقى، كانت تحني جسدها، وتثني خصرها بجسارة لا تجرؤ عليها أي واحدة من بنات الملاهي ذلك الوقت، لقد كانت منيرة ناراً متوهجة أشبه

مكتبة الفكر الجديد

بشعلة في الريح ، ترقص بإيقاع سريع ، وبرشاقة لا تملكها أية واحدة من بنات جنسها ، كانت ترقص أمام الجمهور مبتسمة ومترنمة بكلمات الأغنية ، رافعة ذراعيها ، عارضة ركبتيها ، ومحركة خصرها وكتفيها بكثير من الخبث ، فيبدو جسدها الطويل والرشيق مهتزاً ، ومشاركاً في الرقص من قمة الشعر حتى القدمين .

(كيف تعرف عليها يوسف ، هذا ما لم يقله في رسائله ، مع أنه ذكرها في خمس رسائل على الأقل كمؤثر حقيقي على حياته وعلى فنه ، ولكن وبعد رحلتنا- فارس حسن وأنا-فيما بعد إلى بغداد ولقاءاتنا الكثيرة مع الناس الذين كانوا يعيشون في زمنه ، كلهم أكدوا حقيقة هذه العلاقة ، بل إنهم رأوه ثلاث مرات معاً ، مرة في صالة سينما روكسي ، في العرض النهاري ليوم الجمعة ، والمرة الثانية في النادي الإنكليزي في احتفالات رأس السنة ، ومرة في عيد المسلمين أواخر الأربعينيات وهما يأكلان المثلجات في شارع أبي نواس ، قبل تهجير اليهود وإسقاط الجنسية العراقية عنهم ومصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة ، وقد أكد الجميع أنهما كانا يبدوان كحبيبين) .

كان الكثير من الناس قد شاهدوا منيرة وهي تسير إلى جانبه بمظهرها الجميل وعينيها السوداوين الماكرتين ، وفمها الشهوي ذي الشفتين الممتلئتين . وقد ذكر في واحدة من الرسائل أن أكثر ما أحبه فيها هو لهجتها السورية المختلفة عن لهجة البغداديات بنبرتها وموسيقاها ، وكذلك ببعض التعابير والكلمات والأقوال التي تجعل الحيرة تلفه عندما تقولها ، كانت منيرة تتكلم بغنج ، وقد أسرته العديد من المفردات الحلبية التي لم يكن يعرف لها معنى .

**

مكتبة الفكر الجديد

كنت بحثت طويلاً عن السر الذي لف هذه العلاقة ومصيرها ، حوالي العام ١٩٥٠ ، أي في مرحلة التهجير ، فهناك مرحلة مرضه ، والتي ربما لها علاقة بنهاية علاقتهما ، وقد أرسلوه عند واحدة من عماته التي تسكن في مزرعة في الكرخ كي يستعيد صحته ونضارته .

في ذلك المكان النادر اعتاد يوسف على رؤية السماء الرمادية والبيوت العالية ، وقد أسره صفاء الألوان ، وأريج الأزهار ، وبدت له محطة سكة غربي بغداد بقضبانها وسط الحقول ذات مظهر خيالي ، كما أنه سافر إلى البصرة في القطار ، ذهب بحقائبه وصعد القطار ، كانت المحطة صغيرة ، وردية تحت أشعة الشمس ، وسط أشجار عالية .

كانت ذكريات تلك الفترة تؤلف صورة الفردوس . . فالكرخ واسعة وجميلة ، طرقها واسعة وتحيط بها الأشجار والأدغال الخضراء ، كانت الطرقات الموحلة في الشتاء تفتح في الربيع على منظر الأشجار والأزهار ، لقد شعر يوسف أن هذا المكان هو بعث لعالم جديد ، هو غيره عالم الطين ، حيث يتحوّل الفضاء برمته إلى مدى فسيح ورحب . وفي هذا الفضاء الفسيح تعرف يوسف على فريدة ، والتي أصبحت فيما بعد زوجته . فقد حمل يوماً فيولونه وزار منزلهم المجاور لمنزل عمته وعزف لهم بعض المقطوعات ، وكانت فريدة ذلك الوقت تدرس الموسيقى في مدرسة لورا خضوري ، وهي التي صححت له قرار النغمة التي أخطأ بها ، فلم يتوقع ذلك ، كان الأمر فيه شيء من الدهشة والمفاجأة ، لقد عزف الجملة الموسيقية أمامها على أساس خاطئ من قرار النغمة ، بمفتاح مختلف تماماً .

نظرت له مبتسمة . . وأشارت له بيدها أن توقف . .

فتوقف . . سكت طويلاً وهو ينظر إليها . . قالت له : «أعد هذا المقطع» . .

مكتبة الفكر الجديد

فأعاده . . وإذا بناحية النقص تنبثق من تحت أنامله ، قالت له : «هذا ليس قرار النغمة . .»

«ماذا . .؟» قال لها مستغرباً . .

طبعاً لم يعترف يوسف أمامها بهذا النقص ، وكان التصاقه بالموسيقى فيه شيء من العبادة أكثر مما به من احتراف المهنة ، وكان يدرك أن التأليف الموسيقي لا يحتاج لتمكن كامل من العزف ، وكان يهيء نفسه ليكون مؤلفاً موسيقياً ، ومع ذلك كان هذا النقص قد هد قواه . .

لقد أجهش بالبكاء أمامها ، غير أنها هدأته وطمأنته . . قالت له إن موهبته الموسيقية تتجلى في امتلاكه التعبير عن نفسه بالموسيقى ، وإن له لغته الخاصة وأسلوبه الخاص . .

هذا ما قالته له فريدة ، وأصبحت فيما بعد ملهمته الموسيقية . . وتزوجها قبل الرحيل إلى إسرائيل .

**

كل الشائعات ذلك الوقت تقول إن في بغداد ثمة مجموعة من الشباب المسلمين والمسيحيين واليهود الذين يعيشون بشكل لاه أواخر الأربعينيات ، ويترددون كثيراً على الميدان ، هذا المكان الذي كان قبل خمسين عاماً هو المعقل القديم للراقصات ، وحتى ذلك الوقت كان يعتبر أحد أكثر أحياء الشرق الأوسط عراقة في الفن ، تتعايش فيه كبقايا أثرية مثيرة للفضول ، شخصيات العالمات ، والعاهرات اللواتي تدربن على يد الإنكليز بعد الاحتلال ، وهناك يجد يوسف أنواعاً متنوعة من النساء : نساء بصدارات ، بعباءات ، بمناديل حول الأعناق ، ببناطيل ضيقة ؛ بدينات محشورات في فساتين ضيقة ويضعن أقراطاً كبيرة ، وضفائر معقودة بعقيصات . وعندما عاد يوسف إلى بغداد في الثمانينات مر به ،

مكتبة الفكر الجديد

كان الحي قد تبدل إلى حدّ أنه كان يتساءل أحياناً عما إذا كانت بابل المقدسة ما زالت تحتوي على كل تلك النسوة اللواتي كن يتمتعن بتنوع لهجاتهن ومظاهرهن ، وهي الحيوية التي كان الميدان يكسبها من هذا العالم المصغر ، حيث يرتاده الناس من كل أنحاء العراق ، لهجات ، عادات ، وحيوات متعددة ، إنه بحق بلد بأسره .

أواخر الأربعينيات كان يوسف يذهب كل يوم تقريباً إلى النوادي الراقية مع صديقه محمد الحبيب ابن الثري المسلم ، والتاجر في سوق الشورجة ، يصعد معه على الخيول في نزهة نهارية في المنصور التي كانت مزارعها كثة أوان ذاك ، ويرافقه مع شباب الحي في سيارة شفروليه مكشوفة ، ويقال إن محمد الحبيب كان يأخذ أصدقاءه ، ومعهم يوسف ، في جولات مسائية على الكورنيش ، وفي الخميس يدعوهم ويقيم لهم وليمة عامرة ، فهم يسهرون الليالي الصيفية في المطاعم والنوادي الراقية ، بل تنتهي سهراتهم على الأغلب عند الفجر ، فيعودون إلى بيوتهم بعد أن يقوموا بجولة في أنحاء بغداد ، ويوصل محمد الحبيب كل شخص إلى منزله . .

في الواقع كان حضور يوسف الملفت ، وطريقة كلامه المميزة ، وثقافته ، ومعرفته بالموسيقى ، وأناقته هي مصدر إعجاب المسلمين به ، لقد شعر يوسف بأن قوة هائلة دفعته إلى الحياة في الزمن ، دفعته ليكون على الحلبة ، لا خارج الحلبة ، وعندما بلغ يوسف الحادية والعشرين أقام له أصدقاؤه حفلة عيد ميلاد في مطعم راق ، وهكذا كتبت الصحف ذلك الوقت :

«أقام سبعة شباب يهود ومسلمون ومسيحيون حفلة كبيرة في المطعم الإنكليزي في شارع الرشيد ، وبعد أن تناولوا طعامهم وشربوا الويسكي أخذوا يكسرون الصحون ويرمون بعضهم البعض بالطعام ، ثم هربوا» .

**

مكتبة
الفكر
الجديد

التحول الآخر الذي يتحدث عنه يوسف في رسائله إلى فريدة ، هو علاقته بالسيد رشيد :

كان السيد رشيد يقطن في باب الأغا في شارع الرشيد ، كان رجلا مسناً يضحك على الدوام ، لا يبرح بقالته ، كان يتنقل بين صناديق الصرف وقناني الزيت التي يجلبها من إيران ، ماداً ساقاً في الممر ، وساقاً تحت أطوال القماش ، واحدة من صور مغلف بوريس تصوره وهو يرتدي سترة رمادية فوق قميص رسمي أبيض ، وله أسنان بيضاء تحت شاربين كثين ، وعيناه بلون الفستق الحلبي - خضراوان وبنيتان - أفتح من بشرته الداكنة .

كان السيد رشيد هو أول مسلم في بغداد يفتح بقالية في حي يهودي ، هذا ما لم يحدث منذ أربعين عاماً ، وكان عنده فتاتان جميلتان جداً هما لميعة وهي مطلقة ، ونورية البنت الأصغر ، وقد عمل يوسف مرة في الصيف في دكان السيد رشيد لمساعدته ، مقابل خرجيته في الصيف .

لقد جعل السيد رشيد وبناته حياة يوسف مع والده أكثر صعوبة ، هذه العلاقة بلبلت كيانه تماماً ، حيث كان يعقد على الدوام مقارنات عديدة بين السيد رشيد وبناته ووالده ومكتبة والده .

لقد شعر يوسف بعد تعرفه على السيد رشيد وبناته ذلك الوقت ببرودة فظيعة تعتريه في منزل والده ، ذلك أنه كان قد شعر مع السيد رشيد بحياة أكثر دفئاً ، أكثر خفة ، أما المكتبة العالية في منزل والده أخذت تلك الأيام تنفره من والده ومن منزله ومن عائلته برمتها ، هذه المكتبة التي تحمل الفكر البشري وقوانين الحياة ، وكل هؤلاء الفلاسفة اليهود وغير اليهود لا قيمة لهم أمام حرارة وعاطفة نورية ولميعة ، فضلاً عن أنه كان يكره الكلاب بشدة ، وهذا الكلب الذي جاء إلى بيته ممثلاً عن

مكتبة الفكر الجديد

بروليتاريا الكلاب قد أضر بوجوده كلياً، وحرمه تماماً من الشعور بالألفة .

لقد أخذ يوسف يشعر شيئاً فشيئاً بالقرف والسأم والحزن الشديد من كل شيء في المنزل، من الكرويتات الباردة، من الشباك المغلق على الدوام بالستائر الثقيلة، من باب الخشب، من الهدوء، من المطبخ وخواشيق العجم، ومن مصباح المكتبة الأصفر، لقد شعر يوسف بأنه وحيد والوحشة تغزو قلبه، كلما يدخل المنزل يرتمي على الكرسي بحركة ثقيلة غير متوازنة، فتهبط الوحشة على قلبه، يهبط لون قاتم ثقيل على الدربزونات، على الغرف الخاوية والأسرة الباردة، على الجدران التي عليها الكتب، على الأثاث العتيق، كان يشعر ذلك الوقت بوحدة شديدة، وهو يدخل حجرته، يسمع صوت شخير والده وهو غارق في سريره، يشعل المصباح بهدوء، ويمسك نوطاته فلا يستطيع أن يعزف أو يكتب، يجلس ويفكر : المعلومات، الأفكار، النقاشات، الوجه الأصفر الكئيب والمتيبس لوالده، كلها جعلت عيشته في هذا المنزل صعبة جداً .

كان والده يعيش وقته كله في المكتبة، ولا سيما بعد أن حصل على التقاعد، وإذا تحدث فإنه يتحدث عن الاشتراكية التي ستجعلهم سعداء، أما السيد رشيد فقد كان مختلفا تماماً، لم يكن يتحدث عن المستقبل مطلقاً، كان يتحدث على الدوام عن الأشياء الحالية، يعيش لحظته بما هي في تخمرها وجوهرها، وذلك ما كان يريده يوسف من الموسيقى، اللحن الذي يتجاوب مع اللحظة، ينظر يوسف إلى السيد رشيد وهو يضحك، يرقبه وهو يمزح الوقت كله تقريباً، فيفكر بوالده المختلف عنه تماماً . يفكر بوالده الذي يعيش في حجرته مصفراً بين الكتب الضخمة التي ورثها من جده، يجلس مثل كلب وحيداً في الظلمة تحت نور مصباح، بينما يجلس السيد رشيد على كرسي الخيزران تحت الشمس أمام البقالية، ويواجه

مكتبة الفكر الجديد

الجميع بضحكته البيضاء العالية .

مرة دعته زوجة سيد رشيد أن يقف في الشارع وقد كانت واقفة على المشربية . دعته الى انتظارها قليلاً لتنادي ابنتها المراهقة لتتفرج عليه ، وكانت تلك الأيام قد استولت عليه رغبات الجسد ، إنها المرة التي رأى فيها لميعة بنت سيد رشيد الشقراء بثوب النوم الأبيض وهو يكشف عن ساقيها البيضاوين وعن تكورات صدرها البض الصغير ، وكما أنه ذهب مع ابنهم فؤاد مرة إلى السينما ، وقد رأى على الشاشة البيضاء أول قبلة محمومة وعاصفة .

**

(كنا توقفنا ، فارس حسن وأنا ، أمام منزل يوسف سامي صالح الذي يقع في محلة التوراة حي اليهود المعروف في بغداد ، كان المنزل قريبا من طاحونة هوائية ، تهدمت الآن ، وقفنا أمام منزل مهدم ، جميع الخرائط التي بين يدي والتي تعود إلى الخمسينيات تقول إنها كانت طاحونة ، أما المنزل الذي كان يعيش فيه يوسف ، موجود الآن يعيش فيه رجل مسن وأولاده وبناته الثلاث . من هنا ، ربما ، كان يوسف يذهب إلى بقالية السيد رشيد فهي أيضاً ما زالت موجودة ، ومنازل الحي الأخرى ، منزل آل شاؤول ، وساسون ، ومنزل رحو ، والمنازل الأخرى الموجودة والمعروفة في المحلة)

**

كان يوسف تلك السنوات يتابع بشغف دراسة الموسيقى ، يتابع بقوة تمريناته وتدريباته في العزف على آلة الفيولون ، وكان يجهد نفسه في البقاء من الصباح وحتى المساء في مدرسة الموسيقى التي يعلم بها بعض الموسيقيين المسلمين والأرمن واليهود ، وكان يقوم أيضاً بتقديم كونسيرتات متنوعة من الموسيقى الكلاسيكية في النادي الإنكليزي في بغداد ، وكان

مكتبة الفكر الجديد

يشحذ مخيلته بقراءة الشعر العربي الحديث وتحولاته الشكلية والتعبيرية ، وقد قرأ الشعر الرمزي وانسحر بصوره ولغته وأشكاله الحديثة ، وآمن بموجة شعراء الأربعينيات الذين ابتعدوا كثيراً عن الشعر العربي القديم ، وقد كتب في مفكرته أنه ابتعد كثيراً عن الشعر الحماسي والتقليدي والذي يفتقر إلى الخيال ، وانحاز إلى تجديد روح الحداثة ، وإطلاق العنان للتأمل . . كان يوسف يعيش ذلك الوقت في بغداد ، وكانت هذه المدينة الشرقية تشهد زلزال التغيير الحقيقي ، وتشهد طوفاناً هائلاً من الأفكار والنزعات الجديدة ، صراعات ، مدارس متنوعة ، ثقافات مختلفة ، وكان هو الفنان المتحمس الذي يعيش الحياة الموارة لشاب يافع في العشرين من عمره ، رافق الكثير من الكتاب والأدباء في ذلك الوقت ، السياب ، البياتي ، التكرلي في مقهى البرازيلية ، وكان يعرف حسين مردان الشاعر الصعلوك والمتمرد ، وحاول مثلهم أن يجدد هو أيضاً في أشكال التعبير الموسيقي ، ولا سيما بعد أن شهد النزاع الضاري في مجتمع يهتز برمته مرة بضغط السياسة ومرة بضغط قوى المجتمع الأخرى .

كان يوسف يشهد ذلك الوقت صراعاً ضارياً بين أفكار قديمة وأفكار متجددة ، بين روح جديدة قادمة وبين روح ثابتة لا تتزحزح ، وإن كان هو في فوضى الحداثة وتعميماتها ، إلا أنه كان يدرك الطابع التمردي للموجة الجديدة من الشباب وارتباطها بما هو معاش ومحسوس بعيداً عن هذيان التجريد وفوضى ألغازه ، وحاول هو في الموسيقى أن يجدد أيضاً ، حاول أن يكتب مقطوعات موسيقية مستوحاة من قصائد بدر السياب والبياتي ونازك الملائكة ، كي يحول كل ما هو يومي إلى لحن ، ويضفي طابعاً أسطوريا على الحياة الساكنة بوساطة الألحان ، كان يريد تحويل كل ما هو حميمي في حياة الشباب في بغداد إلى أسطورة خالدة : من جوارب

مكتبة الفكر الجديد

النساء المخرمة إلى مشدات الصدر المرمية على السرير ، من رسالة الحب إلى الهاتف ، ومن القبلة التائهة إلى القبلة المقصودة .

أراد يوسف أن يجسد لنفسه صورة شبيهة بصورة حسين مردان ، هذا المجنون والتائه والكافر والملعون والمهرج ، كان يريد أن يصبح مثله الخارج عن القانون بامتياز . وفي غمرة الصراع بين مثقفي الحداثة ومثقفي القديم كانت المعارك في بغداد لا تتوقف ، بل طالت حتى المقاهي ، حيث وصل الصراع على الشعر الحر والشعر الكلاسيكي إلى حد الضرب بالكراسي ، وخلف هذا الصراع الفني هنالك صراع إيديولوجي خفي ، حيث كان الشيوعيون وأنصارهم من أصحاب التجديد ، والقوميون وأنصارهم كانوا من أصحاب الشعر التقليدي والنزعة التقليدية ، وإن كان يشعر بهذه القوة المتمردة في ذاته إلا أنه كان متأثراً من جهة أخرى بوضع سياسي خاص باليهود في بغداد كان مدعاة لقلق حقيقي ، فأمام صعود التيارات النازية القومية والفاشية ، وازدياد النزعة المعادية لليهود ، كان اليهود هم أيضا ينمون نزعات تقليدية ودينية وصهيونية متطرفة .

كان اليهود من جهتهم يحاولون مواجهة النزعات المتطرفة بنزعات متطرفة أخرى ، وذلك بصعود النزعة الصهيونية وتأسيس منظمة تنوعة ، وقد كتب في واحدة من رسائله إلى فريدة مؤرخة في السابع من شهر مارس ١٩٦٦ (ملاحظة : الرسالة مرسلة إلى عنوان الموسيقار الجيكي كارل باروش في براغ ، ولكنها موجهة إلى فريدة) عن لقائه برئيس الجمعية الصهيونية السرية في طهران (بنيك ولسن بنيت) ، وهو روسي الأصل ، بريطاني الجنسية ، وهو المسيطر على الوكالة اليهودية في طهران ، وقد تنقل كثيراً ذلك الوقت بين أنقرة وبيروت ودمشق والقاهرة ، وقد جاء إلى العراق في العام ١٩٤٨ بزي قس مسيحي إذ كان يعمل في الظاهر كوكيل شركة

مكتبة الفكر الجديد

كاشانيان للسجاد في إيران والعراق ، وكان مساعده في إيران مديراً لشركة أوريان اكسبرس التي مركزها في طهران ولها فرع في العراق ، وقد سهل بنيت مهمة دخول يهودا مثير منشي التاجر العراقي المعروف باسم إسماعيل مهدي صالحون بجواز سفر إيراني إلى العراق ، وقد دار بينهم الحوار التالي :

«أنت موسيقي مهم ونحن نسفرك على إسرائيل . .»

« أروح لا جئ . . أصير منفي وأنا عندي بلد . . بلدي هو . .»

« ما بلدك هذا . . يجي يوم راح يقولون لك فيه اطلع من هنا . .بلدك هناك . . اليوم أنا أقول لك هذا . .ولكن بعدين هم راح يقولون لك روح هناك . .»

كانت البراءة الزائفة هي آخر وسيلة من وسائل يوسف لحماية نفسه ، كانت هي وسيلته الأخيرة كي يحفظ وجوده ، وقد أمضى ليلة بيضاء قبل وصوله إلى بنيت ، قبل وصوله إلى المكتبة التي كان يتم فيها اللقاء ، وبعد أن جلس بنيت على مقربة منه ابتسم له ولاطفه ، بينما أظهر يوسف أمامه ثباتاً وجموداً تامين وبقي صامتاً مثل يتيم لوقت طويل ، كان يوسف ، وهذا ما لا يعرفه بينيت ، يبحث عن عقل جديد ولا يجده ، كان يبحث عن وشيجة ولا يجدها في كل التيارات التي تمور حوله ، لا صهيونية ولا وطنية ، وقد لمح بينيت وهو ينظره قطرات من العرق ، متجمدة ، حائرة في وجه يوسف ، وتجاعيد وجهه لا تخفيها الحفاوة التي استقبله بها بنيت ، ماذا يعني هذا الموسيقي النكرة ، الذي يكدّس بعناد ، كل مساء ، نوطاته الموسيقية على الاستاند ، ويغيب بذهول مطلق أمامه جمع من العائلات المسيحية واليهودية والمسلمة ، جمع من الطبقة الوسطى ، أغلبهم من الشيوعيين والمثقفين ، وهنالك عشرات من المقاعد الخالية . هكذا كان

مكتبة الفكر الجديد

بينيت يتساءل في نفسه ، بينما كانت تساؤلات يوسف مختلفة جداً :

ماذا يعمل في إسرائيل ، ماذا يصنع هناك في أرض لم يعش بها ولا يعرفها؟

خيّم على المكان صمت ثقيل ، لا يتخلله سوى تنهدات بينيت وزفرات يوسف ، دون أن يقرأ بينيت خبراً منشوراً ذلك اليوم في صحيفة الأوقات البغدادية المرمية على الطاولة بالقرب منه ، وهو خبر حصول يوسف سامي صالح على جائزة الملك فيصل للعزف على الفيولون ، والإعلان عن بدء سلسلة حفلات في النادي الإنكليزي في بغداد تحضرها أهم العائلات البغدادية ، هذا العازف الشاب الذي برع في تطويع الفيولون لأصابعه ولا سيما في سوناتا الفيولون المنفرد لباخ Bach ، ماذا يعمل في إسرائيل؟

**

في اليوم ذاته ، ذهب يوسف إلى النادي الإنكليزي كي يعزف وصلة جديدة مؤلفة ، وما إن وضع الفيولون على كتفه وأخذ يجرب بالقوس قرار النغمة حتى سمع أحداً من كتائب الشباب بين الجالسين يشتمه ، ويقول له يهودي .

لم يرفع يوسف رأسه إلى أعلى مطلقاً ، كان قد تجاهله بالمرة وهو الحامل لأرفع جائزة في المملكة ، لم ينظر نحوه أو يرفع رأسه ، بل بقي يجرب بالقوس على أوتار الفيولون وهو يسمع في الصالة صخباً واضطراباً ، لقد شعر دون أن يرفع رأسه أن بعض العائلات طردت هذا العنصر من عناصر كتائب الشباب أو الفتوة النازية الذي اندس بين الجماهير ليفسد الكونسيرت برمته ، لقد تم طرده وبدأت العائلات تستعد لسماع القطعة المؤلفة . . غير أن يوسف توقف عن العزف ، تغيّرت ملامحه ، حتى صار

مكتبة الفكر الجديد

من الصعب التعرّف عليه ، فتّش جيوبه ، أخرج منديله ، عدل ربطة عنقه ، وقف ، فحص فيولونه ، جلس ، رفع بنطاله ، عدل أوراقه على الاستاند ، وبدلاً من أن يعزف . . انخرط ببكاء حار .

كان يوسف يدرك أن الأمر لم يعد كما كان ، كان يدرك أن هنالك حركة فوارة ، وهنالك شباب بأزياء مختلفة ، حليقو الرؤوس من الجوانب يسيرون في الشوارع هائجين ، كان يدرك أن أفكار عنف جديدة تمور في المجتمع ولم تكن عبثاً ، كانت هنالك دعايات ضد اليهود أيضاً ، وشعارات على الجدران تطالب بقتلهم ، كان هنالك تحول تام ، وقصص جديدة لم تكن دائرة فيما مضى ، سمع مسعودة ساسون تقول له :

انفجرت قنبلة في كنيس مسعودة شمطوف . . يقابل سليمان جلبي يقول له : سمعت عمي يوسي . . يقولون انو قنبلة انفجرت بشركة بيت لاوي للسيارات . .

في الصباح استيقظ لتوه ، كان ممدداً في السرير ، يستمع لنشرة الأخبار في الراديو ، كانت عضلاته قد تجمدت وهو يسمع خبر انفجار في شركة ستانلي شعشوع التجارية . .

في المقابل ، كانت النزعة الصهيونية تتصلب عند اليهود ، تجميع الأسلحة ، دراسة اللغة العبرية ، وبث الدعوة الصهيونية في منظمات تنوعة ، غير أن يوسف قاوم ذلك التيار . كتب في واحدة من رسائله إلى فريدة : «قبل أن أجد جوابًا ، أو أسأل أسئلة كنت رفضت ، كنت أرفض تلقائياً كل شيء ، أعاند بلا أسانيد عقلية ، ودون حجّة إلا ذلك البرهان الأخرس العميق القادم من القلب» . هكذا كتب في رسالة بلا تاريخ موجهة إلى زوجته ، كانت المناقشات تحتدم ، كانت الأفكار تختلط مع بعضها ، بينما هو يزداد حماسة في الموسيقى ، يقول هل يمكن أن توحد

مكتبة الفكر الجديد

الموسيقى الناس المختلفين ، كان يعتقد أن الموسيقى يمكنها أن تكون رمزاً لكل الطوائف وكل المذاهب والأديان والأثنيات ، فأخذ يعزف مساء كل يوم في النادي الإنكليزي . عائلات مسلمة ، عائلات يهودية ، عائلات مسيحية يستمعون له بصمت ذائب ، بوله ، بمتعة ، بشغف ، لقد حاول أن يمزج الموسيقى الغربية التي يعشقها بالموسيقى العراقية ، فأخذ يطور أسلوبه ، يطور أفكاره ، ويكتب أحياناً بعض المقالات عن الموسيقى في الصحف أوان ذاك ، كان يعتقد أن العقول يمكنها أن تزداد جرأة بالموسيقى ، يمكنها أن تبلغ درجة السمو :

هكذا وقف يوسف أمام الجمهور وبدأ بإطلاق النغمات من فيولونه ، لقد أخذ بالعزف على آلته وكأنه مغيب عن الوعي ، كان يشعر في سره أن هذه الألحان التي يطلقها لها تأثير سحري على الناس ، هذه الألحان هي التي تجعلهم يتوحدون في قابليتهم البشرية على التأثر بالجمال . كان يوسف في العشرين من عمره ، وهو يستمع لأساتذة يقدّمون له نظريات ودراسات علمية أو شبه علمية ، كان في العشرين من عمره وهو يقرأ الجرائد ، ويعرف الجو العام ، ويدرك مغزى المذاهب ، ويعرف أن ثمة حركة كاملة ضد وجوده هنا ، كان من الصعب عليه حقاً أن يقاوم ، أو يحمي نفسه من الضياع ، كان يدرك بصورة لا تقبل الشك أن كل حوار هنا سيغدو مستحيلاً ، كل مقاومة تبدو عابثة ، مع ذلك انطوى يوسف على نفسه وكرّس وقته للموسيقى ، كتب عشرات النوطات ، كتب دفاتر كاملة ، كان يحلّل ويدرس الموسيقى ، كان يواجه دعاية طاغية بقناعاته الداخلية .

**

يوسف واقف أمام الجمهور في النادي الإنكليزي في بغداد في العام ١٩٥٠ ، ومئات من الجالسين بصمت وترقب أمامه ، كان هذا العازف

مكتبة الفكر الجديد

الطويل والنحيل وهو يمسك فيولونه منتصباً ، بينما يغمر الصالة ظلام دامس ، ما خلا بقعة ضوء تنيره ، كان مرتدياً ذلك اليوم بذلته السوداء السموكنغ ، وحذاء من الروغان اللماع ، وحمل في يده آلة الفيولون ، لحظة صمت ثم وضع القوس على أوتار الآلة ، وبدأ باللحن . شعر يوسف بنفسه وهو يحلق ، لقد انطلق اللحن من بين يديه فشعر بقلبه وهو يتوقف من الفرح .

مرة ، جاءت فرقة لندن فول هارموني ، وأخذ يعزف معها ، كان يوماً تأريخياً بالنسبة له ، فقد وقف خلفه مئة وعشرون موسيقياً ، كاد يغيب عن الوعي في الظلام الدامس للصالة ، هنالك عشرة فيولونات تتصادح ، نوتة عالية تنطلق من فيولونه فتنتزع روحه معها ، تتصاعد الموسيقى وفواصل الطبول والباص بإيقاع رومباتيب خفيف ، لحظات يقف ساكناً ، ولحظات ينطلق مع الموسيقى في دويت مع البيانو حيث يبلغ التوتر ذروته ، فيشعر يوسف بروحه ساخنة ، أثيرية ، متطايرة ، كان يشعر أنه يبعث سحره إلى أولئك الذي يتوقون للحب وللوحدة وللتآلف الإنساني ، وما هي إلا ساعة حتى يغمر الضوء القاعة ، فتتعالى الصيحات والتصفيق ، فتيات جميلات ، سيدات مجتمع راقٍ ، رجال ، شباب ، الكل يصفق .. أما هو فقد كان ينحني ويشعر بصلوات عظيمة في المكامن اللامتناهية من روحه ..

**

كان يتملك يوسف ذلك الوقت وسواس واحد ، وسواس يقول لا تضعوني في محل ضيق ، لا تضعوني في خانة صغيرة ، إنكم تخنقونني حينما تعاملونني كيهودي .

وجهه المرهق ، وعرقه البارد ، وقلقه الكبير يكتسب معنى آخر في

مكتبة الفكر الجديد

لعبة الأقنعة التي تمنحها السياسة للناس ، أما الموسيقى ، والفن ، والجمال فكانت ترفض ذوبان كل شخص في الدور ، أنت يهودي عليك أن تلعب دور اليهودي وتأخذ قناع اليهودي ، أنت مسلم عليك أن تلعب دور المسلم وترتدي قناع المسلم ، أنت مسيحي ، عليك أن تلعب دور المسيحي وترتدي قناع المسيحي ، هذه الأقنعة تيسّر للمرء أن يعيش في المجتمع ، غير أن رفض القناع يبقي الفنان غريباً على الدوام . .

كان يوسي غريباً عن كل ما يحيط به . . كان الكل يصرخ به أن عليه أن يتطابق مع دوره ، وكان هو يريد أن يتطابق مع الموسيقى ، الموسيقى لا دين لها ، الجمال يدعو للتطابق مع شيء أثيري ، مع إله ، لا مع الزي العسكري ، لقد رفض يوسف أن يرتدي زيّاً محدداً ، لم يقبل أن تلصق عليه أية بطاقة ، لم يكن يريد أن يكون من هذا النوع أو ذاك ؛ لكنه يمكن أن يصبح ، حسب الحاجة ، هذا أو ذاك «أن يكون هنا وهناك» .

«كيف أمثل هذا الدور في هذه الكوميديا الإنسانية؟» قال في نفسه ، كان يوسف يشعر وبقوة أن كيانه لم يكن من هذا العالم أبداً ، وكان عليه ارتداء القناع ، ذلك لأن ارتداء القناع هو طريقة أيضاً لاستعادة الثقة بالنفس ، لتهدئة المخاوف ، لطرد الشياطين ، لكتم بعض النداءات العنيفة النابعة من الأعماق ، هذه الأعماق التي تنبىء بحضور الجحيم . . وهذا ما كان يشعر به ألبيرتو كايرو في كتاب دكان التبغ لبيسوا ، أو ما كان يشعر به بسوا في واقع الأمر . . ولذلك كان يوسف يفرح فرحاً غامراً في عزفه للموسيقى ، كان يهرع راكضاً للمسرح في المساء ، كمن يريد أن يصعد المسرح ويبقى هناك ، لا لأنه يحب الموسيقى فقط ، إنما لأنه ما إن يصعد على خشبة المسرح حتى تسقط هويته مباشرة مع أول خطوة على الستيج ، غير أن هذا الفرح كان يذوب ويختفي في الصباح ، يذوب تحت ضغط الحياة ووطأة

مكتبة الفكر الجديد

الهويات ، فهو ما إن يكون واقفاً على خشبة في المسرح لا يضعه أحد في خانة أو تصنيف ، ولكن في الصباح يجد نفسه رغماً عنه في التصنيف . .

كل شيء في داخله كان ينزع نحو التسامي ، كل شيء في داخله ينزع نحو الأعلى ، لقد شعر يوسف أن في داخله حنيناً عميقاً وجارحاً للتلاشي في الأثير ، رغبة مجهولة للذوبان والامحاء ، هذه الهوية ثقيلة عليه ، دافعة له للماضي والغرق في النسيان ، وأراد الخلاص منها عن طريق التلاشي والهروب والاختباء . . وإن لم يكن ممكناً فعليه الاختباء بشخصية أخرى وخلف اسم جديد وحياة جديدة . .

هل كان يوسف يفكر منذ ذلك الوقت بتغيير هويته؟ بتغيير اسمه ، بتغيير شخصيته ، أن يكون أحد أعضاء نادي دكان التبغ؟ هذا ما تكشف عنه مسيرة حياته فيما بعد .

**

لقد عاش يوسف في غمرة صراع الهويات في الشرق الأوسط ، وشعر أن حاضره يهيمن عليه شبح الحرب أو الاقتتال الأهلي ، شعر أن الهويات منذرة بنهاية كل شيء . شعر بالاختناق وقتها أو بالموت ، كانت البلاد سفينة تغرق شيئاً فشيئاً ، ومخاوفه تزداد أضعافاً مضاعفة ، كان العالم المحيط يتقهقر وينهار ، الهزائم المتتالية في بلد ممزّق تفترسه الإيديولوجيات الكاسحة ، فوضى مريعة ، غياب كلي للعقل وللقيم ، ووجوده الشخصي مهدد كل لحظة .

بدلاً من أن يشعر يوسف أنه المركز الثابت للأشياء ، أخذ يشعر بالخوف ، شعر بأن هنالك قوة هائلة قذفته إلى العتمة ، أخذ يشعر أن الزمن يمضي ، وهنالك نوع من التقهقر والتراجع إلى وراء ، شعور بالاندحار والسقوط . أصبحت الأعياد كئيبة ، والأفراح أخذت تتلاشى ، وهنالك

مكتبة الفكر الجديد

شعور بالخوف الخفي ،لم يعد المجتمع الذي يعيش فيه يتمتع بحضور شامل وجميل بل أصبح متاهة معقدة ومخيفة . كل شيء ضيق قليل الاتساع ، يجتاز سوراً فيرتطم رأسه بسور آخر ، عالم جديد ولكنه مخيف يشم منه رائحة الدم . تسارع ولكنه نحو الهاوية .

إنه يعيش ولكن بلا حاضر ولا زمن ، إنها متواليات في السقوط العمودي ، السقوط الشاقولي في هاوية سوداء ، وفي عدم لا قرار له ، وهذا السقوط هو علامة من علامات الموت والتلاشي ، إنه موت العالم أولاً ، ثم موت الإنسان الذي ينقش في بغداد أول حروفه . لقد شعر بعد العام ١٩٤١ بهذه الهاوية التي ستبتلع المجتمع بأكمله ، سيكون الموت في كل مكان ، كل من عرفهم إما يهاجرون أو سيموتون ، ولكن الهجرة إلى أين؟ إنها رغبة غامضة ، قفزة في المجهول ؛ هذه الهجرة هل ستهدم الجدران حقاً ، هل ستجلو الصورة الملحاحة التي تهدد نومه بالكوابيس ، هذا الخوف اليهودي ، الخوف التاريخي من المجتمع هل سينتهي؟ هل سينتهي الشعور بالانعزال عن المجتمع والارتداد نحو رحم الأم ، هل سيتحطم الجدار الذي يمثّل حداً فاصلاً بين الأنا والآخرين ، بين الهنا والهناك؟ ماذا يوجد خلف هذه الحدود : الفوضى ، العدم ، أم الفردوس؟

هل الذهاب إلى إسرائيل هو هدفه ، أبداً ، السفر على درجة من السهولة ، لكن السفر خارج العراق كان نسبة له الدخول إلى عالم غريب بالتمام عنه ، كان يعرف أن التأشيرات منحت لليهود ، ثم رفُضت ، وأُلغيت ، وتعاد المحاولة عشرين مرّة . أخيراً كان على يوسف أن يتخلص من نوطاته ، ومن فيولونه ، ومن ذكرياته ، على اليهود الرحيل إلى إسرائيل ، تم إسقاط الجنسية عنهم ، وسيتم ترحيلهم بلا أي شيء ، سوى ملابسهم ، وهكذا أخذوا يرتدون الملابس الثمينة جداً ويغادرون إلى إسرائيل ، أما التفتيش

مكتبة الفكر الجديد

ذلك الوقت فقد كان مفزعاً ، ربما يستغرق هذا الأمر طويلاً .

توصّل أخيراً إلى نتيجة غامضة ، فتح فمه ، وبصوت ضعيف لا يُسمع ، قال : «سأذهب إلى إسرائيل» .

طلبت منه فريدة زوجته أن يُعيد هذه الجملة عدة مرات ، توقفت فريدة عن قراءة الكتاب الذي في يدها ، وقالت له بصوت كالرعد : «أنت متأكد . . هذا عجيب!» وسكتت .

لم يكن لدى يوسف ذلك الوقت أي شيء يقوله ، كان القرار بسيطاً وسهلاً : على كل يهودي أن يترك منزله ، وأثاثه وأملاكه ، ويسافر بملابسه ، فاشترى اليهود ملابس ثمينة جداً ، اشتروا أحلى البنطلونات والقمصان والبذلات والأحذية وأغلاها ، أما يوسف الذي لم يسمح له حبه للموسيقى أن يتنازل عن فيولونه ، فقد حطمه قبل أن يأخذه معه .

أخبر فريدة بذلك . خرج إلى المسرح ، وعاد بلا فيولون ، وعندما فتحت له الباب وهي تحمل مثير على يدها نظرت إليه برهة ، شعرت أن أمامها شخصاً آخر ، نظرت إليه بعينين مختلفتين ، ردّ على نظراتها بنظرة حزينة ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، سيطرت على انفعالاتها ، بينما هو لم يكن يتمالك نفسه ، وراحت شفتاه ترتجفان وتعبّران عن شيء لا يقال . كان حواراً صامتاً ونوعاً من الطقوس القصيرة ، أعاد فيها كل واحد منهما اكتشاف الآخر .

**

كان مفتش الهجرة واقفاً عند السياج الحديدي خلفه شرطيان اثنان يرتديان ملابسهما الكاكية ، كانا يقفان خلفه بالبساطير الثقيلة ، وحزام الجلد العريض ، والمسدسات الكبيرة تثقل الجهة اليمنى .

يوسف وفريدة وهي تحمل مثير واقفان في طابور طويل ، كل واحد

مكتبة الفكر الجديد

منهما يحمل في يده تصريح «الخروج بلا عودة» مع تصوير شمسي ، كانا واقفين في طابور من اليهود الذين يرتدون أفخر الملابس ، ذلك لأنهم لا يسمح لهم بأخذ أي شيء من ثرواتهم ، فباعوا الذهب والأثاث والمنازل والسيارات واشتروا أفخر الملابس : قبعات ، بذلات سموكنج ، قمصان منشاة ، والنساء كن بالتنورات والتايورات الفارهة ، نظر يوسف إلى الطابور وهو يقهقه ، كان أشبه بطابور حفلة لا طابور هجرة . يا لمشهد اليهود المضحك والساخر ، وهم يتحركون ببطء أمام ضباط التفتيش الذين يفرشون ملابسهم من الحقائب ، ويأمرونهم بخلع أحذيتهم وقمصانهم وجاكيتاتهم ، وكان الواقف بالدور أمام يوسف يخلع والشرطة تضحك ، فقد ارتدى أربعة قمصان ، وثلاثة بنطلونات واحدا فوق الآخر . .

صاح شرطي الجمارك : خلعه حذاءه لا يكون لابس حذاء فوق حذاء . .

لم يلبس يوسف ولا فريدة ملابس جديدة غالية الثمن ، لقد ذهبا بملابسهما العادية ، ولم يشتريا أي شيء جديد لمثير ، وكل أثاثهم وكتبهم وزعاها على الأصدقاء ، كانا واقفين مثل فيلسوفين بحقيبة بسيطة فيها ملابس وحاجات ضرورية ، لم يكن أيٌّ منهما يشعر بالسأم . . كانا أشبه بشخصين مخدرين واقفين في الطابور يراقبان الناس . . كانا أشبه بالحالمين ، لم يكونا مصدقين لما يحدث ، أصوات ، وجوه ، نساء ، رجال ، كلها تتداخل مع بعضها ، تختلط مع بعضها في أذانهما . . كانا ينظران عملية تفتيش محتويات حقائب السفر الحديدية ، نشر الملابس القليلة ، مراسيم تمزيق الوثائق والشهادات ، وتهشيم الصابون على الملابس ، وفحص الأحذية للتأكد من عدم وجود ذهب مخبأ فيها . . ببرود كامل .

**

مكتبة الفكر الجديد

تاريخ هجرة يوسف والسنوات التي عاشها في إسرائيل قد فصلت لي فيها فريدة تفصيلاً برسالتين مهمتين كنت استلمتهما منها في بغداد بوساطة البريد . ومن المهم أن أذكر أيضا شيئاً عن فريدة :

(كانت فريدة روبين متوسطة الجمال ، نحيلة جداً ولها عينان سوداوان واسعتان ، فبعد تخرجها من مدرسة لورا خضوري في بغداد ، التحقت بكلية البنات لدراسة الأدب العربي ، وإن وجدت الكلية بعيدة الصلة عن الحياة إلا أنها ثقفت نفسها بنفسها ، ولا سيما أنها كانت تجيد اللغتين الإنكليزية والفرنسية فضلا عن العبرية والعربية ، وبما أنها كانت تريد أن تصبح كاتبة بكل صورة ، فبعد الذهاب إلى إسرائيل التحقت بالجامعة هناك ، ودرست الأدب العربي حتى أكملت الدكتوراه ، ثم أخذت تدرس في جامعة القدس)

تقول فريدة ما إن هبطت الطائرة ، صاحوا . . شالوم حبير . . غير أن الأشكناز لم يجيبوهم ورشوهم بالدي تي تي . . لكي لا ينقلوا إلى أرض الميعاد ميكروبات العراق . . ثم شحنوهم بلوريات البهائم إلى معسكر الحجر الصحي في شاعر هعليا «بوابة الهجرة» ، ووقفا في طابور التطعيم الصحي ، وفي طابور الطعام للحصول على نصف بيضة مسلوقة وخمس حبات زيتون ، وبعد يومين أخذوهم مع عائلتين أخريين ورموهم في سيارة كبيرة كانت مخصصة لحمل الأبقار . . وأنزلوهم في مخيم كبير . . وهناك على يوسف أن يتعلم الوقوف في طوابير الماء وبيت الخلاء والخبز وشراء اللحم والبيض والزبد بالكابونات والعمل كعامل بناء . .

**

جلس يوسي هناك يحرك أصابعه في الهواء كما لو كان يعزف .

في إسرائيل لا وجود لحركة الزمن على الإطلاق ، كانت الحياة رتيبة

مكتبة الفكر الجديد

ثابتة ، ويوسف يرقب دورة الفصول واحداً بعد آخر ، لحظاته القديمة في بغداد يستعيدها ليعيشها في اللحظة الراهنة ، شعر بأنه يعيش خارج مسار الزمن ، وكانت مفكرته الصغيرة تحفل بإيقاع حياة المهاجرين الرتيبة ، الصور الشاحبة ، حياة الجنود الكئيبة ، وغياب كامل للفرح والدهشة والجمال ، كان يبحث عن جواب ، ولا يجده ، مع أن ما يبحث عنه كان يكمن في شيء غامض وبسيط جداً ، في شيء ساذج بما يكفي ، في تصور ميتافيزيقي بسيط مثل جسر غير مرئي بينه وبين شيء آخر لا يعرف ما هو ، كان يدرك أن الحقيقة لم توهب لأحد أبداً ، والأرض الموعودة موعودة منذ زمن قديم ، مع أنه كان متردداً ، ويشعر بدوار كبير ، وبحسرة وتمزق ، ولكن ثمة شيء أشبه بنداء العالم أجمع يحرضه على الرحيل .

كان قراره بالعودة حاسماً ، لم يكن يشك أبداً بخياره (وقد كتبت فريدة تفصيلاً طويلاً حول فكرته هذه في رسالة إيضاحية لواحدة من رسائله القادمة لها من طهران مؤرخة في كانون الثاني من العام ١٩٥٥ ، كما قد شرح هو أيضاً ذلك في مفكرته)

في البدء التحق بالحزب الشيوعي الإسرائيلي راكاح ، وفي ذلك العام بالذات كان قد التقى إميل حبيبي ، كان بديناً قليلاً شعره الأسود يرده إلى وراء ، وله شوارب مرسومة رسماً فوق شفتيه ، وقد أمضى مع إميل المثقف الشيوعي الذي أصبح فيما بعد كاتباً أجمل الأمسيات ، ولا سيما أنهما دخلا في نقاشات محتدمة حول تحولات الأدب العربي ، وكل الوثائق تؤكد أن إميل هو الذي دبر له هروبه إلى موسكو ، ذلك لأن يوسف أخبره بأمر رغبته في العودة إلى العراق ، وفي يوم جاءه إميل راكضاً ، وجهه متعرق قليلاً ، يرتدي سترة كحلية مخططة ، وقميصاً أبيض ، ويلف على رقبته سكارفاً حريرياً - يطلق عليه يوسف صالح العامل الشيوعي الأنيق-

مكتبة الفكر الجديد

وقف أمامه مبتسماً ، وقدم له ورقة مكتوبة باللغة الروسية قال له إنها دعوة لتأدية حفلة موسيقية في موسكو ، كان ذلك بالنسبة له سعادة مضاعفة . موسكو . . الموسيقى . . العودة مرة أخرى للوقوف أمام الجمهور . .

وفي اليوم التالي وقف أمام الرفيق كلاوسنر وقد أسبل يديه ، كانت الستائر مسدلة في المكتب المتواضع والبعيد عن المدينة ، قال له دون أن ينظر إليه مباشرة :

« ستذهب إلى موسكو في حفل موسيقي كبير وتعود أليس كذلك؟»

قال له ببرود شديد : «نعم . .»

تقول فريدة في رسالتها :

«لم ينم ولا لحظة واحدة منذ أن حصل على بطاقة الطائرة . .وقد بقي ساهراً ، حزيناً لأنه يفارقنا ، أنا وابنه مثير ، ومن جهة أخرى كان سعيداً لأنه حصل على بطاقات الطائرة كي يذهب إلى موسكو ، ومن موسكو إلى طهران ، ومن طهران إلى بغداد كما كان يخطط ، وقد قال لي إننا سنلتحق به فيما بعد» .

كان يوسف يعتقد أن اليهود سيعودون إلى بغداد ، أو على الأقل سيعود الكثير منهم ، كان يعتقد أن الحكومة ستعود عن قرارها بإسقاط الجنسية عن اليهود ، وستعيد لهم أملاكهم ، وسيعودون هم بطبيعة الأمر ، فإسرائيل الأرض البور لم تكن شيئاً أمام بغداد المتطورة ، وهؤلاء تجار وصناع وموظفون وضباط جيش وأطباء ما الذي يجعلهم يعيشون عمالاً صغاراً في هذا البلد الصغير والمتخلف . .

**

جميع الوثائق التي حصلنا عليها تؤكد أن يوسف قد وصل موسكو في المساء ، وعلى الرغم من أن لا أحد يعرف كيف أمضى أسبوعه الأول

مكتبة الفكر الجديد

هناك، إذ لم يكتب هو شيئاً عن مشاعره أثناء الحفلة الموسيقية، أو ما الذي حدث له؟ ولا أحد يعرف عنها أي شيء، أما الشخص الوحيد الذي كان قد التقى به ذلك الوقت في موسكو، وكنت أنا أيضاً قد التقيت به، وحدثني عنه، هو كاكه حمه.

في الواقع هو الشخص الوحيد الذي كان قد التقى يوسف في موسكو تلك الأيام التي عبر بها إلى طهران، غير أنه لم يحضر حفلته الموسيقية، بل لم يكن يعرف عنها أي شيء، والشيء الوحيد الذي قاله لي هو أن أحد الرفاق الشيوعيين في موسكو طلب منه أن يتصل بشيوعي يود الذهاب إلى طهران، ومن هناك تدبر له جواز سفر مزوراً باسم حيدر سليمان، وذلك للدخول إلى العراق فيما بعد، كانت هذه هي المهمة الوحيدة الموكلة لكاكه حمه، غير أن يوسف قد كتب فيما بعد تفصيلات عديدة تخص مهمته هناك، وفي رسالة منفصلة، كان قد أرسلها من موسكو إلى فريدة مؤرخة بعد أسبوع واحد من وصوله إلى موسكو، أخبرها فيها أنه قد نجح بالاتصال ببعض الشيوعيين العراقيين، وأبلغهم رغبته بالعودة إلى بغداد، وذكر لها لقاءه بكاكاه حمه، وأخبرها بأشياء أخرى عديدة، منها أنه حضر كونسيرتات موسيقية، بقيادة مارك جزلر، هذا الألماني النحيل الفضي الشعر، وقد رسم يوسف له صورة مهيبة في خياله استمر في تذكرها فترة ليست قصيرة أبداً. وذكر لها في الرسالة ذاتها كيف أنه قد ذهب في برد موسكو ماشياً على قدميه، وكانت النشوة تكاد تطفر من عينيه، آخذاً الطريق الذي يخترق الحقول والأبنية وهي غارقة في الضباب، كان يسير واضعاً يديه في جيبي معطفه، وكان البخار يخرج من أنفه وفمه ويتلاشى في الفضاء، وما من صوت هناك سوى صوت طائر الغاق وهو يشق الفضاء بصراخه، وصوت الزحافات وهي تبدد الصمت

مكتبة الفكر الجديد

وتبتعد مسرعة ، وحين دخل قاعة الموسيقى الكبيرة وجدها فارغة ، لم يأت أحد بعد ، وكانت المقاعد والمقاصير كلها خالية ، وبقي هناك حتى امتلأت بالناس ، وما إن بدأ المايسترو بالحركة ، وتصاعدت الأنغام حتى بدأت الدموع تطفر من عينيه ، وحين انتهت الموسيقى كاد يغمى عليه ، وبعد خروجه من هذه الصلاة ، كان يجتاز الطرق المحفوفة بالماء ويخترق صفوف السابلة ، وتمر به العربات والأبقار والكلاب والزلاجات وهو سابح في نشوته كأنه مغمى عليه .

**

عاد إلى شقته في ضاحية صغيرة من ضواحي موسكو ، وكانت أكوام الثلوج تتجمع على الرصيف ، وشعر بأن ثمة نسائم هواء باردة تضرب وجهه وهو يدخل الشقة ، كان متعباً جداً ، خلع معطفه الثقيل وألقى به على الأريكة ، ثم جلس على الكرسي الجلدي الأسود ممداً ساقيه على الطاولة المقابلة ، وبعد صمت قليل أخذته غفوة طويلة جداً دون أن يشعر بشيء ، فجأة أيقظه رنين التلفون ، نظر إلى ساعته فوجد الوقت متأخراً ، وإذا بصوت كاكه حمه يدعوه إلى اللقاء من جديد في محطة قطار قريبة من سكنه ، وهي محطة نوفوسلوبودسكايا .

ارتدى يوسف ملابسه على عجل ، وتوجه نحو المحطة الكبيرة ، وسرعان ما اهتز القطار ، وسمع صرير الفرامل القوية ، ثم كف القطار عن السير ، وهبط منه المسافرون ، وعند كشك التلفون كان كاكه حمه بانتظاره ، يرافقه موسيقي روسي اسمه سيرجي أويستراخ ، يعتمر قبعة سوداء وبجواره زوجته وهي امرأة شقراء طويلة القامة ، ولم يكن أويستراخ يتحدث سوى باللغة الروسية ، وكان كاكه حمه هو الذي يترجم له ، وعلى دقات ناقوس المحطة سار الأربعة على إفريز المحطة المكتظ بالناس . ثم

مكتبة الفكر الجديد

اصطحبه الثلاثة إلى منزل خشبي قديم ببوابة حديدية ، محاط بصف من أشجار الزيزفون ، يقع على مقربة من محطة القطار . وقد تكلم معه كاكه حمه طويلاً ، وقدم له معلومات كثيرة عن كيفية دخول طهران ، ثم قدم له جوازاً مزوراً باسم حيدر سلمان بمهنة موسيقي ، وقال له إنه سيبقى فترة من الزمن في طهران ثم بعد ذلك يدخل بغداد .

بعد ساعتين توجها إلى مطار شيريميتوفا في ضواحي موسكو لتقله طائرة روسية إلى براغ ، وقد هبط في مطار براغ مساء ، كان في استقباله موسيقي تشيكي اسمه كارل باروش ، أخذه من يده واتجها خارج براغ . وقد اجتمعا في غابة شاسعة تحيط بمدينة ملادابوليسلاف في منزل خشبي معزول ، وتحدثا طويلاً عن الموسيقى ، وابتهج يوسف كثيراً بالحديث معه ، فقد كان كارل باروش شاباً في العشرين مثله ، له شعر أشقر ، عيناه زرقاوان ، يرتدي معطفاً أبيض ، ويمسك حقيبة جلدية بيده ، وقد أهدى إلى يوسف آلة فيولون جميلة جداً ، احتضنها يوسف بين يديه معبراً عن امتنانه ، ولم ينم الليل حتى الصباح ، وكلما فتح عينيه تقعان على الآلة فيبتسم ، بعدها يعود لينام .

وفي الصباح توجه يوسف مباشرة إلى السفارة الإيرانية في براغ وحصل على تأشيرة الدخول ، وقد حجز على الفور مقعداً على طائرة نرويجية متجهة إلى العاصمة الإيرانية طهران .

**

هل شعر هذا الموسيقار أنه ترك شخصية يوسف سامي صالح على الأريكة وحصل على شخصية أخرى ، يذكر في واحدة من رسائله أنه ذلك اليوم ومن كارل باروش قد سمع بديوان دكان التبغ ، فهل شعر بأن شخصيته الجديدة هي شخصية المحروس .

مكتبة الفكر الجديد

المحروس في دكان التبغ

من حياة حيدر سلمان

(١٩٢٤-١٩٨١)

«لا تخطط قدرك ، لا مستقبل لك ،

بين كأس تفرغ وكأس تملؤها

من يعرف فيما إذا كان حظك يتوسط الهاوية»

«Tobacco shop»

Odes de recardo Ries

مهاجر، موسيقي مجهول، وعصابات الإيديولوجيا

إن الشخصية الثانية في ديوان دكان التبغ لفيرناندو بيسوا هي شخصية الشاعر ريكاردو ريس ، وهو المحروس من قبل الشخصية الأولى أي شخصية البيرتو كايرو ، وهذه الشخصية لها تاريخ ميلاد وحياة مختلفة كلياً عن الشخصيتين الأخريين ، فشخصية المحروس تؤمن بالألهة اليونانية رغم أنها تعيش مسيحية في أوربا ، وهذه الشخصية تشعر بأنّ حياتها الروحية محددة وثابتة ، وأن سعادتها الحقيقية لا يمكن أن تنجز على الإطلاق ، كما أنها تؤمن بشكل كبير بالقدر وبالمصير ، وتؤمن بأن هنالك قوة دافعة بالرغم من كل شيء تتجاهل حريتها .

مكتبة الفكر الجديد

إن هذه الأفكار تؤدي بشخصية المحروس إلى نوع من الحياة الأبيقورية، وتفرض عليه بأية صورة تجنّب الألم، وعلى الرغم من كون المحروس حكيماً فهو يحاول قدر الإمكان تفادي النهايات العاطفية. ويحاول أن ينظر إلى الحياة من مسافة معينة، حيث يقبل مصيره بهدوء كبير، وهو يبحث في الهاويات مفلسفاً كل شيء وشاكاً حتى في نفسه.

وهذه الشخصية قريبة جداً من الشخصية الثانية التي اتخذها الموسيقار وهي شخصية حيدر سلمان، فبعد هربه من إسرائيل إلى موسكو، هاجر بمساعدة الموسيقار الروسي سيرجي أيوستراخ والشيوعي العراقي المقيم في موسكو كاكه حمه إلى طهران، وكان جواز السفر المزور الذي يحمله يمنحه شخصية جديدة ليس بالاسم فقط، فمثلاً هو مولود قبل شخصيته الأولى بعامين، أي إنه مولود في بغداد الكاظمية في العام ١٩٢٤، مثل شخصية المحروس في ديوان دكان التبغ المولودة قبل الأولى بتسعة أشهر، وهو من المسلمين الشيعة.

وحين جلس مع كاكه حمه في موسكو قدم له الأخير معلومات كثيرة عن هذه الشخصية كي يخلق له نوعاً من المواءمة معها، فهو ابن تاجر في سوق الاستربادي في الكاظمية، ودرس الموسيقى في موسكو، وقد أنهى دراسته هناك، غير أن عائلته غاضبة عليه لأنها لا تريده أن يدرس الموسيقى، كانت تريده أن يدرس الطب، ولذلك فهو غير قادر على العودة إلى بغداد في الوقت الحاضر، أما سبب زيارته إلى إيران فهي لزيارة أحد العراقيين التجار وهو إسماعيل الطباطبائي، وهذا الأخير شخصية حقيقية يعمل تاجراً كبيراً بين طهران وبغداد، وهو معروف بتعاطفه الشديد مع القوى اليسارية. وهكذا فإن تاريخ شخصيته الثانية مختلف جداً عن تاريخ شخصيته الأولى، وهو ملزم بطبيعة الأمر بتقمص هذه الشخصية

مكتبة الفكر الجديد

وتجسيدها ، حيث تقدم له الشخصية الثانية من خلال هذه الخلاصة التاريخية روحاً قريبة من شخصية ريكاردو ريس في ديوان دكان التبغ ، فهو شاب محروس من عائلة كبيرة ومؤثرة ، وهو ابن تاجر ثري جداً ، وهو موسيقي أيضاً ، ومتمرد كذلك ، وبالتالي يصبح قريباً جداً من شخصية ريكاردو ريس وذلك باتصافه بالآنية والبشاشة ، وإيجاز الحياة ، وزهو الثروة والبهجة التي تقدمها المتع البسيطة ، ومحاولته تجنب النهايات العاطفية وغيرها .

**

كل الوثائق تؤكد أن حيدر سلمان وصل طهران أول الشتاء من العام ١٩٥٣ ، أي بعد نهاية حكومة مصدق بأشهر قليلة ، ومن هذه المدينة الشرقية بدأ الموسيقار مرحلة جديدة تماماً في حياته ، بدأها من موضع جديد كلياً ، ومن تاريخ مختلف أيضاً ، فقد وصل مطار مهراباد في طهران بحقيبة سوداء صغيرة تحوي القليل من الملابس ، وهي الملابس ذاتها التي أخذها معه من العراق ، باستثناء سكارف أسود وقفاز جلدي اشتراهما من محل صغير في موسكو ، ولم يكن في جيبه غير مجموعة من التومانات التي قدمها له كاكه حمه ، وجواز سفره ، والقفاز الذي يضعه في جيبي معطفه ، والفيولون الذي أهداه له عازف الفيولون التشيكي كارل باروش (أصبح كارل باروش أشهر عازف فيولون في تشيكوسلفاكيا فيما بعد ، وقد حصل على العديد من الجوائز ، ثم هرب من بلاده في العام ١٩٧٥ إلى الولايات المتحدة ، وتوفي في العام ١٩٨٣ في نيويورك) وهنالك عنوان السيد إسماعيل الطباطبائي ، أعطاه إياه كاكه حمه ، (وهو تاجر عراقي معروف وكان واحداً من أصدقاء الحزب الشيوعي ، وممن يعيشون بين طهران وبغداد منذ مدة طويلة) ، وكتاب كيف تتعلم الفارسية بسبعة أيام

مكتبة
الفكر
الجديد

من دون معلم كان قد قدمه له كاكه حمه مع عبارة :

«لا تصدق السبعة أيام هذه . .» .

**

حطت به الطائرة على مدرج مطار مهراباد فجراً ، وهو المطار الرئيسي في العاصمة الإيرانية طهران ، وكان ذلك يوم الثالث عشر من شهر ديسمبر من العام ١٩٥٣ ، وعندما نزل من الطائرة أحس بتيارات الهواء الباردة ولسعة الجو القارص ، وقد كان المطار مكتسياً تماماً باللون الأبيض الناصع بسبب هطول الثلوج ، ثم سار بخطوات مضطربة متجهاً نحو كشك ضابط الجوازات ، حتى وقف أمامه مبتسماً ابتسامة ذائبة من الخوف ، وسلمه جواز سفره العراقي .

طلب منه الضابط الإيراني وهو برتبة نقيب أن يجلس على مصطبة خشبية قريبة من كشك الجوازات ، ثم وضع جوازه جانباً دون أن ينظر فيه ، وأخذ يختم للمسافرين الآخرين واحداً بعد آخر ، حتى خلا المكان تماماً إلا منه . ثم أخذ الضابط الشاب جواز حيدر بيده ، وأخذ يقلب صفحاته بعناية وتدقيق كبيرين ، وهو يتصل بالتلفون ويتكلم مع أشخاص كثيرين ، فشعر يوسف بارتباك وقلق مروعين ، لم تكن لديه القدرة الكافية على التغلب على هذا القلق والشك اللذين أثارهما إحساسه بأن ضابط الجوازات ربما كشف جوازه المزور ، وبهذا ستكون حياته في خطر كامل . .كان حيدر جالساً ذلك الوقت على المصطبة الخشبية في المطار ، يفكر بمصيره ، بقدره ، ذلك لأن عودته غير مفهومة من أحد ، وحبه للموسيقى غير مفهوم من أحد ، لأنه من عالم هو غير عالم الواقع هذا ، ومن منطقة بعيدة عن مجاله المحدد ، وليزيح قلقه وحزنه اللذين أخذت بذرتهما تنمو في أعماق نفسه أصبح يجول بعينيه في قاعات المطار

مكتبة الفكر الجديد

وسقوفه ، كان بانتظار انتهاء الإجراءات ، ولا يعرف ماذا ينتظره الآن أو فيما بعد ، كان ينظر من زجاج المقصورة إلى الخارج ، ينظر بقلق إلى أجمة من الأشجار العالية ، وسماء مثقلة بالسحب ، وعربة خاوية يجرها زوج من الجياد ، وحينما نظر إلى الأعلى شاهد سقف المطار الذي كان يزينه في الوسط الصليب المعقوف وهو شعار الحزب النازي الألماني ، وقد كتب عن هذا فيما بعد إلى فريدة :

(كان المطار والمحطة المركزية للسكك الحديدية في طهران ، قد تم بناؤهما من قبل ألمانيا النازية في الثلاثينيات ، عندما سادت العلاقات الحميمة بين هتلر ورضا شاه حاكم إيران السابق . لقد بني هذا السقف بشكل يصعب إزالة هذا الصليب من دون تدمير السقف كله)

وفي الصباح ، وبعد أن استسلم نائماً على المصطبة مع حقيبته ومظلته المطرية ، والقبعة في حضنه ، شعر بيد تربت على كتفه ، فقد ناوله الضابط الإيراني الجواز وسمح له بمغادرة المطار إلى طهران . كانت فرحته دون شك غامرة ، ذلك لأنه شعر بأنه ولد من جديد ، ولد بهذه الشخصية الجديدة التي أزاحت كلياً الشخصية القديمة وتاريخها ، فتوجه مباشرة إلى أحد فنادق الدرجة الثالثة في المدينة أول الأمر ، مقرراً البقاء هناك بعضاً من الوقت ، ريثما يستدل على عنوان إسماعيل الطباطبائي ، التاجر العراقي الذي يعمل في التجارة بين العراق وإيران .

**

في الواقع طبعت طهران ذلك الوقت في مخيلته صورة باهرة لا تمحي أبداً ، لقد سحرته بهضابها ذات التموجات العالية ، بغاباتها الصامتة والصارمة ، بقممها الجميلة المضيئة والمستديرة ، وبتمثال الشاعر الفردوسي الذي يؤكد نوعاً من الالتحام المكين بين الأرض والسماء ، كانت طهران

مكتبة الفكر الجديد

مدينة عصرية في زمن الشاه ، شوارعها الفخمة ، أوتيلاتها ، قصورها الفارهة ، غاباتها الكثة ، مبانيها الرمادية اللون ذات التأثيرات الإنجليزية منذ القرن التاسع عشر عندما بدأ ناصر الدين شاه ينقل من الغرب أساليبه في البناء والتصميم . هكذا كانت رؤيته الأولى لهذه المدينة الشرقية التي سحرته ، وقد كتب رسالة طويلة إلى زوجته فريدة من حجرته العلوية في الأوتيل والمشيدة من خشب الساج في دار عتيقة وجميلة تظللها أشجار الحور ، ففي أصيل يوم من أيام الشتاء هبط إلى صالة الفندق ، فوجد صاحبة الفندق جاثية على ركبتيها تنفض التراب بمهفة من الريش ، وتنسق الكتب تنسيقاً أنيقاً على الرف الخشبي في الصالة التحتانية ، وإذا بكتاب ذي غلاف رمادي يسقط من إحدى الرفوف إلى الأرض ، فالتقطه حيدر بيده ، رد سكارفه على كتفه ، وأخذ يتصفح الكتاب ، كان رباعيات الشاعر الفارسي عمر الخيام مترجمة إلى خمس لغات ، ومن بينها ترجمة الشاعر أحمد صافي النجفي إلى العربية ، وكان حيدر قد تعرف فيما مضى على الشاعر النجفي يوماً في مقهى البرازيلية في بغداد ، فطلب من صاحبة الفندق أن تسمح له بأخذ الكتاب معه إلى الحجرة ، وأخذ يقرأ به الليل بطوله ، وهو يحمي به صمته وعزلته من نديف الثلج المتساقط ، وفي الفجر ، وقبل أن ينام ، كتب رسالة طويلة إلى فريدة وصف فيها بازار طهران ، وأبرز المتاحف الإيرانية ومنها المتحف القومي الإيراني ، والمتحف القومي للمجوهرات ، وقصر جلستان ، وهي قلعة بنيت خلال الحقبة الصفوية ، وقد حول ناصر الدين شاه ، أحد الحكام المهمين من الحقبة القاجارية ، هذه القلعة إلى قصر على الطراز الغربي في نهاية القرن التاسع عشر ، وضمن الرسالة بعض أبيات الخيام ، وهذه هي أول رسالة وقعها باسم حيدر سلمان ، طهران ، أوتيل سرجشمة ، ١٩٥٣ .

مكتبة الفكر الجديد

هذا يعني أن حيدر سلمان من الأيام الأولى بدأ باكتشاف هذه المدينة الإمبراطورية الضخمة ، لا من قسمها الجنوبي الذي يكتظ بالفقراء فقط ، إنما من قسمها الشمالي الأرستقراطي أيضاً ، وكل صباح يخرج مسرعاً من أوتيل سر جشمة وهو عبارة عن دار عتيقة تظللها أشجار الحور ، يضع يديه في جيبي معطفه ، يرد السكارف على وجهه ، ويضع القبعة على رأسه ويبدأ بجولة في شوارع طهران الواسعة . كان منسحراً برؤية جبل البرز الشاهق الذي يكتسي بالثلوج خلال أيام الشتاء ، وبالممر الطويل من الأشجار الكبيرة المعمرة ، وبتلك الأزقة الملتوية والجانبية المملوءة بأسرار حياة الحرفيين والتجار الصغار ، كان يأخذ فيولونه أحياناً ويجلس في ميدان كبير ، في منتصفه حنفية ماء تهمس في الأيام الشتوية المشمسة كما لو أنها تغرد ، فيعزف أمامها مقطوعة أو مقطوعتين ، وفي المساء يعود إلى الأوتيل ، على همسات العشاق وهي تمتزج مع خرير المياه التي تهبط من الجبال ، وتسير بشكل جداول في شوارع المدينة .

**

من الثابت أن حيدر سلمان قد ذهب ذلك الوقت إلى عنوان إسماعيل الطباطبائي أكثر من مرة ، غير أنه لم يجده ، إذ كان الأخير في بغداد بسبب مرض ابنته ، وقد شعر بعد أيام أن المال الذي معه لا يكفيه وقد بدأ ينفد ، فاتصل بكاكه حمه في موسكو وذكر له أن إسماعيل الطباطبائي غير موجود في طهران ، وأن ماله بدأ ينفد ، فأرسل له الأخير بعض المال الذي يكفيه ريثما يعود التاجر العراقي المؤيد لليسار من بغداد ، غير أن حيدر سلمان أخذ يتردد ذلك الوقت على مطعم خانزاد الذي يقع عند تقاطع شارع فخرآباد مع شارع غيزارد ، على بعد خطوات من الميدان الكبير في طهران ، وكان السبب في ذلك وجود عامل عراقي في المطعم

مكتبة الفكر الجديد

اسمه حكمت عزيز ، فكان حيدر سلمان يذهب في ليالٍ كثيرة ليجلس عند البوابة الخلفية لهذا المطعم ، بانتظار ظهور حكمت عزيز حاملاً معه لفافة جريدة تحتوي على سندويش كباب ، يذهب حيدر لالتهامها في حديقة كبيرة قريبة من المطعم .

في الواقع ، وحسب ما توفر لدي من معلومات ، لا أعرف من أين تعرف حيدر سلمان على صديقه الجديد حكمت عزيز ، وقد كتبت فريدة لي رسالة معتقدة أن كاكه حمه هو الذي أرشد حيدر ذلك الوقت إلى حكمت عزيز ، ولكني بعد سؤالي لكاكه حمه عن هذا الموضوع ، ورأي فريدة في رسالتها ، أنكر الأخير ذلك ، وقال لي إنه لم يتعرف على حكمت عزيز إلا بعد الثورة في العام ١٩٥٨ وقد رآه في بغداد ، ومع ذلك كتب حيدر سلمان في واحدة من رسائله من طهران إلى فريدة : أن حكمت عزيز ذهب إلى طهران لدراسة الهندسة المعمارية في جامعة طهران ، ثم وجد له عملاً بسيطاً في المطبخ في مطعم خانزاد ، ومن هناك أخذ يتعاون مع حزب تودة ، ومع بعض القوى الثورية واليسارية المعارضة للشاه ، حيث كان العراقيون في تلك الفترة من الخمسينيات يعيشون حمى الثورة ، وكانت الأحزاب الثورية تعج بالشباب والصبايا الحالمين بها ، كانوا يريدون تكرار ثورة لينين ورجاله الملتحين في بلادهم .

وربما توطدت صداقتهما في تآمرات المقاهي ، حيث كانا يلتقيان كجماعة من الشباب العراقيين الذين كانت تطلق عليهم الصحف اليمينية ذلك الوقت صبيان اليسار أو المراهقين الثوريين ، والذين يتجمعون في مقهى نادري في شارع بهلوي ، وهم مجموعة من الطلاب العراقيين في جامعة طهران ، وبعض صغار رجال الدين في قم والمتأثرين بالماركسية والذين أصبحوا في تيار علي شريعتي فيما بعد ، وبعض العمال المهاجرين

مكتبة الفكر الجديد

من العراق إلى إيران ، وعندما علم حكمت عزيز بضائقة حيدر سلمان المالية ، تبرع له بالطعام ، لأن في المطعم يرمى الكثير منه في المزبلة ، فيمر حيدر بالباب الخلفي للمطعم ، ثم يخرج له حكمت عزيز جريدة ملفوفاً بها سندويش كباب .

كان حكمت عزيز في العشرين من عمره ، وهو وسيم ونحيف إلى درجة غير معقولة حسب وصف حيدر سلمان ، كان يقطن ذلك الوقت في شقة قديمة متهالكة محاطة بالقذارة ، في حي اسمه طوبخانة في طهران الجنوبية ، وهو حي حرفيين ، ونجارين ، وحذائين ، وخياطين ، ويهود فقراء ، وكان حكمت عزيز يعد بجد للثورة ، يعد بجد للانقلاب العظيم الذي سوف يصنع في بغداد جمهورية السعادة ، وهي الفكرة التي هيمنت على عقول الشباب وأرواحهم ذلك الوقت ، وجعلتهم يهيمون على وجوهم شمالاً وجنوباً من أجل تنفيذها ، ولكن ما الذي دفع حيدر سلمان إلى هذه الفكرة الجهنمية والتي كان بعيداً عنها تماماً في شخصيته الأولى ، هل هي بفعل شخصيته الثانية التي تشتمل على التمرد والانشقاق ، شخصية ريكاردو ريس مثلا والتي تمثلت وتجسدت في شخصية حيدر سلمان ، صورة الاحتجاج التي يقدمها الإسلام الشيعي مثلاً والتي تضمنتها شخصيته الثانية ، أم هنالك شيء آخر؟

في الواقع وجد حيدر سلمان في حكمت عزيز ربما الطريقة المثلى لدخول العراق مرة أخرى ، فلم تكن هنالك أية طريقة مأمونة أو مضمونة سوى طريقة النشاطات التآمرية اليسارية ، وإن كانت طريقة حلمية قليلاً ، وبعيدة ربما ، وبحاجة إلى شيء من الانتظار ، ولكنها قائمة وموجودة ، فقد كانوا يهربون بعض اليساريين الثوريين إلى العراق وبالعكس ، سواء أكان ذلك عن طريق كردستان العراق في الشمال أم عن طريق الأهوار في

مكتبة الفكر الجديد

الجنوب ، وفي الواقع أن هذا الموسيقي اليهودي لم يكن يوماً يملك أياً من تهور حكمت وطيشه ، وعزيز المنشق أصلاً عن الحزب الشيوعي ، والذي قدم من عامين إلى طهران ، وقد تلقى في حياته تدريبات عسكرية على حرب العصابات ، أما هذا البرجوازي الصغير فلم تكن له أيٌّ من هذه المغامرات السرية ، ما كان يهمه هو العودة إلى العراق ، والعودة إلى العراق لم تكن تعني له أكثر من المكان الذي كان يعزف فيه فيما مضى موسيقاه ، حيث تجلس العائلات البغدادية أمامه لتستمع إليه .

وفي اليوم الأخير من أسبوع الوصول إلى طهران ، أخذ حيدر سلمان يبحث عن منزل إسماعيل الطباطبائي لعله عاد من بغداد ، فذهب إلى منزله في الحي الراقي الذي يقع شمال شارع بهلوي . وبعد أن سأل أكثر من شخص استدل على مكان المنزل بالضبط ، فذهب مساء وهو يحمل حقيبته ، وكمانه «فيولونه» ، ومظلته المطرية ، وقبعته ، وقفازاته السود .

كان المنزل منعزلاً تقريباً ، يقع في حي راق تغطيه الأشجار الكثيفة تماماً .

توقف أمام المنزل ، طرق الباب العالية بمطرقة نحاسية مثبتة في الوسط ، بعد دقائق انفتحت الباب على خادمة ترتدي ملابس جميلة وفوقها مريول أحمر ، وما إن بدأ الكلام معها بالإنكليزية حتى خرج إسماعيل الطباطبائي مرحباً به ، كان الرجل في الخمسين من عمره ، أشيب الشعر ، وكان وسيماً وطويلاً ، وراقي الملبس ، أخذه مباشرة إلى غرفة صغيرة في أعلى المنزل كانت تزينها رسوم قديمة وغريبة ، وقد بهت لون أثاثها بفعل الزمن ، وكانت هذه هي حجرته .

**

لقد كان مجرد دخوله إلى هذا المنزل تحولاً حقيقياً سواء أكان في

مكتبة الفكر الجديد

حياته برمتها ، أم في شخصيته الثانية ، أي شخصية المحروس ، وإن لم تكن هذه الشخصية الثانية محروسة من شخصيته الأولى كما في كتاب دكان التبغ لبيسوا ، فقد أصبح حيدر سلمان محروساً من هذا التاجر الكبير الذي أدرك كلاهما ومن اللحظة الأولى أن الأمر سيتعدى المساعدة البسيطة التي يقدمها هذا التاجر لمناصري اليسار . ألا تؤمن شخصية المحروس في كتاب دكان التبغ بالقدر وبالمصير؟

كان حيدر سلمان يؤمن بأن وجوده في هذا المنزل كان قدرياً ومصيرياً أيضاً ، ولا سيما بعد أن اكتشف في الصباح أن لإسماعيل الطباطبائي ابنة مريضة اسمها طاهرة ، وكان الأب يقضي مساءاته كلها تقريباً على مقربة من سريرها .

في الأيام الأولى أخذ حيدر سلمان يقضي أغلب وقته في حجرته ، وذلك بسبب خجله المستديم وبسبب تلكؤه ، وبسبب اضطرابه من هذا المظهر الارستقراطي العالي ، بسبب خوفه من الهدوء الطاغي ، والحياة الأبهة في منزل مضيفه ، فكان يفضل في المساء الجلوس وحيداً في حجرته وهو يحلم بالموسيقى ، الموسيقى التي احتفظ لها بحب كبير في أحلامه الملتهبة ، وفي الصباح كان يتحرى شوارع طهران الجانبية الصغيرة التي تزدحم بالحرفيين والأصوات والسابلة ، وحينما يعود في الظهيرة تكون الشمس قد صعدت من وراء زجاج نوافذ المنزل ، فتطل بأشعتها الذهبية وتفرش ابتداء من وقت الغداء قاعة المائدة والصالة ، فكان حيدر يجلس مع إسماعيل الطباطبائي وابنته طاهرة ساعات طويلة .

كان الجميع ذلك الوقت يجلس في الصالة المشمسة في الشتاء ، طاهرة الشاحبة بوجهها الذابل الجميل ، وبشعرها الذهبي المنسدل على كتفيها ، وإسماعيل الذي يخدم ابنته وينظر إليها الوقت كله ، وحيدر

مكتبة الفكر الجديد

سلمان الخجول والمطرق على الدوام دون أن يرفع عينيه ، كان كأنه ذلك الوقت يصغي لأصوات تنفذ من النافذة ، أصوات الشتاء المبهمة والمثيرة للخيال ، وهذا الفضاء الغامض مفعم بروائح الأشجار والثلج الذائب ، حيث الوحشة تتسلل شيئاً فشيئاً إلى الحجرة ، وفي يوم من الأيام . خرج حيدر وسار في شارع رضا بهلوي حتى نهايته ، وحين عاد متعباً في الليل جاءته فكرة أن يعزف يومياً ساعة للمريضة التي تلازم السرير بوجهها الذابل المريض ، ولوالدها المسكين الذي كان على الدوام يلازمها .

لم يكن يعرف أن هذه المقطوعات الصغيرة ستجعل الشابة بوضع نفسي أفضل بكثير مما كانت عليه فيما مضى ، ستجعلها مرحة وبمزاج عال على الدوام ، وهذا ما جعل الأب يتعلق به كثيراً ، لم يكتف الشاب حيدر سلمان بعزفه على آلة الفيولون لهذه الفتاة الجميلة فقط ، إنما أصبح يصطحبها معه في نزهاته النهارية ، ولا سيما بعد أن شعرت بتحسن كبير في صحتها ، واستبدلت صداع المرض الموجع ، بشيء أقرب إلى دوار النشوة ، شيء أقرب من التوله والحب منه إلى المرض كما كانت فيما مضى ، كانت طاهرة حساسة جداً ، وسريعة التأثر ، وقد استقبلت الشاب في منزل والدها بمشاعر مزدوجة بحزن وفرح شديدين ، كانت تقف أمامه وترتجف عضلات وجهها ارتجافاً ، وعيناها يترقرق فيهما الدموع لأنها كانت تتحرق ظمأً إلى حبه ، لقد تنبهت لنفسها أنها متعلقة به جداً ، لا يمكن لها أن تفارقه على الإطلاق ، وكان هو من جانبه يتبادل معها الأفكار والمشاعر ، وإن كان يتفادى السقوط في حب عارم ، ولكنه كان يظهر لها الكثير من الحنان .

(في رسالة مرسلة إلى فريدة ، يعبر فيها حيدر سلمان عن رغبته في أن يطلق لها حريتها في الزواج من شخص آخر ، وبعد ثلاثة أيام كتب لها

مكتبة الفكر الجديد

رسالة طويلة يخبرها عن حياته الجديدة مع طاهرة ، ويخبرها بأنها فرصته الأخيرة للعودة إلى بغداد ، ومع أنه لم يكن سعيداً ، ولكنه كان مستمتعاً جداً بجولاته في شوارع طهران الفسيحة ، وجلساته في المنتزهات الفخمة التي تطلق ظلها البارد وعطر مئات أشجار السرو المغروسة منذ زمن القاجاريين ، كما أنه كان معجباً جداً بالمنازل الفخمة وأفنيتها الكبيرة وزجاج نوافذها الملون ، وفي رسالة أخرى كتب لفريدة عن زيارته لأهم المناطق في طهران منها سوق كارافانسيراي بممراته ، وصفوفه المقببة المنخفضة ، وذهب إلى قمم كالوس المغطاة بالجليد ، وذهب مع طاهرة إلى منتجع كلاردشت الجميل ، وسبحا في العيون الساخنة لمنتجع رمسر الساحلي ، وزارا معا المناطق الأثرية لماسولة القديمة ، وتجولا في الأسواق الشعبية على امتداد بحر قزوين ، وزارا معاً البرسبوليس ونقش رستم ، ثم وقفا أمام قبر حافظ ، أمام القبة التي ترتفع إلى الأعلى كرمز للروح الصاعدة نحو السماء)

**

لقد كانت تلك الفترة هي الأكثر حميمية بين حيدر وطاهرة ، وكانا يمضيان الصباح كله في التنزه والتسكع في شوارع طهران ، إما سائران على أقدامهما أو التجول بسيارة طاهرة ، وهذا هو الوقت الذي جعل إسماعيل الطباطبائي يعود به مثلما كان إلى عمله ، لقد وفر له حيدر وقتاً عظيماً للتجارة مرة أخرى وعوضه بالفعل عن وجوده الدائم مع ابنته ، ومن هنا أصبحت أهميته ، ليس فقط من أجل ابنته وإنما من أجل تجارته أيضاً ، أما بالنسبة لطاهرة وحيدر فقد أصبح هذا التجوال طقساً مقدساً تقريباً لهما ، يبدأ من بداية شارع رضا بهلوي من الشمال حيث زحام السيارات والموتوسكلات ، إلى وسط الشارع حيث ينتصب تمثال الحكيم الفردوسي

مكتبة الفكر الجديد

صاحب ملحمة الشاهنامة ، ومن التنزه أمام بوابة جامعة طهران التي صممها المعمار الفرنسي غودار ، والتي كانت امتداداً لدار الفنون التي شيدها أول مصلح إيراني في القرن التاسع عشر هو ميرزا تقي خان أمير كبير الذي سعى الى نقل العلوم الغربية في إيران ، إلى مسرح رودكي أو تالار تيمناً باسم الشاعر الفارسي أبو عبد الله جعفر رودكي - القرن الرابع الهجري- وقد بني هذا المسرح على شكل زهرة تيوليب .

وفي هذا المسرح أيضاً عزف حيدر سلمان بعد عام من زواجه من طاهرة ، وبسبب تدخل إسماعيل الطباطبائي التاجر المتنفذ ، عزفاً منفرداً للمقطوعة رقم ٤ من دى - مول ل : هنري فيوتان ، بعبقرية مطلقة وتنغيم مرهف ، مع نغمات مرتفعة ، وخط رائع ، وقد أثار إعجاب النخبة الإيرانية ، والعائلات الأرستقراطية التي كانت حاضرة ذلك الوقت في المسرح .

**

لقد كتب حيدر سلمان ذلك الوقت العديد من الرسائل إلى فريدة يخبرها عن جولاته واكتشافاته لهذه المدينة الجميلة ، وكانت هذه الجولات على الدوام برفقة طاهرة ، وقد كتب هذه الرسائل التي تفيض بانسحاره بعمارة المساجد ، وبالقبب الزرقاء اللامعة المطلية بالكربلائي ، وبالمنارات المطلية بالذهب ، وبالزخارف الفضية والخشبية ، وبالسقوف المزينة بالمرايا ، والموجودة حتى في بيوت الميسورين ، لكن السؤال الذي حيرني هو هل أصبح حيدر سلمان ومن داخله مسلماً حقاً؟ أم هو ريكاردو ريس الذي يؤمن بالآلهة اليونانية بالرغم من أنه يعيش في أوربا المسيحية؟ من الثابت أن طاهرة كانت تتوفر على إيمان أولي بالدين وباستسلام كامل إلى بعض الطقوس الشيعية ، ولكن هل كان الدين هو دافعه - أقصد تقمص شخصية حيدر سلمان كاملة-أم الفن ، والذي جعله يعقد فيما بعد

مكتبة الفكر الجديد

مقارنات لا تحصى بين هذا الفن الراقي وبين الابتذال الصوري والخطي الذي يتعلق بالدعاية والبروبوغاندا السياسية-الدينية، والتي تعتمد على ابتذال وسطحية كاملين؟

لا أدري لماذا ألح منذ وجوده في طهران ذلك الوقت للحديث عن لوحة رسمها أستاذ فن الكيتش في الرسم وهو آندي وارهول للشاه محمد رضا بهلوي وهو يجلس على كرسي العرش، هذا الكرسي الذي نهبه نادر شاه من الهند أثناء غزوه للأراضي الهندية والذي يعرف بـ «تخت طاووس» والمرصع بآلاف الجواهر والأحجار الكريمة، وقد تربع عليه أباطرة إيران أثناء التتويج أو المراسيم الرسمية. وكان الشاه يجلس في لوحة وارهول بنظرته المميزة، وببزته الشاهنشاهية، أما الإمبراطورة فقد جلست على تخت طاووس ذاته، التخت المنهوب، بتاج الأباطرة السابقين، وتحيط بها مقتنياتهم من الجوهرات والتحف الذهبية.. هذا ما لم أعرفه ذلك الوقت، ولكن من الواضح أن فكرة عقد مقارنات في الفن لا تحصى حول هذا الأمر قد بدأت منذ شخصيته الأولى، أي منذ زيارته إلى موسكو ووقوفه أمام المايسترو الروسي خائفاً ومتأثراً ومنتظراً الحكمة التي سينطقها هذا الملتحي بوجهه الأحمر الذي يشبه النبيذ، وهي أن عليك أن تستوحي من مظاهر شعبك الفن الذي تريد، وجملة مقدم البرامج المسلم المحلي بوجهه الأسمر الذي يشبه وجه يهودي وهو يثني عليه لأنه يؤدي الفن الكلاسيكي، ولكن التطوير اللاحق هو ما حدث في السياسة حتماً، واستخدام الكيتش في البروبوغاندا السياسية سواء أكان في طهران أم في بغداد؟

على العموم السؤال الأساس الذي شغلني ذلك الوقت هو متى تزوج حيدر من طاهرة إسماعيل الطباطبائي؟ هذا ما لم يذكره أبداً في رسائله، إنما هنالك رسالة أرسلها بعد زمن طويل في واحدة من سفراته إلى أوربا،

مكتبة الفكر الجديد

يقول لها فيها إنه تزوج من طاهرة وله منها حسين ، وبقي هذا اللغز يحيرني حتى ذهبنا فارس وأنا إلى طهران .

**

هبطنا مطار طهران ، فارس حسن وأنا ، كانت جبال البورز مكللة بالثلج على الرغم من دفء الربيع ، والمطار كان مزدحماً جداً ، خرجنا من صالة المطار ليلاً ، أخذنا التاكسي وذهبنا مباشرة إلى مركز المدينة ، وكان من المستحيل علينا تلك الساعة أن نحصل على حجرة في فندق رخيص أو في خان ، وطلبت من السائق أن يتجه إلى سر جشمة ، لا أدري لماذا قلت له إن عنواننا في هذا المكان ، كنت أعتقد أن فندق سرجشمة الذي قطنه حيدر سلمان في الخمسينيات أثناء وجوده في طهران يقع في محلة سر جشمة ، ولم أكن أعرف أن هنالك حيّاً شعبياً يقع في القسم الجنوبي من مدينة طهران ، أي في القسم الأكثر فقراً من المدينة الكبيرة ، يحمل الاسم ذاته ، وحين هبطنا لم نجد الفندق الذي جئنا نسأل عنه بطبيعة الأمر ، إنما وجدنا مجموعة من الأوتيلات الفقيرة والخانات الصغيرة والمنتشرة في الشارع الرئيس من الحي الشعبي ، فأخذنا نطرق أبواب الخانات والأوتيلات واحداً بعد آخر ، وفي كل مرة لم نجد غير كلمة الرفض أو الاعتذار ، كانت شعورنا مشعثة ، وثيابنا حائلة ، ووجوهنا مكفهرة ، ولم تشجع أحداً أن يقدم لنا حجرة في خان أو في فندق .

وبعد لأي وجدنا أوتيلاً حقيراً للغاية لا يستحق أن يكون اصطبلاً أو مذوداً للخيول ، فنمنا على أسرة نظيفة ولكنها غير مريحة بالمرة ، وكانت الحجرة خالية من الأثاث ، والتواليتات والحمامات مشتركة ، وكانت الضجة على أشدها ، ولما بدأت أشعة الشمس في الصباح تتسرب من النافذة ، أيقظتُ فارس ، غسلنا وجوهنا وأسناننا ، حملنا حقائبنا على

مكتبة الفكر الجديد

ظهورنا ودفعنا أجرة المبيت وخرجنا .

سرنا في الشارع المقابل لهذا الأوتيل القديم جداً ، هنالك ساحة واسعة ، يقف في منتصفها شرطي طويل جداً وملتح كان ينظم حركة السيارات والدرجات الهوائية والبخارية ، وثمة رجال دين يرتدون العمائم ويقودون دراجات بخارية ، ويطل على الساحة باعة التوابل والمكسرات ومحلات العطارة والبقاليات ، ومحلات الحلاقين ، والجبراتية ، والمطاعم الصغيرة ، والمكتبات . فطهران هي الشرق في أجلى صوره : نساء يرتدين التشادور ، رجال يسيرون بهدوء في البازارات ، دجاج ينقر الحب في المزبلة ، وبقرات تبحث في العشب عما تبقى من قشور البطيخ ، وعند زاوية الشارع الزورخانة القديمة ، حيث يخرج الرجال ضخاماً يشبهون مصارعي السوما . .

في الواقع كان دليلي في التعرف على المدينة ذلك الوقت هي رسائل حيدر سلمان ، ومع أني كنت أبحث عن معلومات محددة تخص إقامته في طهران سواء أكان ذلك في الخمسينيات حين وصل طهران قادماً من موسكو أول مرة ، أم في الثمانينات بعد تهجيره إلى هذه المدينة لأنه من التبعية الإيرانية ، ولكني كنت منسحراً مثله في المدينة ، وما أدهشني حقاً هي وجوه الناس في هذا الحي الشرقي والفقير ، والتي كانت نسخة مطابقة بالضبط لوجوه الفقراء الإيرانيين التي صورها صادق هدايتي في قصصه ، أو بشخصيات برزك علوي في روايته «عيونها» ، وقد حملنا فضولنا إلى دخول المكتبات ، فوجدنا روايات محمود دولت آبادي والذي يعد نجيب محفوظ الأدب الفارسي ، وفروغ فرخ زاد التي تشبه غادة السمان من نواح كثيرة ، ومسرحيات رضا برهاني ، ومسرحية لسعيد سلطانبور الذي أعدمه الخميني ، وربما أفرج عن كتبه فيما بعد ، أي بعد موت الأخير ، ذلك أن

مكتبة الفكر الجديد

كتبه كانت ممنوعة تماماً .

كانت الشوارع ذلك اليوم مزدحمة جداً في الجنوب ، وقد اقترح فارس أن نتغدى في مطعم خانزاد الذي كان يعمل به حكمت عزيز فيما مضى ، ويقع في شارع ولي العصر- وهو الشارع ذاته الذي كان يسميه حيدر سلمان شارع بهلوي في رسائل الخمسينيات-ومن ثم نذهب إلى الشمال ، فقد كان الشارع كما وصفه حيدر سلمان طويلاً جداً ، يمتد حتى نهاية مدى البصر من جنوب طهران حتى شمالها ، وهنالك على الجانبين الشجر القاجاري المعمر بجذوعه الضخمة ، والعمارات على الطرز الحديثة ، فنادق ، متاحف ، مقاه ، مطاعم ، ومن نساء التشادور في الجنوب حتى نساء الشمال المتغربنات ، وهن يسرن بغطاء رأس بألوان زاهية وبنطلونات جينز ، وبوطات طويلة ويسرن مع كلاب صغيرة في أعناقها سلاسل ذهبية . يقع المطعم على رصيف عريض في شارع تحف به الأشجار ، شجر معمر أوراقه تقطر ندى فوق الحجر الأبيض ، وكان العشب ينبت من شقوق البلاطات .

جلسنا على طاولة خارجية ، وكانت النسائم تهب باردة على المكان . في تلك اللحظة مرت امرأة جميلة بشعر أشقر في الثلاثين من عمرها ترتدي حجاباً مرتخياً على رأسها ، وبنطلوناً من الجينز ضيقاً عليها ، فجأة توقفت سيارة البوليس على مقربة منها ، هبط منها شرطي ملتح ، ومعه شرطية ترتدي التشادور ، ثم بدأ جدال حاد بين الثلاثة ، كانت المرأة تتكلم بصوت مرتفع مع رجل الشرطة ، ثم تقدمت الشرطية منها وحاولت أن تدخلها إلى السيارة ، أشاحت عنها المرأة وصاحت . ثم فجأة استدارت وحاولت الهرب ، غير أن الشرطية أمسكت بها ، وقد ساعدها الشرطي ، وأدخلاها بالقوة في السيارة ، وأغلقا الباب .

**

مكتبة الفكر الجديد

كان شمال طهران مختلفاً كلياً : الفنادق الراقية ، المطاعم الأجنبية ، الفلل الحديثة بحدائقها الواسعة التي تختفي خلف الأسوار ، والتي تعكس ثراء غير عادي لسكانها ، وسكانها هم التكنوقراط الإيرانيون ، والموظفون الكبار في الدولة ، والتجار وأصحاب الأعمال الخاصة والمهندسون والأطباء ، والكتاب والناشرون ، وهؤلاء دائمو السفر إلى الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا ، أما النساء هنا فإنهن لا يرتدين التشادور بالمرة ، إنما يسرن بكامل مكياجهن وملابسهن الأنيقة خصوصاً الحذاء طويل الرقبة على بنطلون جينز وجاكيت قصير وغطاء رأس زاهي الألوان .

نزلنا في فندق سيرين ، وضعنا حقائبنا وهرولنا لنأخذ التاكسي ونعود إلى مركز المدينة ، كنا نريد الذهاب إلى البازار الكبير فهنالك شخص اسمه بهزاد كان على علاقة بحيدر سلمان وبوالد زوجته طاهرة ، إسماعيل الطباطبائي . وبالفعل كنا وصلنا البازار ، وجلسنا نحدق في الوجوه حتى يحين انتهاء الصلاة في الجامع ، كانت الطيور البيض تحلق في السماء الزرقاء ، وتحط على قبب البازار الكبير ، وكانت الطرقات حية ونابضة بالوجوه والبذلات الشعبية التي تسير تحت الأروقة المروسة ، إنها وجوه الرجال النحاسية المتغضنة ، ووجوه النساء الجميلات اللواتي يتحاورن غير مباليات . .وفي كل مكان ثمة إشارات وأدعية دينية مثل «يا فاطمة» ، و«أبو الفضل العباس» ، و«يا حسين» ، وهي لافتات موجودة على محلات بيع الملابس النسائية ، وعلى وسائل المواصلات العامة والخاصة في المدينة ، وعلى محلات الأكل ، وطبعا على المساجد ، والمدارس الدينية .

بعد أن التقينا بالكثيرين ممن يعرفونه أو يعرفون زوجته طاهرة ، أو والد زوجته إسماعيل الطباطبائي ، تأكد لدينا أنه تزوج من طاهرة في طهران ،

مكتبة الفكر الجديد

ولكن ما هو تأريخ عودته إلى بغداد؟ الجميع أكد لنا أنه عاد بعد ثورة تموز في العام ١٩٥٨ ، أي بعد تولي الزعيم عبد الكريم قاسم الحكم في العراق ، ولكن لا وجود لتأريخ محدد بذلك ، ما يمكن تأكيده في تلك الفترة هو ابتهاجه بالثورة العراقية التي أطاحت بالملك ، وذلك في رسالة بعث بها حيدر سلمان من موسكو إلى فريدة ، وقد كان ذلك الوقت في سفرة مع زوجته طاهرة وابنه حسين .

ومع ذلك هنالك العديد من الأشخاص الذين أكدوا لنا على نحو لا يقبل الشك ، أثناء زيارتنا لبغداد في العام ٢٠٠٦ ، أنه قطن بعد الثورة مباشرة في محلة الكرادة في بغداد ، في منزل طابوقي جميل وبحديقة صغيرة ، وعلى مقربة من كنيسة القديس روفائيل ، أي قبالة مستشفى الراهبات المشيدة في الستينيات ، وهو منزل قديم نسبياً يطل من جهته الخلفية على نهر دجلة ، ومن الأمام على شارع الكرادة الذي أخذ يتحول إلى أهم مركز تجاري وثقافي في بغداد : فنادق ، نوادٍ ليلية ، بارات ، مكتبات ، محلات وأسواق شعبية .

**

من الواضح أن حيدر سلمان عاد بقوة ذلك الوقت إلى الموسيقى ، بل أصاب شهرة كبيرة ولا سيما بين النخب المثقفة التي وجدت لنفسها مكانة كبيرة بعد الثورة ، وقد أحيا الكثير من الحفلات الموسيقية في أماكن متعددة ، وهي أماكن مختلفة كلياً عن الأماكن التي كان يحيي بها حفلاته فيما مضى ، وأصبح له جمهور جديد من العائلات الشيوعية التي ارتقت ذلك الوقت ، وهي غير العائلات الأرستقراطية التي تمت الإطاحة بها بعد الثورة ، والطبقة الجديدة هي من الطبقة الوسطى المؤيدة للثورة ، وقد أرادت هذه الطبقة الجديدة أن تصنع لها رموزها الثقافية والسياسية

مكتبة الفكر الجديد

والاجتماعية كبديل حقيقي للمجتمع الأرستقراطي السابق ، وهكذا تأسست جماعة فنية مهمة من النحاتين والمعماريين والموسيقيين التي كانت تؤيد الثورة .

ولم يقتصر حيدر سلمان على حفلاته الموسيقية في بغداد مع فرقة كبيرة من العازفين والموسيقيين بقيادة مايسترو روسي اسمه فلادمير غلييوف ، بل أحيا حفلات كثيرة أخرى في مختلف عواصم العالم ولا سيما في شرق أوربا ، بل كانت أكثر حفلاته ذلك الوقت في موسكو وبراغ المدينتين اللتين عشقهما ، وكانتا محطتين مهمتين في حياته ، وقد كون فيهما علاقات عديدة مع موسيقيين كثيرين في موسكو ، وأحدهما هو سيرجي أويستراخ الذي رافقه مع كاكه حمه ذلك الوقت إلى المطار ، وكذلك كارل باروش الموسيقي التشيكي الذي هرب فيما بعد من براغ إلى نيويورك ، وقد كانا معينين كبيرين له في مصاعبه ، ولا سيما في رسائله التي كان يريد أن يبعث بها إلى فريدة ، فلم يكن ممكناً ذلك الوقت ، ولا في أي وقت آخر أن يبعث برسالة أو بورقة من بغداد إلى القدس ، ولذلك كان يستخدم هذين الموسيقارين الأجنبيين ، الموسيقار الروسي ، والموسيقار التشيكي ، في أن يبعث لهما برسائله ، وهما بدورهما كانا يبعثانها إلى زوجته على عنوانها في القدس .

ومن اللافت في تلك المرحلة وهو ما وجدته منشورا في صحف ذلك الوقت في بغداد ، الأول هو خبر منشور في صحيفة الجمهورية في العام ١٩٦٠ ، يذكر فيه أن الموسيقار حيدر سلمان سافر إلى موسكو عاماً واحداً للدراسة في كونسرفتوار موسكو على القيادة والتأليف الموسيقي ، والخبر الآخر وهو منشور في صحيفة صوت الأحرار في العام ١٩٦١ يذكر أن الموسيقار اليساري حيدر سلمان قد حاز على جائزة ملكة بلجيكا في

مكتبة الفكر الجديد

العزف على الفيولون ، وأن الملكة أقامت حفلاً وزعت فيه على الفائزين الميداليات التقديرية .

وهذا يدلل بما لا يقبل الشك أن حيدر سلمان عاش هذا الزمن بحياة جديدة تماماً ، ولم تكن هذه الحياة حياة مضطربة كما كانت ، ولم يكن منغمساً كما كان فيما مضى وسط حفلات الرقص والليالي الساهرة والانغماسات التي لا حد لها مع الحسناوات ، إنما كانت حياته على درجة كبيرة من التركيز والانتباه ، وقد كتب إلى فريدة رسالة مؤرخة في العام ١٩٥٩ يذكر فيها أن أفكاره الموسيقية كانت ترده فجأة وهو في الشارع أو وهو في السيارة أو في السينما ، وتارة في حمى النقاش السياسي مع الأصدقاء ، فيعود إلى المنزل ليدونها . وفي رسالة أخرى أكثر تفصيلاً يتحدث لها كيف خرج من منزله في يوم شتائي ، صباحاً ، وكان المطر قد هطل بقوة وتبللت ساحة الأمة الخرساء الخالية من الناس ، وكان منظر بغداد جميلاً بدربزونات الجسور المبللة ، بالمعاطف والمظلات المطرية ، ثم دقت ساعة بغداد معلنة السابعة ، وحين عاد إلى حجرته ألقى عنه معطفه المبلل وجلس عند الموقد ، ثم أخذ يكتب مقطوعة موسيقية . ولا نعلم بطبيعة الأمر حتى الآن ما هي نوعية هذه الموسيقى التي كان يكتبها ، ولا سيما أنه تعرض بدءاً من هذه المرحلة إلى تحول سياسي وثقافي كبير ، لقد تعرض حيدر سلمان دون شك بدءاً من هذا التاريخ إلى هزة عنيفة ، وإلى تحولات ليست سطحية إنما في البنية العميقة ، ففي رسالة أخرى كتب فيها لفريدة أنه شعر بأن العالم المحيط به قد تغير ، وكأنما هو في رجة داخلية شديدة ، فالألوان الصافية قد حلت محلها الألوان الكثيفة ، والحياة الخصبة في بغداد هي ليست البروفات والعروض الموسيقية فقط إنما الكشف والتجلي اللذان تعرض لهما .

مكتبة الفكر الجديد

من هنا أعادتني هذه الرسالة إلى خصائص الشخصية الثانية في كتاب دكان التبغ ، وهما الكشف والتجلي اللذان تعرض لهما ، لقد بهرني أنا على الصعيد الشخصي أن أرى تصوراته تتحقق ، والشخصية التي اتخذها لنفسه تمتلئ بالحياة ، لقد بدا لي الأمر «شيطانياً» ، فها هو قد اكتشف نفسه بصورة كاملة تقريباً ، في امتلاكه لشخصيته الثانية بكل وضوح . كان الأمر يتعدى مسألة تأدية دور ، بل هو إثبات شخصية أخرى أخذها على عاتقه ، أخذها بالتدريب ، وبالخلق المستمر .

هنالك موضوع آخر يجب التطرق له فيما يخص التحولات الكبيرة التي تعرض لها .

من المعلوم أن حيدر سلمان أخذ يتردد بعد الثورة على منزل حكمت عزيز ، صديقه الثوري الذي تعرف عليه في مطعم خانزاد في طهران ، فقد عاد حكمت عزيز بعد الثورة وقطن في منزل جميل في الأعظمية ، تظلله الأشجار العالية ، وكان الأدباء والموسيقيون يذهبون لزيارته في كثير من الأوقات ، وكان يوجد هناك جواد سليم النحات الشهير هو وحاشيته الملكية في تلك الفترة التي تتكون من فنانين شباب وفنانات ، ومن المنبهرين بفنه ، ومن الشاعر بلند الحيدري ، وحسين مردان ، والراقصة عفيفة اسكندر ، والفنانة لورنا سليم ، وبموسيقيين عديدين بعضهم روس ، ممن أصبحوا يقطنون في بغداد بعد الثورة ليعلموا الموسيقى أو الرسم في المعاهد الفنية والمنتديات الموسيقية في العراق ، وبعضهم بولونيون ممن هاجروا إلى العراق بعد الحرب العالمية الثانية وأثناءها ، وقد كانوا يتجمعون في منزل حكمت عزيز ، كانوا يجلسون عند موقد صغير يبعث لهباً قوياً ، وعلى هذه النار الجميلة كانوا يشوون أضلع اللحم ضلعاً ضلعاً ، وهم في نشوة عظيمة ، وكانت نرمين زوجة حكمت ، وهي تركمانية من شمال

مكتبة الفكر الجديد

العراق ، تقدم لهم أكواب البيرة المثلجة التي تقرع بمرح وضجة ، وكانوا يأكلون ويشربون وهم غارقون في النقاشات الحماسية ، وكانوا يضحكون بقوة ، وفي الغالب تنتهي هذه الجلسات المسائية إما بقراءات شعرية ، أو بوصلات موسيقية ، أو بلعب الورق الذي أصبح حيدر يغرم به كثيراً .

لم تكن الحياة تسير على الدوام على هذه الوتيرة ، ولكن حياة العام الأول من الثورة كانت سعيدة نوعاً ما ، فقد كان عام الثورة هو عام النصر بالتأكيد ، وقد أخفت نشوة النصر الكثير من المشاهد المروعة ، وربما أشاح حيدر سلمان بوجهه عن مشاهد عنف كثيرة رافقت الثوار ، مثل : مقتل الملك الشاب ، إطلاق النار على الأميرات في باحة قصر الرحاب من قبل الجيش ، وحادث مقتل رئيس الوزراء والتمثيل بجثته ، فهل كانت مشاهد العنف تختلف عن حوادث الفرهود التي طالت اليهود في العام ١٩٤١ ، وهي المشاهد التي علقت في الشخصية الأولى ، علقت بشخصية حارس القطيع ، أليست من فعل الجماهير؟

من هنا يمكنني الربط في موضوعين أساسيين ، الأول هو الخط الذي يمتد من لقائه بالمايسترو الروسي ونصيحته في تأليف موسيقى من وحي الجماهير دون أن يعرف هذا المايسترو أين يقع بلد الشاب الواقف أمامه ، وثانياً هو بحثه في الفن الشعبي ، بدءاً من عقده لمقارنات متعددة للفن الشعبي والفن الراقي ، وزيارته بطبيعة الأمر للمتحف الإيراني وكتابته رسالة عن لوحة الشاه التي رسمها فنان الكيتش آندي وارهول .

من الواضح أن حيدر سلمان كان ينطوي على عداء واضح للجمهور ، عداء للعوام والغوغاء بصفة عامة ، وربما جاء هذا العداء في البداية من عدم قدرة الجماهير على فهم موسيقاه ، فقد كان يشعر أن هنالك شيئاً من قطع التواصل بينه وبين العامة ، لكنه سرعان ما طوره إلى مدى أبعد ، طوره

مكتبة الفكر الجديد

انتهاء من حادثة الفرهود إلى وضع الجمهور بشكل عام كعدو أول لكل جمال، ومن يعادي الجمال يعادي كل شيء في الحياة، لقد انتقل موقفه من الجمهور فجأة من اللامبالاة إلى العداوة، ومن القبول إلى الاستنكار، فكيف كان ذلك؟

مثلما كان هنالك فنان الثورة، ومهندس الثورة وزعيم الثورة، أراد الضباط ذلك الوقت أن يصنعوا موسيقار الثورة، وكان حيدر سلمان هو أول من فكروا به لصناعة هذا النموذج المصنع في مختبر الثورة وتقديمه، وقد طرحوا عليه هذا الأمر بكل صراحة، قالوا له إنهم يريدون أن يصنعوا منه موسيقار الثورة، غير أنه سخر منهم في داخله، رفض بحزم وكان رفضه واضحاً، ذلك أن الموسيقى الكلاسيكية لا يمكنها أن تهز الشعب وبالتالي فهي لا تنفع أبداً للثورة، إن الموسيقى التي لا تفتح غرائز الشعب على مصراعيها لا تنفع في هذا المجال، وإن السمو والتجلي - وهي خصائص الشخصية الثانية بطبيعة الأمر-ليست ثورية بالمرة، إنها موسيقى لا تعبأ بالكلمات، بينما الثورة تبحث عن الأناشيد الحماسية، فقالوا له لماذا لا يؤلف لهم أوبرا عن الشعب وهو يحطم القيود، وإنهم مستعدون لإرساله إلى الاتحاد السوفيتي كي يصنع هذه الأوبرا.. غير أنه لم يكن مهتماً كثيراً بأوبرا الشعب أبداً.. كان يكره الجماهير بقوة، ويكره تاريخ هيجانهم ويخافهم..

صمت طويلاً بعد مغادرة جواد سليم برفقة ناهدة السعيد الرسامة التي عرفها في منزل صديقه حكمت عزيز، ثم صاح أحد الحاضرين نخب الجماهير، رفع كل واحد كأسه لنخب جماهير الثورة، بينما موسيقار الثورة لم يرفع كأسه.

**

مكتبة الفكر الجديد

من أفكار خارجة من داخله هو لا من أفكار خارجية كان يريد أن تكون الموسيقى .

وعلى الرغم من أن أفكاره ذلك الوقت لم تكن متماسكة وواضحة بصورة كاملة ، ولكنه أراد أن يصنع منها شيئاً ، أراد أن يصنع مؤلفات ينظر لها الناس مثلما تنظر المرأة إلى قطعة الطمي النازلة من رحمها ، كان يريد أن يركب أفكاره مثلما يركب رسام أفكاره على اللوحة البيضاء ، شكل الفن هو الذوق أولاً والانسجام والتناغم ، بينما كانت الثورة هي هدم للتناغم ، لم يكن يريد استجلاب المال بموسيقاه ، أو أن يجد الناس العاديين معجبين مصفقين له ، كان يريد من الموسيقى أن تشكلهم أن تدفع بهم إلى أمام . . كيف؟

كانت الثورة تركز كلياً على الجماهير بطبيعة الأمر :

العام الأول من الثورة كان مختلفاً كلياً ، ولكن الثورة أصبحت شيئاً أخر ، على الأقل صعدت النزعة الشعبية التي كان يكرهها ، كان حيدر يتخوف كثيراً من الجمهور ، كان يرتعب منهم ويحس بخطرهم كلما رأى وجوههم وأجسادهم وحركاتهم تنتظم في حركة واحدة حتى تلغي كل اختلاف بين كل واحد وأخر ، كانوا يتحركون بقوة لتحطيم كل شيء وهذا هو مصدر خوفه منهم ، في السنة الأولى لم يكن يشعر بشيء ، ولكن في السنوات الأخرى بدأ يشعر بذلك ، كانت الخطوط صغيرة جداً ، ولم تتجمع بصورة واحدة ، ولكن فيما بعد بدأت الخطورة تتضح شيئاً فشيئاً ، هذه الخطورة أخذت تنتجها ثقافة كاملة ، أخذت تنتجها بلاغة مصطلحات جديدة دخلت على الحياة بعد الثورة-هكذا كتب في رسالته لفريدة - :

«مصطلحات جديدة ، مثل : الموت للمرتزقة ، الموت لأذناب الاستعمار ، الكل هنا يتحدث عن الموت ويطالب به ، تصوري أن الجماهير

مكتبة الفكر الجديد

تصفق للزعيم قاسم وتقول له : « اعدم . .اعدم . . لا تقول ما عندي وقت» بغداد بعد الثورة قد تغيرت ، لقد أحدثت الثورة زيادة النزعة الشعبية والجماهيرية وهيمنة الغوغاء على الشارع»

**

عند عودته من موسكو نظر من نافذة الطائرة وهي ترسم انعطافة صغيرة فوق المطار ، نظر إلى بغداد التي لم تكن سوى أرض قاحلة ، يتلوى فيها دجلة الذي أصبح لونه الطيني أشبه بلون الشاي المخلوط مع الحليب ، وهنالك أحزمة خضراء نحيلة تحيط ببلاد أشبه بمعسكر مبنية بأسلاك شائكة وأسيجة من الطوب الطيني الأمغر ، وحين هبط من الطائرة سار في صالة مفروشة بسجادة بالية ومتربة ، أما الجدران فقد كانت ممتلئة بالشعارات العنيفة ، وبالرسوم السطحية الفاقدة للذوق ، فشعر بتقزز كبير ، ذلك أن مسيرة القبح والنزعة المعادية للجمال ترافق الثورة على الدوام ، وقد أثر عليه هذا الأمر تأثيراً مباشراً ، لقد شعر بما لا يقبل الشك أن النزعة الغوغائية للجماهير تتصاعد شيئاً فشيئاً ، وهذا سيؤدي لا محالة إلى انفجار ما ، فنزعة القوة هي التي تسيطر على شوارع بغداد : جنود مسلحون ببذلاتهم الخاكية الضاربة إلى الصفرة ، ذقون حليقة وبيريات ، مدافع رشاشة ومسدسات ، ثمة مليشيات تجوب الشوارع ، جماهير تحمل اللافتات التي تطالب بحماية الثورة ، أو حماية الزعيم ، وتطالب بإعدام العملاء ، مسيرات طويلة ، حر لا يطاق ، صفوف من الطلاب والجنود والعمال يصفقون تصفيقاً إيقاعياً ويطلقون شعارات بوجوه متأججة ومتحمسة . . رجال ونساء في الباصات ذاهبون لتحية الزعيم ، المذياع يصدح بأعلى صوت يطالب الجماهير للخروج إلى الشوارع لأن الثورة في خطر ، والمؤامرات مستمرة .

مكتبة الفكر الجديد

أما الثورة فلا تفعل شيئاً للناس على الإطلاق ، ذلك أن البيوت متداعية وسط سحب من الغبار الأمغر ، والدكاكين رديئة التجهيز ، وهي أشبه بمكعبات ينقصها الوجه الأمامي ، الغبار في كل مكان والطرق تملؤها الحفر ، والحياة تعج بالفوضى .

كتب في رسالة إلى فريدة :

(بغداد هي محكمة عسكرية وإعدامات ، الزعيم يستقبل المودعين ، يستقبل الجماهير الغاضبة على الدوام ، فالثورة مهددة بأعداء كثيرين وأقوياء ، ثلاث وعشرون محاولة اعتداء على حياة الزعيم ، العدالة العسكرية ما زالت تعدم والعدد يزداد ، الأمر سيكون بالغ التعقيد فيما بعد ، إذا أعطينا شرعية للسلاح ، فإن الرصاص لن يتوقف أبداً . .)

**

مثلما اكتشف عن طريق كارل باروش ديوان دكان التبغ ، كان قد اكتشف عن طريق سيرجي أويستراخ فكرة الكيتش .

لقد وجد حيدر سلمان توافقاً بين الكيتش آرت Kitsch art وهو الفن المبتذل ، وبين كيتش السياسة ، فقد كان فن الكيتش يصور الزعيم قاسم بألوان فاقعة : الزعيم يجلس بوجهه الصارم ، الزعيم يبتسم ، الزعيم بالبيرية العسكرية ، صورة للزعيم جانبية ، صورة للزعيم أمامية ، صورة للزعيم بكامل طوله ، صورة للزعيم ثلاثة أرباع ، الزعيم وحده يختصر الحياة بعد الثورة ، الحياة كلها مرسومة هكذا على طريقة الكيتش ، الألوان الفاقدة للذوق ، الألوان النارية التي تصور الثورة وهي تسحق أعداءها .

لقد ظهرت حركة كاملة في بغداد بعد الثورة اسمها جماعة الفن الشعبي ، هدفها تصوير الحياة بصورة مبهجة بعد الثورة ، هدفها تصوير التغيير الذي لم يحدث ، ذلك لأن أعداء الثورة لا يريدون التغيير ، بينما

مكتبة الفكر الجديد

الشارع في الواقع يكذب ذلك ، فالشوارع أقرب إلى الضيق والاختناق ، كانت تعج بحشود صاخبة ، باصات تطلق نفيرها دون توقف وسط حشود بشرية متعبة وغاضبة على الدوام ، عربات فقيرة تجرها أحصنة ضامرة ؛ وصفوف من الحمير محملة بأثاث متعب تهاجر من الريف إلى المدينة ، نساء حافيات يرتدين السواد ، يحملن حزماً هائلة على رؤوسهن ، حمالون يلفون حبالاً حول خصورهم يعرضون أنفسهم لنقل أي حمولة ، والأطفال حفاة ، متسخون ، ويحوم حول وجوههم الذباب .

**

الرسالة التي بعثها حيدر إلى فريدة سريعة وواضحة ، كانت في الأول من تشرين الثاني من العام ١٩٦٢ ، لا يمكنه تحديد ما كان يريده بالضبط ، لكنه كان يشعر أن الأمر في ذروة الخطر ، لم تكن زوجته طاهرة في بغداد ، كانت في موسكو ذلك الوقت للعلاج ، كتب لفريدة أن زوجته طاهرة معتلة على الدوام ، شاحبة ، ونحيفة جداً ، أما ابنه حسين فكان يذهب إلى مدرسة القديس يوسف في العلوية ، كان يتحدث على الدوام عن مرض زوجته ، وأنها معتلة على الدوام ، ولكنه لا يتحدث على الإطلاق عن أي شيء فيما يخص علاقتهما ، أما اهتماماته الحقيقية ذلك الوقت والتي تكشف عنها رسائله فهي الموسيقى والسياسة ، وكان يعتقد أن هبوط الذوق الفني والجمال في المجتمع يؤثر تأثيراً بالغاً على السياسة وبالعكس ، أما العلاقة المفترضة بينه وبين هذه الرسامة فقد كانت عن طريق صديقه جواد سليم ، الذي كان يزور حكمت عزيز الذي تعرف عليه في طهران والذي أصبح يزوره في منزله في الأعظمية على الدوام .

في الواقع لم تكن حياته العائلية تسير على ما يرام ، لم تكن علاقته مع طاهرة واضحة المعالم ، وهنالك شائعات كثيرة تتحدث عن علاقة له

مكتبة الفكر الجديد

مع الرسامة ناهدة السعيد التي عرفه عليها النحات جواد سليم قبل وفاته في العام ١٩٦١ ، وجواد هو صاحب نصب الحرية الذي أنتجته الثورة ، وقد صنع هذا النحات العبقري النصب على شكل ختم أسطواني سومري ، غير أن أحد المعماريين وكان يريد أن يكون معمار الثورة قد صنع قاعدة النصب والإفريز على شكل لافتة جماهيرية ، ومن هنا كان مصدر كره حيدر سلمان للنصب ، وكان النصب هو مدار جدال بين حيدر وناهدة استمر طويلاً ، مع ذلك أشار حيدر كثيراً في رسائله المرسلة إلى فريدة في ذلك الوقت إلى ناهدة السعيد وأفكارها ، ولكن ما الذي كان يجذبه في أفكار هذه الرسامة؟

كتب لفريدة أن رسامة شابة قد تعرف عليها حديثاً ، كانت ترافق الرسام العراقي جواد سليم وزوجته لورنا في زياراتهما لمنزل حكمت عزيز في الأعظمية ، وقد أحدثت هذه الشابة الجميلة انقلاباً حاداً في تفكيره ، أو على الأقل وجد في رؤيتها وتفكيرها بعض العزاء له في الموسيقى . لم تكن لوحاتها تنتمي للنزعات الشعبية والفلكلورية والوطنية التي اشتدت تلك الفترة ، إنما كانت تنخلع كلياً عما هو موجود وسائد في كل مكان ، كانت لوحاتها تنتمي إلى نوع من الذاتية والمثالية المطلقتين واللتين كانتا مكروهتين بعنف تلك الأيام ، حيث الجميع كان يؤكد على أن الفن لا ينفصل عن الحياة ، كان على الفن ، نسبة للعديدين منهم ، أن يقترب من البوستر السياسي ، أو البحث في التراث القديم من أجل إيجاد الجديد كما كان يفعل جواد سليم ومدرسته .

أما هذه الشابة التي درست في أميركا فكانت تبحث عن الأشكال العقلية والانفعالية والحدسية فقط ولا تبحث عن أي معنى أو محتوى إيديولوجي ، وهذا ما جذبه إليها ، هذا ما كان يريده ذلك الوقت ولا

مكتبة الفكر الجديد

يستطيع التعبير عنه ، كان يرفض أن يعبر في الموسيقى عن صور الناس النمطية والأحداث الواقعية وبيئة الإنسان ، ومع ذلك كان يعتقد أن الجانب الواقعي الروحاني للموسيقى يمكنه أن يرفع من مستوى الناس ، يزيد من الطاقة الحدسية لديهم ، يجعل هذه الاهتزازات ما تحت الشعور هي التي تبنيهم ، هي التي توحدهم وتهذبهم ، هي التي تحرضهم على العمل ، أن تكون هي محل جمال ودراما الواقع الفطريين في كل نفس . كان يؤمن أن على الفن أن يهدم الصورة القبيحة للواقع هدماً كاملاً ، أن يعيد بناء هذا الواقع القبيح ويستبدل فوضى البقع اللونية الحارة أو الألحان الإيقاعية الصاخبة والمتنافرة بهذا الهارموني والانسجام الموسيقي الذي يتضمن الجمال المطلق .

ولكن من كان يصغي له من الفنانين أو غيرهم ، ذلك الوقت؟ في الواقع كان القليل من أصدقائه الذين يعيرون اهتماماً ذلك الوقت إلى مثل هذه الأطروحات ، وقد كان الجدال في الصحف والمجلات على أشده ، هل الفن للفن أم للمجتمع ، وعلى الرغم من ابتذال الجدال ذلك الوقت وهبوطه ولكن الجميع كان يتهمه بالتأثر بعلم الجمال البرجوازي . . وكانت هذه تهمة حقيقية ذلك الوقت .

لقد شعر بوحدة حقيقية ، شعر بنوع من الاغتراب والنفي ، وكان كل يوم تقريباً يخرج من منزله ويسير في شوارع بغداد ، واضعاً يديه في جيبيه ويتساءل هل هناك ما هو أقبح من هذا الواقع الذي يحيط به ، كيتش السياسة الشعبية وكيتش الفن الشعبي . . هل هناك ما هو أكثر رداءة وقذارة ، وحين يبدأ النقاش كان ينفجر بوجههم ، كان يعتقد أن هذا الكيتش سينتج عنفاً أكبر ، ستختفي الخطوط والنقط والأسطح والأشكال ذات الأبعاد الثلاثة ، ويظهر محلها هؤلاء المشنوقون في الشارع ، وهذه

مكتبة الفكر الجديد

الجماهير التي يربونها على السخط والألوان الانفجارية . والموسيقى المبتذلة والنشيدية الصاخبة ستنتج قوة للهدم لا يمكن زحزحتها . .

غير أنهم كانوا هم أيضاً ينفجرون في وجهه مدافعين عن الفن الشعبي وعن الجماهير ، باستثناء ناهدة التي كانت تقترب منه بالأفكار ، وتدافع عن بعض ما يطرحه في الأمسيات التي تعقد في منزل حكمت عزيز :

ربما هذا الدفاع الذي تقوم به ناهدة السعيد هو الذي يجعله ينجذب لها ، إحساس جديد كان يدفعه نحوها ، كان يلتهب وهو يقترب منها ، كان يشعر بمشاعر متلظية وهو ينظر في عينيها ، شيء من الرعب والوله وفقدان الوعي كلما يشم رائحتها وهي تقترب منه ، بياض وجهها ونقاؤه ، طولها الفارع ورشاقتها ، عيناها الصافيتان ويداها النحيفتان ، لقد كان يشعر بأنه مخدر كلياً أمامها ، هل كانت بينهما علاقة من نوع ما ذلك الوقت؟

بالتأكيد كل الدلائل تشير أن الموسيقار كان يمضي جل يومه في شقتها ، وفي الأيام التي كانت طاهرة زوجته تسافر إلى موسكو كان يقضي حيدر أكثر لياليه معها ، والصورة للوحيدة الباقية والتي تؤكد هذه العلاقة ، هي لوحة رسمتها هي للموسيقار وهو عار تماماً يمسك فيولونه التي تتمدد بين يديه مثل امرأة ، وكانت ألوان اللوحة الحارة وتقنياتها تقدم عزف الموسيقى على أنه نوع من الممارسة الجنسية ، وهي من أفكار حيدر سلمان عن الموسيقى بطبيعة الأمر ، وهنالك في إحدى الرسائل التي بعثها إلى فريدة ، يصف حيدر سلمان ناهدة وهي شبه عارية ترسم في مرسمها ، بينما كان هو يشرب الفودكا وينطرح على الأريكة .

كان الجميع تقريباً يعرف بأمر علاقتهما ، وكان حيدر سلمان يجد نوعاً من التواطؤ في هذه العلاقة من زوجته المريضة بالتأكيد ، هذا ما أكده

مكتبة الفكر الجديد

أكثر الأشخاص الذين التقيناهم ولا سيما الذين عرفوا الاثنين في ذلك الوقت ، أما ما هو مصدر إعجاب حيدر بناهدة السعيد ، هذا ما كنا نبحث عنه ، هل هي أفكارها اللاثورية أو التأثر بعلم الجمال البرجوازي أو ما شابه مما كان يطلق على حيدر سلمان ذلك الوقت؟ في الواقع كل الوقائع والأحداث تؤكد بأن ثمة نوعاً من الاختلاف بينهما في النظر إلى الثورة ، فكل من سألناهم عن ناهدة السعيد وحياتها يؤكد أن ناهدة كانت تؤمن إلى حد ما بالثورة ، غير أن أفكارها حولها غامضة وغير متناسقة (بالمناسبة كانت ناهدة السعيد شيوعية ملتزمة) ، أما حيدر فقد كانت فكرته واضحة جداً : الثورة هي تهديم للانسجام . . هي خبطة عنيفة وسط التناسق والتناغم ، ولا يمكن أن يحدث شيء جديد ومتسق وسط هذه الفوضى العارمة ، كان يعتقد أن الثورة هي المصل الذي نأخذه كي يداوينا من مرض خفيف غير أنه يهدم الانسجام بين الجسم والطبيعة ، إنه تخريب لهذه المواءمة مما يجعل الجسم ضعيفاً ومنهكاً . .ومع ذلك علينا أن نقول إنه لم يقطع علاقته تماماً مع الحزب الشيوعي ، مثلما فعل السياب الذي قطع علاقته كلياً بالحزب وهاجمه . . وقد فضل الحزب ذلك الوقت أن يبقى حيدر قريباً منه حتى لو اختلف معهم بالأفكار ، على أن تحدث فضيحة على طراز ما حدث مع بدر شاكر السياب الذي هاجم الحزب علناً ، وبدأ بنشر سلسلة مقالات تحت عنوان كنت شيوعياً . .

هل كان حيدر سلمان يحدس شيئاً لم يحدسه أحد غيره؟ هذا ما تؤكده وقائع المساء السابق للانقلاب على الثورة في العام ١٩٦٣ ، فكل الذين كانوا في حفلة حكمت عزيز في منزله في الأعظمية ، قبل مساء واحد من الانقلاب ، يؤكدون غرابة سلوك حيدر سلمان ذلك اليوم وغرابة تصرفاته ، كان ذلك في شهر شباط ، والبرد يهبط في الليل على شجر

مكتبة الفكر الجديد

الحدائق المبللة ، بينما كان دفء الصالة في منزل حكمت عزيز يسكر الفنانين الجالسين حول الموقد حلقة ، ولم يكن أحدٌ من الجالسين يعرف أي شيء عما يخبئه الغد ، أما حيدر فقد كان واقفاً عند حاجز الوجاق ممسكاً بكأسه ، وكانت ناهدة السعيد إلى جانبه هي الأخرى تشرب كأسها ، اقترب منها كثيراً ، غير أن صيحة فزع حدثت من ناهدة ، ورشقها بالواين على وجهها وملابسها .

لقد حدث نزاع حاد بين ناهدة وحيدر أربك جميع الجالسين ذلك اليوم ، وبعد قليل صعد كلاهما إلى الطابق الثاني ، بطلب من حكمت وزوجته وداد ، ليحلا المشكلة بينهما بهدوء ، وبعد ساعة تقريباً هبطت ناهدة السلم راكضة وهي تبكي ، لم ينتبه أحد من الجالسين لخروجها من المنزل حتى أغلقت الباب وراءها بقوة ، ثم عاد حيدر ليلتحق بأصدقائه وكان سكرانَ تماماً ، وكان الجميع مرحاً تلك الليلة ، حيث كانوا يشوون لحم الضأن على النار ، ويغنّون بصوت عال ، ويرقصون ، وهنالك طاولة يلعبون عليها لعبة الورق الحماسية ، غير أن حيدر صرخ ، وكان يصعب على الحاضرين أن يدركوا ما معنى صرخته ، قال لهم إن بغداد تقع بالقرب من منخفض ساخن ، وهناك بركان من الحمم المتلظية ، قال لهم إن المدينة تخفي سلاحاً ليوم جديد وعصر جديد .

من أين عرف حيدر سلمان بالانقلاب ، من دله على أن اليوم التالي يخفي انعطافة حقيقية في تاريخ البلاد ، وهنالك بركان هائل سينفجر ولن يستطيع أحد أن يقف في وجهه ، هل كان حيدر سلمان على علاقة بالانقلابيين؟ أبداً ، هذا ما أكده كل الذين عرفوه ، بل أكدوا أن اسمه كان على القائمة التي أعلنها الانقلابيون ، ومن المطلوبين لتصفيته .

مع ذلك استيقظ حيدر سلمان صباح اليوم التالي على نفير يوم

مكتبة الفكر الجديد

الانقلاب ، وكان رأسه ينفلع من صداع سكرة الليلة الفائتة ، استيقظ مبهوتاً وهو ينظر دبابات القوميين والبعثيين في الشوارع ، استيقظ وهو يرتجف لرؤية النزعة الشعبية في بغداد على أشد حماستها . كانت الشمس الشتوية ترتمي منحرفة على الجدار المقابل ، هدوء ميت يسود المنزل ، طاهرة ما زالت في موسكو ، حسين في منزل جده إسماعيل الطباطبائي ، لقد شعر لحظتها باضطراب غير مفهوم في جسده ، رأى صوراً مخيفة تمر في ذهنه كأنما رآها من قبل ، البلاد التي كان يتحرق لهفة ليكون فيها ذكرته مرة أخرى بأحداث ١٩٤١ حينما كان طفلاً .

فجأة رن الهاتف . . ركض . . رفع السماعة ، كان صوت حكمت على الخط يحذره من البقاء في بغداد ، فالقوميون والبعثيون أصدروا بياناً بسحق الشيوعيين جميعاً ، وهنالك أوامر بالقتل والشنق قد صدرت ، ينفذها شباب صغار يحملون الغدارات ويربطون على أكتافهم شارات الحرس القومي . . أنزل السماعة ويده ترتجف ، لا أخبار كثيرة يمكنه أن يعرفها من حكمت ذلك أن حظر التجوال قد فرض في البلاد ، وما يسمعه وهو في منزله هو أصوات الرصاص من منزل إلى منزل ، ومن شارع إلى شارع ، وهنالك صورتان متناظرتان لا يمكنه إزاحتهما عن ذهنه مطلقاً : وجه ناهدة الباكي ليلة أمس بسبب سلوكه القاسي معها ، وصورتها حينما خرجت لتوها من الحمام وهي تلف نفسها بمنشفة وأثناء تبديل ملابسها أخذ يتطلع إلى جسدها الجميل ، منسحراً برشاقته واستداراته الصلبة .

فجأة رن الهاتف الموضوع في كوريدور المنزل ، ركض مسرعاً وقلبه يدق بقوة ، كان والد زوجته إسماعيل الطباطبائي يخبره بأنه أرسل له سيارة لتقله إلى منزل خارج بغداد ليكون أكثر أماناً ، ذلك أن الانقلابيين قد وزعوا قوائم لتصفية الشيوعيين واسمه من ضمن القائمة . . كان

مكتبة الفكر الجديد

الاضطراب يملأ قلبه ، الاضطراب من صور مخيفة كانت تحيط به ، كان يسمع صياحاً وصراخا متواصلين ، والرجفة لم تكن تزايله ، كان يئن بشكل شديد . . شيء أقرب إلى المفارقة ، قبل يوم واحد فقط كان ينتقد الثورة ، واليوم يريد الانقلابيون تصفيته ، إن الأمر لا علاقة له البتة بالأفكار ، إنما له علاقة بالتصفية ، بغريزة الدم وروح الدهماء التي انبجست ، ولم يكن بعيداً جداً عن الصواب ، ذلك أنه بعد وصوله إلى منزل والد زوجته سمع بالمجازر والعنف اللذين طالا الشيوعيين ، وقد رأى وهو في الطريق عسكريين يقودون شباباً معصوبي الأعين وموثقي الأيدي ببجامات النوم ، كانوا يقتادونهم بشاحنات كبيرة إلى الصحراء لإعدامهم ودفنهم ، وما إن حل المساء حتى شاهد إسماعيل الطباطبائي والد زوجته أمام الباب : «حيدر . . أنا أعرف بعلاقتك مع هذه المرأة الفنانة . .» هكذا قال له بثبات وحزم ، وقد طأطأ رأسه إلى الأسفل . .

أشار له إلى سيارة شفرولية سوداء متوقفة خارج المنزل ، يقف عندها سائق أصلع بنظارات ، وشخص آخر أسمر وطويل أجلس حسين في خلفية السيارة ، ثم جلس حيدر في المقدمة ، وانطلقت السيارة ليلاً إلى طهران .

**

لماذا قال إسماعيل لحيدر هذه الملاحظة وفي هذا الوقت بالذات ، أما كان عليه أن يقولها له في مكان وزمان آخرين ، لماذا نبهه على علاقته مع ناهدة السعيد اليوم بالذات ، نبهه بأنه يعرف كل شيء ومع ذلك صمت عليه ، وأنه كان بإمكانه أن يتركه لمصيره ومع ذلك مد له يده لينقذه من رصاص الانقلاب ، هل كان هذا الرجل التاجر الكبير والمؤيد لليسار والمتنفذ في أوساط كل حكومة يسلك على الدوام سلوكاً واحداً ، أم كان

مكتبة الفكر الجديد

سلوكه على الدوام متناقضاً ، فإن كان إسماعيل بسيطاً ومهذباً ومتسامحاً مع ابنته ، فهل كان كذلك مع الآخرين :

لقد جرب إسماعيل الطباطبائي والد طاهرة في حياته كل صنوف القسوة والإذلال في طفولته ، هذا ما تخبرنا به سيرته الحافلة ، وكانت هذه التناقضات قادمة من منشئه المرتبك والمتناقض أيضاً ، فوالده كان عربياً فقيراً من محلة المخيم في كربلاء ، عمل حمالاً في باب المراد عند التجار الإيرانيين في السوق ، أما أمه فقد كانت من عائلة إيرانية ثرية جداً في سوق كربلاء ، وهذا هو جرح اسماعيل الأول وشعوره بالخزي الجارح من والده ، فضلاً عن شعوره المتغطرس من أن والدته من أصل رفيع ، وهذا هو الذي دفعه أن يعوض هذه الخلفية المتناقضة والمرتبكة بالعمل ، لقد عمل بجد وصرامة بالرغم من الإحباط الشديد الذي واجهه ، والذي أدى به إلى محاولات انتحار فاشلة ، ومن ثم هجرته إلى إيران من أجل العمل في البازار ، غير أنه عاد محبطاً أيضاً ، ذلك لأنه لا أحد ، ذلك الوقت ، من تجار بازار طهران يريد تشغيل عربي ضعيف يعيش على أكل الباذنجان . ومن الواضح أن الفوقية والتفوق اللذين كان يشعر بهما إزاء الآخرين هما بسبب هذا التهميش العرقي الذي عاشه في إيران ، لقد أصبح فيما بعد مثالاً للأنانية والاستبداد العاطفي فضلاً عن السادية في التعامل مع المرأة ، وقد عذب زوجته جيهان والدة طاهرة حتى قضت وماتت ، غير أن هذه الحالة قد خلفت له ابنته المريضة التي أحبها حباً سلبياً ، حباً مذلاً ومرتبكاً يجعله يعيش نوعاً من عذاب الضمير ، والندم ، وتعذيب الذات على الدوام ، لا لأنها هي الشيء الوحيد الذي أحبه في حياته ، إنما لأن الشعور الدائم بأنه هو المسئول عن مأساتها أيضاً ، ولا سيما بعد وفاة جيهان أمها .

مكتبة الفكر الجديد

كانت جيهان زوجته الأولى من عائلة ثرية معروفة ، كل أفرادها يعملون تجاراً في سوق الأستربادي في الكاظمية ، وقد تعرفت عليه حينما كان يعمل محاسباً لدى عمها ، ومنذ ذلك الوقت أظهر براعة لا تضاهى في عمله ، فأحبته وكتبت له رسائلها التي تحوي فيضاً من الحب ، وتحدّت عائلتها بزواجها منه ، إلا أن الأمور بينهما بدأت تسوء بسرعة بسبب شخصية إسماعيل المعقدة ، إنه يحمل في شخصيته كل التناقضات الممكنة : فهو المحب وهو الكاره والحاقد ذاته ، هو المساعد للناس بسخاء وهو الذي يمنع أحيانا راتب عامل حتى يذله ويهينه ، هو المثقف والمهذب وهو المنجذب لكل قذارة ممكنة ، أما على الصعيد السياسي فقد كان مثالاً للتناقضات كلها ، والكل يعرف أنه تاجر كبير ومع ذلك كان مناصراً للحركة الاشتراكية بالضد من النزعة التجارية والكمبرادوارية في العالم الثالث ، وبالرغم من أنه كان على علاقة كبيرة بشخصيات سياسية في الدول الاشتراكية بوصفه المليونير الأحمر ، وفي الوقت ذاته كان يقيم علاقات مع رأسماليين علاقاتهم معروفة مع المخابرات الغربية ، وهكذا كان مع زوجته جيهان ، والتي كان دون شك يحبها ، ولكنه في الوقت ذاته كان يعذبها ، ويحاسبها حتى على أشياء هي لم ترتكبها ، كان يريدها أن تكون زوجته المحترمة بين الناس وكان يريد أن يذلها ، كان يريدها أن تكون سيدة محترمة ولكن ليس من دون أن يهينها ويعذبها ، كان يريد أن ينتقم من أشياء في ذاته قديمة ومنسية ولكنها تظهر بأشكال مختلفة .

وهكذا كانت جيهان حائرة ومرتبكة ومضطربة على الدوام أمامه ، كيف التعامل معه؟ لا تعرف . . ولكنها عرفت فيما بعد أن هذا الرجل مريض بكل معنى الكلمة ، ليس فقط معها ، إنما هو حزمة من التناقضات والاستيهامات وأصناف متعددة من الخيالات ، لقد عرفت جيهان فيما

مكتبة الفكر الجديد

بعد أن زوجها المحترم منجذب لمضاجعة العاهرات ، ولم يشعر أبداً أن الجنس يرتبط بالحب مطلقاً ، إنما لا تكون الإثارة نسبة له إلا بفضل بنات الهوى . . وفي تلك الفترة تعرف إسماعيل على عاهرة أرمينية اسمها بياتريس من محلة الكرخ ، وقد وجدت بياتريس سعادتها في أن تكون عبدة وضحية لمزاجه العاصف وحبه للسيطرة ، وكان هو يجد في خضوعها متعة جنسية مضاعفة ، بل كان غباؤها وحسيتها وشراهتها للجنس والشراب والطعام هو ما يحبه بها ، وبالتالي أصبحت نسبة له جنساً خالصاً ، كان يضربها بقوة ، والكل كان يعرف بذلك ، كان يضربها حتى تتورم يده ، وفي اليوم التالي تسير بياتريس في الشارع بالجروح والكدمات التي يلحقها بها ، بل تحمل منه كل مرة ، وكان يطلب منها الإجهاض بضراوة ولامبالاة .

ولم يكتف إسماعيل بإيذاء بياتريس بل كان يبالغ أيضاً في إلحاق الضرر بجيهان زوجته ، حينما يدعها تعرف بعلاقته بالعاهرة الأرمينية ، وكان يسخر منها ويهينها أمام ضيوفه ، ويهددها بها ، وفي الليل كان يبكي عند قدميها ويطلب منها أن تواسيه مثل طفل .

هذا هو إذن إسماعيل والد طاهرة زوجة حيدر سلمان وعلاقاته المتشعبة وتناقضاته ، أفلا يحق إذن للمحيطين بحيدر سلمان التساؤل عن مصدر معرفته بيوم الانقلاب ، ألا يمكن أن يكون إسماعيل هو الذي حذره مثلاً ، فلا بد أنه كان قد عرف بيوم الانقلاب بسبب علاقاته الواسعة ، ومن ضمنها شخصيات من التجار كانت لهم علاقات مع مخابرات دولية متعددة ، هل يمكن إن نقول أن ثقافة حيدر التحليلية هي التي أوصلته إلى معرفة حدوث الانقلاب بحسبة بسيطة وسهلة ، وكان هو يقولها على الدوام ما إن نعطي شرعية للسلاح حتى يدور دولاب الدم ولا يتوقف ، هل

مكتبة الفكر الجديد

يمكن أن نقول إن شخصية كتاب دكان التبغ الثانية تنطوي على قدرات حدسية . .؟

**

ها هو حيدر سلمان في طهران مرة أخرى .

لم يستطع حيدر المكوث وقتاً طويلاً في المنزل ، لم يستطع البقاء في المنزل الحجري بواجهته الخشبية التي تظللها أشجار الحور ، لم يستطع البقاء في المنزل الجميل الذي يقع في شمال طهران وقد التقى فيه للمرة الأولى بزوجته طاهرة قبل أعوام . كان البرد ذلك اليوم من شهر شباط على أشده ، وطهران مكتسية بالثلج ، وكان مزاجه معكرا ومضطرباً ، ماذا يصنع؟ في الظهيرة اتصلت به طاهرة بصوتها الذائب والمريض تتوسله القدوم إلى موسكو ، وقد شعر من نبرة صوتها وبكائها وتوسلاتها أنها في النقطة الأعلى من يأسها ، لقد سيطر عليها تلك اللحظة شعور قاتل باليأس بسبب عدم وجود رسائل مؤكدة من حيدر ، وقالت له معاتبة باكية شاكية : «ما اتصلت بي حتى من وصلت طهران . .»

«اعذريني . . أحداث الانقلاب ما تركت لي وقتاً للاتصال . .»

لا وجود لحجج تقنعها ، كانت تبكي بإجهاشات قوية ، تؤنبه لأنه لم يغادر البلاد حين عمت هذه الحالة الهمجية . وطلبت منه أن يلتحق بها في موسكو .

موسكو هذا يعني استراحة حقيقية من حالة الوجوم الذي أصابه في الأيام الماضية ، من حالة الرعب والخوف ، من الموت والقتل والتعذيب ، إنها العودة مرة أخرى إلى الموسيقى التي تتجه أفكاره نحوها ببهجة كبيرة ، وما كان يريده تلك اللحظة هو أن يعرف أخبار ناهدة السعيد ، لقد شعر

مكتبة الفكر الجديد

بقلق كبير عليها ، شعر بارتجاف في يديه وشفتيه خوفاً وقلقاً عليها ، ولكن كان من المستحيل أن يحصل على أخبار تفصيلية من طهران ، وبالرغم من أنه أمضى أسبوعين لإكمال إجراءات سفره إلى موسكو ، وذلك لعدم وجود طائرات تذهب مباشرة إلى موسكو من طهران ، بسبب علاقات الشاه أوان ذاك مع الغرب ، وكان عليه الذهاب إلى براغ أو بودابست ومن هناك السفر مرة أخرى ، وكانت رقابة السافاك شديدة على العراقيين الموجودين في طهران ولا سيما القادمين بعد الانقلاب ، إلا أنه استطاع الانفلات منهم والوصول إلى موسكو .

كانت زوجته متلفعة بمعطف من الفراء وهي ترتجف من الفرح ، وجهها أصفر ، وجسدها نحيل جداً ، ما إن رأت عائلتها حتى صرخت ، كانت الأخبار القادمة من بغداد تخبر بحمام الدم .

خلع حيدر معطفه الصوف ورماه على الكرسي المقابل له وزول التلفون على كاكه حمه ، جاء صوت الأخير خافتاً مثل صوت أسير ، جاء صوت كاكه حمه مخبراً حيدر أن ناهدة السعيد شنقت على يد الانقلابيين ، وصديقه حكمت عزيز وزوجته قتلا أيضاً في طريق الهرب إلى البصرة ، فارتجفت يده وسقطت سماعة الهاتف ، وضع يديه على وجهه وأجهش في البكاء .

كتب إلى فريدة المقطع التالي :

(استطاع العشرات أيضاً وبمساعدة من تنظيم حزب توده التسلل إلى الأراضي السوفييتية عبر الحدود مع إيران . كما إن البعض ممن بادر بالتوجه إلى الاتحاد السوفييتي عبر بحر الخزر لاقوا حتفهم في البحر جراء الأعاصير التي عصفت بقواربهم . ومن الجدير بالذكر إن بعض تنظيمات المعارضة الإيرانية ، إدراكاً منها لطبيعة الانقلاب ، قدمت مساعدات خيرة لإيواء

مكتبة الفكر الجديد

الهاربين ومنهم حزب «ملت إيران» ، وهو حزب قومي وأحد أطراف الجبهة الوطنية التي تزعمها الوطني الراحل الدكتور محمد مصدق)

**

ومن موسكو كتب حيدر رسالته الطويلة والمهمة جداً ، إلى فريدة ، والمؤرخة في الثالث والعشرين من شهر آذار من العام ١٩٦٣ ، أي بعد أكثر من شهر من هروبه من العراق ، وقد كتب في الرسالة تفصيلات كثيرة ، وذكر أحداثاً مهمة ومتعددة ، كان يعتقد أن فكرته عن الجماهير ، والعامية ، والفكرة الجماهيرية ، والغوغائية ، والثورة ، والانقلابية قد تحققت بشكل كامل في الانقلاب الذي حدث ، ومن الانقلابيين ذاتهم ، أي إن الانقلاب كان يولد انقلاباً آخر ، وذاك يولد آخر وهكذا . . ثم نقل لها فيما بعد بتفصيل شديد أحداث الانقلاب المرعبة الكثيرة ، منها صورة الزعيم الذي قتل وهو مطروح في مبنى الإذاعة على الأرض يرتدي بذلته الكاكية المصفرة ذاتها ، وبالهيئة ذاتها التي رآه بها يوماً وهو يسير بين الجماهير المجنونة التي تكالبت حول سيارته لتحيته :

(الوجوه التي شوهها الحب وتلوت فاتحة أفواهها بصورة مقززة ، هي ذاتها الوجوه التي شوهها الغضب والسخط وهي تقتل وتسحل وتشنق باسم الثورة الجديدة)

**

في الواقع من الأحداث الملغزة في حياة حيدر سلمان بعد الانقلاب هو عودة زوجته طاهرة وابنه حسين إلى بغداد ، بينما استمرار بقائه هو في موسكو ، فبعد ثلاثة أشهر عادت طاهرة مع ابنها إلى المنزل في الكرادة ، وحسب رأي كاكه حمه قد طلب منها والدها إسماعيل العودة إلى بغداد ، بينما أمضى حيدر سلمان وقته كله وهو يطور مهاراته الموسيقية ، ويكتب

مكتبة الفكر الجديد

سمفونيته التي حلم بها، ويقدم كونسيرتات في موسكو والجمهوريات الأخرى، لقد عاد كما كان في برنامج لمعهد موسيقي صغير، يقع على مقربة من الشقة التي كان يقطنها، ويباشر بتمرين قاس من الصباح الباكر ولا ينصرف إلا في المساء. كان يعمل مثل العبيد، ويحاول من خلال التمرين التهرب من التفكير بأي شيء آخر، شعر تلك الأيام أنه محاصر بأحداث كبيرة، أحداث أكبر من قدرته على التحمل، فأراد التهرب منها، وما هذه الأحداث إلا أحداث الانقلاب ولا سيما مشهد شنق ناهدة الذي لم ينسه على الإطلاق..

مرة، وقفت مديرة المعهد الروسية البدينة في منتصف الممر، وسدت عليه الطريق، قالت له: «سيد حيدر أليس من الأفضل أن تتدرب على أعمال شونبرج؟» لم يكن لديه أي جواب، ذلك لأنه لم يكن مهتماً بمن يعزف، كان يعزف دون توقف، دون تفكير كبير، دون الانتباه لمن يعزف.. صحيح كان يطور مهاراته ويتهيأ إلى كونسيرتات متعددة يشترك بها، في موسكو وفي خارجها، ولكنه كان هارباً من كل الأحداث التي كانت تحيط به، ولم يكن قادراً على استيعابها أو حلها، كان هذا العمل نوعاً من الهروب من هذه الصور الضاغطة عليه، وفي أحد الأيام كان عائداً بشكل مبكر إلى شقته، سائراً ببطء شديد من مدخل العمارة، وكان تيار الهواء يدفع جسده بقوة، قفز من مستنقع مياه سببته أمطار الليلة الفائتة، ودلف بسرعة دون أن ينظر وجوه الرجال والنساء الذين يخرجون من العمارة إلى الشارع، ما خلا نظرته إلى الأحذية الموحلة، والسراويل المدعوكة، والمعاطف المبللة، وقبل أن يبلغ باب المدخل توقف، رفع رأسه إلى أعلى، فقفزت في ذهنه أول جملة موسيقية من المؤلف الذي كان يريد أن يصنفه، ومنذ ذلك اليوم أدرك أنه يبحث عن قالب غير تقليدي، لا

مكتبة الفكر الجديد

يريد الاعتماد على القوالب المعروفة ، كالسوناتا وغيرها ، كان يبحث عن تفاعلات جديدة للمادة اللحنية ، ليحل محله عالم محفز ، يحمل السامع إلى مدى أرحب ، كان البحث دائباً عن نسيج أوركسترالي رشيق مسكون بالتلوين ، كان يبحث عن لغة هارمونية منفردة توظف التنافر التناغمي كنقطة أساس في البناء الهارموني ، بعيداً عن المفهوم التقليدي .

**

في الخامس والعشرين من شهر آب من العام ١٩٦٤ بدأ بوضع أول مخططاته لعمل موسيقي مؤلف ، كان ذلك الوقت قد حصل على عمل في كونسرفتوار تشايكوفسكي في موسكو ، وكان يذهب في الصباح ويعود في الظهيرة ، ولا يعود مباشرة إلى المنزل ، إنما كان يذهب إلى قمة تل ، حيث تنبت في ظلال أسوار قلعة قديمة أشجار وارفة الظل في حدائق واسعة ، وكان ينطرح على المرج الغزير العشب تحت أغصان شجر الحور لينعم بالرطوبة والدعة ، ويفكر طويلاً وهو ينظر المنازل الجميلة المتراصة بعينيه الثاقبتين وبفكره المتأمل . ومن هذا المكان بدأ التفكير بكتابة موسيقاه الخاصة ، جاءه الإلهام لكتابة كونشيرتو يبرز في مقدمته جو الارتجال (الكودا) ، مع الاستخدام الكامل للأوركسترا ، وخصوصاً المجموعة الوترية التي يمكنها أن تؤدي مهمة إيقاعية عالية . قفز من مكانه وهبط التل لترتسم في ذهنه أول النغمات ، كان يسير بسرعة وهو يسمع ألحاناً بعيدة . . أخذ يدونها أول الأمر في الشارع ، وحينما وصل المنزل كان منهكاً جداً ، نام قليلاً ثم استيقظ ليرسم قالب الكونشرتو التقني ، جلس على المنضدة وأخذ يفكر في نفسه ، يفكر أولاً في تقنيات الكمان ، واستنتج أن الآلات الوترية يمكنها مساندة الآلات الإيقاعية ، فليبدأ منها إذن . .

هذه الكودا-قال في نفسه- يمكنها أن تحل مكان الكادنزا في

مكتبة الفكر الجديد

الأعمال التقليدية ، يمكنها أن تأتي بشيء مغاير لما هو متعارف عليه ، فلتأتِ خافتة ورقيقة ، تنطلق من مفهوم أحادية الصوت (الأونيسون) الذي يميز الموسيقى العربية ، لقد شعر بفرح كبير ، بسعادة طاغية وهو يكتشف هذا العالم ، شعر بأنه قادر على إظهار الإمكانية القوية لآلة الفيولون التي تقترب حسب رأيه من الصوت البشري ، وفي الوقت نفسه يمكنه المحافظة على الخصوصية العربية للموسيقى .

ما كان له أن يتخلص من هذه الفكرة ، فكرة ربط الفن المعاصر بالتراث ، ربما لأنها فكرة منتشرة بقوة في الفن العراقي ، إنها فكرة الحفاظ على التراث ، والاتجاه إليه . قبل سنوات ، وفي واحدة من نقاشاته مع النحات جواد سليم ، اقتنع بهذا الأمر بقوة :

كانا جالسين إلى طاولة خشبية واحدة في مقهى واق واق الذي أسسه بلند الحيدري وحسين مردان في الأعظمية ، وكانت أسطوانة الكونشيرتو الأول لفرانز ليست التي كان يحبها ترسل ألحانها في زوايا المقهى ، وكان فنجانا القهوة أمام كل واحد منهما ، وهما جالسان وجهاً لوجه ، جواد سليم بوجهه الوسيم ، بعينيه الحادتين ، بلحيته السوداء الكثيفة ، وبصوته الخفيض قال له :

«لا يمكن لك أن تأتي بجديد ما لم ترتكز على القديم . .»

كان جواد سليم ذلك الوقت مثل مترحل قديم يبحر في محيط التراثين السومري والآشوري كي ينتج أشياء جديدة ، وكان السياب يطوع كل العروض العربية بسقفها الزمني الذي يمتد إلى ألفي عام لشروط الحياة الجديدة وإيقاعها ، وهكذا أخذ حيدر سلمان يبحث في التراث العربي والإسلامي بقوة ، كان يريد من الموسيقى العربية أن تتسرب إلى الموسيقى الكلاسيكية الغربية مثل تسرب الرمل في السرّية المطلقة .

مكتبة الفكر الجديد

«تسرب سري -قال في نفسه- تسرب غير محسوس . .»

هل كان يبحث في الموسيقى عن لحظة غياب مكشوفة؟

دون شك . . كان يريد للثقافة العربية أن تكون حاضرة في موسيقى غربية ، أو موسيقى كلاسيكية . . وهو يؤلف كان يشعر باشتعال الأصابع بالدفء الروحاني للصحراء . وهو في عمق أوربا كان يشعر بتأليف موسيقى تتصاعد مثل فراشات تحلق في عمق الصحراء ، كان يريد ألحاناً توقظ في أوقات الظهيرة وحي الخصوبة ، موسيقى أشبه بحنين إلى مخاض الخليقة وارتعاشات البداية الهيولى .

كان حيدر يبحث في الموسيقى عن تحقيق إنجاز خارق يتمثل في إخضاع الروح إلى التجربة الفنية ، لم يكن يؤمن بالبطولة ، كان يؤمن بالفن . الفن هو في البحث عن الفضيلة . . هل الفضيلة قادرة على إيجاد حل للمجتمع؟ هل هنالك اختلاف جذري بين الفضيلة والفن؟

كان يعتقد أن الفن هو الفضيلة ذاتها . ولم يكن يعرف أن هذه الفكرة سوف تتحطم فيما بعد ، تتحطم في بغداد تحت الضغط المدمر للحياة الشعبية . . وكانت تساؤلاته كثيرة ، لأنه كان يريد من العمل الفني أن يؤدي إلى خير البشرية . . كان يبحث في الموسيقى عن اللذة الأبيقورية ، مثل الشخصية الثانية في كتاب دكان التبغ ، إنه الحياة بعد نسيان الوجود ، ولم يكن يكتفي بالمحاولة التي أحس خلالها أنه يؤلف شيئاً مهماً ، إنما كان الأمر نسبة له أشبه بإيمان ما ، إنه إيمانه الكبير لأن هذا العمل الذي صنعه كان له بعدٌ روحيٌ .

هل يمكن أن ينفي هذه القوة الروحية في العمل الفني؟ أبداً ، لقد شعر حيدر أنه يشرع في خلق شيء محسوس ، هذا الشيء له قوة يستمدها من موسيقى الكون ، أحس في البداية أنه ينقاد إلى أشياء غير معينة . هي

مكتبة الفكر الجديد

غير ملموسة هذا صحيح، ولكنها محسوسة، ومحسوسة بقوة، إنه إيمان دون شك، إيمان كان يشعر به كما لو كان يجمع شتات الأديان في داخله، اليهودية التي عرفها وهو طفل، المسيحية التي تتسرب إليه من خلال الموسيقى الكلاسيكية، والإسلام الذي أصبح يعيش في داخله منذ زواجه من طاهرة، إنه الله وحده، الله الذي يتوزع في النصوص..

كان رفضه ماثلاً ذلك الوقت لتفسيرات آدا المادية للموسيقى.. وهما جالسان في شرفة منزلها في الربيع يرقبان تغير الأشجار، قال لها إنه يحاول أن يجمع الخطوط والألوان من الأديان الثلاثة.. كان ينظر حلول الرمل في كل مكان، الألوان تتغير والطبيعة أيضاً. إنه الخلود بعينه.. الموسيقى كقطعة موسيقية هي خلود جزئي ولكن الموسيقى ككل هي الخلود المطلق..

كان يمضي أمسياته في منزل عازفة البيانو الروسية آدا برونشتين في شارع صغير خلف البولشوي، حجرة واسعة في الطابق العلوي. تطل الأريكة على الشارع؛ على جانبيها نوافذ صغيرة لا يمكن إغلاقها تشرف على الشارع. مقابلها، نافذة كبيرة يرى الحديقة الكثة من خلالها، على أريكة كبيرة إلى اليسار، تجلس آدا واضعة رجلاً فوق أخرى؛ وعلى رف الموقد ثمة مصباح ليلي وقارورة فودكا. كانت آدا امرأة ضئيلة الحجم، شقراء، مكتنزة الشفاه، أنفها قصير، وتتكلم بصوت خافت، وكانت مرحة جداً معه، لقد كانت عازفة بيانو رائعة ومعروفة في كل أنحاء العالم، وكانت مثقفة تتكلم عدة لغات أوربية بطلاقة، وتستضيف في منزلها كبار الكتاب في موسكو، وقد تعرف حيدر على الكثير منهم بواسطتها.

أما كيف تعرف على آدا برونشتين، فلم نجد سوى الرواية التي كتبها

مكتبة الفكر الجديد

عازف الفيولون التشيكي كارل باروش في مذكراته ، قال إن حيدر سلمان كان في رحلة بحرية في بحر البلطيق ، وكان معه على ظهر الباخرة ابن سيرجي أويستراخ مع صديقته الحامل ، وبعد أن هبط ابن سيرجي أويستراخ عرف أن صديقته الحامل منه قد هربت مع الموسيقار العراقي حيدر سلمان ، وهي عازفة البيانو آدا برونشتين .

**

طيب هذه هي آدا برونشتين صديقة حيدر سلمان الجديدة ولكن هل لها دخل في رحلته إلى باريس ، هذا ما لم نتوصل إليه مطلقاً ، كما أنه غير موجود في أي تفصيل آخر في رسائله ، وهو أمر لم تعلق عليه فريدة أبداً ، ولكن كل الأحداث تدل أنهما كانا مرتبطين ذلك الوقت ارتباطاً شديداً .

لماذا لم يكن حيدر سلمان زوجاً مخلصاً؟ لم يكتب هو عن هذا الأمر مطلقاً ، ولم يتطرق له ، وكأنه أمر طبيعي أن يكون متزوجاً وله علاقات نسائية أخرى ، لقد كان يجرب هذه العلاقات طوال حياته ويتفادى على الدوام النهايات العاطفية المحزنة ، وهذا ما تنبأت به شخصية ريكاردو ريس في قصيدة دكان التبغ لفيرناندو بيسوا .

ولكن لماذا لم تؤثر هذه الحادثة الشنيعة على علاقته مع سيرجي أويستراخ ، هذا ما لم نعرفه ، ولم نستطع الوصول إليه ، فالرجل توفي في العام ١٩٩٠ ، ولم نستطع الوصول إلى أي أحد من أفراد عائلته .

**

على العموم كانت علاقته مع عازفة البيانو الروسية شائعة ، ففي العام ١٩٦٥ رحل معها إلى باريس حيث اشترك بمسابقة جاك تيبو هناك ، وعزف أمام جمهور غربي أيضاً في الوقت الذي كانت أكثر حفلاته التي

مكتبة الفكر الجديد

أقامها في السنوات السابقة هي في الغالب أمام جمهور روسي .

وعلى مسرح كبير في باريس ، توقف حيدر سلمان في ظلام دامس ، ما خلا بقعة ضوء فوقه أنارته لجمهور كبير لم ير منهم إلا أشباحاً . وبعد أن تنفس بعمق ، أغمض عينيه ، ووضع القوس برفق على الأوتار فتصاعدت الموسيقى . لقد شعر لحظتها بالأنغام وهي تنساب في توحشها المدهش لتتماهى بهدوء كامل مع ما يتدفق من جهة الروح ، إنها ترتفع فوق التيه مرتبطة بحميمية بالخالق ومعبرة عن علاقته الصادقة بالكائنات . لقد شعر أن الموسيقى في العزلة المتوحشة ، هي دائرة مفتوحة تتصاعد إلى أعلى ، أما الروح فهي تنمو داخلها ، ترتفع أعلى فأعلى . . وما إن توقفت الموسيقى حتى سمع التصفيق العالي في القاعة ، أنارت الأضواء المكان فرأى الجمهور وهو يقف على قدميه . . ومن بين الذين صفقوا له في القاعة كان مدير قاعة كارنيجي الذي دعاه للذهاب إلى نيويورك والاشتراك في مسابقة ليفنتريت في نيويورك .

كتب إلى فريدة من هناك :

(لا أعرف . . هذا أول لقاء لي مع العالم الغربي ، الشرق ينطوي على محمول رمزي كبير ، أشعر به وهو يتحرك عبر جميع المراحل الزمنية ، كنت أريد أن أعزف بطريقة شرقية . . ربما تسخرين مني . . تسخرين من جملتي هذه ولكني لا أستطيع أن أستبعد ثقافة ديناميكية تمتد بأبعادها الدلالية ومحتوياتها إلى أعماقي ، كنت أعزف بصورة ملونة . .أعزف بألوان صافية ، إني أفهم العزف بمفهوم الصفاء والضوء ، ما إن أضع القوس على الوتر حتى أشعر بالألوان مع الألحان . .

لا شيء يغيب حين تحضر بقوتها تلك الشمس المضيئة . .كنت أعزف في هذا الجو الكئيب والبارد حتى جعلت الجمهور يشعر بصفاء النهارات

مكتبة الفكر الجديد

الصيفية المشمسة في بغداد، وهكذا أخذ الجمهور يصفق ويصفق . .)

**

هل كان يذهب إلى بغداد بين العامين ١٩٦٣ و١٩٦٧؟ في الواقع كل الدلائل تشير أنه عاش أغلب هذه السنوات في موسكو، والسبب هو أنه كان خائفاً من السلطة السياسية في بغداد، ربما كان يزور عائلته من وقت إلى وقت هناك، غير أنه كان يتعلل بأمر عمله في كونسرفتوار تشايكوفسكي، وتأليفه للموسيقى ليبقى في موسكو، بينما كانت طاهرة تأتيه مع حسين من وقت إلى وقت أيضاً، مرة للعلاج، مرة لقضاء الصيف معه هناك . أما أسرار حياته الخاصة مع آدا فقد بقيت أمراً غامضاً جداً حتى على من هم قريبون منه، كما أنه أمر لم يؤكده أحد ولم ينفه أحد أبداً، ولكن ما هو سبب عودته إلى بغداد في العام ١٩٦٧؟

هل هو نهاية عمله في معهد تشايكوفسكي؟ هل هو فتور علاقته مع آدا، أم كانت هي حرب العام ١٩٦٧ . . حينما كان يعزف في واحدة من أكبر صالات نيويورك . .

كان وصوله إلى نيويورك فرصة عظيمة . .

إنها نيويورك المدينة الكبيرة، بتمثال حريتها العالي والذي يطل على المحيط، وهنالك جسر بروكلين المدهش، وسكنه في حي هودسون . . حي الفنانين، وكانت آدا تسير على الدوام برفقته في الشوارع، حيث شعرا للمرة الأولى بأنهما حران وطليقان، إنها نيويورك وهو ينظر إلى الليل العميق وقد كسر سواده تلألؤ الأضواء من الفنادق والعمارات الكبيرة، كما أنه كان منبهراً جداً بما يؤلف هذه المدينة التي كانت تقع على الطرف النقيض تماماً من موسكو : ناطحات السحاب، الشوارع الواسعة والمزدحمة، الجسور المعلقة، المراكب التي تغزو المحيط . . حي الفنانين الذي

مكتبة الفكر الجديد

قطن فيه ، صالات الموسيقى ذات الطرز المختلفة عن موسكو . . وأشياء أخرى كثيرة ، وكانت المفاجأة هو ما كتبته النيويورك تايمز ذلك الوقت عن زيارته :

« . .هذا الشيوعي لم يكن يخفي إعجابه العميق بأميركا . . .»

أما قاعة كارنيجي فقد سحرته ببنائها التاريخي الذي يشبه المكتبة ، كان يرقب الناس وهم يجتازون الباحة الكبيرة بملابسهم الأنيقة ، كما لو كانوا يعيشون في زمن آخر ، كما لو كانوا يعيشون في القرن التاسع عشر ، برجان دائريان ، سور عريض يحيط بالبناية ، نوافذ قوطية حجرية . كان يقف هناك ويطلق نظرته المتأملة على الساحة والأسوار الصامتة . ومن وراء النوافذ كانت عيناه تذهبان إلى الأيقونة المعلقة على الحائط ، يتأمل مريم العذراء وقد حجبت العتمة جبينها ، وعيناها الحالمتان تضيؤهما المصابيح . في هذا المكان طلبت منه أروكسترا السيمفوني لمدينة نيويورك العزف معها وتقديم بعض الكونسيرتات ، وقد صادف أن تكون حفلته في السابع من حزيران في العام ١٩٦٧ .

كل الدلائل تشير أن حيدر سلمان رفض العزف طالما كانت القوات الإسرائيلية تغزو المناطق العربية ، كان غاضباً ، وجسده يرتعش طوال الوقت ، ولم يمنعه تشوش فكره من الاتصال بمدير القاعة لاغياً الكونسيرت ، وبدلاً من العودة إلى موسكو عاد إلى العراق ، بينما ذهبت آدا إلى موسكو .

**

عام واحد في بغداد يفصله بين عودته من نيويورك عن أحداث انقلاب العام ١٩٦٨ ، هذا العام أمضاه معتزلاً تقريباً ، لم يكن يلتقي أحداً . . وبدلاً من الاختلاط بالناس ، أو العمل في الأماكن العامة ، أو

مكتبة الفكر الجديد

الالتقاء بالأصدقاء ، كان يطور حيدر في داخله نوعاً آخر من الموسيقى الصوفية . لم يكن يغادر منزله في بغداد ، أي منزله في مدينة الكرادة ، في شارع البولصخانة إلا قليلاً . . كان يجلس على الدوام عند النافذة الكبيرة في منزله ، لينظر إلى الحديقة الخضراء ، ويرقب تغير الفصول . وهذه العادة هي نوع من الروحانية العميقة التي أخذت تغزو روحه ، كان يبحث ذلك الوقت عن موسيقى غير مسموعة يحاول القبض عليها في نمو الأشجار والأزهار ، كان يبحث عن موسيقى ناعمة تتصاعد من كل الكائنات التي تتغير وتتحول عبر تحولات الفصول ، ولا يمكن أن نفهم هذا الأمر إلا أنه نوع من تصوف مختلط بين الإسلام والقبالة ، كان يشعر أن الموسيقى المندلسونية أخذت تغزوه شيئاً فشيئاً ، أخذت روحه العميقة تتسع شيئاً فشيئاً ، أما تقدمه في العزف فقد كان سريعاً جداً .

كتب إلى فريدة تلك الفترة رسالة طويلة قال في نهايتها :

(بالموسيقى يمكنني أن أكتشف الأماكن ، أن أرى ألوان البعد والعمق ، أتحرر من الخوف وأصل إلى مجاهل الحياة ، بالموسيقى أتخلص من قذارة الجسد . . ولكن يا فريدة . . ما هو الجسد إن لم يكن بحثاً عن الانتماء إلى العناصر الأولية ، والرغبة المحمومة في الخلاص . . .)

**

لقد انفصل عن آدا برونشتين وأمضى عاماً قاسياً في ندمه على ما فعله مع ابن صديقه سيرجي أويستراخ ، وراح يكتب له الرسائل الطويلة يخبره بأنه ارتكب أكبر خطأ في حياته وأنه يود الصفح منه ويطلب منه مسامحته على ما فعله ، وهو في غمرة هذه الحمى ، حمى الانفعال مما فعله مع ابن صديقه ، وإذا به يفاجأ مع علاقة أخرى مع عازفة تشلو أرمنية في الفرقة السمفونية الوطنية في بغداد ، وفي غمرة هذه العلاقة حدث

مكتبة الفكر الجديد

انقلاب العام ١٩٦٨ الذي صنع نهاية كاملة لشخصيته الثانية ، شخصية المحروس ، وعبدت الطريق أمام شخصيته الثالثة حارس التبغ ، فلم يمر عام واحد فقط على وصوله إلى بغداد عائداً من نيويورك حتى شهد أحداث انقلاب عسكري آخر ، كان عمره ذلك الوقت اثنين وأربعين عاماً ، وقد شهد الدقائق الرهيبة حينما أيقظته طاهرة بوجهها الأصفر الشاحب الذي كان يتبدد في غلالة غبش نائية ، من نومه ، وأخبرته بصوت مبحوح بخبر الانقلاب ، ولا أحد يعرف فيما إذا كان حيدر سلمان قد فكر ذلك الوقت بالهرب من بغداد كما فعل مع الانقلاب الأول ، أم لا ، ولا سيما أنه أخبر فريدة بأن الانقلاب الجديد أعاد طقوس الموت بصورة جديدة ، فبيانات اكتشاف المؤامرات على الثورة تصحبها وجبات من الإعدامات العلنية ، شيء أقرب إلى حيوانية القرون الوسطى ، أناشيد وأغاني انتصار ، ورجال بقمصان بيض يحملهم الحبل من الأعناق ، وجثثهم تتدلى في الهواء ، بينما تجلس العائلات تحت أقدامهم وهم يتناولون الطعام في حفلة عرس وطني . . وقد وصف لفريدة في واحدة من رسائل العام ١٩٦٩ كيف أنه كان يرقب امرأة كانت تتقدم حتى منتصف الحديقة ، وتقف أمام الجثث المتدلية في الهواء وتشد شعرها بأستيكة ، كانت تنظر مبتهجة لتدلي الرجال بالحبال ، كان يرقب شفتيها الأرجوانيتين الغليظتين ، ووجنتيها البارزتين ، وينظر باندهاش كبير إلى هذا التوهج الجنسي لحادثة القتل والموت .

فما هي أغنتيه الساخرة ذلك الوقت : اجعل رأسك خفيفاً ، وقدمك أخف ، عش يومك مع من تحب وتمتع بالخراء والكيتش معاً . وهكذا كانت علاقته بهذه العازفة الأرمنية ، والتي كانت علاقة غامضة بكل معنى الكلمة ، فلا أحد يعرف عنها أي شيء ، وبالرغم من أن حياته أخذت

مكتبة الفكر الجديد

ذلك الوقت منحى آخر، ولكن من جهة أخرى كانت هنالك أحداث أخرى تجعله يهبط إلى الأرض كلما أراد أن يحلق، فعلاقاته مع العالم المحيط كانت شاحبة تقريباً، صورة زوجته وابنه أخذتا تضمحلان، وكان اهتمامه بالموسيقى يتضاعف، هل ما زال يعمل على كتابة سمفونيته العظيمة التي فكر بها منذ أن كان في عمر الخامسة عشرة وهو واقف أمام المايسترو الروسي؟ هل ما زال يفكر بالعمل الذي أراد كتابته بعد هربه إلى موسكو عقب الانقلاب مباشرة؟

كل هذه الأسئلة غطت عليها الثورة الإيرانية التي غيرت مجرى حياته تماماً ذلك الوقت.

ومن الطبيعي أن نصل هذا الخط في حياته مع خط آخر هو علاقته مع أحد أعمام طاهرة، واسمه صالح، كان صالح يزور منزلهما على الدوام، كل أسبوع تقريباً يجلس مع طاهرة بوجهه الأسمر، وعينيه السوداوين العميقتين، كان يرتدي نظارة طبية إطارها بلاستيكي أسود، وكانت لحيته خفيفة تقريباً، وما يميزه أنه يزر قميصه من الياقة بلا ربطة، وكانت له قصة شعر مميزة إذ يترك خصلة سوداء من شعره تهبط على جبينه، ويرتدي على الدوام جاكيتات عريضة، كان صالح مثقفاً إسلامياً على الطريقة الشيعية، كتبه التي يقرأها هي كتب المفكرين الدينيين أمثال المفكر الإيراني علي شريعتي وكتب محمد باقر الصدر..

لم يكن صالح متعصبا أبداً، وكانت له صديقة في الجامعة، وما كان يهمه أن تكون طاهرة بلا حجاب أو أي شيء من هذا القبيل، كان منفتحاً جداً، ولكن نقطة التحول الحقيقية في حياة صالح هي الثورة الإيرانية، فما إن اندلعت الثورة حتى طار صالح على جناح الغبطة.. لقد تحول تحولاً شديداً، لم يعد ذلك الوديع الذي يتحدث بنبرة هادئة عن الثورة القادمة،

مكتبة الفكر الجديد

إنها الثورة التي عليها أن تهدم كل شيء ، إنها الهزة الكبرى التي خلخلت الأرض ، إنها الوعد بخلاص الأمة ، وإيذان بظهور الإمام ، كان صالح يصرخ بأعلى صوته أن العالم الموعود تحقق ، عالم خلافة الأمة على نفسها قد جاء ، بينما كان حيدر يجادل صالح بهدوء ، لا يجادله عن الثورة كثورة ، ولكنه كان يشعر بالذعر من الروح الشعبية ، ومن النزعة الجماهيرية التي كانت تلك الأيام في ذروتها . . وإن لم تر طاهرة المريضة في حيدر تلك الأيام ساخطاً وهو يجلس على الكرسي يقرأ الصحف ، أو يتابع أخبار الثورة على التلفزيون ، لكنه كان ساخطاً ، كان يهتز حينما ينظر الجماهير في الشوارع ، كان ينظر إلى وجوههم وهو يرى انصهاراً شبيهاً بذاك الذي يحدث في حالات الذعر الشديد ، مئات من الكائنات التي تختلف تماماً فيما بينها تصبح بهيئة واحدة ، إنها تؤدي بيدها الحركات ذاتها ، وتطلق الصيحات الخرقاء ذاتها ، تفتح عيونها وأفواهها على مداها . . . كان ينظر إلى الجماهير وهي تصرخ بقوة . . ربما يفهم معنى الاحتقان الشعبي ، ربما يفهم حالة الاضطراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي في إيران . .ولكن ما كان يكرهه في الجماهير هي هذه الهيجانات العاصفة ، ما يكرهه هو هذه الحركات الانفعالية التي تهيمن وتسيطر عليها . .

كان صالح يترنح بلحيته وبنظارته البلاستيكية ويتبختر في المنزل ليعلن لهم أن الشرق تغير . . يبتسم حيدر سلمان له ، ويقول له بصوت خفيض وساخر ومستنكر : ولكن التغيير لا يمكن أن تصنعه الجماهير . . الجماهير خطر . . إنها رعب حقيقي . . لأنها تمثل انفلات السلوك العقلاني . . هذه الجماهير ضد النقد ، فكرها غير مفهومي بالمرة ، تفكيرها وحركاتها تشتغل بواسطة المصادفة والتحول . . إنها لا تفكر . . إنها تهتاج وتتحسس . . فهي تجمع بين الأشياء الأكثر تنافراً ، وتماهي الكل مع

مكتبة الفكر الجديد

الجزء . . كلمة واحدة كافية أن تجعل هذه الجماهير مثل فيل يدخل في منزل من زجاج . .

صالح يصرخ . . لا . . هذه الجماهير تريد أن تهدم طغيان الفرد وتؤسس مجتمع الجماعة . . هذه الجماهير تريد أن تؤسس خلافة الأمة وشهادة الأنبياء . .

كان حيدر يشعر بخوف شديد جداً ، لم يكن يؤمن بالجماهير على الإطلاق . .شيء يرعبه ، يجعله يرتعش ، إنه يخافهم بقوة ويبتعد عنهم قدر الإمكان . . لم يكن يثق كثيراً بهذه الحمى الجمهورية الغاضبة . .ربما كان ذلك بسبب حادثة الفرهود . . فقد وجد في عيون الجماهير الغبطة ذاتها ، الغبطة التي تغذي الأعياد بالذبائح وتحول الأفراد إلى قطيع منتشٍ ، نوع من السخط الذي يتصاعد عند أقل مقت ، روح تحركها رموز إيمائية وانفعالية تصعد ولا يستطيع أحد السيطرة عليها ، كان يخاف من كل الأساليب الطافحة بالمشاعر . .

إنها كارزما تصعد ولا تتوقف . .كارزما رآها فيما بعد في صدام . . هياج حاد يسيطر على عقول الناس وقلوبهم فتندفع بقوة ، حينما يصعد صدام إلى المنصة تركض الحشود أسفله فاقدة لوعيها ، وكان يرى الشيء ذاته في إيران ، فالخميني مثل صدام كلاهما كان يعتمد في صناعة السياسة على الحشود التي تخرج بقوة الكاريزما . الشعب ، الجمهور ، الحشد ، يخرج ويهتاج ويصيح حتى يغيب عن الوعي .

وهذه الكارزمات تأتي من بيوت الفقر والفاقة ، من الحرمان والفقدان ، تأتي من غياب أو نقص شيء ما ، لذلك فهي تشعر على الدوام بهذا الفراغ الروحي الكبير مما يجعلها تشغله بممارسة السلطة والهيمنة .

**

مكتبة الفكر الجديد

«هل تعتقد أن الخميني أعلن الثورة ضد الشاه» قالت له طاهرة .

غرفة جلوس صغيرة مطلة على الحديقة ، النوافذ مشرعة ، وكانت الشمس تدخل بأشعتها الذهبية إلى الداخل ، والعصافير كانت تغرد على الأشجار . سكبت طاهرة لحيدر المزيد من الشاي في الكوب وهي تجلس أمامه بوجهها البيضوي ، بعينيها الوامضتين ، بشفتيها الرقيقتين ، وعلى وجهها الشاحب التعبير الأرستقراطي الجميل .

كان يدرك أن ثمة حركة غليان شعبي تظهر بصورة ثابتة ، ولا سيما بعد أن أعلن في الصحافة أن الخميني قد غادر منفاه في نوفيل لوشانو على بعد عشرين ميلاً غربي باريس . كان يقرأ الصحف كل يوم تقريباً ، يجلس من الصباح حتى المساء وهو في حالة ترقب دائم . يسير في شارع الرشيد وهو يفكر بالمظاهرات التي خرجت من مساجد «تبريز» ، ولم تستطع قوات الأمن السيطرة عليها ، كان حيدر يسير بالقرب من تمثال الرصافي مثل مغيب عن الوعي وصورة واحدة في ذهنه : صورة الجماهير يوم الجمعة الدامي ، وأربعة آلاف قتيل ممدون على الأرض . كانت أذناه تلتقطان الأخبار ، فقد اندلعت أحداث تبريز ساعتها ، وهذه جعلت المسئولين الإيرانيين الموالين للشاه يبحثون عن حلول للمشكلة ، ثم بدأت وسائل الإعلام تجري نقدًا ذاتيًا لمؤسسات الدولة ، ولنشاط حزب «رستاخيز» الحاكم بغرض امتصاص الغضب الشعبي الذي شمل طهران وقم وتبريز . .

دخل المنزل بقلب ثقيل ، كان يشعر أن المشهد الجنوني يثقل عليه ، فالشاه تمسك بموقفه الرافض للاعتراف بالمعارضة سواءً المعتدلة أو المتشددة ، بل وصفهم بالقتلة الخارجين على النظام ، وكان هذا الرفض القاطع منه بمثابة الضوء الأخضر للمعارضة لتتحد ضده ، متناسية

مكتبة الفكر الجديد

خلافاتها الجوهرية .

قرأ ذلك اليوم في الأخبار أن الجنرال «ناصر مقدم» دخل على الشاه بنياشينه التي علقها على صدره ، ببذلته العسكرية المكوية ، وقد كان يعمل ذلك الوقت مديراً للسافاك . . غير أن الشاه نظر إليه بعينيه المتعاليتين ، ورفض اقتراحه حول الإصلاح ، وكان قد سمع ذلك في محل لتناول الشاي في باب المعظم ، أن كبار تجار البازار ، ربع مليون دكان قرروا وقف عملهم . . كانت السماء صافية طافحة بالسحب البيض ، وقد أثقلتها الريح بخطوط وردية ، كان هنالك غبار سماوي يتصاعد إلى أعلى ، ولقاح الطلع يتبعثر في الضوء . كان يشعر بسعادة طفولية ، وقلبه يطير فرحاً ، وقف عند منعطف الشارع وهو يسمع أخبار المظاهرات في كل مكان ، شخص يرتدي ربطة عنق سوداء يقول لشخص آخر إن المظاهرات في إيران امتدت إلى أربعين مدينة . . أخذ يلتقط الخبر من هذا الرجل ، واقترب قليلاً منه ، فتبلبل الرجل خائفاً . . ذهب إلى منزله ، كانت طاهرة جالسة على الصوفا ترتدي وشاحاً أبيض بشرائط صغيرة ، وعيناها السوداوان هما الأكثر روعة متقدتان مثل جوهرتين محاطتين بالكحل ، وبشرتها المتوردة تخبر بأنها وإن كبرت فإنها لم تفقد الإطلالة الشهوانية لجسدها ولا بريق عينيها الجميلتين . قدمت له الساهون ، الحلوى التقليدية في إيران والتي كتب عنها آبادي في رواياته ، وقدمت له الماء العذب من أحواض الموزائيك والفسيفساء والمرمر ، كانت خادمتها الإيرانية نائمة في الظل كما لو كانت في كتاب من كتب غوبينو أو شاردان قبل مئة عام ، أخرج ألبوم الصور . .كانت طاهرة تعرض عليه اكتشاف أسرار طهران عبر رؤية متاحفها القديمة ، اكتشاف الأسرار الغامضة للفنّ . . كانت هي التي أغرته بالصعود في العربات التي تجرها الخيول ووسائل النقل القديمة لتجعله

مكتبة الفكر الجديد

على تماس كامل مع المجتمع . . وبدلاً من هذا وذاك اصطحبته إلى سوق تاجرش . . . وغابت معه في ممراته ساعة ، ثم زورته المتاحف الرائعة ، ذهب إلى مرشد جعفربور ، تسلّق مرتفعات توشال ، لعب النرد والتخت قرب الكهف الغريب ، جلس في مجلس للاحتفال بعيد ميلاد حضرت فاطمة ، ذهب إلى مسبح في الهواء الطلق وقد عامت طاهرة بالمايوه ، ثم جلس في متنزه شهر جنوب طهران . تذكر حيدر سلمان البازار في طهران ، كانت طاهرة هي التي قادته إليه أول مرة . جلسا قرب الجامع على مصطبة تحت ظل شجر كبير ، مر متصوف وهو يسوح على الأرض ، هنالك أشجار سرو ، وأشجار دلب ، وكان يسمع خرير الماء الهابط من أعلى صنبور ، على الشجرة الضخمة سمع غناء شحرور ، وتحت الشجرة ، كان ثمة سقاء يبيع شرابت الزنجبيل المثلجة بطاسات من نحاس .

كانت الشمس تختفي خلف ضباب قرنفلي ، نجمة أول المساء تتدلى من السماء ، وفي مطار طهران أكثر من ستة ملايين شخص لاستقبال الخميني ، لقد أحاطت هذه الجموع بالرجل ذي الثمانين عاماً الذي استقل طائرة هليكوبتر ليكمل رحلته فوق رؤوس البشر الذين احتشدوا لاستقباله . كانت الطائرة أشبه بحشرة سوداء تطير فوق جموع البشر ، كانت محلقة فوق رؤوس الناس ، وفي الصباح ذابت الدولة وسلطتها وحكومتها أمام شخصيته .

**

في اليوم التالي جلس في الصالة على الفوتي الجلد ، كان يعرف أن ما يحدث في العراق ، له محموله التاريخي الثقيل ، شعر بنبرة متهكمة لافحة ، وغاضبة أيضاً ، كان كلام صدام ملتوياً ولكنه كاشف في نهاية الأمر عن الحرب . . . كانت إيران الثورة وعراق الثورة يقفان وجهاً لوجه . .

مكتبة الفكر الجديد

البحث عن مشاكل حدود مفتعلة، ومناوشات، وأشياء أخرى كثيرة تنبئ أن الوقت العصيب قادم، وأن زمن الحرب على الأبواب لا محالة، والحرب حين تقدم فإنها تطرق كل أبواب البيوت .. بيتاً بيتاً ..

بعد شهر من تسلم صدام الدولة، وإعدامه لرفاقه القدماء، وبعد عام من صعود الخميني على رأس السلطة في طهران، اتجه حيدر وطاهرة بسيارتهما الكاديلاك ذات اللونين الأحمر والذهبي من منزلهما الصغير بشارع الكرادة، إلى مطعم صوفر في المنصور.

كان حيدر سلمان يخفي عن طاهرة خبرا سيئاً، كان يخفي عنها أن عمها صالح ألقي القبض عليه وتم إعدامه بعد يومين فقط من إلقاء القبض عليه.

كانت طاهرة مريضة، ولا يريد أحد أن يبلغها بذلك.

جلسا قريباً من الباب تناولا سمك الكارب بالفلفل الأسود، وتارت تفاح، ثم عادا إلى المنزل.

قالت له طاهرة: «هل تعتقد أن الحرب ستندلع مع إيران ..؟»

«طبعا .. بالتأكيد .. ستندلع الحرب ..»

كتب لفريدة فيما بعد وهو يصف لها تهجيره مع طاهرة إلى إيران بالجملة التالية:

(لم يكن أي واحد منا يدرك أن الحرب ستشن علينا في اليوم التالي ..)

**

كانت الحرب في البداية تأخذ تصعيدات كلامية في الصحافة، ثم تتحول داخل كل بلد من البلدين إلى احتفال مبتذل .. تتحول إلى شيء من البلاغة الرثة والبلهاء، لغة عرجاء ومسطحة وخادعة، تزييف للتاريخ،

مكتبة الفكر الجديد

تطريب على حافة الدم ، شعارات لتمجيد الموت والخراب بلغة شعرية متأنقة .

بغداد لها شعراؤها الذين يجيدون فن الممالقة ، وطهران لها فنانوها الذين يجيدون فن الكيتش ، بغداد مملوءة بالشعارات ، طهران مملوءة بالشعارات والبوسترات ، اللغة الشعرية المتأنقة راحت وحل محلها تدفق رث وصادم ، الفن والإيديولوجيا شيء واحد ، التاريخ يجري استثماره بأحداثه القديمة بصورة متسارعة ، كل واحد منهما يحاول أن يظهر الجزء المغمور والمنسي من التاريخ ، فنون جديدة غير السيرة والتاريخ والمقالة ، كان اعتماد صدام في البداية على الشعر الشعبي ، كان الشاعر الشعبي هو المعبر عن فلسفة الابتذال والسخط الشعبي ، بينما في طهران كان الرسام التشكيلي ، عامل البوسترات ، هذا المسيطر على قوة الشارع بالشعارات الثورية والصور مستعيناً بأساليب البلاغة الفارسية .

أين هي الموسيقى؟

في بغداد كانت الموسيقى تستخدم أسوأ استخدام ، كانت تستخدم للأناشيد المحرضة على الموت والقتل . .

في إيران ظهر استخدام آخر للموسيقى طالما أن الغناء تم منعه ، فالموسيقى الكلاسيكية بدأت تتصاعد . . تتصاعد بتناغم واتساق يقتربان من بناء القطعة الموسيقية . لكنها القطعة الموسيقية الحادة والمعجونة بشيء من الانفعال والغضب . كانت الموسيقى في بغداد تضم قدراً هائلاً من القبح الذي تصنعه الديكتاتورية ، بدناءة متقنة . أما طهران فقد منعت الغناء وحولت شاهين فرحات من تأليف سمفونيات عن عمر الخيام والفردوسي ، إلى مؤلف رابسوديات دينية . .

كانت بغداد تصفّي حسابها مع ماضيها ، وطهران تصفي حسابها مع

مكتبة الفكر الجديد

ماضيها ، فوقف البلدان واحداً أمام الآخر ، وقفا وجهاً لوجه .

**

طبعاً كان حيدر سلمان يدرك ذلك الوقت أن كل شيء يتخذ له وجهة كيتش ، سواء أكان ذلك في طهران أم في بغداد ، وكان يطور هذه الفكرة قليلاً ، كان يفكر بسرعة وانتشاء ، وخلال ليلة واحدة أدرك مجموعة من الخرافات المتشابهة في هذين البلدين اللدودين ؛ كانت تجربة غريبة ، شديدة الاختلاف عما كان يتخيلها ، الفن الذي تروج له الدكتاتورية لم يكن فضائحياً ، مثلما كان يروج عنه ، بسبب المقاطع الفضائحية التي كان يحتوي عليها ، وإنما بالأحرى بسبب ابتذاله وعدميته الكئيبة .

تسقط الصورة وتسقط الكلمة معاً ، كانت إيران تستخدم الصورة في التأثير ، إنها الجماهير المحتشدة التي ترفع يدها بصورة ميكانيكية وتصيح ، إنها الثورة التي تعتمد على الحشود ، بينما كان العراق يحول الألفاظ الجماهيرية إلى شعر ، كانت البذاءة تتحول إلى كلمات ، يتحول الواقع اليومي الأكثر ابتذالا إلى صور حلمية وكوابيس محيرة .

شيء من الفوضى في كلا البلدين ، وكل واحد منهما يتصدى للآخر بنظام اصطناعي بليغ ومضحك ، خليط من الفوضى الخالصة والفوضوية الصاخبة والهذر الرومانسي القديم .

كان الابتذال الفني يدعم السياسي ويجعل يده في أقصى عنفها ، هذه الرداءة البلاغية كانت تجعل القتل والتدمير والتخريب قيماً جمالية ، تقدم الابتذال بوصفه قيمة ، هذه القيمة تضاعف في الخفاء الحقد في الكهف العاطفي ، هذه الحماسة الهائجة تصنعها الأغنية في بغداد ، يصنعها الشعر ، تصنعها الكلمات الموزونة ، وتصنعها الصورة في طهران

مكتبة الفكر الجديد

لتتحول إلى نوع من الجرأة البلاغية ، تصنعها البوسترات والملصقات والإعلانات ، إنها تنزع عن العالم كل سحره ، وتقدم شيئاً آخر بدلاً منه ، في بغداد تقدم بدلاً منه الوقاحة ، وفي طهران تقدم بدلاً عنه الهاجس الغائطي .

كل بلد عاد إلى مربعه الأول ، بغداد العربية عادت إلى الشعر والكلمات ، عادت إلى البلاغة الساحرة التي برع بها العرب لتجعلهم يهيمون في كهف مظلم ، عادت إلى سحر النثر الذي لم تنقص قوته ، بل على العكس ، لقد زاده ذلك مسحة من الهيجان والظلامية ، نوع من التهويم في الكلام الساحر ، في الكلام الذي لا يؤدى ، وإيران عادت إلى ولعها بالصور والرسم والمنمنمات ، الأول تائه في كلامه والآخر ساقط في ابتذال فنانين ثوريين غير محترفين بالمرة .

**

في المنطقة الخضراء تواصلت بعلاقة صداقة مع بعض الجيران الذين شعرت أن بإمكانهم تقديم مساعدة لي في عملي بطريقة ما ، فقد تعرفت هناك على سيدة عراقية من أسرة جد راقية اسمها عايدة النديم كانت يوماً زوجة لقنصل عراقي في طهران ، وأقول يوماً لأنها تطلقت منه ، وهي امرأة ذات شعر أشقر ومظهر متجهم ، كانت تعيش في الشقة المقابلة لشقتي ، وكنا نلتقي على باحة السلم ، وأحيانا نتقابل وجهاً لوجه على السلم مباشرة ، أو في باب العمارة ، وكنا نتبادل التحية غالباً في المساء ، ومع مرور أسبوع كنا نتصافح أو نتبادل الأخبار ، ثم سرعان ما تطورت وأصبحت تدخلني إلى منزلها لسماع الموسيقى العراقية وشرب القهوة ، وفي هذه الفترة كنت تعرفت كثيراً على الحياة في طهران قبل ذهابي هناك ، فالمرأة كانت تعرف معلومات مهمة لا يمكن لأحد أن يجدها في

مكتبة الفكر الجديد

الكتب أو كتلوغات السياحة ، حياة النساء والرجال ، رأي الناس بالأوضاع المحيطة بهم ، أسماء الفنادق الرخيصة ، أسماء المحلات ، أسماء الأسر العراقية التي تقطن هناك وأشياء أخرى كثيرة . وفي يوم سألتها عن زوجها فيما إذا كان ما يزال يعمل في طهران ، قالت :

«تقصد زوجي السابق؟»

«نعم . . هل يمكنني الاستفادة من خبرته . . فأنا أريد السفر إلى طهران لإجراء ريبورتاج صحفي . .»

«ابنتي هناك . . سأتصل بها وأخبرها بذلك . .»

قلت لها : «عظيم . .»

وطرت ذلك اليوم فرحاً ، كان من المهم أن أجد شخصاً ما يعينني على إدارة المعلومات وتوظيفها في هذا البلد ، حيث أن إقامتي لن تدوم بطبيعة الأمر ، وكان علي أن أنجز الأشياء سريعاً ، ووجود شخص يعرف طبيعة الحياة هناك ، وعناوين الأسر العراقية سيكون مهماً جداً ، ومع ذلك دونت الكثير من المعلومات التي تتعلق بهذا الموضوع . في ذلك الوقت كنت أعمل على الوثائق التي بحوزتي ، فكنت أقضي الليل بطوله في الكتابة ، كنت أعمل حتى الساعة الخامسة صباحاً ، ثم أنام وأستيقظ في الظهيرة فأجد عظامي مطحونة من السهر ، كنت أطمئن ضميري بالعمل وحين أستيقظ أهبط إلى الشارع لأتناول البتزا . وفي يوم عرفتني نرمين حيدر على موظف تركي من اسطنبول يعمل في منظمة إنسانية تساعد العراقيين على حكم الإدارات المحلية ، عرفتني عليه نرمين هو وزوجته جامينا وهي تشيكية تعمل معلمة ابتدائية في ليماسول ، وكانا شابين رائعين ، ومثقفين ، يتكلمان الإنكليزية ويقرءان بها ، ومنذ اليوم الذي عرّفتني بهما نرمين دعياني إلى منزلهما لشرب النبيذ ، وهكذا تعودت

مكتبة الفكر الجديد

على علاقتهما مباشرة ، وكانا يدعوانني كل مساء تقريباً في المنزل ونسهر أحياناً حتى الصباح ، أحياناً كنت أجلب لهم النبيذ معي من محل قريب من بار الخوارنة ، وهذا يجعلهما يغضبان مني ، هما يقولان لي : «نحن نملك كمية من النبيذ لا تنفد فما معنى أن تجلب النبيذ معك»

وكنت أستعير منهما الكتب الإنكليزية بشكل متكرر ، فكانت مكتبتهما رائعة ، فهما مثقفان حقيقيان ، وينفقان كثيراً على الحصول على الكتب الجديدة ، كان شيئاً أشبه بالواجب ، فهما يتابعان ما ينشر في بريطانيا وأميركا ويحرصان على الحصول على الروايات الجديدة والكتب السياسية التي تخص الشرق الأوسط وتركيا بالأخص ، تقول له زوجته أحياناً : هل عرفت ، صدرت رواية جديدة لطارق علي ، يسأل باهتمام : صحيح؟ تقول له : نعم قرأت عنها في الصحف! يقول لها : سأطلبها اليوم . . وهكذا .

كان أورهان- هذا اسمه- يقارب الأربعين من العمر ، له لحية جعلت منه أقرب ما يكون إلى أشكال اليساريين ، وهو كذلك ، فقد كان يعتقد جازماً أن الشيوعية التي سقطت في روسيا ستستعيد حياتها في تركيا ، يرتدي على الدوام ملابس أنيقة وفضفاضة على جسمه البدين ، ويتجول في المنزل بطريقة شخص أخرق ، فيضع الأشياء بلا اعتناء ، ويأكل ويشرب كثيراً ، شكله شكل ثوري خارج تواً من مناقشة حامية .

أما زوجته جامينا فقد كانت جذابة وأنيقة جداً ، وكانت مضيافة بطريقة تحرجني ، متأنقة على الدوام حتى في المنزل ، لا أتذكر أني رأيتها يوماً تعيسة ، فهي تبتسم كل وقت ، وتروي نكات سياسية مبتكرة وخصوصاً عن زوجها . .

وحين تكلمت لهما عن هذا الشخص ، أقصد كمال مدحت ، فقد

مكتبة الفكر الجديد

انبهرا بحياته ، وتبرعا بالقيام بتحريات فيما إذا كان قد دخل إلى تركيا أم لا . . وقد ساعداني كثيراً حتى في موضوع إيران ، فقد أرشداني إلى صديق لهما اسمه خسرو وهو مثقف ومؤرخ إيراني يعيش في طهران كان قد مد لي العون كثيراً في شأن حياة كمال مدحت وعلاقته بحسن قزلجي ، وبفرح نكدهار أثناء رحلته إلى إيران الثالثة ، ولكن كيف وصل إيران هذه المرة؟ .

كان ذلك في نهاية العام ١٩٨٠ ، في هدوء الفجر وقبل صياح الديك بقليل ، فز حيدر سلمان على صوت طرقات قوية ملهوفة على البوابة الخارجية ، كان صوت محرك سيارة يهدر في الخارج ، وضجة أصوت رجال مختلطة ببعضها ، وضربات متوالية عنيفة وملحة على الأبواب . . . سمع بين الصحوة والنوم خطوات ثقيلة وسريعة تعلو ، وأبواباً تفتح وتغلق بقوة ، فقفزت طاهرة مرعوبة وراءه ، وتبعته بأقدامها الصغيرة المرتعشة الحافية إلى الصالة .

كانت شرفة الصالة الطويلة تكشف عن القمرية المسقوفة التي تغطيها عرائش العنب من كل الجوانب ، والمصابيح قد أنارت الكراج وهي تلقي على الجدران ظلال الرجال الذي يرتدون البذلات والسفاريات الكاكية والخضراء ويحملون المسدسات على الجنب . . . وقد توهجت ذاكرته أول مرة على وجوه عابسة ، غاضبة ، وشوارب سوداء كثيفة متهدلة على الفم ، وعلى أعين حادة صارمة . . . انفتحت ذاكرته على وجه الضابط الذي اندفع فارع الطول ، بملابسه السفاري الداكنة ، وبحزامه الجلدي الأسود السميك ، شاهراً مسدسه بيده ، كان الباب مفتوحاً ، والخطوات مضطربة ومتلاحقة على السلالم ، وقد وقفت العائلة المستيقظة نصف الليل متنمرة ، لامعة العيون ، متوترة وخائفة . . . كان هو يقف في الممر ، يلف

مكتبة الفكر الجديد

على نفسه قميص البيجامة المفتوحة الأزرار ، وكانت طاهرة وراءه بدشداشة النوم ، حافية على البلاط ، وقد وقف حسين وراء والدته وهو يرتجف من الخوف والترقب ، ينظر الأب الحائر الذي وضع يديه في جيبي الروب ، والأم الخائفة المتحصنة وراء الأب وهي تنظر الابن الخائف الواقف وراءها ، أخذ يكلمهم حيدر بصوت مرتجف عن سبب هذه الزيارة ، كان جوابهم ثابتاً وراسخاً : «أنتم تبعية إيرانية . . يجب أن تهجروا الآن إلى إيران»

**

انطلقت الشاحنات بهم قليلاً حتى دخلت في بناء أشبه بالمستودع ، أغلقت أبوابه فوراً . كان الظلام هو السائد ، وهنالك شخص يحمل مصباحاً يدوياً قوي الإضاءة ، يسلِّطه على وجوههم ، واحداً ، واحداً . أنزلوهم من الشاحنة وأمروهم بالمسير في الظلام متلمسين طريقهم ، متبعين التورج ، حتى وصلوا مكاناً فُتح فيه باب صغير جداً في جدار معدني من المستودع ، اضطرهم إلى الانحناء للخروج منه . ووجدوا أنفسهم أمام مجموعة من الضباط الذين يحملون سجلات ، وهنالك حراس يضعون مسدسات تحت ملابسهم الفضفاضة . بدا المبنى من الداخل كأنه الأمن العام ، أرضية إسمنتية ، لطخات زيت أسود ، وأعمدة معدنية رفيعة .

كان هنالك درج يصعد إلى الأعلى وهنالك ضابط كبير يراقب ما يحدث .

في الأعلى غرف تتدلى منها مصابيح كهربائية ، ومناضد عليها آلات كاتبة .

أخذ الضباط ينادون على أسماء المعتقلين ، ثم تم عزل الشباب من

مكتبة الفكر الجديد

عمر الخامسة عشر إلى عمر الأربعين ، بعد ذلك دفعوا الباقين للمرور في ر ضيق . صاح : حسين غير أن صوته مات في فمه ، أشاروا لهم أن صعدوا شاحنة عسكرية مغطاة بتشادر ، صعد بصعوبة إلى القسم الخلفي ن الشاحنة بينما كان الحراس يستحثونه هو وزوجته المريضة بإيماءات أو بارات قصيرة من بين أسنانهم ، أن يصعدوا بسرعة ، انطلقت الشاحنة نفزة مباغتة . فوقعوا مختلطين وسط الظلمة .

كان حسين قد أخذوه بسيارة خاصة لا يعرفون عن مصيره شيئاً ، ينما حيدر وطاهرة وضعوهما في اللوريات ، سيارات الحمل الكبيرة خصصة لحمل البهائم ، مع سيارات أخرى ، وعائلات أخرى لرميهم على حدود إيران .

هبطوا هناك . ساقوهم مثل بهائم في وادٍ عميق ، لم يكن يعرف ذلك وقت العدد ، ولكنه شاهد حشوداً ضخمة من العائلات ، بعض النساء ن يحملن رضعاً يزعقون ، بعضهم كانوا يموتون على أذرع أمهاتهم من برد أو من الجوع . العدد كبير ، ولكنه كان يدرك أنه سيتناقص حتماً في طريق الموصل من الحدود العراقية إلى قصر شيرين الإيرانية . بعضهم رض إلى الضرب ، فكانوا يسيرون مجتمعين متراصين بأرجل مثقلة لكدمات ، والبعض كانت ووجوهم مزرقة ، بينما بدأ الجنود بتفتيش هجرين وسلبهم آخر ما لديهم من مال مخبأ في ثيابهم .

أمسك بيد طاهرة ، وشجعها ، نظر لها بعينين دامعتين ، ولكن يديه انتا قويتين ، نظر إلى أمام كان هنالك واد عميق تعلوه قبة السماء الزرقاء ، تسبح فيه غيوم بيضاء ، صغيرة . بعد مسيرة ساعتين ، كانت طاهرة ريضة جداً ، ساقاها تنضحان ألماً ، فأخذ يسندها ، تسير وهي تضع غـ بيرة على جبينها من الشمس ، تسير إلى جانبه منهكة ، تتكئ علـ

مكتبة
الفكر
الجديد

كتفه إلا أنها تخر على الأرض أحياناً ، كانت تسير بخفين ممزقين وعينين حمراوين ووجه أصفر ذابل . شيء أشبه بالحلم ، وهي شبه مغمى عليها . . قالت له : «هل من المعقول أن نترك حسين وراءنا ونرحل . .»

لقد شعر بأنها تموت . . ولم يكن يملك أي شيء ليفعله لها ، لقد شعر بيأس كامل ، شعر بأنه على حافة الفراغ ، من دون أن تكون له قدرة على استيعاب ما يحدث ، وتكلمت هي معه بصوت كأنه قادم من قبر ، كانت شفتاها المطبقتان لا ترتعشان ، وعيناها كأنهما تجمدتا ، بينما أخذت العائلات تسير جنباً إلى جنب . قالت له طاهرة إنها تريد أن تستريح قرب شجرة ، فأسندها على كتفه وجعلها تجلس ببطء ، ثم رمى نفسه إلى جانبها ، نظر في الأفق البعيد ، فشاهد هذه الحشود التي تتقدم وهي تبكي ، لم يكن قادراً على التفكير مطلقاً ، غير أنه كان يتساءل عن استخدام الخيال في تعذيب البشر ، فالإنسان هو الكائن الوحيد على الأرض الذي يتمتع بالقدرة على تعذيب بني جنسه ، هو الوحيد الذي يجيد تدمير نفسه ، وربما خياله المفرط ، والذي يتجاوز الطبيعة هو الذي مكنه من إنتاج تصورات التعذيب : آلاف من النساء والرجال الذين ينتزعون من أرضهم ، من منازلهم وأملاكهم ، ويذهبون إلى أرض غريبة عليهم بالكامل ، أكثرهم بالكاد يعرف أن يحدد إيران على الخارطة .

قالت له طاهرة . . «أريدك أن تدفني هنا . . أريد أن أدفن في العراق ، لا أدفن في إيران . .»

قال لها : «لا سأحملك إلى طهران . .»

«أسمع أنا ميتة . . . أدفني هنا . .»

كانت تعبيرات وجهها تدل على أنها تموت ، بعد نصف ساعة غابت عن الوعي تماماً ، وقد وقف بعض المهجرين على رأسها ، قالوا ماتت ، أكثر

مكتبة الفكر الجديد

المحيطين به قالوا له إنهم لن يغادروا المكان ، بعض الرجال أصر على البقاء معه ، بينما استمرت العائلات التي معها أطفال ولا تستطيع البقاء طويلاً في المسير . ساعة واحدة ، حتى كانت طاهرة قد فارقت الروح ، سقطت يدها . . وأصبحت باردة مثل الثلج ، أما وجهها الشاحب والجميل فقد بقي على حاله ، وشعرها الأشقر أصبح أكثر خفة ، وأخذ يتطاير مثل الحرير ، وقف بكل ثقة أمامها .

كان الدكتور محمد علي وهو أحد المهجرين هو الذين التقينا به في بغداد ، قال لنا إن حيدر سلمان لم يبك مطلقاً ، لم يكن يشعر إلا بثقل كبير في قلبه ، لم يكن يحس إلا بشيء واحد هو ثقل في صدره كله ، وقد أخذ يحفر التراب بيديه قبراً لها ، وقد ساعده بعض الرجال الواقفين بقربه ، لم يكن هنالك لا رفش ولا مسحاة ولا أي شيء ، كان الحفر بالأيدي ، وهو عمل شاق ولكنه كان مجدياً ، لم تكن الحفرة عميقة ، لقد حفروا ما يجعلها تحت الأرض فرموا عليها عباءة سوداء ، وتم ردم التراب ، ثم بدأ الواقفون قربه يعزونه . لم يقل أي كلمة ، لم يفتح فمه ، كان ينظر الآخرين بعينيه فقط ، لقد شعر أنه عند الموت تصبح الورطة على الدوام بلا حدود ، وحتى هذه المشاهد اللامعقولة تصب أحياناً في البلاهة ، كان يشعر أن الكلمات لا تعبر عن شيء ، إنها تتكاثر فقط ، كما لو كانت مسرحية ، وكل واحد من المواسين له دور يقوله ، فهذه الجمل التي تعبر عن المواساة كانت قوالب حوار ، الحركات تصبح إيماءات ، والأشخاص يتحولون إلى دُمى ، والواقع يتحول إلى لاواقع . كان ينظر إلى الناس وهم يرددون الكلام ذاته ، جمل امتثالية وأفكار جاهزة ، جمل ببغائية تكوّنت من قوالب لغوية ، كان هو أيضاً يرددها بآلية كاملة دون أن يشعر بها ، ود لو يصمتون ولا يقولون شيئاً . ليس لديهم ما يقولونه ، وليس لديهم ما

مكتبة الفكر الجديد

يتبادلونه مع الآخرين ، إنهم محرومون من الحياة الداخلية وليس هنالك سوى آلية الكلام المستخدمة في هذه المناسبة : «البقاء في حياتك . .» .

نظر إليهم دون أن يقول كلمة ، شعر بأنهم اضطربوا ، صمته بلبلهم قليلاً ، إنهم لا يعرفون كيف ينفعلون ، وهو أيضاً ليس لديه ذلك الوقت مشاعر ، ولا يعرف ماذا يقول ، إنه لم يفقد طاهرة فقط ، لقد فقد وجوده الخاص ، فقد عالمه الشخصي ، ما عاد سوى واحد من الآخرين ، أصبح شخصاً قابلاً للمبادلة : يمكن أن يحلّ محله أي واحد ، لم يعد سوى أصداف فارغة ، رنانة ، جوفاء . طاهرة اختفت ، العراق أصبح وراءه ، حسين لا يعرف مصيره ، تهاوت السياقات التي أوجدتهم ، كل شيء انتهى . . وهيأ نفسه للمبادلة . . هيأ نفسه ليكون شخصاً آخر ، هيأ نفسه ليكون حارس التبغ .

**

ساروا جميعاً تحت الشمس الشتوية الباردة ، فجأة سمع بين المروج خرير ماء ، وشجيرات ، ورأى منزل فلاحين ، ورجالاً يصعدون تلاً معشوشباً إلي الأعالي ، كان البقر يسير في طريقه إلى الكلأ . وفي الخلف ، إلى اليسار ، كومة من الحطب المعد للتفحيم ، ثم إلى اليمين مشتل خضار ، وفي الأفق سحاب قليل وجوقة طيور . هذه الحياة مستمرة بينما طاهرة في التراب-هكذا فكر في نفسه- ما الذي كان يفكر به أولئك الناس ، الكل سيذهب إلى التراب ويختفي ، وتبقى الطبيعة قاسية صامتة خالدة ومستمرة ، النظر إلى الطبيعة فيها شفاء وفيها حزن . .لأ نها وحدها خالدة ، وحدها التي تستأثر بالاستمرار .

**

انكشفت إيران في الأفق ، ها هي الحدود ، وذاك معسكر اللاجئين

مكتبة الفكر الجديد

بانتظاره ، الخضرة تجتاح الأرض ، الصفاء كان خلاباً ، والهواء البارد يهب من أرض جديدة ، هذه الأرض مفروضة عليه ، وعليه أن يعيش فيها بوصفها وطنه الجديد ، من يقرر ذلك :

السلطة تقرر ذلك!

المخرج هو الذي يقرر ، إنه مسرح كبير يحدث فيه على الدوام التباس الشكل بالمعنى ، ها هي الحياة أمامه ، إنها ليست سوى أداء ممثلين . . . لم يكن قبل يومين سوى الموسيقار العراقي حيدر سلمان ، اليوم أمر آخر . . عليه أن يجد لنفسه أداء آخر ، المسرحية القديمة انتهت ، سيدخل عالماً جديداً ، وحياة جديدة .

كانت المسرحية الماضية إلقاءً رتيباً وتلاوة خالية من أي تعبير ، عليه أن يجد لنفسه تمثيلاً جديداً ، تمثيلاً خالياً من عنصر الإضحاك في النص ، عالماً خالياً من التضاد والمفارقة ، وأكثر وضوحاً .

كتب لفريدة بعد حادثة التهجير :

(علينا أن لا ننسى أنفسنا تماماً ، حتى ونحن نستسلم للدور الذي نخترعه ، حتى ذلك الدور الذي يناقضنا ، ذلك لأننا نريد أن نلعبه ، في حين أني أرى الآخرين وهم يلعبهم الدور بدلاً من أن يلعبوه ، إني أريد أن أجد لنفسي دوراً آخر وأكف عن لعب نفسي . فكثيراً ما نتوهم أننا ندير اللعبة غافلين عن أنها هي التي تديرنا ، وكثيراً ما نتوهم أننا ننتج قيماً مضادة لتلك التي نشأنا أو أنشأنا أنفسنا على معارضتها . . ولكننا في الواقع نستسلم لها)

**

حين وصل إلى معسكر اللاجئين ، كان قد دبر لنفسه معطفاً رثاً ، داكناً ، ذا ياقة منسولة ، وقميصاً لم تسلم حافتاه من القذارة ، كانت لحيته

مكتبة
الفكر
الجديد

ذلك الوقت مطلوقة ، ووجهه كان أصفر ، وشعره خليط بين الأبيض والأسود . لقد نحل حيدر سلمان تماماً ، وأصبحت عظام وجهه بارزة ، وبخطى واثقة سار إلى خيمة الحرس ، كانت سحنة الإيرانيين متغيرة عليه ، وجوههم عابسة ، وكانوا مسلحين بالمدافع الرشاشة ، وقد أطلقوا لحاهم ، وكانت صور القادة السياسيين وبوسترات الثورة في كل مكان .

كان قائدهم هو الذي يتحدث معه ، وهنالك مترجم إلى جانبه .

«سيد حيدر هنا في إيران لك أصدقاء . . أنت تعرف أننا طبقاً إلى الشريعة الإسلامية حرمنا الأغاني والموسيقى ذات التطريب . . ولكننا أبقينا على الموسيقى الكلاسيكية . . هل يمكنك التعاون معنا . . نريد تأليف موسيقى عن الثورة . . عن قادة الإسلام . . وسنعطيك كل ما تريد حتى الجنسية الإيرانية»

«لا أكذب عليك وأقول لك . . نعم . . ما أريده حقاً هو أن تطلقوا سراحي من المعسكر . . أنا أعرف طهران وعشت فيها من زمن بعيد ، ولا يمكن لي أن أعيش في معسكر لاجئين . .»

كان قائد الحرس ينظر في وجهه مباشرة ، حائراً . . ثم شعر أن لا فائدة أمام هذا الرجل النحيف والطويل ذي العينين الذكيتين والواثقتين . . فقال له بعد أن أطلق زفرة . .

«حسن أنت لست مسجوناً . . يمكنك التنقل متى تشاء . . على أن لا تعمل بالسياسة . . . ومتى ما احتجت إلى شيء نحن نقدمه لك»

بعد يومين ، كان قد حصل على بطاقة إيرانية كتب عيها اسمه : حيدر سلمان مرزا ، من التبعية العراقية . . فسخر في داخله من هذه الكوميديا التافهة . . ثم قدموا له مجموعة من التومانات التي تكفيه شهراً كاملاً . . وبعد أقل من يومين من وجوده في المعسكر خرج باتجاه طهران

مكتبة الفكر الجديد

مباشرة ، بينما كان العراقيون يذهبون في الغالب إلى جلال آباد .

كان تفكيرة ذلك الوقت منحصراً في شيء واحد هو كيف يخرج من هذه المتاهة ، عليه أن يتدبر أوراقاً بأية صورة ويخرج من إيران ، لقد قرر مع نفسه بوضوح أنه لن يبقى طويلاً في هذه البلاد ، وعليه أن يجد مخرجاً ، كان يفكر بذلك وهو يسير في شارع ولي العصر الشارع ذاته الذي دخله أول مرة باسم شارع رضا بهلوي ، والذي يقع منزل إسماعيل الطباطبائي القديم في نهايته . ومن سخرية القدر أن يأتي الآن بعد أن قضي على آل الطباطبائي تماماً ، فإسماعيل على الرغم من كبر سنه مرمي في ظلام السجن في بغداد ، بعد أن صودرت أملاكه وثرواته جميعها بتهمة التعاون مع الحركة الشيعية ، وشقيقه صالح قد أعدم ورميت جثته في الشارع ، طاهرة توفيت في التهجير ، وها هو في مقهى صغير يقع على الشارع العام ، على مقربة من فندق اسمه «حضرت فاطمة» ، يرقب النادل الذي يصب له الشاي بلحيته الطويلة ووجهه العابس ، وها هو جالس يتدفأ بكوب الشاي بيديه ، ويرقب الزبائن وهم يلقون في صينية صاحب المقهى التومانات ، ويخرجون إلى شارع جوزيف ستالين الذي تغير اسمه هو الآخر بعد الثورة إلى اسم شارع ستار خان ، وهو من زعماء ثورة المشروطة في إيران ، لقد جعله تغيير أسماء الشوارع في طهران يضيع أكثر من مرة ، وفارسيته التي ضعفت منذ مغادرته في الخمسينيات والستينيات قرر أن يستعيدها فاشترى كتاباً بالفارسية للشاعر أحمد شاماللو الذي كان يحبه مع قاموس من إحدى المكتبات الضخمة الواقعة في خيابان انقلاب .

كان الشتاء في طهران بارداً جداً ، وهو يبحث عن مكان يذهب إليه ، لف معطفه على جسده بعد أن وضع يديه بجيبيه وسار في الشارع ، كان ثمة رجلان سمينان بأردية طويلة ومعاطف يسيران وراءه ، شفاههم غليظة

مكتبة الفكر الجديد

وأعينهم صارمة ، فشعر بأن الباسدار يراقبه ، مع ذلك سار مسيرته الهادئة وهو يتطلع إلى إيران التي تغيرت لا في ملابس النساء وفي نوع الحياة فقط ، إنما في البوسترات السياسية وهي السمة الجديدة في هذه البلاد ، إنها نوع من الرموز المملوكة بصورة جماعية ، فهنالك تصوير على كل الجدران . لقد قدمت الجدران العالية سطحاً مثالياً للفنانين من أجل عرض مهاراتهم وحذقهم في الجرافيك ، لقد بدا لحيدر سلمان كما لو لم يكن هنالك جدار مفرد في إيران ظل غير مغطى بالجداريات والبوسترات والكتابات ، فكل شيء يستخدم اليوم لتعبئة الناس ، إنها نوع من إنتاج الدعاية الإيديولوجية والسياسية ، تعتمد على الاستخدام الأدنى للكلمات والتأثير الأقصى على الناس .

إيران التي كان يعرفها قد اختفت كلياً ، وحلت محلها إيران جديدة ، والبوسترات تظهر هذا الأمر بشكل واضح ، فقد شكلت الموضوعات الشيعية في رسومات البردخاني الروائية هيمنة كاملة على الثقافة البصرية الإيرانية ، وهذه الرسوم قديمة ، كان حيدر سلمان يراها منذ الخمسينات في طهران تصور واقعة كربلاء ، تصورها في كل مكان ، حتى في المقهى أحياناً ، إنها نوع من الرسوم الملحمية بطريقة بدائية ، ولكنها تمثل الثورة ، أو أنها ممزوجة بين رسوم الباردة والدعاية الثورية الجديدة ، وقد شرح لفريدة هذا الأمر فيما بعد بالآتي :

«تعرفين ما يحدث في إيران . . بدا لي هو نوع من البردخاني . . أي هيمنة رسام على قطعة كبيرة من الخيش يصل مقاسها إلى خمسة ضرب اثني عشر قدماً ، وهي مكرسة لمأساة كربلاء ، وهي معركة قبل قرون عديدة قتل فيها حسين حفيد نبي الإسلام محمد ، وهذا الرسام يبدأ بحركة ديناميكية من خلال استحواذه على قطعة خيش ضخمة مكشوفة

مكتبة الفكر الجديد

على الجدار أو ممتدة بين عامودين ، ما يحدث هو نوع من الاستحواذ والإدخال القسري في دائرة الألم . . كل شيء هنا يبكي . .»

لقد أدرك حيدر سلمان أن هذا النوع من الفن يأتي من السياسة ولكنه يؤثر في السياسة أيضاً ، وهو موجود في المقهى ، وعلى القطع النقدية ، وعلى الطوابع البريدية ، وعلى الكتب المدرسية ، وإن كان هنالك نوع من شهر العسل بين المجموعات الدينية والقوى التقدمية والمؤسساتية من الناحية السياسية ، لكنه كان موجزاً ، وسرعان ما أطلقت الإيديولوجيات الإسلامية حملة دعائية مستوفية لادعاء الثورة لأنفسهم ، وقاموا بتنظيم جيش من الفنانين البدائيين والمتدينين من خلال فنون الرسم ، لتعبئة الناس ، وكسر قوة المنافسين والمعارضين .

لم يبق من طهران ذلك الوقت في ذهنه سوى أوتيل آزادي ، فحين مر من شارع إفين ، توقف عند الأوتيل ، رأى الحارس وهو يقف أمام الباب بملابسه الأنيقة ، هذا الأوتيل كان قد قطنه فيما مضى ، مع زوجته طاهرة في شهر العسل ، فقد استأجرا حجرة كبيرة الحجم ، بنوافذ مطلة على الجبال ، ومن الجانب الآخر كانت نوافذه مطلة على المدينة ، وداخل السويت حجرة جلوس صغيرة ، وطاولة تزين زاوية الغرفة ، وفي المساء كانا يتناولان عشاءهما في الطابق العلوي ، في مطعم بانورامي يطل على المدينة برمتها .

**

والآن ماذا يصنع حيدر سلمان؟ لقد وصلت إلى كل الأشخاص الذين دلني عليهم أورهان ، ولا سيما الدكتور خسرو الذي تعرف عليه فترة من الزمن وجلس معه في مقهى نادري في خيابان ولي العصر ، كلهم أكدوا أنه ارتبط بعلاقة مع فتاة اسمها باري . . وأنه هرب إما إلى سوريا ، أو

مكتبة الفكر الجديد

إلى تركيا ومن ثم إلى سوريا بمساعدة فرح نكهدار وحسن قزلجي . . فمن هم هؤلاء الأشخاص وكيف وصل إليهم؟

أولاً من هي باري . . ما هي علاقته بها ، وكيف وصل إليها؟

في الواقع أن قصة باري تمتد من الناحية التاريخية إلى زمن طويل ولا يمكن سردها ، ولكن يمكننا تحديد النقطة الأساسية في هذا المنحنى من نقطة والدها محمد تقي ، الذي كان يعمل محاسباً في طهران لإسماعيل الطباطبائي ، وقد تعرف عليه حيدر سلمان قبل أن يصفي إسماعيل كل أملاكه في طهران ، على العموم شعر حيدر سلمان وهو في طهران أن محمد تقي هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يذهب إليه ، فلم تعد له معارف هناك ، ذلك أن الثورة قد أحدثت انقلاباً حقيقياً في الحياة والطبقات ، كل معارف والد زوجته من التجار قد هاجروا إلى أوربا بعد الثورة ، وكان يدرك أن الفقراء هم الوحيدون الباقون هنا ، مهما كانت التحولات والثورات والانقلابات .

يقطن محمد تقي في حي حضرة حسين ، وهو الحي القريب من ميدان حسين ، فقرر أن يذهب إليه ، في اليوم ذاته من وصوله إلى طهران وكان ذلك في وقت الظهيرة ، وقد أحس حيدر بالجوع وبرودة الجو القارصة ، فركب الباص من خيابان انقلاب ، قائلاً للشوفير إنه يريد أن يهبط في أقرب نقطة من حي حضرت حسين . بعد ربع ساعة تقريباً أشار له الشوفير بشواربه الكثة وقبعته أن يهبط هنا . . فهبط حيدر أمام مجموعة من الدكاكين الصغيرة ذات الكابنكات العالية ، ومن بينها شارع ضيق معبد يقود إلى داخل حي فقير . توقف قليلاً ثم أخرج سيجارة من جيبه ، أشعلها فأطلق الدخان في الهواء ، وسار إلى جوار حدائق غابية كثة أمامها مجموعة من المنازل ، فالتقى شابة في العشرينيات ترتدي حجاباً خفيفاً

مكتبة الفكر الجديد

وبنطلوناً من الجينز وتقف عند بوابة منزل صغير من طابقين واجهته من السيراميك جميلة . فتوقف عندها ، وسألها عن منزل محمد تقي ، انتبهت الشابة له ، نظرت له بعينيها السوداوين الكبيرتين وقالت مندهشة إنه منزلها ، وإن محمد تقي هو والدها .

كانت الشابة تجيد قليلاً من العربية ، كما أن فارسيته تؤهله للتعريف بنفسه ، فعرفته الفتاة ، وطلبت منه أن يتبعها . سار وراءها بهدوء مضطرب ، ومر خلف الحاجز الصغير الذي ينتصب عند مدخل كل منزل إيراني ليمنع الأرواح الشريرة من الدخول ، وقد تبعا طريقاً ملتوياً عبر حديقة الزهور الصغيرة ، حتى دخل الصالة التي تشرق فيها أشعة شمس الشتاء الواهنة ، كانت الحجرة دافئة جداً ، فخلع معطفه وناوله لها ، وجلس أمام الشابة ذات العينين السوداوين الكبيرتين ، والوجه المدور الأبيض . جلس على الأريكة بانتظار قدوم محمد تقي من دكانه في شارع جراغ برق ، قرب مركز المدينة ، ميدان طوبخانة ، أو ساحة المدفعية ، والتي أصبحت بعد الثورة ميدان خميني . .

غابت باري قليلاً ثم جاءت له بكوب الشاي ، مسكه بيديه الاثنتين وأخذ يشرب ، كانت ملابسه رثة جداً ، ولحيته طويلة ، وشعره السرح يهبط على جبينه ، وخطوط من الشيب كانت تغزو رأسه . نظرت الفتاة بحنان إليه ، كانت ترى هذه الملابس الرثة وقد زادته وسامة ، وجهه الشاحب ، عيناه المتعبتان المتأملتان ، وصوته العذب ، كانت متسمرة في جلستها أمامه ، شعرت بأنها مأخوذة به ، كما لو كانت أمام نبي .

بعد ساعة تقريباً دخل محمد تقي المنزل ، كان رجلا طويل القامة ، ظهره أقرب إلى الانحناء ، وملابسه قديمة ومكوية ، وقد غزا الشيب شعره تماماً ، قبل أن يصافحه حيدر سلمان عانقه محمد تقي ، كان يعرفه منذ

مكتبة الفكر الجديد

تعارفه الأول مع طاهرة ، وكان هذا الرجل هو أحد الذين كان يعتمد عليهم إسماعيل الطباطبائي في عمله في طهران ، بل إنه هو الذي ربى طاهرة عندما كانت صغيرة .

في الواقع كل الذين قابلناهم أكدوا أن حيدر سلمان قد قطن في منزل محمد تقي في حي حضرت حسين ، وكان يذهب معه للعمل كل صباح إلى جراغ برق يرقب المارة والمشترين الذين يترددون على المحل ، ومنذ ذلك الوقت بدأ يتعلم اللغة الفارسية في منزل محمد تقي ، تساعده في ذلك باري ابنة صاحب المنزل . هل أخذت علاقتهما طابعاً رسمياً ، لا أحد يعرف . . ما طبيعة هذه العلاقة وكيف كانت ، بالنسبة للناس هناك كانوا أقل فضولاً منا ، أما بالنسبة لحيدر سلمان فقد كتب الكثير من التفاصيل عن علاقتهما .

كانت باري في العشرين من عمرها ، تطلقت من زوجها منذ عامين وهي بلا أطفال ، وقد عملت منذ طلاقها في صالون حلاقة نسائي يقع في شارع خيبان ولي العصر ، كانت تمضي الصباح والظهيرة في المحل ، وعند عودتها بعد الظهر ، وما إن تدخل المنزل حتى تلقي حقيبتها على الأريكة وتصعد مباشرة إلى حجرة حيدر على مرأى من نظرات أمها ووالدها وشقيقتها . كانت تجلس إلى جانبه على الأريكة لصقاً بجسمه ولا تكترث لأحد ، لقد كانت سعيدة به وهي لا تخفي ذلك ، سعادتها عنيفة وصامتة ، وجهها يرشح عذوبة واستسلاماً ، وحين كانت تجلس قبالته تبدأ بالغناء له بالفارسية وهو يصغي بفرح إلى صوتها ، وحين تجلس أمامه تطرز شرشفاً له كان يرقب هو كل طعنة من طعنات إبرتها . يقف أحياناً صامتاً ينظر من نافذة الحجرة إلى النجوم وقد حف بها ضياء أبيض مهتز ، يقف أمام النافذة ، يحمل في جسده قوة هادئة عذبة ، إنه يحس بجسد باري

مكتبة الفكر الجديد

الشاب والطري ، يشعر بكل قطعة من جسدها ، يشعر بالرغبة في ساقيها ، في خصرها ، ذراعيها ، عنقها ، وصدرها السخي الذي يلامس النافذة حينما يقفان معاً يراقبان أشجار الحديقة .

قال في رسالة إلى فريدة :

(إن جسد باري يخبرني أن العالم واسع وكبير ، كلما أقف أمامها أرى الجبال الضخمة وراءها ، وهذا الليل البهيم الذي تتوهج فيه النجوم ، أشعر بأن اللانهاية والقوة الجبارة تنكشف في هذا اللحم الحي ، ماذا أريد منها؟ لماذا هذا الخوف؟ لماذا هذا التردد . . لا أعرف ماذا أصنع؟)

**

في تلك الفترة بدأت تجوالاته الجميلة في طهران برفقة باري ، في المناطق ذاتها التي كان يتجول فيها مع طاهرة قبل ثلاثين عاماً ، كانا يتجولان في خيابان انقلاب أو آزادي ويرسم في ذهنه التحول الكبير في طهران بعد الثورة ، الجنوب الفقير له الدين والتشادور ، والشمال حيث المنازل الفخمة ، والمتاجر الكبيرة التي تبعث مختلف الأغاني واسطوانات الموسيقى ، وحيث النساء السافرات والمناقشات الحرة ، وكانت باري تحمل شالاً في حقيبتها ترتديه في الجنوب وتخلعه في الشمال ، غير أن التحولات تسير حثيثة ، الشتاء قد حل ، وقد شم حيدر سلمان من الأرض رائحة الرطوبة الباردة ، هناك حيث وقف مع باري في ساحة آزادي ، عرف أن الحرب مع العراق أخذت منحى آخر ، التحشيد والتعبئة قائمتان ، وكان رجال الدين يخطبون على المنابر يضعون على أكتافهم الرشاشات . لقد شعر أن الانفجار لا محالة سيحدث ، وهنالك جموع كبيرة من الجماهير ستجتاح الساحات هنا ، لقد حدس بزحف الجماهير الهائجة والغاضبة مرة أخرى ، لقد شعر أن الثورة تحول الشعب إلى

مكتبة الفكر الجديد

جماهير، إلى حشود، حيث تختفي الطبقات، وتظهر عصابات ضخمة يسهل التأثير عليها، وهذه الحشود تسير وتحرق وتخرب، بالقوة العشوائية التي لا تقف عند حد.

كانت الشوارع رطبة، الأشجار الضخمة عارية عن الأوراق، والمنازل مكفهرة خلف أسوارها الصدئة، والأبنية التجارية ثلاثية الطبقات، ذات الأقواس الحجرية فوق البوابات، تظهر خلفها من خلل دوامة الضباب الأفنية الصغيرة ذات العنابر الصغيرة وأبراج الحمام القديمة، والمناضد المغروزة في الأرض تحت أشجار الزيزفون المعمرة.

كان حيدر يشعر أن الأمر لم يستمر هكذا في طهران. .هنالك حملات واسعة للانقلاب على الليبراليين. هنالك حرب خفية ضد الموسيقى والسافرات والسينمات، وقد شهد إحراق بعض السينمات والقضاء على المناقشات الحرة، أو بحث آزادي. . وفي يوم كان واقفاً مع باري في شارع ولي العصر وهو ينظر إلى الأبنية الغارقة تحت الضباب، ولم يكن راغباً في الذهاب إلى المقهى، بل جذبه شيء أسطوري مفاجئ إلى فتاة ترتدي قميصاً أزرق وجاكتة من الجلد، وبنطلوناً من الجينز، كانت تحمل بيدها صحفاً للبيع، وقد تجمع حولها مجموعة من الشبان والفتيات، وبدأت بينهم مناقشة حرة. . أو ما يطلق عليه ببحث آزادي، ومع ذلك التفت حيدر إلى باري وقال لها إن هذا لن يستمر. كانت هنالك مجاميع من الملتحين القادمين من الريف يحملون الهراوات ليفرقوا مظاهرات اليساريين، وكلما واجهوا مجموعة من الشباب يفرقونهم بالحجارة، وقد كتب لفريدة:

(بدأت حملات الميلشيات المرتبطة بالسلطة تطارد النساء في شوارع طهران وخاصة الشمالية. كان منظراً يثير السخط والاستنكار، شباب من

مكتبة الفكر الجديد

حثالة المجتمع، كانوا ملتحين يتراكضون وراء الفتيات والنساء، بحجة الحجاب السيئ (بد حجاب). كانت هذه الحثالة تدفع النساء وتتهجم عليهن بألفاظ نابية وتحشرهن في سيارة..)

**

أنا أعتقد جازماً وهذا ما قلته لفارس حسن في طهران، وقد أكد لي ذلك أيضاً الدكتور خسرو، أن حيدر سلمان منذ ذلك الوقت، ومن النقطة التي شعر بها بهذه التحولات الهائلة التي كانت تحدث في المجتمع الإيراني وفي برامج الثورة السياسية، بدأ يخطط جدياً للهرب من طهران والتوجه مرة أخرى إلى بغداد إما عن طريق سوريا أو طريق تركيا، لقد بدأ من ذلك الوقت بالتفكير الجدي في تزوير أوراق من أجل الوصول بها إلى بغداد، ولكن السؤال هو: من هو حسن قزلجي؟ ومن هو فرح نكهدار اللذان ساعداه على الهرب إلى سوريا حتى دخوله إلى بغداد؟

في الواقع وهذا ما نقله لي الدكتور خسرو حين التقيت به في مقهى نادري، وهو المقهى ذاته الذي كان يجتمع فيه اليساريون العراقيون فيما مضى ليخططوا للثورة، وهو المقهى ذاته الذي كان يتردد عليه حيدر سلمان وحكمت عزيز، أن حسن قزلجي قد شاهد حيدر سلمان صدفة بعد عودته من بلغاريا، شاهده في هذا المقهى، وقد أصبح قزلجي ذلك الوقت كبير السن، أشيب الشعر، يرتدي نظارة طبية، وقد عرف حيدر سلمان مباشرة.. وصاح به بصوته الأجش: «أنت الموسيقار العظيم حيدر سلمان.. وارتمى عليه معانقاً إياه.. ماذا حدث لك.. لحيتك وملابسك الرثة.. ماذا تفعل هنا أيها المايسترو..»

حسن قزلجي، هو الكردي الذي أسهم في النضال السياسي ضد استبداد رضا خان، وبعد سقوط رضا شاه في بداية الأربعينيات إثر غزو

مكتبة الفكر الجديد

إيران من قبل القوات البريطانية والسوفييتية والأمريكية ، أسس مع مجموعة من الشباب الثوريين حزب كومله الذي كان حزباً قومياً كردياً معادياً للفاشية . وقد انضم إلى هذا الحزب لاحقاً القاضي محمد ، زعيم جمهورية مهاباد التي أعلنت في عام ١٩٤٥ وأطيح بها في عام ١٩٤٦ . وكان قزلجي أحد مؤسسي الحزب ومن قيادييه . ولكن بعد انهيار جمهورية مهاباد هرب قزلجي إلى العراق ، وقام هناك بإصدار جريدة «ريكاي» ، وبقي مختفياً في العراق تحت أعمال مختلفة في المطاعم والمقاهي وفي زراعة التبغ ، وعمل صباغ أحذية ومصوراً في السليمانية ، وذلك لإيجاد قوته اليومي ، ثم اعتقل في العراق وحكم عليه بالسجن ، ولم يتحرر إلا في العام ١٩٥٨ بعد ثورة قاسم ، وبقي في بغداد مدة من الزمن ، وقد تعرف على حيدر في منزل صديقه حكمت عزيز في العراق . ثم هاجر إلى بلغاريا ، وبعد انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ ، رجع حسن قزلجي إلى إيران وأصبح مسئول الطبعة الكردية لجريدة مردم الناطقة باسم حزب توده إيران .

توقف حيدر سلمان أمامه . .ثم قال له :

« هل هناك من مساعدة . .»

«اطلب يا موسيقار . .»

«أريد أن أهرب إلى سوريا . .»

«أمرك . .» قال له .

**

بقي حيدر سلمان في انتظار إشارة من حسن قزلجي ، دون أن تعرف باري أي شيء عن هذا الأمر ، دون أن يعرف محمد تقي أو أي شخص آخر ، وكانت التعليمات صارمة ولا سيما من قزلجي بأن يكون الأمر سرياً

مكتبة الفكر الجديد

تماماً ، وإلا فإن الباسدار أو الحرس سيقتلون حيدر سلمان حتماً ، وليغير من برنامجه تخلى عن الجلوس في مقهى نادري ، وأخذ على برنامج جديد ، يبدأ كل يوم صباحاً في مسيرة من ميدان آزادي حتى ميدان خراسان ، ثم يأخذ الباص إلى البازار حيث تقع مقهى صغيرة يجلس محمد تقي فيها مع صديقه التاجر ميرزا تبريزي .

كان محمد تقي جالساً يشرب الشاي ، وفي يده عدة صحف صادرة ذلك اليوم ، وجلس حيدر سلمان أمامه ، بيده كتاب في الفارسية مترجم عن الروسية حول حياة الموسيقار الروسي جايكوفسكي ، وإلى جانب محمد تقي صديقه التاجر ميرزا تبريزي ، وهو تاجر من تبريز ، كان فلاحاً يعتاش على بيع الفستق ، ثم تحول إلى تاجر كبير بعد الثورة ، وكان الأخير يؤيد رجال الدين ، وكلما جلس الصديقان تنشب معركة النقاش السياسي بينهما . كان محمد تقي ، يعدل ياقته وهو يتكلم ، يرتدي نظارة سميكة ، وشعره الأشيب يزيده وقاراً ، صوته الجاف وهو يسعل كان حاداً وصارماً .

لقد أدرك حيدر ذلك الوقت أن الليبراليين قوة كبيرة في إيران ، مدعومة من الرئيس أبو الحسن بني صدر ، وحليفه المهندس المثقف مهدي بزركان زعيم حركة نهضت آزادي ، وفريقه في مجلس الشورى ، المتحالف مع نواب الجبهة القومية «جبهة ملي» ، وكان يرى أنهم مدعومون بأكبر قوة سياسية جماهيرية منظمة ومعارضة للنظام في الشارع ، ألا وهي منظمة مجاهدي الشعب الايراني «مجاهدى خلق ايران» بزعامة مسعود رجوي ، وهم مدعومون أيضاً من الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني ومنظمة فدائيي خلق ، ومنظمات يسارية أخرى مثل الكفاح والكادحين وكوملة . .

فسأل محمد تقي :

«هل تعتقد أن رجال الدين يمكنهم أن يخطفوا الثورة من هؤلاء

مكتبة الفكر الجديد

المفكرين والمثقفين . .»

كان يشعر بثقل التاريخ في إيران مثلما كان يشعر به وهو في العراق ، وقد وجد نفسه فجأة وسط الصراع . . صراع رجال الدين الذين أرادوها الجمهورية الإسلامية ، والليبراليين الإسلاميين الذين أرادوها جمهورية ديمقراطية إسلامية ، وقد تحسس الصراع من محمد تقي اليساري القديم ، فما إن يدخل المنزل وهو في غاية العصبية ، يفتح ياقة قميصه التي يزرها من دون ربطة عنق ، ويرمي الصحف على الأريكة ويصرخ شاتماً : « هذا مو صراع شريف بين رجال الدين والمتنورين على السلطة ، إنما هو محاولة رجال الدين للهيمنة . . في البداية كانوا يريدون حجز مقاعد في السلطة أولاً ، واليوم يريدون المقاعد كلها . . أن تكون الدولة دينية هذا يعني أنه لا يحكم أحد غيرهم . .» .

كان حيدر يدرك أن رجال الدين يريدون إحكام قبضتهم على السلطة ، فقد بدأت الاغتيالات ، وبدأت السجون ، ذلك أن رجال الدين كانوا مدعومين بقوة من قبل الفلاحين القادمين إلى المدن ، وصغار المتدينين وأبنائهم ، والأميين ، والجهلة . . كانت الأحداث السياسية تتوالى في طهران . . وحيدر سلمان شاهدها . . يذهب إلى المقهى فيجد محمد تقي يتكلم وهو يرتجف ، ذلك أن الحكومة أغلقت صحف المعارضة . كان يشرح الأمر بعصبية بالغة ، عيناه محمرتان ، شفتاه ترتجفان . . . وأمامه صديقه التاجر تبريزي الذي كان هو الآخر غاضباً .

**

لم يعد يخرج حيدر سلمان مع باري ، كان يسير وحده في الشوارع بلا هدف وقد طالت لحيته ، أصبح يزر قميصه ، مثل الإسلاميين ، وهو يرقب المظاهرات والصراعات والحرب الأهلية ، إلى أن أعلن مجاهدو خلق

مكتبة الفكر الجديد

الكفاح المسلح ، فلم يعد قادراً على الخروج من المنزل ، كان يرقب الشوارع من نافذة حجرته ، فقد نزل مجاهدو خلق إلى الشوارع في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ٢٠ حزيران ليفجروا الثورة المسلحة ، هاجموا بعض المراكز الحكومية في طهران ومدن أخرى . وقد تصدى لهم الحرس الثوري وحزب الله واللجان الثورية (الكميتة) ، وتغلبوا عليهم وفرقوهم في طهران والمدن الأخرى قبل حلول المساء .

كتب في رسالة إلى فريدة :

(حرائق في كل مكان ، مبان تحترق ، سيارات ، مكاتب ، مسارح ، مقرات ، منازل ، قتال ، حملة اغتيالات وإعدامات ، وفي كردستان إيران التي كان الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني مسيطراً على مناطق واسعة فيها كان مشتبكاً بالسلاح مع السلطات ، فقد وقف مع بني صدر وأخذ يوسع من دائرة نفوذه .)

وفي يوم تفاجأ حين اتصل به ذلك الوقت فرح نكهدار ، وهو أحد الشباب العاملين في فدائيي خلق ، المنظمة التي يقوم عملها بالأساس على الاغتيالات ، وطلب منه اللقاء في مقهى نادري في شارع ولي العصر . . جلس فرح بأدب جم ، كان حليق اللحية والشارب ، له شعر طويل ، أسمر ، عيناه هادئتان جداً . .

وكان على طاولته كتاب بالفارسية وبعض الصحف . .

قال لحيدر سلمان : «نحن نعرفك أنت الموسيقار اليساري حيدر سلمان ، وأنا مبعوث من رضا شلتوكي . .» وهو ضابط يساري قضى في سجون الشاه أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وقد عذب كثيراً على يد السافاك . .

«ماذا تريدون مني بالضبط . .؟»

مكتبة الفكر الجديد

ابتسم له . . «بالعكس نحن نسألك ماذا تريد منا . .لأن حسن قزلجي قتل على يد الحرس الثوري . . وأنت طلبت منه شيئاً ونحن سنقوم لك بالواجب مكانه»

«أريد الخروج من هنا . .»

«إلى أين تريد الذهاب . . نحن نؤمن لك خروجك من طهران إلى أي بلد تريده . .»

«سوريا . . دمشق . . أقرب مكان إلى بغداد . . ربما يمكنني العودة من هناك إلى العراق . .»

في اليوم التالي أخبر حيدر مضيفه محمد تقي أنه يريد الانتقال من منزلهم إلى منزل آخر . شعر محمد تقي أن حيدر سلمان يريد أن يغادر المنزل خوفاً من الاشتباه به ، ولا سيما أنه يعيش في منزل شخص يعرف الباسدار والحرس الثوري أنه يؤيد الليبراليين ، قال له : «المنزل منزلك . . أي وقت تحل علينا أهلاً وسهلاً . .»

في المساء عادت باري وقد عرفت من أمها أن حيدر سلمان يريد مغادرة المنزل .

في الليل صعدت إلى حجرته . . فاجأته وهو يكتب رسائل بالحبر السري . دخلت غرفته لتراه منكباً على الكتابة دون أن ينتبه لدخولها المفاجئ . كان جالساً عند السرير ، وقد حزم حقيبته ، ووضعها في الزاوية ، خلع اسكارفه وقدمه لها ، كانت عيناها دامعتين ، خلعت إيشاربها وارتمت عليه ، قبلته وهي تبكي . . لثمته من شفتيه وذابت بين يديه .

قامت بحركة بطيئة ، شعرها منسدل على الجانبين ، خلعت سترتها ، عيناها السوداوان تلمعان وأنفاسها تصعد وتهبط ، خلعت قميصها وبنطلونها ، وتناولت بيديها قميصه لترميه بعيداً ، بينما مد حيدر يديه

مكتبة الفكر الجديد

وخلع بنطلونه . . التفّت حول جسده ، كان بطنها أبيض وأردافها دافئة ، بعد ذلك أخذت تموج بطنها نحوه ؛ انحناءة أخيرة كما لو كانت ترقص ، راحت تنزل سروالها وترميه على الأريكة ، اليدان ممدودتان لتحضنه ، الكوعان محنيان قليلاً ، الجذع بلا حراك ؛ الحوض يهتز . صوت جسدها الناجم عن الاحتكاك مع جسده ، مد يده ليتحسسها ، جسد صلب ، مؤخرة برونزية ، فرج محلوق ، كانت تتكلم بكلمات فارسية لم يفهمها . دلفت عيونهم بعضها ببعض ؛ كثافة تحديقهما تضاعفت . حتى سقطا متعرقين على الفراش .

**

في اليوم التالي عثر على شقة صغيرة في الطابق الثاني من منزل مكون من طابقين يقع بالقرب من ميدان انقلاب ، ثم حصل على بطاقة تموينية من الجامع . يده اليسرى تحمل حقيبة سفر ، محزومة بحبل ، كان يلهث منهك القوى ، يرتدي معطفاً داكناً ذا ياقة موبرة ، وعليها قشر الشعر . ولم تسلم طرفا قميصه من القذارة . لقد حصل على حجرة صغيرة دوت فيها أصداء الفراغ ، كانت الحجرة فوقانية ، جلس في ركن خال من النوافذ ، سرير مستعمل ، وبساط قديم رث ، وطباخ نفطي صغير ، وقدر ومقلاة ، فضلاً عن حقيبة ملابسه . أخرج ملاءة وبطانية من الحقيبة بعد أن فك الحبل ليفرشهما تحت نافذة شابها الاتساخ - دون حشية أو لحاف ، هنا سيخلد إلى النوم . كانت الحجرة أشبه بكهف ، تعكس لمبة السقف الضوء على الأرضية الباردة ، لا شيء هنا سوى حقيبته المربوطة بحبل ، وكتاب اشتراه من مكتبة في شارع ولي العصر عن الفن المعاصر ، كان يشعر بأن حياته هنا بلا معنى ، وأنه مفتقر إلى القيمة ، يقبع في الركن مقابل حائط عار يلطخه الدهان .

مكتبة الفكر الجديد

بعد أيام جاءه الاتصال ، لقد دبرت له المنظمة جواز سفر مزوراً لشخص توفي قبل أيام في حادث سير . كان اسم صاحب الجواز كمال مدحت حسن ، وهو تاجر عراقي متزوج من سيدة عراقية من الموصل تدعى نادية العمري ، وتقطن حالياً في مدينة دمشق ، تزوجها من عام فقط ، كانت أرملة لشخص سوري اسمه محمد عقلة من حماة ، قتل في مواجهات الإسلاميين هناك مع السلطة ، هذا كل ما يعرفه عن هويته الجديدة .

جاء أحد الصحفيين ووضع له الجواز في سيفون تواليت أوتيل رويال بارك في شمال العاصمة الإيرانية ، واستلمه بعد لحظات من وضعه لكي لا يتم كشفه .

ما إن قرأ أسمه الجديد ، ورأى صورته في الجواز ، وقرأ تاريخ ميلاده ومكان ميلاده ، حتى شعر أن شخصية حيدر سلمان قد ذابت تماماً ، شعر بغربة كبيرة عنها ، كأنها شخصية مفروضة عليه ، شعر بانتماء أكبر لشخصيته الجديدة . . شخصية كمال مدحت .

مكتبة
الفكر
الجديد

-VIII-

حارس التبـغ

من حياة كمال مدحت

(١٩٣٣-٢٠٠٦)

«آه إنني أعرفه ، إنه حارس التبغ العاري عن الميتافيزيقا ،
حارس التبغ الذي يعود إلى باب دكانه
مدفوعاً بغريزة إلهية»

«Tobacco Shop»
Alfaro de Campos

حروب إسبارطة ونهاية الرومانطيقية والهوى

لقد دخل دمشق باسم جديد هو كمال مدحت ، وبجواز سفر جديد يحتوي على تاريخ ومكان ميلاد جديدين ، وهذه هي شخصيته الثالثة ، الشخصية المناظرة لشخصية ألفارو دي كامبوس في كتاب دكان التبغ ، وصاحب القصيدة الشهيرة بالعنوان نفسه ، إنها الشخصية الحسية لحارس التبغ ، الشخصية ذات الرغبة المحمومة بالتلذذ بالأشياء عن طريق تذوقها ولمسها ، الشخصية التي تريد أن تعيش بخدر على حساب الشخصيتين

مكتبة الفكر الجديد

الماضيتين ، تريد التحليق في عالم الدخان والمتع والجنس ، وفي كل زاوية من روحه هنالك مذبح لإله مختلف ، ولكن هل تختفي الشخصيتان الظليتان الماضيتان . .أبداً!

وتكمن قوة هذه الشخصية في أنها ، وإن كانت مناقضة ومعارضة للشخصيتين الماضيتين ، إلا أنها ترتكز بل تلتبس مع الشخصيتين المتواريتين ، وهذه هي قوة شخصية كمال مدحت ، فبالرغم من حالة العزلة التي كان يعيش فيها ، والإحساس بالعدم ، إلا أن شخصيته كانت ذات ملامح أكثر تجسيماً من الشخصيتين الماضيتين ، فها هو بيسوا يجعل لهذه الشخصية سيرة حياة واضحة ومحددة : فألفارو دي كامبوس ولد في ١٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٠ في تافيرا البرتغالية ، وهو بعد أن درس الهندسة البحرية في غلاسكو ، سافر إلى الشرق ليجلب معه قدراً كبيراً من المتعة والاسترخاء والكسل ، وبرر رحلته هذه وذلك ببحثه الدءوب عن الأفيون وجلبه ، والأفيون نسبة للشرق هو عزاء شرف الشرق . أما كمال مدحت فقد ولد في الموصل في العام ١٩٣٣ ، وهو تاجر معروف ، سافر إلى إيران وجاء ليحمل معه قدراً كبيراً من حب المتعة ، وليس من المستغرب أن تشك به السلطات في دمشق بأنه جلب معه قدراً من الأفيون من رحلته إلى إيران .

وهذا ما سنراه ، من خلال جواب السؤال التالي : في أي يوم دخل كمال مدحت دمشق ، وكيف؟

على أكثر تقدير دخل مدينة دمشق أوائل شهر نوفمبر من العام ١٩٨١ ، أما كيف كان ذلك؟ في الواقع هنالك روايتان متناقضتان ، الأولى تقول إنه هرب إلى تركيا-لم يؤكد أورهان هذه المعلومة- ودخل دمشق عن طريق ماردين ، والرواية الثانية أنه دخل دمشق بالطائرة عن طريق الجو ، قطع تذكرة للخطوط الجوية السورية من طهران إلى دمشق بمبلغ مالي قدمته

مكتبة الفكر الجديد

له باري ابنة محمد تقي، ووصل أوائل نوفمبر إلى مطار دمشق، وهذا الأمر لم نستطع التحقق منه مطلقاً، ذلك لأنه لم يذكره في رسائله، ولكن من الثابت أنه تم إلقاء القبض عليه حال دخوله إلى دمشق، وقد ذكر هذا الأمر بشكل واضح في إحدى رسائله إلى فريدة :

(أول وصولي إلى دمشق احتجزتني السلطة أربعة أيام، سجنوني في حجرة لا تتجاوز مساحتها الخمسة أمتار، مع أكثر من عشرين شخصاً من المهربين والمجرمين العاديين ومن السياسيين السوريين، وقد كانت رائحتهم نتنة جداً، ورؤوسهم مملوءة بالقمل . .)

أول وصوله السجن مروره في دهليز أظلم، وكان معصوب العينين وموضوعاً بين سجانين عملاقين، كانا يحملاته من إبطيه، وذراعاه على كتفيهما، كان يتقدم بينهما متعثراً، فجأة توقفا وأزاحا العصابة عن عينيه، ثم جعلوه يسير في الممر ناظراً بعينين معشيتين شبه مغمضتين، لم يكن هنالك سوى شباك صغير يطل على فناء خال من البشر، ولا يوجد فيه سوى شجرة واحدة .

في الواقع لم يكن كمال مدحت يعرف سبب توقيفه، ولكنهم عندما أجلسوه في غرفة صغيرة مضاءة بمصباح مغطى بطبقة من الغبار، على كرسي خشبي، وكانت أعقاب السجائر متناثرة في أرجاء الغرفة . سأله الضابط :

« اختصر في الحديث . .أنت معاك أفيون»

«لا والله أنا تاجر صغير على قد حالي وما أتعطى بهذه الأشياء»

«وصلنا خبر بأنك معاك أفيون من إيران . .»

«ما مشتغل بهذه المهنة طول حياتي»

في البداية لم يصدقه المحقق، ولكنه لم يخضع لإجبار أو تعذيب،

مكتبة الفكر الجديد

وبعد يومين أو ثلاثة أيام من الاستجواب ، كانوا قد أطلقوا سراحه . . وهذه هي قصة توقيفه ولكننا وجدنا ، من بين من التقينا بهم في دمشق من يعتقد بأن كمال مدحت دخل إلى سوريا بعبوة من الأفيون جلبها معه من طهران وباعها في إحدى مقاهي البحصة ، وإن المال الذي كان قد تصرف به في دمشق هو من هذه العبوة ، والسؤال الذين كنا نطرحه هو هل كان كمال مدحت يتعاطى الأفيون ، هل كان يدخنه؟ في الواقع لم يؤكد أحد هذا الأمر سوى أحد المنفيين السياسيين والذي كنا التقينا به في دمشق ، واسمه سعدون محمد ، وهو الذي قدمه هناك إلى جاكلين مغيرب ، ذكر لي أنه سبق أن ذهب معه إلى مقهى سري في دمشق وتعاطى الحشيش هناك بأراجيل معدة لهذا الغرض ، أما فيما إذا كان قد دخل إلى دمشق مع عبوة من الأفيون أم لا ، فلم تكن لدينا حقيقة أية معلومات تثبت أو تنفي هذا الموضوع ، ولكن من اللافت أنه كان يعد خدر الموسيقى هو خدر أفيوني ، وهو أيضا ألف قطعة موسيقية بعنوان أفيون ، وكانت أجواؤها مستمدة من الحياة في إيران ، وهذا الذي جعلني أتساءل أين ومتى أول مرة تعاطى الأفيون ، مع أني كنت متأكداً بأنه كان قد حصل عليه من إيران ، فالأفيون في إيران منتشر تقريباً ، فلا بد أن تكون مرته الأولى أثناء وجوده في طهران لا في مكان آخر ، ولكن متى كان ذلك؟ في الخمسينات عند ذهابه أول مرة وعيشه مع إسماعيل الطباطبائي في منزله في خبايان بهلوي؟ أم عند انقلاب ١٩٦٣ ولم تكن تلك الفترة التي بقي بها هناك طويلة وتسمح له بتجريب الأفيون ، أم عندما كان يقطن في منزل محمد تقي وابنته باري؟

أما فيما يخص حياته في دمشق ، فكل الوثائق تؤكد أن كمال مدحت وصل في الظهيرة بجواز سفره الجديد ، بشخصيته الجديدة إلى

مكتبة الفكر الجديد

دمشق سالماً ، وكان يحاول أن يصنع مكاناً لشخصيته المستمتعة والمتلذذة الجديدة وسط خارطة سياسية متفجرة ، كان وصوله يتزامن مع أعتى مواجهات للسلطة الحاكمة أوان ذاك مع الإخوان المسلمين ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة الكراهية بين الأعراق ، والطوائف والسلالات والإيديولوجيات ، لقد كانت المنطقة في قمة ارتباكها وتلكؤها ، كانت أشبه بأرجل ملطخة بالوحل ، وبوجه وحشي وقاس ، فأين يضع هذه الشخصية الخدرية التي تتصف بالضجر والكسل واللامبالاة؟

كان في التاكسي حين مر من جسر فيكتوريا ، وكانت ألواح دربزونات الجسر مدهونة باللكر . فقاده شوفير التاكسي في شوارع دمشق ، وبينما كان كمال مدحت ينظر إلى الناس من نافذة السيارة ، شعر بأنه قد دخل إلى مرجل يفور على أخبار تفجير سيارة مفخخة باتجاه مبنى رئاسة مجلس الوزراء الكائن في ساحة السبع بحرات ، وكل شخص يشتبه به في الشارع يلقى القبض عليه . . إذن ، يحق لنا أن نتساءل أين سيضع حميميته وتعلقه باللحظة المعيوشة طالما هو يشبه حارس التبغ في قصيدة دكان التبغ ، أين يضع وعيه لعظمته ، وتعبيره غير المستقر عن نفسه ، والصورة التي يريدها أن تكون جواباً عن أسئلة هويته؟

«اسمك . .» قال للشوفير .

«اسمي عمار . . إزا بدك تنبسط . . عندي صبية زغيرة وحلوة . .» قال له الشوفير الأسمر ، بشعره الخفيف جداً ، وبشاربه الكث ، وبعينيه الحادتين ، وصدره العريض والواسع مثل صدر رياضي . لم يتعجب كمال مدحت أو يندهش من عرض الشوفير عليه بالقوادة ، فهذا الأمر غالباً ما يقوم به بعض الشوفيرية في كل مكان تقريباً في العالم ، لكنه لم يكن يشعر بالارتياح التام لهذا الشوفير ، كان يشعر بنوع من الاضطراب وعدم

مكتبة الفكر الجديد

الارتياح لوجهه الممتلئ بالبثور، ولوجنتيه البارزتين، كان الكلام معه يكدر مزاجه، مع ذلك أراد أن يستخدمه للحصول على سكن رخيص.

«بدي .. سكن رخيص ..» قال له بصوت خافت وهو يمسح وجهه.

«صار .. آخذك لمنزل أم طوني .. هناك حجرة رخيصة». قال له الشوفير.

كان ينظر من نافذة السيارة إلى شوارع دمشق التي يراها للمرة الأولى، هذه هي تجربته الأولى مع هويته الجديدة، هذه تجربته الأولى مع اسمه الجديد وشكله الجديد وتاريخه الشخصي الجديد، كان يدرك بشكل كامل أن بعض هذا التاريخ سيبنيه من هنا، وبعضه الأخر سيكون مكبلاً به من قبل، فهذه المرة الأولى التي يشعر بأنه يمتلك هوية قديمة، وتاريخاً لشخص آخر، تاريخاً يرتبط بكمال مدحت الذي انتحل اسمه، مع ذلك هو لا يعرف عن هذا التاريخ شيئاً، وكان يعرف حجم المخاطرة التي جاء بها هنا إلى سوريا، ذلك أن كمال مدحت كان قادماً إلى طهران من دمشق، وهو لا يعرف عن تاريخه هنا أي شيء، سوى اسم زوجته وبعض من تاريخها الشخصي، وهكذا كتب إلى فريدة فيما بعد:

(لم أكن أعرف وأنا أجلس خلف الشوفير عن شخصيتي الجديدة أي شيء، هل أنا مطلوب هنا لأسباب سياسية، هل هنالك جريمة تنتظرني، أعرف بأني متزوج من عام، من سيدة موصلية كانت متزوجة من إسلامي من حماة .... من التحقيق معي عرفت أن السلطة هنا مشغولة جداً بحربها مع الإسلاميين وليست متفرغة لي .. هذا ما أراحني .. ولكن ما هي شخصيتي الجديدة ما هي أوصافها .. لا أعرف ..)

**

مكتبة الفكر الجديد

يقع نزل أم طوني في منطقة البحصة ، في زقاق شبه معتم ومتعفن من البول ، يطلق عليه القاطنون هناك زقاق حمدان . أما النزل فهو منزل شبه متداع تملكه امرأة مسيحية اسمها أم طوني ، هي التي فتحت لهما الباب ، وكانت بدينة وفي الأربعين من عمرها .

تحركت أمامه بنهديها الكبيرين ومؤخرتها الممتلئة ، واصطحبته إلى حجرة فوقانية على سلم رطب ، كانت هذه الحجرة أشبه بالسقيفة ، تحتوي على سرير بملاءات رثة ، وبطانيتين عتيقتين ومغسولتين ، ودولاب حديدي واطئ ، وبريمس غاز لصنع الشاي ، أما الحمام فكان مشتركاً لجميع القاطنين .

قالت له أم طوني إن الإيجار الشهري هو خمسمية ليرة شهرياً ، وعليه أن يعطيها لها مقدماً . فوافق مباشرة . فتح محفظته وأعطاها الخمسمية ليرة ، أخذتها منه وأخفتها بين كرتي صدرها وخرجت هي والشوفير . فرد كمال مدحت الباب وراءهما ، ورمى جسده على السرير ، كان قد شعر بتعب شديد ، وحين رفع رأسه إلى طلاء الحجرة المقشر على الحائط الرطب ، أعاد في ذهنه شريط الأيام الفائتة ، أعاد في ذهنه وجه باري المتغير ، وانحناءتها وهي تجلس أمامه ، أعاد صورة ساقيها ، وذراعيها ، وصدرها النابض ، كان قد شعر تلك اللحظة وكأنه داخل في نوع مختلط من الأحلام والهذيانات ، شعر بنفسه كجسد فارغ ، شفيف كمياه صافية رائقة ، لكن في حنجرته سائلاً لزجاً ، يخنقه ، كانت أعضاؤه ترتخي كأنها تحت تخدير منوم ، وأخذت تدور في رأسه الكثير من الذكريات ، والتفاصيل ، والرغبات ، وصور نساء ذوات بشرة خمرية وشعور طويلة ، ثم غرق في نوم طويل ، ولم يستيقظ إلا في المساء .

**

مكتبة الفكر الجديد

استيقظ في المساء جائعاً، فخرج من حجرته ليبحث عن شيء يأكله خارج النزل. فواجهته على منتصف السلم ابنة أم طوني وهي فتاة مراهقة، نحيلة كما الخيط وساقاها نحيفتان وطويلتان اسمها عايدة، أما في الباحة فقد شاهد ابنتها الأخرى وهي مراهقة أيضاً، ذات مؤخرة صبي ونهدين متكورين اسمها داليا. كانت أم طوني تقطن في الطابق السفلي مع ابنتيها وابنها طوني المصاب بالشيزوفرينا، أما الحجرات الأربع الأخرى فهي مؤجرة إلى عراقيين اثنين، وجزائري وسوري. هكذا قال له العراقي الذي يقطن في الحجرة التي تقع جوار حجرته تماماً، وقد التقى به أثناء خروجه إلى باحة المنزل.

كان سعدون وهذا اسمه وسيماً وأنيقاً، يتحدث بصوت عال، وبلهجة خليط بين لهجة عراقية وسورية، وقف في الباحة متملقاً لابنتي أم طوني الغارقتين بالضحك أمام أمهما، وكان حديثه من نوع النكات التافهة، وعلى السجادة هران يخرخران قريباً من المدفأة، التفت لكمال وقال له: «أروح معك أنا أعرف مطعم قريب هنا..» فخرجا معاً.

كان كمال يتأمل الشارع كما لو كان مخدراً، بينما كان سعدون مرحاً ذلك اليوم وبمزاج مرتاح، فسعدون مهندس معماري، مثقف وأنيق جداً، يعيش مثل أرستقراطي بشموخ طيب، وهو من الشيوعيين الهاربين منذ عامين من بغداد بعد أن سحق صدام حسين الشيوعيين أواخر السبعينيات، وكان يكسب قوته من المقالات المتقنة التي ينشرها في الصحف وهي لا تقدم له سوى أجر زهيد، ويتناول طعامه في مطعم حقير للطلبة قرب ساحة يطلق عليها السبع بحرات.

دخلا المطعم، كان كمال يرى خليط الألوان يخفق في تماوج شرائح البصل مع أخضر الجرجير والبقدونس، كان يرى خليط اللون الصدئ

مكتبة الفكر الجديد

للصحون الطافحة بالكبدة ، والرؤوس الأرجوانية وبطون الجمبري البيضاء ، في هذا المطعم الرخيص تقدم البيرة الباردة أيضاً ، شرب قنينتي بيرة ، وأكل طبقاً من الكبدة ، وشعر بنوع من الراحة والامتلاء .

سأله سعدون عن عمله . . قال له عازف كمان . .

«أعرف ملهى ليلياً هنا يريد عازفين يمكنك أن تشتغل . .» هكذا قال له سعدون .

لم يكن يعرف بماذا يجيب ، يعمل في ملهى ليلي . .؟ هو الذي لم يقبل عرض الموسيقار الإيراني شاهين فرحات للعمل كعازف في أضخم أوركسترا في الشرق الأوسط في طهران .

شعر بشيء من الألم كما لو كان قادماً من حكة خفيفة لجرح ملتئم ، لون أصفر شاحب يتبدى على وجه مستطيل وشاحب . هل هو وجهه . ثم تلاشت الألوان مرة أخرى ، نهض ليذهب إلى التواليت ، اجتاز المطعم المزدحم ، ارتقى الدرج الحجري ، اجتاز قرص المطعم الغارق في الضوء الساطع ، كانت باب التواليت قابعة في آخر الرواق . انزلق بطيئاً إلى العتمة ، لحظة اتسع الصمت ، بلا حركة ولا تنفس شعر بقلبه يخفق بأقصى سرعة . ثم تقيأ في المغسلة ، غسل وجهه وعاد .

**

في اليوم التالي اصطحبه سعدون إلى مقهى الروضة في شارع العابد ، وهو مقهى واسع بباحة واسعة مزروعة ، وطاولات كثيرة ، يقدم الشاي فيها بالنعناع والأراجيل بالتبغ المعسل ، كانت نقطة التقاء المهاجرين العراقيين هناك ، ولا سيما الصحفيين والكتاب الذين هربوا من العراق في السبعينيات ، كان العدد كبيراً ، والضجة عالية ، والوجوه متعددة ، والأسئلة مرهقة ، كل واحد كان يراه يسأله حزمة من الأسئلة ، بعضها

مكتبة الفكر الجديد

سياسي وبعضها شخصي، وقد قال له سعدون عليه أن يتعود على الأسئلة هنا، ذلك أن الثقة بين العراقيين مفقودة، والجميع يعتقد هنا أن الآخرين هم من رجال المخابرات، أرسلتهم المخابرات العراقية لاختراق المعارضة الموجودة هنا. وهكذا كانت الأحقاد عالية، والوجوه متوترة، والأسئلة متعددة، والشكوك يمكنه أن يشعر بها لا من الشفاه فقط إنما من العيون أيضاً. فلم يستطع البقاء في هذا المكان طويلاً، كان يشعر بنوع من الاختناق في المكان، كان يشعر بالاضطراب والتلكؤ، وكان الفضول هو أكثر ما يقلقه.

أخذه سعدون في اليوم ذاته إلى ملهى الطاحونة القريب من القنصلية الروسية، جلسا تحت ضوء المصباح الأزرق. كانت الموسيقى تافهة بكل معنى الكلمة، والراقصات شبه عاريات يرقصن بصورة خليعة، في التقابل من الملهى كانت هنالك حديقة، تنام فيها القطط تحت المصاطبِ، وكان بعض الجالسين مخدرين في دوار الحشيش، وساهمين في حلم اليقظة الرخيص، وآخرون كانوا ساندين ظهورهم الى الجدار، وعيونهم شاخصة نحو الأفق. وبعد أن شربا أكثر من علبة بيرة، فكر ملياً بالكيفية التي سيبقى بها هنا، قال له سعدون ما رأيك تعمل هنا، عازف كمان..

«أريد أروح إلى بغداد..»

«ترجع للبلد..» سأله.

«نعم أريد أرجع للبلد.. ما لي حياة هنا..»

«ما هي قصتك.. بصراحة..»

«ما عندي قصة .. كنت في إيران.. وما أريد السلطات العراقية تعرف بأني كنت في إيران..»

**

مكتبة الفكر الجديد

لقد عرف كمال مدحت ذلك اليوم من سعدون بضعة أشياء مهمة ، أولها عرف أن أم طوني القادمة من وادي النصارى في حمص تعمل في تزوير الجوازات ، أو على الأقل في تداولها ، أما الزوج أبو طوني ، فعلى الأرجح أنه هو كان المزور الرئيس ، أو على الأقل مقاول تصريف الهويات والجوازات ، وشاءت الصدف أن تبيع أم طوني بعض الجوازات لأفراد تبين فيما بعد أنهم من جماعة الإخوان المسلمين المطاردين من قبل السلطة ، وقد استطاعوا الهرب إلى خارج البلاد ، غير أن أحدهم كان قد ألقي القبض عليه ، اسمه خالد الشامي ، وكان الأخير هو الذي يؤمن علاقات من نوع ما بين عسكريين يفكرون بالانقلاب وبين قادة الإسلاميين ، فألقي القبض عليها ، وحكمت بالسجن سبع سنوات في سجن تدمر ، أما زوجها فقد استطاع الإفلات والهرب نهائياً . وبعد عام من السجن أطلقتها السلطات على أن تتعامل معهم كمخبرة .

«هل يمكنها أن تساعدني . .» قال له كمال .

«إياك . . فهي مخبرة . . ولكن بالإمكان استخدامها فيما بعد»

بعد ذلك جاءت فتاة في العشرين اسمها نوسا ، كانت ترتدي ملابس خليعة ، ظهرها عار تماماً ، وصدرها يخرج من الثوب الخفيف الذي ترتديه ، حيث يشف ليظهر كالسونها الأحمر تحته ، كانت عيناها كبيرتين جداً ، سوداوين بكحلة سوداء قوية ، وقد وضعت ماكياجاً حاداً ، كانت تنفث الدخان في وجهيهما بقوة ، فيخرج الدخان ممتزجا برائحة الويسكي الرخيص . جلست على طاولتهما وطلبت كأس ويسكي على حسابهما ، كانت تضحك بصوت عال ، صوت سكرانة أو مخدرة ، وبعد أن نهضت لتكمل وصلتها قال له سعدون إنها زوجة الشوفير عماد الذي أوصله إلى نزل أم طوني .

مكتبة الفكر الجديد

في الواقع ، وبالرغم من أنه كان بحاجة إلى المال لإدامة وجوده في دمشق ، إلا أنه لم تكن لديه رغبة أن يعمل في هذا المكان ، كان يشعر بالتقزز ، والقرف بصورة مريعة ، وكان مجرد التفكير بهذا الشيء يجعله على حافة البكاء أو القيء ، وحين عاد إلى النزل اضطجع على السرير وأخذ يفكر بالأمر ملياً : كيف يمكنه أن يديم حياته هنا إن لم يكن مرتبطاً بعمل؟ وقد شعر بأنه يمكنه أن يستغل جزءاً من موهبته في العزف ، ولكن ليس في هذا النوع من الملاهي ، وقرر أن يبحث عن مكان يمكنه أن يعمل فيه كعازف ، وخرج في اليوم التالي من النزل صباحاً ليبحث له عن مكان دون أن يعرف أن دمشق كانت تنطوي تلك الأيام على حرب خفية :

سار في شارع بغداد ، وهو الشارع الواصل بين ساحة السبع بحرات وساحة السادات ، ثم دخل شارع مرشد خاطر في حي الأزبكية وهو الشارع الواصل بين منطقة القصاع ومنطقة السبع ، وقد كانت الساعة ذلك الوقت بحدود الحادية عشرة والنصف ، فجأة سمع صوت إطلاق رصاص في شارع مرشد خاطر ، وبعدها بدقيقة واحدة حدث انفجار هائل ، وقد شاهد كل ما هو قريب منه يطير في الهواء ، وقد سدت سمعه أصوات وصرخات النساء وحرائق السيارات ، وكان ثمة منظر فوضى حقيقي يعم المكان . وهنالك باص نقل ركاب على خط دوما دمشق يقف بمحاذاة السيارة التي انفجرت ، فسقط جزء من ظهر إنسان محترق في الشارع ، وشاهد قطعاً بشرية محروقة ومهروسة على الرصيف ، وكان كل الواقفين هناك أصيبوا بجروح بالغة ، لقد شاهد الوجوه وقد تشوهت من تطاير الزجاج ، وقد سقطت شبابيك البيوت المطلة على الشارع على ساكنيها .

ركض منفذ العملية باتجاه إشارة المرور الموجودة على بعد خمسين متراً ، ولاحقه الشرطي بملابسه الكاكية ومسدسه الثقيل ، ما إن دخل في

مكتبة الفكر الجديد

شارع فرعي يربط شارع مرشد خاطر مع شارع بغداد أطلق الشرطي عليه النار ، فسقط منفذ العملية مضرجاً بدمه . فسار كمال مدحت قريباً منه وهو ينظر وجهه وهو يتلوى ثم أنزل رأسه على الرصيف ميتاً . لقد مر كمال مدحت من عند جثته ، وقدماه ترتجفان .

**

هل لديه خيارات ، مطلقاً ، كانت دمشق متوترة ، ولا مكان هنا لموهبته ، فقرر البحث أو على الأقل الاقتراب من نادية العمري ، أراد أن يجمع عنها قدر ما يمكنه من معلومات ، فكان يعرف أنها تقطن في باب توما ، كما كان مثبتاً في البطاقة التي قدمها له الشخص الذي أمن له الجواز في طهران .

وفي يوم استيقظ في حجرته بشارع حمدان في البحصة وخرج من النزل مسرعاً دون أن يراه أحد ، فسار في شوارع متقاطعة عديدة متجهاً إلى باب توما ، وحينما وصل شاهد مكاناً مدهشاً أحبه مباشرة ، فقد كان الحي القديم مسرح حوادث عديدة ، يكفي أن ينظر إلى التمثال الأبيض وسط الساحة قبالة مخفر الشرطة ، ليجده أشبه بحامية للمدينة ، فهو عبارة عن منارة منتصبة نحو السماء ، وحين سار في الشارع أدهشته جدران الكنيسة القديمة ، ومزاريبها الحديدية التي تصل حتى حافة الرصيف ، وكانت أبراجها الحجرية الدائرية ترتفع إلى أعلى . أما الحي فقد كان عبارة عن شوارع ملتوية ، منسية ، مستسلمة لمصيرها ، ومنازل قديمة بشجر كث ، وعلى الجانبين هنالك منازل قديمة ، وبارات يمتد عمرها إلى مئة عام ، وساحات غارقة في الضباب ، وصالونات عالية وسطها ثريات مطفأة .

كانت قبة الكنيسة أكثر ما جذب نظره . فمشى قليلاً ، وهو يتأمل المنازل في الشارع ، ثم سار خطوات حتى صار أمام دكان ، وما إن دخل

مكتبة الفكر الجديد

حتى سأل البائع عن منزل نادية العمري ، كانت شوارب البائع معقوفة وكرشه ناطة للأمام ، فأشار له بيده إلى منزل من طابق واحد ، ولكنه عال جداً ، كانت بوابته الحديدية سوداء مفتوحة ، وهنالك نافذتان كبيرتان مطلتان على الشارع ، وحين مر من الباب رأى نافورة ماء وجنينة صغيرة مزروعة بعناية ، فيها شجر نبق ملتف الفروع وارف ، سميك الجذع ، وكانت هنالك امرأة جميلة تجلس على كرسي ، وجهها مدور وجميل ، وعيناها واسعتان .

اضطرب واستدار من عند الدار عائداً إلى السوق ، فهنالك دكان جزارة مبلّط بالكاشاني على مقربة من المنزل ، والجدران كانت ملمعة بالشامبو ، والذبائح معلقة بالخطاطيف مفتوحة البطون .

صعد أول باص في الساحة وعاد إلى نزله ، وما إن دخل النزل حتى شاهد أم طوني بجسدها البدين تبسم له ، سلم عليها ، قالت له هنالك من ينتظرك في الحجرة ، وحين فتح الباب وجد نوسا منطرحة على السرير ، كانت رؤيته لها مختلفة عن المرة الأولى التي رآها فيها وهي سكرانة في الملهى ، رآها هذه المرة فتاة ذات وجه مستدير ينم عن شهوة صريحة ، لها وركان ممتلئان ، وشعر أسود ، كانت تسير حافية في حجرته ، قدماها الصغيرتان جميلتان جداً ، ذهبت إلى الطاولة وصبت الماء في كوب ثم أخرجت حبة أسبرين من حقيبتها وضعتها في فمها وشربت .

كان الحديث بينهما مقتضباً .

سألها عن سبب مجيئها ، فلم تجبه ، فكر في البداية أنها جزء من مؤامرة ضده ، ولكنه سرعان ما أزاح هذه الفكرة عن رأسه ، شعر بشيء قريب من اللغز وهو انجذاب امرأة ما إلى رجل ، عرف أنها انجذبت له ، ليس بالضرورة لشيء ، كما أنه شعر بأنه هو أيضا كان منجذباً لها ، بعد

مكتبة الفكر الجديد

دقائق خلع قميصه وبنطلونه واقترب منها ليضمها إلى صدره ، وسرعان ما ذابت بين يديه .

**

في الواقع ، بقيت نوسا على فراشه حتى المساء ، وأثناء هذا الوقت تحدثت له عن نفسها ، قالت له إنها متزوجة من عماد قبل ثلاثة أعوام ، ولديها طفل نادراً ما تراه ، فقد أمضت خمسة أعوام في السجن ، لترويجها عملة مزيفة ولممارسة الدعارة . كانت تجربتها الجنسية الأولى في عمر الخامسة عشر مع شخص أحبته ، وبعد أن نام معها هرب منها . بعد ذلك أصبحت تتردد على دكان شخص كبير السن ، وكان يقدم لها كل شيء مجاناً مقابل أن يضاجعها في حجرة صغيرة خلف الدكان ، كان قد أعدها على شكل مخزن وضع فيه سريراً ، وكانت عائلتها الكبيرة والفقيرة هي التي أجبرتها على الزواج من عماد ، حين خطبها لم يكن شوفيرا ، إنما كان يعمل كل شيء ، تهريب . . سرقة . . ترويج عملة مزيفة . . وأشياء أخرى ، وبعد زواجه منها بشهرين جاءها مساء ، وأخبرها أنه لم يعد قادراً على دفع أجرة البيت وتحمل مصاريف الطفل ، وقال لها وجدت لك عملاً مناسباً ، أخبرها أن ضيوفاً مهمين سيقومون بزيارتهم خلال الأيام المقبلة ، وعليها أن تشوف طلباتهم . وهكذا بدأت في الصباح تعمل مروجة عملة مزيفة وفي المساء عاهرة ، وبعد أن ألقي القبض عليها حكم عليها بالسجن خمسة أعوام ، وفي السجن تعرفت على أم طوني ، وحين خرجت من هناك دبرت لها عملاً معها .

**

لقد عاش كمال مدحت تلك الأيام في دمشق على أصوات الانفجارات والناس تهرع في كل مكان ، كانت عناصر الأمن والدوريات

مكتبة الفكر الجديد

الراجلة تملأ الشوارع ، ولا سيما بعد تفجير مبنى الخبراء الروس بسيارة مفخخة ، لقد كانت الانفجارات تتوالى تلك الأيام ، فغالباً ما تصطدم الدوريات مع المتطرفين ، ووسط هذه الفوضى كان كمال مدحت قد اتصل بنادية العمري ، ولكن كيف وصل لها ، كيف أقنعها بنفسه ، كيف ذكر لها حاله ، كيف أفهمها بحقيقة وجوده ، كيف استطاع إقناعها بأنه بديل عن زوجها المقتول ، ماذا لو فكرت أنه هو الذي قتله وأصبح مكانه . لم يذكر ذلك لا في رسائله ولا في مفكرته التي بعث بها إلى فريدة بعد رحيله إلى بغداد .

ولكن كل الدلائل تشير أن جاكلين مغيرب هي التي عرفتهما على بعضهما ، ولكن من عرف كمال مدحت على جاكلين مغيرب ، اتضح فيما بعد أن سعدون السياسي العراقي هو الذي عرفه ذلك الوقت على جاكلين مغيرب ، وكانت الأخيرة هي التي دبرت لهما موعداً في حفلة كوكتيل عائلية كانت مخصصة أصلاً للشباب ، ولكن لم يكن ممكناً تعارفهما تلك الأيام إلا بهذه الطريقة ، فكانت الحفلة أصلاً مخصصة لشباب من أقرباء جاكلين ومن بين المدعوين كان كمال مدحت ونادية العمري .

**

هل كان بوسعه مقاومة صوتها ، هذا ما لم يكن يتوقعه كمال مدحت قبل لقائه بها .

ويذكر في رسالة إلى فريدة الأثر الذي تركه عليه لقاؤهما الأول في حفلة الكوكتيل هذه ، وما إن كانت نادية تسير نحو البوفيه ، تسمرت في مكانها عند سماعها شخصاً ينادي على كمال مدحت . اقتربت منه ، وسألته : «عراقي؟» .

مكتبة الفكر الجديد

«نعم . .»

لقد سمع صوتها الجميل أول مرة ، وقد كانا واقفين في زاوية الرواق الطويل ، عند بسطة السلم الداخلي ، لقد انسحر بها من اللحظة الأولى ، انسحر بتعبير وجهها الملائكي وبنبرة صوتها أيضاً ، ولم يكن وحده الذي انسحر بها ، ولكنها هي أيضا قد شعرت من الوهلة الأولى أنها مفتونة به ، ما إن فتح فمه للكلام حتى طبع بنبرة صوته تعبير القبول على وجهها ، شعرت به ، وشعر بها ، ذلك لأنهما كلاهما كانا يحملان حزناً عميقاً سببته الظروف المتشابهة التي عاشاها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، كان لكمال مدحت تعابير مميزة ، تعابير الذكاء والنبوغ يمكن حدسها في تقاطيع وجهه وملامحه ، وإن كانت قد استشفت من نظراته في تلك اللحظة وبسرعة فائقة وداً مضطرباً ، وانفعالاً صامتاً ، إلا أنها انجذبت سريعاً لابتسامته الفاتنة ، أما هو فقد شعر أن لهذه المرأة التي لا ينم شكلها عن عمرها سحراً لا يمكن الخلاص منه ، لقد كانت نادية متأنقة جداً ، شعرها معتنى به ، عطرها فائح ، وفيها شيء آخر ، كانت متملقة له مثل خادمة صغيرة ، وإن كانت ثرية فقد كانت ضحية أيضاً .

وعلى خلاف الظاهر في هذا الكوكتيل الغريب لم يكن هو الذي اقترب منها ، إنما هي التي اقتربت منه ، وإن كانت هذه هي فرصة إنقاذه الأخيرة ، إلا أن هذه المرأة بدت ذلك اليوم في غير موقعها تماماً ، مثلما لم يكن هذا المكان محله بين المدعوين ، كان أكثرهم من الشباب ، فبدا هو بلحيته التي وخطها الشيب وشعره الطويل المنسدل على أكتافه وبمعطفه الأسود غريباً ، كما هي أيضاً فقد كانت قصيرة القامة ، وقد جعلتها سنواتها الأربعون تبدو أكثر اكتنازاً وسط مدعوات نحيفات . كانت ترتدي معطفاً طويلاً بلون أسود يسحق قامتها ، وشدت بقطعة تول سوداء شعرها

مكتبة
الفكر
الجديد

الذي بدا رمادياً .

كانا كل يوم يقيمان جولات مسير معا ، كانا يأكلان المقبلات المطهوة بالزيت والمعروضة في واجهات المطاعم ، وكان برنامج مسيرتهما يبتدئ من سوق الحميدية بموازاة نهر بردى الذي جفت مياهه متجهين نحو الجامع الأموي ، كانا يسيران مثل عاشقين بجوار جدار الجامع الطابوقي العالي على الأرض المرصوفة بالحجر . أما الحب فهو ما كانا يشعران به ، وللمرة الأولى أخذت نادية العمري تشعر بسعادة مضاعفة وهي ترى جوقات من الطيور التي تدور وتلقط الحب ، كانت سعيدة لأن هذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها بحياتها أنها عاشقة ، ومع كل خطوة تسير بها في الدروب الضيقة في دمشق كانت تسمع دقات قلبها المتلهفة له ، وفي كل يوم تقريباً كانا يجلسان معاً في مطعم قريب من الجامع ، إلى طاولة خشبية عليها صحون المقبلات ، ثم ينتقلان إلى مقهى مظللة بأغصان الشجر ، يتناولان الشاي بالنعناع .

كانت صورة مألوفة لدى الجميع إبان ذاك : كمال مدحت بمعطفه الأسود الطويل ، بنحافته المحببة ، وبوجهه الأسمر الوسيم ، بشعره الطويل الذي وخطه الشيب ، جالس في مقهى في شارع مشجر قرب الجامع الأموي ، على مقربة منه باحة واسعة ، درجات سلم حجرية ، منزل بطابقين ، وحوض ماء وسط الحديقة ، أما الضوء الساطع فكان يضيء وجه نادية العمري .

لقد أصبحت علاقتهما معروفة للجميع ، ومن المستغرب له أنه لم يعاملها منذ البداية على أنها زوجته ، ومن الواضح أنه أفهمها في بداية تعارفهما أن الأمر لا يعدو أن يكون تشابه أسماء بينه وبين زوجها الذي تعرض لحادث سيارة في إيران ودفن هناك ، وقد أكد الجميع حتى جاكلين

مكتبة الفكر الجديد

مغيرب أن نادية العمري لم تكن تعرف أن زوجها توفي بحادث سيارة إلا من كمال مدحت الموسيقار، ومن الواضح أن الرجل مات وسرقت وثائقه ودفن دون أن تتوفر عنه معلومات للسلطات الإيرانية، وقد كانت الحركات الثورية والمعارضة ذلك الوقت تشتري الوثائق بأي ثمن لتهريب عناصرها، ومن الواضح أيضاً أنه لم يذكر لها هذا السر مباشرة، ولكن كيف كانت تفكر بزوجها الهارب، أو المختفي، لا أحد يعرف، وقد بقي سراً من أسرارها، ولتوضيح بعض الغموض فيجب أن نذكر أن نادية العمري كانت متزوجة في البداية من تاجر سوري من حماه، لم يكن متدينًا ولكنه كان قريباً من أوساط المتدينين، وقد اشترى لها منزلاً في مدينة المنصور الحي الراقي في بغداد، بعد أن أنجبت له ولداً وبنتاً يعيشان الآن في حماه، وكان لزوجها السوري صديق اسمه كمال مدحت، وهو رجل مستقيم ولكنه كان مغرماً بزوجة صديقه، أما الزوج فقد تورط بانقلاب مدبر بين الإسلاميين وضباط الجيش وقد أعدم، فتزوجها كمال مدحت، وبعد أيام ذهب الثاني إلى طهران ليتعرض إلى حادث سيارة، فقتل هو الآخر، فتركت حماه وصارت تعيش في منزل في باب توما، يائسة كلياً ولا سيما بعد غياب زوجها الثاني وانقطاع أخباره، وكانت تريد العودة إلى بلادها وتسعى إلى ذلك، فلم يكن الأمر سهلاً بسبب العلاقات المتوترة بين البلدين، فما كان كمال مدحت يبحث عنه هو مساعدتها له بالدخول إلى البلاد، وما كانت تبحث عنه هي هو رفقته لها.. وهكذا قررا العودة إلى العراق، ليقطنا في المنزل الذي تركه لها زوجها الأول في المنصور..

**

قبل الحديث عن العودة، يجب الحديث عن الصورة الأخيرة لكمال مدحت ونادية العمري في دمشق، لقد استطاع كمال مدحت أن يغير

مكتبة الفكر الجديد

هذه المرأة كلياً ، واستطاع أن يجعلها مطالبة بمتعها أكثر مما كانت عليه في السابق ، ألم يكن هو حارس التبغ ، حارس النشوة والمتعة . . وهكذا رأوهما في ليلة رأس السنة بالمشهد التالي :

سقط رأسه على كتفها من النشوة ، كانت تريد أن تشم صدره بقوة . ضغطها على جسده ، تحرك نحوها فأغمضت عينيها وكادت تترنح من اللذة . لقد جرفتها رعشة قوية في المكان المعتم ، وكان هنالك مجموعة من الرجال والنساء يختبئون في ظلام الليل ، والموسيقى تتصاعد من الزاوية ، ظن أنه سيبلغ ذروته في ملابسه ، فتابعت لعق شحمة أذنه ، كاد يصرخ ، شعر بأنه يسقط ، غير أن شيئاً ما أنقذه ، فكان الجالسون هناك يعتقدون بأنه متعتع من السكر .

حين اشتعلت الأضواء كان الجميع ثملين ، يتأرجحون من السكر ، ضربه الهواء الهاب من الشباك ، ذلك لأن الحرارة بلغت درجة عالية في الداخل بسبب المدفأة وبسبب السكر ، فهدّأت البرودة الهابة من الشباك انتصابه . اضطجع على الأريكة ، تناهى إلى سمعه إيقاع موسيقى مثل ضربات مكتومة ، وحين مدت يدها في بنطلونه بلغ الذروة مباشرة ، تشنج وجهه وهو يرد رأسه إلى الوراء .

**

دخل كمال مدحت بغداد في ساعة متأخرة من الليل ، وكان المطر يهطل على بغداد بغزارة ، كان الليل معتماً جداً ما خلا البرق الذي يضيء المدينة بقوة ثم سرعان ما ينطفئ ، ثم تعود شلالات الماء لتهطل بقوة من السماء . كان منزل نادية العمري في المنصور . واجهته من الخارج مشيدة بالطابوق ، وكل النوافذ من ألواح خشب الصنوبر تصل إلى حد ارتفاع السقف .

مكتبة الفكر الجديد

«ما رأيك؟» قالت له نادية ، بينما اندفعت السيارة صوب المدخل عبر الطريق المبلط .

التفتت إليه وتنهّدت قائلةً : «هذا بيتك . .؟» ومدت يدها إلى فخذه .

وقفت السيارة تحت المطر ، رفعت نادية مظلتها ووقفت أمام باب السيارة ، حين هبط وضعت المظلة فوق رأسه لتحميه ، مشى صوب السياج المطليّ الذي يفصل واجهة المنزل عن الحديقة ، سياجٌ أبيض اللون مشيد من الحجر الأبيض ، تمشى حتى وصل الماء إلى عمق حذائه ، كان قد أزاح المظلة من رأسه ، وترك المطر ينهمر على شعره ووجهه . كانت لحيته قد تبللت تماماً وشعره أيضاً ، نظر إلى نادية ، رفع يديه في الهواء ، دار حول نفسه وهو رافع يديه إلى المطر وأخذ يضحك ضحكاً عالياً . .كان ضحكاً حقيقياً ، لم يكن ضحكاً عابثاً أو ساخراً ، لكنه كان ضحكاً قادماً من القلب .

في الصباح استيقظ بهدوء ، فتح عينيه ببطء ، تحسس وجهه ، التفت يميناً وجد نادية العمري نائمة جنبه ، شمَّ وهو في غمرة النعاس من سريرها رائحة ألِيفة .

نهض من مكانه وهبط من السرير ، أجال عينيه في حجرة النوم ، فوجدها بشعة ، وتتسم بالفوضى والهشاشة ، وعلى ورق الجدران المطبوع بالورود الصغيرة ، علقت نادية صور العائلة ، وهنالك لوحة لخيول بيض ، مجلات مرمية على الطاولة ، وكل شيء كان مكركباً فوق بعضه ، ومرتباً بذوق مبتدئ وزائف .

في اليوم التالي كان كمال مدحت ينظر إلى حديقة المنزل ، فقد كانت هنالك شجرة رمان تحت طبقة رقيقة من الماء ، رآها لامعةً ، متلألئةً . نظر الحديقة من خلف النافذة المغلقة لغرفته ، فقد كان الشتاء متوهجاً

مكتبة الفكر الجديد

بضياء الصباح ، والحديقة خضراء مبللة بطبقة رقيقة من المطر ، وكان كل شيء يلمع ، ويتألق ، كان كل شيء يتوهج في الحديقة . لقد شعر أنه في المكان الذي حام حوله طويلاً ، فأخذ يرتعش جذلاً ، قلبه ينبض من خلف النافذة ، شعر أنه مثلما كان طفلاً أمام شجرة وهي تظلل كومة من زهور الروز ، والديك يؤرجح ذيله الأحمر الطويل في الهواء . كان شعوره بالعودة جذلاً .

ما مصدر جذله؟

كتب لفريدة بعد أعوام المقطع التالي :

(لم تتسم حياتي يوماً بالروح الوطنية الساذجة ، بل كنت أكره هذه المشاعر جداً ، فهي مصدر العنصرية والكراهية ، لكنني كنت أشعر بأني مثل طائر المطر ، أشعر بأني عدت ، لا بد أن أعود في يوم ممطر ، مليء بالرعد والبرق والبرد والمطر ، وحين أفكر بهذا الأمر ، أشعر بأن قلبي يرتعد ويخفق مثل سنجاب ضخم)

**

في المساء خرج من منزله . أخذ الباص وذهب إلى شارع السعدون ، وحين مر من أمام بوابة سينما سميراميس ، توقف قليلاً ليقرأ إعلانات الحرب التي كانت موجودة جنب صور ممثلات شبه عاريات في صيف مشمس على ساحل من سواحل أوربا . وقد تعرف تلك الأيام على بار في الزاوية ، أخذ يتردد عليه كل أسبوع تقريباً ، يجلس الوقت كله وحيداً صامتاً ، وهو يرقب حزمة الضوء الملون التي تنطلق من دكاكين الموسيقى ، وفي هذا الطقس الممطر كان يرقب النساء على شباك تذاكر السينما ، ويشم من بعيد رائحة شواء الهمبرغر من محل قريب ، ورائحة الأحجار الرطبة في شوارع بغداد في هذه الساعة من مطر المساء . كان سعيداً وهو

مكتبة الفكر الجديد

يسير بمعطفه الثقيل ، بالقفازات السود ، وباللفاف الرصاصي الذي يلف به عنقه ، ثم توقف أمام أحد محلات الموسيقى واشترى كماناً من نوع متوسط . لقد اكتشف تلك اللحظة أنه يحب هذا الجزء من شارع السعدون في الشتاء ، فتوقف على مسافة من باصات ساحة النصر ، أخرج علبة سجائره من جيبه ، تناول سيجارة ، أشعلها تحت الهواء البارد الرطب ، وأطلق الدخان في الهواء ، ثم نظر باستقامة إلى الشارع . . وسار حتى وصل نفق الباب الشرقي ، هنالك اكتشف مدينة ثانية ، حيث أرعبته إعلانات تعبئة الحرب ، كان يحدس في داخله أن طول الحرب يجعل من بغداد ماكنة موت ووحشية ، صحيح كانت بغداد على خلاف دمشق وعلى خلاف طهران ، كانت تعيش المدينة أبهى أيام مدينة كوزموبوليتانية ، فالأجانب كانوا يوجدون في كل مكان تقريباً ، النساء يسرن في الشوارع بأحدث الملابس حتى آخرة الليل ، وهنالك البارات في كل زاوية تقريبا من شارع السعدون ، وحتى مطاعم الشاورما كانت تقدم البيرة الدرافت مع الساندويشات ، أما السينمات فقد كانت تعرض آخر الأفلام ، وعلى الجدران كان يقرأ إعلانات كونسيرتات الموسيقى مثل أية مدينة حديثة ، وكانت المسرحيات والأوبرات من كل العالم تأتي لتعرض على أفخم صالات العرض في الشرق الأوسط ، لكن كمال مدحت كان يحدس خلف هذه الصورة الراقية لمدينة حديثة الأمثلة الصارخة على الذبول والموت ، كان يحدس روح المدينة القديمة وهي تئن ، وكان يشعر بخيالها المتوهج يكبح بقوة ، وتمحوه البلاغة السياسية الطاغية .

حين عاد إلى المنزل وجد نادية جالسة تطرز ثوباً لوليدها القادم ، وضع الاستاند في الصالة ، أمام النافذة الكبيرة المطلة على الحديقة وأخذ يعزف ، أراد ذلك اليوم أن يستعيد مهاراته التي ضعفت عن طريق تمرينات

مكتبة الفكر الجديد

متعددة ، أراد أن يستعيد تقنياته التي برع بها عن طريق مجموعة من الألاعيب على الكمان ، وسرعان ما وجد نفسه متجاوباً بالإحساس ذاته مع الآلة ، لقد أخذ يتمايل كما كان ، فشعر بقلبه يخفق من الغبطة ، لقد أخذ يتوهج شيئا فشيئا كما لو أخذ كمية من الأفيون .

كونشرتو الأفيون هو الكونشيرتو الذي كتبه بعد عودته من طهران بداية الستينات ، وهو أجمل ما كتبه ، غير أنه قد تمت مصادرته مع كتبته ووثائقه في بغداد بعد تهجيره إلى طهران . ماذا لو يستعيده هذه الأيام؟ كان يحاول أن يصل إلى اللحن الأساسي وينوع عليه من جديد ، هذا ما كتبه لفريدة في واحدة من رسائله ، ولكن من الواضح أنه عاد إلى عادته القديمة وهي مراقبة الأشجار والأزهار ، ليشعر بموسيقى الكون .

أخذ كمال مدحت يعزف وهو يتأمل الحديقة ، كانت الأشجار الباسقة بجذوعها الضخمة وأغصانها الوارفة تفرض نفسها عليه ، هذا الاخضرار الغض يؤكد جوهر الحياة بقوة . . بينما منطق الحرب يفرض نفسه على الإرادات التي أوجدتها ، حيث تعود كل مرة إلى منطقها المطلق باعتبارها حرب إرادات ، وصانعة إرادات منفلتة ، إنها لا تتجسد إلا بالمزيد من الدمار والموت . . وفي الليلة ذاتها لم يستطع النوم ، كان الكمان قد وهج روحه فشعر بالامتلاء ، شعر أنه بحاجة إلى أن يسير طويلاً تحت المطر ، فخرج مرتدياً معطفه المطري وأخذ يسير في شوارع بغداد المبللة ، جلس في البداية على مصطبة في حديقة الزوراء ، وبقي تحت وابل المطر مديراً ظهره للسيارات والعمارات الليل كله ، حتى شعر بالماء وهو يدخل إلى أحذيته ، شعر بالزبد الأبيض يصل قدميه ، وبقي هكذا حتى أشرقت الشمس ، ثم سار قليلاً في الحديقة حتى وصل إلى شارع المنصور ، توقف عند بائع الشاي ، بشاربه الأبيض الكبير المصفر قليلاً عند أطرافه من الدخان ، أخذ

مكتبة الفكر الجديد

استكان الشاي المهيل وبدأ يشرب رشفة بعد أخرى .

**

لقد عاد شيئاً فشيئاً إلى التمرين والعزف ، عاد بعد توقف عن الموسيقى كلياً دام ثلاثة أعوام تقريباً .

كان يشعر بقبضته وهي تتجمد ، يده تتصلب ، وبالتمرين أخذت تلين ، تنحف ، تطرى ، أخذت أصابعه المتخشبة شيئاً فشيئاً تستعيد مرونتها . ماذا يعمل الآن ، لقد عاد إلى بغداد ، ماذا يعمل وأين؟ طبعاً في هذه الفترة ولدت زوجته نادية ابنه عمر ، وهو مثل أكثر الفنانين لا يعبأ كثيرا بالأطفال ، ولكن سؤال الفن والعمل ظل يؤرقه مدة من الزمن ، حتى تعرف على عازفة بيانو روسية اسمها ماريا إيفانوفا ، كانت تعزف في الصالة الكبيرة في فندق شيراتون ، فأخذ يرافقها في عزف بعض المقطوعات الموسيقية في الصالة التي كانت أشبه بمقهى يجلس فيها الزبائن وهم يتكلمون ويشربون ويضحكون ، بينما يقف كمال بطوله الفارع ، وبذلته السوداء وشعره الطويل يعزف برفقة ماريا إيفانوفا الشابة وهي في العشرين من عمرها ، ترتدي فستاناً طويلاً بفتحة تصل إلى الورك .

كان كمال مدحت يقف أمامها ، بينما تنحني ماريا إيفانوفا على البيانو وتطلق نغماتها ، فيتمايل كمال أمامها بطوله الفارع ، بوجهه الأسمر ، بلحيته الخفيفة التي وخطها الشيب ويلون بقوسه على أوتار الفيولون ، كان سعيدا بالموسيقى أكثر من وجوده في صالة تغص بالجالسين الذين يتحدثون فيما بينهم .

في يوم كان هنالك رجل وسيدة جالسان في الزواية ، يستمعان مندهشين لهذا العازف البارع الذي يتمايل مع الكمان مثل راقص ، هذا

مكتبة
الفكر
الجديد

الطويل بلحيته وشعره الذي وخطه الشيب لم يكن عزفاً عادياً، لم يكن يعزف وهو ساكن، كان ينتل شعره بقوة، يضع القوس ويميل نصف دورة، ينحني قليلاً ويطلق الصوت نحيفاً بارعاً جميلاً، كان صخب المكان عالياً، والجالسون على الطاولات يشربون ويقهقهون، وكانت الروسية تحاول أن تلحق بهذا العازف الماهر الذي يتمايل بآلة الكمان ويطلق أنغاماً بمنتهى البراعة وقوة التكنيك .

نهض الشاب من مكانه هو والمرأة التي كانت إلى جانبه، وتقدم نحوه، قال له مندهشاً :

«من أنت؟ .»

ارتعد كمال مدحت، تجمد في مكانه، وشعر بقلبه يخفق مثل سنجاب بين أضلاعه . شعر كما لو أن شخصاً ما اكتشفه، شخصاً ما عرفه ويريد أن يقبض عليه، عرف أنه ارتكب خطأً بالتعبير عن نفسه بالموسيقى، فبراعته هي التي تكشفه، الكشف عن موهبته سيجعل الآخرين يفكرون به من هو؟ لكن الموسيقى هي التي أغوته ليظهر كل براعته أمام ماريا إيفانوفا . . .

قال له بصوت شاحب : « كمال مدحت . .»

مد يده ليصافحه، قال له : «أنا أمجد مصطفى عازف كمان . . وهذه زوجتي وداد عازفة تشيلو في الفرقة السمفونية»

«أهلا وسهلا . .» . قال لهما وأنفاسه متلهفة متلاحقة .

«بحياتي لم أصادف هذه الإمكانية والقدرة على التكنيك . . وين تعلمت موسيقى . .»

«في روسيا . .» قال متلكئاً . .

«أنا تعلمت في بودابست . . في كونسرفتوار فرانز ليست» قالها

مكتبة الفكر الجديد

مشدداً على الكلمة الأخيرة ، ثم أردف : «هل يمكن أن أعطيك رقم تلفوني أريد أن أراك . .»

وضع كمال مدحت القصاصة القصيرة في جيب جاكتته السوداء ، عدل بابيونه الأحمر ، وعاد إلى ماريا إيفانوفا التي كانت منسحرة وسعيدة بتمايلاته ورقصاته على آلة الكمان . لم يكن يعزف مطلقاً إنما كان يرقص أو يمارس الجنس مع الآلة ، كان يمسك الآلة برفق مثل امرأة ، ثم يتمايل معها كما لو كان يقبلها ، يصعد معها وهي تستجيب له ، يدخل فيها ، ويتسامى معها أعلى فأعلى إلى الذروة .

في الاستراحة صعد كمال مدحت مع ماريا إيفانوفا إلى حجرتها للاستراحة ساعة ثم عادا إلى العزف في الصالة التحتانية . وقف في حجرتها أمام الطاولة الواطئة ، فتح زجاجة فودكا وصب لنفسه كأساً ، ثم صب لها في الكأس المضلع الشفاف ، والتفت إليها ، ليسألها :

هل تريدين كأساً ، كانت ماريا إيفانوفا واقفة إزاءه ، واقفة أمامه بشعرها الأسود الذي هدته على كتفيها ، بطولها الفارع ، بتقاطيع وجهها الناعمة ، خلعت فستانها وجعلته يهبط إلى قدميها ، وقفت أمامه عارية ، صدرها العالي المضغوط ، بطنها الأبيض المدور المصقول ، وعانتها الخفيفة ، وساقاها الممدودتان الناعمتان ، قالت له بالروسية وبكلمات اختارتها لتثيره : «أريدك أن تعزفني . .»

«ماذا؟»

«لم أشعر بحسد لامرأة بحياتي مثلما شعرت اليوم بحسد من الكمان . . لقد كنت تضاجعها . . أريدك أن تضاجعني مثلما ضاجعتها . .»

كانت حجرة ماريا إيفانوفا أشبه بوكر ، فيها سجاجيد على الأرض ،

مكتبة الفكر الجديد

وكان سريرها مغطى بفراء الحيوانات ، والهواء الساخن جعله حميماً ، وشهوانياً ، فرمت ماريا إيفانوفا فستانها واستلقت عارية على الفراء ، كانت تنبعث منها أصوات حيوانية متلاحقة ، تحسسها كمال مدحت وهو يمص حلمة صدرها الوردية بلهفة ، وأخذت يده الثانية تجوس في خارطة جسدها كله .

كتب لفريدة :

(أشعر بروحي البهيمية عنيفة ، أصبحت أشبه بحيوان ، جائع لكل إحساس ، لكل طريقة من طرق الجنس ، قبلتها بلهفة ، عضضت شفتيها ، تحسست ساقيها . . وفعلت كل شيء)

**

لقد أحس كمال مدحت تلك الأيام أن لفصل الشتاء في بغداد لوناً رمادياً حزيناً ، وهنالك مطر غزير يتساقط على بنايات المدينة ، كان يشعر بالحزن والرهبة والخشوع وهو يتمرن كل يوم في الصالة على مقطوعة لشوينبرغ ، وكانت قطته البيضاء ذات الوبرة العالية تفتح عينيها الكبيرتين المفعمتين بالحب ، وهي تجلس على الكرسي تنظر إليه حتى تغمض عينيها ، أما الحديقة التي ينظرها من زجاج النافذة فبدت حشائشها خضراء مبتلة ، ومع ذلك لا يدري لماذا أخذ يفكر تلك الأيام بموت طاهرة ، لقد أتته فكرة هيمنت عليه تلك الأيام ، وهي أن طاهرة هي التي أرادت الموت . إن طلب الموت هو شيء حقيقي لا يمكن تجاهله ، إنه من داخل الإنسان لا من خارجه ، بإرادته وباقتناعه وبقبوله يمتص الموت من فضائه الكوني ، يدعوه ، يجتذبه ، وهو يأتي . وكان شعور التصوف الذي أخذ يهيمن عليه تلك الأيام هي هذه الرغبة الغامضة للموت في داخله ، لم يكن يخشى الموت ، إنما أصبح يعده مثل طيران في المجهول ؛ ربما هدمت

مكتبة الفكر الجديد

طاهرة تلك الجدران التي تحيط بها ، ما هذا الكابوس ، الصورة الملحاحة التي تراوده على الدوام في أحلامه منذ حادثة الفرهود ، كانت تعذبه بقوة ، ربما الموت هو الذي يمكنه أن يحرره من الجدار الذي يفصله عن ذاته ، الجدار الذي يقطع الإدراك الضيّق لروحه ، كما لو أن نداء العالم أجمع يمتصه : أصوات ، أذرع طرية ، الكون كله يغدو طرياً ، ألوان لطيفة ، ثم بوادر غبطة ، وقوة طاغية لا توصف تشده إلى الأعلى .

**

من الواضح أن أمجد مصطفى وزوجته وداد هما اللذان أخرجا كمال مدحت من عزلته وأطلقاه في مجتمع بغداد ، وربما كانت وداد على وجه الخصوص وبسبب نفوذ عائلتها وقربها من السلطة السياسية في بغداد هي التي دفعت به لكي يأخذ مكانة لائقة به كفنان عبقري ، وهو من جانبه سرعان ما شعر أن حياته قد تغيرت فجأة ، أصبح كثير العناية بملابسه ، وأخذ يختار البذلات السود والمعاطف الكبردين الإيطالية ، والنظارات الراقية ، وصار يمضي أكثر وقته خارج المنزل ، لقد استمتع بصحبة أصدقاء موسيقيين للمرة الأولى ، وصار يدعى إلى أهم الكونسيرتات في العالم ، ويرافق أشهر الفرق القادمة إلى بغداد ، وفضلاً عن أدائه على الكمان أخذ يكتب بعض الأفكار التي كان يفكر بها أيام وجوده في طهران ودمشق ، لقد كان عزفه معقد الحبك وبالغ الإتقان ، وأفكاره غضّة كثيرة العصارة ، وكانت هذه الكتابات مهمة في تطوره الداخلي ، وهي أولى محاولاته لتحطيم العقبات ، فقد كان بعض أجزاء ما يكتبه مغرق في سموه ، وببساطة كان قد كسر القشرة الصلبة وفجر الحمم البركانية في داخله . غير أنه حين كان يتركها فترة ويعود إليها كان يعاني غثياناً مقيتاً بسببها .

كتب لفريدة :

مكتبة الفكر الجديد

(أنا أستخدم «غثياناً» بالمعنى المحسوس للكلمة ، لا تعتقدي أني أبالغ أو أستخدم ضرباً من السذاجة أو البله بهذا الاستخدام ، ولكن الواقع هو أنني أكتب مقطوعاتي بسرعة مذهلة ، وأقوم باقتحام المناعة أو المقاومة الداخلية التي لا تريد ذلك ، كنت كمن يحرك مؤشر المذياع بسرعة كبيرة ، وعندما تصبح النوتات جاهزة ، أتركها ليوم أو يومين ، وحين أعود إليها يعتريني غثيان فظيع ، ولا أتخلص من هذا الغثيان والصداع إلا بالأسبرين . .)

كان هنالك ضرب من الإحساس الحدسي يوحي إليه بأن ما يقوم به تافه لا نفع فيه ، كان يتذرع بالتأجيل ، ينتظر الفكرة العظيمة حتى تستكمل نمّوها ، ولم يحاول حتى ذلك الوقت القبض على هذا الوليد الجديد في مرحلة تكوّنه الباكرة ، كان يعتقد أن الفكرة ما زالت هلامية ، ولم تتخذ صورتها النهائية بعد ، أما أمجد مصطفى فقد أدخله إلى الفرقة السيمفونية الوطنية التي تأسست في بغداد في الخمسينيات ، وكانت تؤدي كونسيرتاتها على قاعة الرباط في شارع المغرب ، وهي تشهد من عقود كل خميس تقريباً كونسيرتاً موسيقياً ، ولها جمهور هائل ، حيث أصبح كمال مدحت عازف الصولو الأول في الفرقة ، والعازف المشهور والمعروف حتى على نطاق شعبي .

في الواقع بقي كمال مدحت يشعر بالامتنان الكبير إلى أمجد مصطفى الذي عمل كثيرا من أجل أن يوصله إلى هذ المكانة ، بالرغم من أن أمجد مصطفى كان أصغر منه كثيراً ، لقد كان شاباً بالقياس إلى عمر كمال مدحت ، بيد أن علاقاته الواسعة سواء مع الوسط الفني أو مع الوسط الرسمي جعلته يبدو أكبر من سنه بكثير ، وهكذا فقد قدم له مساعدات غير محدودة في عمله ، بالرغم من أن جميع الأوساط هناك

مكتبة الفكر الجديد

كانت تتحدث عن وداد بوصفها المحرك الرئيس وليس أمجد بحد ذاته ، لقد دفعت وداد أمجد مصطفى ليكون هو الواجهة بينما هي التي خدمته خدمة جليلة في المكانة التي أخذها ذلك الوقت .

وقد حصل فارس حسن على معلومات مهمة عن أمجد مصطفى ، وقد اتضح لنا أن ولادته كانت في الأعظمية بالقرب من المقبرة الملكية ، في منزل مطل على النهر ، كان والده مهندساً ميكانيكياً في الجيش ، ولم يكن عمره قد بلغ الخامسة حينما انتقلت عائلته إلى منطقة الحارثية الراقية في بغداد ، من جهة الكرخ ، عاش في بغداد حتى بلغ الثانية عشرة ، ثم رحل مع عائلته إلى بريطانيا ، حيث أصبح والده ملحقاً عسكرياً في السفارة العراقية في لندن ، وتعود ذكرياته إلى لندن إلى صورة الأشجار الغضة الخضراء ، والحدائق الندية الرائعة ، والميادين الواسعة حيث الجياد الصغيرة التي تنط وتتقافز والتي لم يفارقه حبها مطلقاً . لم يعش أمجد مصطفى قسوة الحياة أبداً ، ولكنه عاش قسوة المرحلة التاريخية ، ذلك لأنه ولد وعاش في نقطة الفصل التاريخي الحقيقية في البلاد ، فقد كان والده بعثياً وثيق القناعة ، وبعد ارتقاء بالغ السرعة في سلّم النظام البعثي سرعان ما وقع ضحيّة لسياسة الرّعب السياسي ، ثمّ أُعدم وهو في منتصف الأربعينيات ، على إثرها عاد أمجد مع أمّه من لندن حاملاً وصمة ابن أحد ضحايا القمع ، بعد عامين استطاع السفر إلى بودابست لدراسة الموسيقى في كونسرفتوار فرانز ليست .

وبعد عودته إلى بغداد تعرف على وداد أحمد ، وكانت تدرس آلة التشيلو في أكاديمية الفنون الجميلة ، كان قد ألقى محاضرة في الأكاديمية بعد عودته من بودابست عن باخ فتعرفت عليه . وهي ابنة موظف كبير في القصر الرئاسي توفي في ظروف غامضة ، وقد أمنت وداد لأمجد وضعاً

مكتبة الفكر الجديد

جيداً في بغداد ، فقد كانت من عائلة الموظفين الحكوميين الكبار ، ولديها السلطة والنفوذ والثراء ، وكان أشقاؤها كلهم في الخط الأول من موظفي الدولة الكبار ، سفراء ووزراء ومستشارين ، وبسبب هذه المكانة استطاعت أن تخفف الضغط السياسي على أمجد ، ووصمة العار التي كانت تلاحقه ، كما أن أمجد أخذ يفيد من نفوذ زوجته بشكل كامل ، وقد سافر معها كثيراً ، إلى بروكسل ، ونيويورك ، وباريس ، وفي باريس تجول معها في الأزقة والحدائق الباريسية والمقاهي ، ثم قرر البقاء عاماً في باريس للدراسة في أحد الكونسرفتوارات هناك ، حيث تعرف على عازف كمان شهير ، اسمه أريك لوك وربطتهما علاقة وطيدة .

**

في الشتاء كانت الجلسات المسائية على الدوام في منزل وداد وأمجد مصطفى ، في صالة منزلهما الكبيرة المطلية بدهان وردي خفيف ، حيث الثريات العالية التي تتدلى من السقف ، والبيانو الموضوع في الزاوية ، ورفوف المشروبات الموضوعة في زاوية الصالة مثل بار ، يتجمع الأصدقاء وزوجاتهم ، لا سيما أيام الخميس لشرب الواين ، وتناول العشاء .

**

كانت صحبة أمجد مصطفى هي الأهم في حياة كمال مدحت ، منذ ذلك الحين لم يبق طويلاً في منزله ، بل كان يمضي جل وقته إما في التمرين على الكمان في قاعة الرباط في شارع المغرب ، أو في أداء الكونسيرتات التي ازداد عددها تلك الأيام ، أو في منزل أمجد مصطفى ، حيث تعرف هناك على فنانين وكتاب ومثقفين ورسامين ، من بينهم عازف العود منير بشير ، وعازفة البيانو الأرمنية بياتريس أوهانسيان ، والنحات محمد غني حكمت ، وخالد الرحال . . وكان الجميع يؤكد أن كمال

مكتبة الفكر الجديد

مدحت الذي ظهر فجأة في العام ١٩٨٣ مثل نبع غريب متفجر من الأرض أخذ يمضي أكثر مساءاته في الحديث والنقاش مع عازفين ورسامين وشعراء يتجمعون كلهم في منزل أمجد وداد ، حيث تكشف نافذة صالة البيت الكبيرة عن حديقة غابية كبيرة ، وتسمع العصافير وهي تزقزق وتنط من مكان إلى مكان في الصالة ، وفي غمرة هذه الحياة الخصبة لهؤلاء الفنانين الطموحين لم يكن يعترض طريق الفن إبان ذاك سوى مدافع الحرب . . فقد كانت مدافع إيران تدك البصرة ومدن الجنوب ، والجميع يدرك أن خطة صدام في الحرب الخاطفة أخذت تخبو ، وأصبحت الحرب التي يئس الكثير من نهايتها ثقيلة وباهظة ، وكان تلفزيون بغداد يبث كل مساء برنامجاً عن الحرب ، يعرض فيه صور القتلى الإيرانيين وقد مزقتهم الطائرات أجزاء متناثرة ، تعرض أحشاؤهم في كل مكان على الأرض ، رؤوسهم المبتورة ووجوههم المهشمة معفرة بالتراب ، ولا تعرض هذه البرامج صور المعارك كمعركة وقتال بين جيشين ، إنما صور أجساد العدو وقتلاهم المتناثرة . كانت كامرة المصور تسير فوق صفوف من الجثث وتتحرك دائرياً حول الأكداس ، وتقترب الكامرة بلقطة مقربة من وجه محترق أو يد مبتورة أو جثة دفن نصفها في التراب . حيث تجسد هذه الفكرة نقاشات الأصدقاء الفنانين في منزل أمجد مصطفى عن الحرب .

حيث كانت الأفكار تختلف وتتقاطع بين الجميع ، فكمال مدحت المستاء جداً من الحرب ، لم يكن يعرض أفكاره بصورة واضحة ، ولكنه كان مندهشاً لأفكار أمجد مصطفى وقناعاته . فأمجد مصطفى هو الوحيد بين الفنانين الذي يستخدم التبرير العرقي والأثني لسبب اندلاع الحرب : يقول وهو يتناول كأس الويسكي التي تحوي مكعبات الثلج : «إن هذه الحرب بسبب حقد الفرس على العرب . . فالعرب أرقى من الفرس ،

مكتبة الفكر الجديد

ولذلك لن يتوقفوا عن شن حروبهم على العراق»

كان أمجد مصطفى يضع التبرير العرقي والأثني مقابل التبرير الديني الذي كان يسمعه كمال مدحت من قبل الإيرانيين في طهران. فالإيرانيون كانوا يعتقدون أن الحرب بدأت لوجود مسيحيين على رأس البعث وهو لتدمير وحدة المسلمين.. وهكذا كان كمال مدحت يتعرف كل يوم على أفكار صديقه ومعتقداته، وهي أفكار ومعتقدات كانت شائعة عند طبقة معينة من المثقفين والفنانين، لذلك أصبح الجدال بينهما ضارياً، لم يكن كمال مدحت يؤمن بهذه الأفكار الشمولية التي تفرضها ثقافة الدولة على الناس، بينما كان أمجد مصطفى يتصاعد في نقاشاته، وأفكاره كلما دار الحديث عن الحرب، كان يقف عند الزاوية وبسيل من الجمل العنيفة يصف قتلى الأعداء، ويرى أن القتل مبرر وضروري أحياناً لأنه أمر يخص الأصلح للبقاء، بينما كان كمال مدحت يجلس على الدوام جلسته الهادئة في الزاوية ذاتها، قرب تطليعة الموقد الموضوعة عليها بعض التحفيات الخشبية والطسوت الفضية، يمسك كأس الويسكي في يده، ويمسد على لحيته الخفيفة بهدوء. لقد زاده شعره الطويل الذي وخطه الشيب وسامة، بينما يقف أمجد مصطفى أمامه مباشرة برأسه الكبير وقد حلقه ليظهر الجلد تحته، وشواربه السود الهابطة على شفتيه، وهي الصورة القومية الذكورية التي كانت شائعة في بغداد تلك الأيام. يقف عند الزاوية وهو يحمل كأسه ويهجم على كمال مدحت الذي لا يؤمن بالتفويض الإلهي للأمة.

كان أمجد مصطفى الموسيقار الموهوب يعتقد أن للأمة العربية رسالة خالدة، وهي النهوض الروحي بالعالم، وهذا ما يجعل كمال مدحت يقهقه. لم يكن كمال يصدق أن هذا الفنان الموهوب بعثيا مؤمناً، وعرقياً

مكتبة الفكر الجديد

متطرفاً ، يقرأ نيتشة وفختة في خطابات الأمة الألمانية ، ويعجب بتشمبرلن ولا سيما كتابه نشوء القرن التاسع عشر ، ويقرأ أدبيات حزب البعث المتأثرة بأفكار غوستاف لوبون في اعتبار العرق والأمة شيئاً واحداً . . لقد كان أمجد مصطفى يعتقد أن العرب محاطون بعروق أدنى خلقت للبربرية والهمجية ، وهي في أحسن حالاتها متلقية وليست خالقة للحضارة ، وهذه العروق الدنيا لا تملك للعرب غير الكراهية والحسد ، وقد رمى على كمال مدحت كتاباً بعنوان حروب الإيرانيين على العراق ، وهو مؤلف قديم ، كان جلده متهرئاً ، وأوراقه صفراء ، وطبعته بدائية ، طبعت طبعته الأولى في القرن التاسع عشر :

«اقرأ مؤلف سليمان فايق . . وستجد كل ما تريده من معلومات . .» .

كانت فكرته الأساسية هي العودة إلى التاريخ ، وهذه الفكرة هي التي كانت تشعر كمال مدحت بالتقزز ، وتشعره بالنفور والاختناق ، هل يمكن لأحد أن يفكر هكذا ، أن يفكر بتاريخ البشرية على شكل صراع دائم ويلغي أشكال العلاقات الأخرى ، وقد أخذ كمال مدحت يقرأ الصحف كل يوم ذلك الوقت ليتابع أخبار مدرسة التاريخ التي يرعاها صدام حسين هو ذاته ، كان يرعاها يومياً تقريباً لأنها كانت تريد أن تثبت أن تاريخ المنطقة من ثلاثة آلاف عام هو صراع الفرس والأكراد والأتراك ضد العرب . . وكان كمال مدحت يعتقد أن هذا التفسير هو نوع من التفسير الإرادوي للتاريخ . إنها فكرة - إرادة تريد أن تبرز علاقة من بين العلاقات ، وتلغي العلاقات التجارية والثقافية الأخرى . هل الحرب هي العلاقة الوحيدة بين الفرس والعرب . . كانت مدرسة التاريخ تريد أن تلغي الصراعات بين الأقوام السامية مع بعضها وتبرز الأمر كله وكأنه حقد فارسي على العرب . . وهذا ما كانت السلطة والإيديولوجيات تريد فرضه

مكتبة الفكر الجديد

على الفن . . وهو الذي جعل كمال مدحت يتقزز وينفر . .

ثم نهض أمجد مصطفى من مكانه ، وتناول كتاباً من مكتبته ، وأخذ يقرأ نصاً للملك الآشوري العراقي سنحاريب ، وهو يقول نحرتهم كالخراف ، وقطعت رقابهم مرة واحدة كما يقطع الحبل . . وفي حقل القتال كانت أحشاء الجنود ورؤوسهم ممرغة بالتراب ، حتى إن عجيزات خيلي الواثبة كانت تغطس في مجرى الدم . .

كان أمجد يقرأ هذه الفقرات ويشعر بالرعشة ، الرعشة القومية التي تهز بدنه كله ، كانت هذه الفقرات تجعله يشعر بالفرح والغبطة للقتل والتدمير والتخريب في الحرب ، وكانت هذه هي سعادته ، سعادته وغبطته هما الانتصار الكاسح على الأعداء .

لقد شعر كمال مدحت ذلك اليوم أن بغداد تتحول عبر العقل السادي والقسوة إلى مظهر من مظاهر المجتمع الإسبارطي ، مدينة تقوم على أخلاقيات حربية ، فالمواطن هنا هو مواطن عسكري بصفات عنيفة ، من فضائله : الغطرسة ، والاندفاع إلى أمام ، والفظاظة بكل معانيها ، لقد أصبح اللباس العسكري موضع الاعتزاز والتباهي عند الشباب ، وانتشرت اللغة العسكرية حتى صارت متداولة على الصعيد الاجتماعي ، لقد أصبحت القسوة هي خصلة هذا المجتمع الإسبارطي المتعسكر . . والبذلة العسكرية هي بذلة العرس نسبة للضباط والجنود المتزوجين ، وهنالك مشهد أخذ كمال مدحت يراه كثيراً تلك الأيام ، جندي ببذلة الحرب ، وإلى جانبه عروسه ببذلتها البيضاء وخلفهم موسيقى الفرح .

أما مشهد إعدام الجنود الهاربين من الجبهة فقد أصبح مألوفاً .

جنود بسطاء ، أغلبهم من الريف وأعمارهم لا تتجاوز العشرين ، يقودونهم بعنف أمام الجماهير المتجمعة ، ويضعونهم على أعمدة بيضاء

مكتبة الفكر الجديد

طويلة في الساحات العامة ، حيث يأتي بعد فترة وجيزة جنود آخرون يرتدون أقنعة سوداً ، يصوبون عليهم البنادق ، ويطلقون النار على رؤوسهم وصدورهم بانتظام . . حفلة من حفلات الذبح المقدس ، حيث الدم الأحمر القاني يسيل من الصدور والأصداغ ، أمام حشد من الجماهير الهائجة . .

وكل هذه المظاهر تخفي غضباً عارماً في كل مكان ، وقسوة مخبوءة تظهر من وقت إلى وقت ، لقد شعر أن هنالك انفصام شخصية واضحاً لدى الشعب كله ، شيئاً من الادعاء الكاذب بالعظمة والتفرد وبين الواقع المخزي بسبب السلطة الاستبدادية التي تسحق وتهمش وتهين كل فرد ، لقد شعر أنه يعيش بين أمة متمردة ، منطوية على نفسها ، شديدة التعصب إلى جانب صفات أخرى سيئة اكتسبوها من الظروف الشاذة التي عاشوها . ففي نهاية العام ١٩٨٣ ، كان المايسترو وليد غلمية ، هو الذي يقود الأوركسترا العراقية في عزف سمفونية الشهيد ، وكان من العازفين كمال مدحت وأمجد مصطفى ووداد أيضاً ، وكان كمال مدحت أكثر من أي شخص آخر يدرك في داخله روح الشهيد ونبله ونقاوته ، ولكنه الشهيد في كل مكان ، شهيد الحرب ، هذا ما كان يؤمن به ذلك الوقت ، وفي إحدى المرات ، وبعد انتهاء التمرين ، خرج الثلاثة كمال ووداد وأمجد إلى مطعم قريب في شارع المغرب ، وما إن جلسوا على الطاولة ، حتى بدأ أمجد مصطفى نقاشه حول الشهادة ، كان يعتقد أن من يقتل من العراقيين هم من الشهداء . . أما من يقتل من الإيرانيين فهم ليسوا سوى حشرات ضارة ، لقد ذكّر هذا الأمر كمال مدحت بإيران مباشرة حينما كان الإيرانيون يعتقدون أن القتلى العراقيين سيذهبون إلى النار ، أما الإيرانيون فإنهم سيذهبون إلى الجنة ، ولكن أمجد مصطفى كان

مكتبة الفكر الجديد

يفلسف الأمر كثيراً ، فكان يعتقد أن الشهيد العراقي قد حقق وحدة الشخصية بين الموت والحياة . . «لأن حياته بشكل ما هو حياة أخرى . .» . فشعر كمال مدحت لحظتها أن النقاش مع أمجد غير مجد بالمرة ، فسكت واكتفى بشرب البيرة ، ومن وقت إلى وقت كان يمازح وداد ويضحك معها ، بينما أصبح أمجد متوتراً وهو يشرح فكرته ، وقد قال لهم وهو يضرب الطاولة بيده إن الشهيد في العراق يتوحد مع تراجيديا العراق ذاته ، فالعراق يعيش عزلة مفروضة من قبل العرب ، ولذلك فإن الشهيد العراقي يحيا نوعاً من الدراما البطولية ، نوعاً من التضحية التراجيدية التي تتصف بها هذه الشخصية القومية .

**

لم يكن لكمال مدحت قدرة على السخرية من هذه الأفكار بسبب خوفه ، ولكنه كان يدرك وبشكل لا يقبل الشك أن الأيديولوجيا القومية في بغداد هي التي تضفي نوعاً من التضخيم لهذا الشعب المقهور ، فكانوا يعتقدون أن العراق وحيد وأعزل ، وهو الوحيد من جيرانه المشرقيين لا يطل على بحر ، وأقلهم اعتماداً على التجارة والسفر والاختلاط . . لذلك كانت الشهادة تأخذ طريقاً آخر ، ومن هنا تأتي هذه السمفونية التي كتبها وليد غلمية وستعزفها الأوركسترا العراقية على الناس وستبث في كل مكان في آخر يوم من شهر ديسمبر ، حيث تقف السيارات ، والمارة يقفون في أماكنهم ، وستضرب هورنات السيارات بصورة مستمرة ، وستدق الكنائس ، وتكبر الجوامع ، وتعزف سمفونية الشهيد في كل مكان . .

هل العراقيون وحدهم الشهداء . .؟ دون شك كان هذا السؤال مقرفاً نسبة لكمال لأنه لم يكن بحاجة إلى تفكير ، وفي المحصلة ما معنى الشهيد وما معنى القتيل؟ إن لم يكن يدفعه لهذا السؤال هو رأي أمجد

مكتبة الفكر الجديد

مصطفى الذي كان يستخدم أوصافاً محددة في وصفه للجنود الإيرانيين ، كان يعتقد أنهم مرتزقة ، وحشرات ضارة ، وأنهم يستحقون القتل ، وهذا الخطاب شبيه من جهة أخرى بخطاب الإيرانيين الذين يصفون القتلى العراقيين بالكفار . .وعلى الجانبين كانت هنالك خطب سياسية سادية يجري الحديث فيها عن أجساد مهشمة ورقاب مقطوعة ورؤوس متناثرة ، في العراق وفي إيران أيضاً ، لقد شعر كمال مدحت أن ثمة نوعاً من النيكروفيليا المرضية التي تقوم على حب الأشياء المدمرة تسحق هؤلاء الناس ، وأن النقاش والجدال معهم هو أمر عقيم وعديم الأهمية بالمرة . .

**

في الواقع هنالك مؤشر آخر ، كانت وداد تنجذب لأفكار كمال مدحت أكثر من توافقها مع أفكار زوجها أمجد ، وكانت تدفع به نحو مساحة جديدة أخرى ، ويقال إنها لم تكتف بإدخاله في الفرقة السيمفونية الوطنية في بغداد ، حتى أصبح وبوقت قصير عازف السولو الأولى في الأوركسترا العراقية . . إنما هي التي عرفته على النخب السياسية أوانذاك ، فقد استخدمت كل علاقاتها الواسعة ، وعلاقات عائلتها المتنفذة الثرية لربطه بالنخب السياسية في بغداد ، وهذه النخب كانت تشجع نوعاً من الحداثة الاجتماعية والثقافية في الأدب والفن ، تستخدمها استخداماً مزدوجاً ، فهي تستخدمها للتعبئة من جهة ، ومن جهة أخرى تستخدمها كحركة مضادة للسلطة السياسية القروسطية في إيران .

كانت وداد معجبة جداً بكمال مدحت ، هذا الخمسيني الطري ، والمثقف البارع ، والعازف الذي لا يضارع ، كان حزمة من المشاعر والأحاسيس وهو يتحدث بصوته الهادئ ، كان وسيماً بطوله الفارع ،

مكتبة الفكر الجديد

وبتقاطيع وجهه الناعمة، بحركاته الداندية المتقنة، وربما يلوح في الأفق ما هو أكثر من الإعجاب أيضاً، فهي التي ترعاه رعاية خاصة، وهي التي تهتم به اهتماماً كبيراً، وكان من جانبه يعرف ذلك، يشعر به، ويريده ولا يمنعه، حتى لم يعد الأمر خافياً على أحد، حتى زوجته نادية العمري أخذت تشك بهذا الإفراط في التدليل. ولكن من قدم كمال مدحت إلى صدام حسين ذلك الوقت؟ كل الوثائق تقول إن وداد أحمد عن طريق أشقائها المتنفذين تمت دعوة كمال مدحت إلى القصر الرئاسي، وبسببها أيضاً عزف كمال مدحت أكثر من مرة أمام صدام حسين.

**

انتقل المثقفون في حافلات كبيرة إلى القصر الرئاسي الكبير الذي لم يكن سهلاً الوصول إليه. عبرت الحافلات الكبيرة ذات الزجاج المظلل الحديقة الغابية الكثيفة، وتوقفت أمام قصر عال مشيد أمامه مساكب زهور متنوعة، كانت ثمة بحيرات صغيرة اصطناعية، أحواض سباحة، وعشب شديد الخضرة والنضارة، وعند المداخل المتعددة مصفحات، دبابات، مدرعات لها بروج فوق قمراتها. وفي البرج جنود الحراسات الخاصة ببزاتهم وخوذهم ومدافعهم الرشاشة، وعند البهو الكبير سيارات حديثة فيها حراس مدججون بالسلاح.

دخلوا القصر، انتظروا وقتاً طويلاً ليصل الرئيس، وحين وصل استقبلوه بالهتافات، كان صدام يرتدي البزة العسكرية الكاكية المصنوعة من جوخ فاخر، دون بيرية، وقد تقدم بحذر موجهاً نظرات احتراس إلى الواقفين، مبتسماً وملوحاً بيده اليمنى، وكان الفنانون يصفقون بإيقاع متقطع واحد، ويطلقون الشعارات، وكان النُدل بسترات بيض يقدمون في صوانٍ كبيرة كؤوساً من العصير، وبعد حديث طويل للرئيس عن الفن

مكتبة الفكر الجديد

ودوره في السياسة بدأ التصفيق العالي . انتبه كمال مدحت وكان التصفيق قد أوقظه . حيث لم يكن يصغي لحديث الرئيس بأي حال من الأحوال . أخيراً نهض الجميع من أماكنهم ، وأخذ الرئيس يصافح المدعوين واحداً واحداً ، وحين وصل قريباً منه ، تمكن من رؤيته عن قرب ، وكان إلى جانبه سكرتيره عبد حمود يدون في دفتر صغير كل ما يدور .

هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها صدام حقيقة ، بعدما كان يرى صدام من خلال الصور الكثيرة التي تملأ الشوارع . لقد شعر بأن صدام كان يحكم من خلال الصور المنتشرة في كل مكان ، حينما لا يكون وجوده الحقيقي ممكناً فصورته هي التي تنوب عنه ، فهو الذي يملأ الحيزات والفراغات والفضاءات كلها : صدام يدخن ، صدام يأكل الرقي ، صدام يرتق ثوب ابنته ، صدام يصيد الغزلان ، صدام يأكل اللحم المشوي ، صدام يرتدي بزة عسكرية ، صدام يرتدي ملابس الكاوبوي الأميركي ، صدام يمتطي الحصان ويرتدي الملابس العربية ، . . الآن ها هو صدام أمامه . .وضع يده على كتف كمال مدحت وأطلق قهقهة متألقة ذات أسنان بيض وتلبيسات من الذهب . وأمر سكرتيره أن يسجل موعداً خاصاً له .

بعد هذا الاستقبال ناداه شخص له سحنة ريفية واضحة ، ممزوجة بلهجة بدوية ، شعره يهبط على جبينه ، وشواربه تغطي فمه ، رأسه ضعف الحجم الطبيعي تقريباً ، له بروفيل طير جارح ، وعينان سوداوان كبيرتان أشبه بلطختين تحت الرموش . كان يتكلم بعنعنة هادئة ، لكنه حاد النظرات وصارم يثير الخوف حتى وهو يبتسم .

كان يجلس في مكتب غريب الشكل ، على مقربة من الباب ثمة خرائط كبيرة ملفوفة ، وعند الزاوية ثعلب محنط يغطيه الغبار ، وقد بدا المكان أقرب إلى متجر منه إلى مكتب ، فالرفوف حتى السقف ممتلئة بعلب

مكتبة الفكر الجديد

غامضة ، وهنالك صناديق كرتون تحوي كتباً أجنبية ، وثلاث خزانات تحوي أرشيفاً أو سجلات أو فايلات إدارية ، وعلى الجدران لوحات لفنانين عراقيين معروفين مثل جواد سليم وفائق حسن وعطا صبري . . وهنالك تماثيل أصلية وجبسية ، وأشياء نادرة مثل ناب فيل ، وأقنعة أفريقية . .

«الرئيس يريد حفلة خاصة . . أعطني رقم تلفونك وسوف نتصل بك» هكذا قال له بين الأمر والطلب ، ولم يمر سوى شهر واحد حتى وقف كمال مدحت عازفاً أمام الرئيس .

وقف كمال مدحت وهو يرتدي بذلته التوكسيدو السوداء المتهدلة من الخلف . وقف نحيفاً طويلاً بوجهه الأسمر وعينيه اللامعتين ، وقف في الضياء-المعتم قابضاً على قوسه وكمانه ، صمت قليلاً من الوقت ، ثم بدأ مع أول حركة راسماً في الهواء قوس نجوم وسط الصالة ، نوتات متعددة في فضاء صامت كلياً ، وكانت وداد قابضة على طرف آلة التشيلو في الجانب الأيمن من الجلسة ، جالسة على كرسيها ، فيما الآلة ممددة إلى جسدها ، كمعشوقة أبدية ، وكان كمال مدحت ينظر وهو يعزف إلى المايسترو دوماً ، ينظر إلى طرف عصاه ، وإلى عينيه أيضاً ، فيما كان هنالك أكثر من أربعين عازفاً يعزفون كونشيرتو الأفيون مع كمال مدحت . وكان الرئيس جالساً في المقدمة يحيط به جمع من الحراس .

حين انتهى العزف ، عاد كمال مدحت فجأة إلى الوعي ، عاد إلى الوعي على تصفيق الرئيس وابتسامته الجانبية التي تخرج بقوة من تحت شواربه ، لقد استعاد وعيه على تصفيق الوزراء الجالسين صفاً ، ونظرات الحراس الصارمة ، أحنى المايسترو رأسه ، ثم انتصب قليلاً ليشير إلى عازف السولو كمال مدحت ، فتقدمت فتاة جميلة شقراء طويلة تحمل باقة الزهور وقدمتها إلى المايسترو ، أخذ المايسترو باقة الزهور مبتسماً ، وقدمها إلى

مكتبة الفكر الجديد

كمال مدحت، حمل كمال الباقة إلى جنبه وانحنى انحناءة أخرى، وهو يسأل نفسه، هل هؤلاء السياسيون والحراس كانوا يشعرون بهذه الموسيقى، بهذه الضربات القوية، هل يعرف هؤلاء الجالسون أنهم صادروا هذه المقطوعة مرة ومزقوها، هل كانوا يشعرون بها وبفضائها، ما هي هذه الجلسة.. ماذا يوجد خلف هذه الثخانة الصامتة للوجود؟ الفوضى، العدم، أم نسغ القوة، والطاقة المنفلتة التي تريد أن تنطلق نحو كل شيء؟

ما هي هذه المراسيم، هل هي رمز لشيء آخر، هكذا كان كمال يفكر ذلك اليوم، كان يتساءل من أين تأتي.. هل تأتي من الدين مثلاً، هل هي رمز لشيء آخر؟ هل تخفي أشياء أخرى؟ كان يفكّر كثيراً بشكوكه وتردده، لم يكن يعرف الحقيقة، وكان يتساءل هل تشبه هذه المراسيم الرئاسية ما أفعله أنا في الموسيقى، هل علي أن أنغمس مع كل هذه الأشياء.. كتب لفريدة بعد سنوات:

(لم أنغمس في حياتي بشيء سوى الموسيقى، هنالك ذات تراقب كل ما أفعله وتسخر من كل ما أقوم به.. ألا يملك هؤلاء السادة السياسيون هذه الذات العليا التي تراقبهم وتسخر من تمثيلهم ومسرحتهم..)

**

كان كمال يدرك أن الحقيقة لم توهب أبداً، والمساحة الفارغة في الحياة لا تعزى، وفي اللحظة التي كان عليه أن يقوم بخطوة واحدة ليعبر تلك النقطة التي لا عودة بعدها، كان يتردد، يصاب بدوار، ويشعر بحسرة ممزقة عظيمة. لقد أشيع في تلك الفترة عن علاقة حب بينه وبين وداد زوجة أمجد، فما هي حقيقة هذا الأمر؟ في الواقع كانت وداد متوسطة الجمال، لم تكن جميلة جداً، ولكنها كانت ناعمة جداً ورقيقة، عيناها السوداوان مليئتان بالانعكاسات، عينان جائعتان، شرهتان، وصريحتان

مكتبة الفكر الجديد

أيضاً ، وكانت شفتاها وحشيتين وسريعتي التأثر ، بينما كانت نظراتها متوهجة متأملة ومستغرقة ، وشعرها غجري طائر في الهواء ، وكان جلدها الرقيق وجبينها الأبيض المضيء مثار إعجاب الكثيرين . فلماذا أعجبت بكمال وهو يكبرها بكثير؟

في الواقع رأت وداد في شخصيته نوعاً من الجنون ، نوعاً من التمرد الأخرق ، وفي شكله وحشية طالما عبدتها ، لقد وجدت فيه رجلاً غير ممتنع بالمرة ، له مشاعر حساسة وسامية ، إنه أشبه بحيوان رقيق ، لكن هذا الحيوان لديه علة ، وعلته غير محسوسة ولا معروفة أبداً . كانت وداد تريده بأي ثمن ، وتريد امتلاكه ، وهي تعرف أنه يتعذر امتلاكه ، لم يكنْ بميسورها ذلك لأنه لم يمنح نفسه لأحد سوى نفسه ، وهي ترقب كل لحظة تحركاته وتنقلاته ، وتحاول بكل قوة استحضاره ، لقد شعرت أنها بمقدورها أن تشتهيه ، ولكن ليس بمقدورها أن تقبض عليه . . كانت تراه في كل مكان : في الكأس ، في الموسيقى ، في شظايا المرمر المقطوع ، في قطع الخشب التالفة في الوجاق ، وحين عزف في الصالة واحدة من معزوفات باخ الشهيرة ، جلست أمامه مخدرة ، كان عزفه متسقاً ، وعرضه كان مثيراً أخاذاً ومصقولاً ، كان رائعاً على نحو فريد في الحركة الأولى الطويلة من عمل باخ ، وقد تتوج بإيقاع متألق جداً مفعم بسلاسة غير عادية ، كان أشبه بكثبان من الرمال ونافورة ماء تنفجر في عمق اليباس الحار ، هذه الصحراء التي تبدو بسيطة أحادية مترملة والتي تتمتع بالفقدان ، جعلها كمال مدحت متوهجة بالماء ، كان يحرق أصابعه بوهج مضيء يخرج من رماد الكوانين .

بالموسيقى وحدها يمكنه أن يقبض على ميزان الطبيعة ، يمكنه أن يعود إلى لحظة الخلق .

مكتبة الفكر الجديد

تقدم نحوها مبتسماً فتلعثمت ، وضحك من قلبه لرؤيتها وهي تضطرب أمامه ، لم يكن كمال يشعر بالشفقة نحوها ولا بالرثاء ، وهي التي يحرقها الظمأ إليه ، كانت تشعر بالإحساس الموجع الذي يلتهمها كلما جلست أمامه ، وكانت ترى أنه فريسة للسأم ولا تستطيع أن تفعل له شيئاً .

كانت ترقبه بوله وهو يتحرك في صالة منزلها ، كانت تعبد كل ما يلمسه هناك : من الكأس إلى المنفضة . أما هو فلم يكن يستقر على حال ، يتحرك حركات سريعة بين المكتبة والوجاق ، وحين يجلس ، فإنه يجلس هادئاً هدوءاً قدرياً ، أما ملابسه فقد كانت مثيرة لها حقاً ، كان يرتدي على الدوام لفافاً أحمر كدم الثور متدلياً مثل بوهيمي ، وبنطلوناً من الكبردين ومعطفاً أسودُ أشبه بمعطف راهب ، وحين يغادر المنزل كان يقبلها على خدها ، ولحيته التي تلامسها كانت تهيجها ، فقبلة الخد البريئة هذه كانت مشحونة نسبة لها بشهوات لا حدود لها ، وقررت في يوم أن تغويه .

لا أعرف متى كان هذا بالضبط ولكن من الواضح أنه قبل حرب الخليج الثانية بفترة ، وكان أمجد ذلك الوقت خارج العراق ، وقد خرجت وداد مع كمال من قاعة الرباط مساء بعد أداء كونسيرت موسيقي هناك ، وحين تعلقت بيده ارتعد من لمسها ، أخذته بالسيارة إلى منزلها ، وهنالك حاولت أن تغويه ، كان كمال خائفاً ، وقد أمسكت هي بيده بين كفيها ، وشعرت به مضطرباً لا يعرف ماذا يفعل ، لقد كانت مستمتعة بالدمار الذي سببته له ، لقد شعرت أنه اضطرب مثل عصفور بين يديها ، وأخذ يرتجف ويخفق ، وبعد دقائق انتهت اللحظات المتمنعة وسرعان ما تخلص من اضطرابه وتلكئه ، فقد كان يشعر بسعادة كبيرة كلما شعر بأنه محبوب ومطلوب .

دقائق صمت ، ثم مال عليها ، وشرع يقبلها بعاطفة قوية ومشبوبة .

**

مكتبة الفكر الجديد

هل أحب أمجد مصطفى وداد لثرائها؟ كانت وداد امرأة مدللة من رجال كثيرين منهم: والدها الموظف الرئاسي الكبير قبل وفاته. وعمها السفير العراقي في أوربا، والذي كان رجلاً متوسط العمر ذا أنف دقيق، وكان منتصب القامة بفضل الريجيم والتمارين والمساجات، ولبشرته لون برونزي اكتسبه من التعرض للشمس، وأشقاؤها الثلاثة وكلهم مقربون من السلطة السياسية في بغداد. كانت وداد قد تزوجت قبل أمجد من ضابط في الجيش قتل في الأشهر الأولى من الحرب، ثم تزوجت من أمجد بعد وفاة زوجها الأول بعام، أما تجربة حبها الوحيدة فكانت مع رجل كان يكبرها بعشرين عاماً، حينما كانت طالبة في أكاديمية الفنون الجميلة تدرس الموسيقى، وهو رجل شهواني ولعوب مارس معها الجنس في شقته القريبة من مكان دراستها.

أما قصتها مع أمجد فقد كانت في غاية البساطة والتلقائية، لقد قابلت وداد أمجد وهو يلقي محاضرة عن باخ وبدأت العلاقة بينهما، عن طريقها تعرف أمجد على مجتمعات بغداد الراقية التي فتحت له ذراعيها رغم إمكانياته المالية المحدودة، بل لجأ إليه البعض ليقدمه إلى الرئيس صدام حسين ذاته، وقد أصبح عازفاً شهيراً في الفرقة السيمفونية الوطنية، وقد كن لوداد حباً وعاطفة قوية، مع أنه لم ينجح في البداية بخطب ودها، وكل محاولات الزواج منها باءت بالفشل، وتحت إلحاحه وإصراره وافقت، وأصبحت له دالة في محيط الأسرة.

هذه هي بالنسبة إلى أمجد، ولكن بالنسبة إلى كمال، كيف يضعها في تابلو حياته؟ هذا المستمتع المتهور الكبير، هذا القديس الخاطئ، الفارو دو كامبوس حارس الأفيون، هذا الذي صنع نوعاً من اللقاء القسري بين جميع شخصياته، وقد جعل من الموسيقى آلة ديناميكية لتعديل مزاجه

مكتبة الفكر الجديد

ومبادئه كشكل من أشكال الاغتباط العنيف ، ألم تكن هي الأفيون بغياب الأفيون ، أين يضع وداد إذن؟ أين يضعها هذا الحارس الذي يملك مستودعاً لا دكاناً للتبغ فقط ، هذا المغامر الذي يواجه الكون بأكمله بجميع الأساليب المحتملة ، هذا الذي حمل وقطر خلاصات المدن في داخله من طهران إلى بغداد إلى دمشق ، هذا الأسطورة بكآبته المجنونة والذي جعل الموسيقى بديلاً من الأفيون والجنس بديلاً من التبغ . فإن قصر في إنتاج هوية مثالية فقد تجاوز هذا النقص بالنساء والموسيقى ، إنه لا يسأل أكثر من جسد امرأة ودكان تبغ .

وهكذا كان قد تعرف في تلك الفترة على امرأة غريبة ، اسمها جانيت ، مسيحية آثورية من البصرة ، كانت عازفة بيانو مبتدئة ، تحولت بعد الحرب سريعاً إلى عاهرة ، عملت في دار دعارة للمومسات الصغيرات بحي العلوية ، ثم أخذت تتردد على الأوساط الموسيقية بشكل ثابت تقريباً . كان كمال مدحت قد تعرف عليها بعد أداء كونسيرت موسيقي في قاعة الرباط ، حيث كانت الفرقة السيمفونية الوطنية تؤدي مساء كل يوم خميس تقريباً ، وربما وداد هي التي عرفته عليها ، كانت تعرفها منذ أن درستا معاً في الأكاديمية ، ثم أخذت جانيت تدعو كمال ويذهبان معاً ، لم تكن وداد تعرف أن كمال مدحت سيعجب بجانيت ، أو سيشتهيها ، فقد كانت جانيت نحيفة جداً ، مصابة بسوء تغذية ، هستيريا ، إدمان كحول ، وأشياء أخرى كريهة . .

وفي يوم كانت جانيت قد دعت هذا العازف المستهتر بطوله وبوسامته إلى شقتها ، وعندما سكرت حطمت الأثاث وكسرت الزجاج ، لقد خرجت من باب الشقة الخارجي وأخذت تصرخ بقوة ، حتى تجمع الناس حولها ، فحملها كمال مدحت في البداية عنوة وأعادها إلى الشقة ، ثم بعد

مكتبة الفكر الجديد

ساعة من الصراخ والعراك نقلها إلى المستشفى ، وقد انكشفت علاقتهما بعد هذه الحادثة ، مما أثار غيرة وداد بشكل كبير .

لقد شعرت وداد بغيرة قاتلة من جانيت :

«هذه الحقيرة . . الحشرة . . تأخذ كمال . .؟»

وفي لحظة ضعف اقتربت وداد من نادية العمري وأخبرتها بعلاقة كمال مدحت بجانيت ، فاضطربت نادية العمري وحزنت حزناً شديداً ، لقد سببت لها هذه العلاقة أرقاً كبيراً ، لكنها لم تكلم كمال عنها مباشرة ، إنما استدعت جانيت إلى منزلها ، وأخرجت دفتر شيكاتها وسألتها :

«كم تريدين لتتركي كمال . .» .

**

لقد شعر كمال مدحت أن نادية العمري تعيش في حب متطرف وجارف له ، أي حب يمكن في ذاته أن يكون أكثر عمقاً وأمتن أساساً من ذلك الحب ، إنه حب مشوه ، ملون بالنشوة من استعذاب الألم ، ألم قديسين ، وكانت تعلم أنه يخونها ، وهكذا تحولت الخيانة الزوجية نسبة إلى كمال مدحت إلى عمل تطهيري مقدس ، لأنه مدلل إلى حد كبير ويُغفر له خياناته دائماً .

أما جانيت ، فقد كانت مصابة بالهوس الجنسي . بدأت حياتها سحاقية ، وشفيت على يد رجل أحبته وتركها ، ثم ارتمت في أحضان كمال مدحت ، وفي يوم ضربته وداد على وجهه ، لأنها هي التي عرفتها عليه ، وقالت له أنا لست قوادة لملذاتك .

**

لقد كانت جانيت نسبة لكمال مدحت تجسيداً لكل متناقضات البشر ، كأنها واحدة من العاهرات المقدسات الخارجات من التوراة واللواتي

مكتبة الفكر الجديد

كان يشتهيهن حينما كان يقرأ التوراة برفقة كلادس ، ذكرته بكل العاهرات المقدسات اللواتي كان يسمع فحيح شهواتهن من ورق التوراة الأصفر ، فهي ملاك ودراكولا في الوقت ذاته . هذه الشاحبة المصابة بفقر الدم أحبها أحد السياسيين وأغرم بها ، لأنها مشوهة ، وقد عجز عن نسيانها ، وأرسل إلى كمال مدحت تهديداً ، ذلك لأنه يسلبها عقلها ولا يجعلها تفكر به .

**

كانت جانيت صورة أسطورية ، جمعت حولها كل هذا العدد من الرجال بسبب تهتكها ودعارتها بالرغم من دمامتها ، وفي يوم كان كمال مدحت خارجاً من منزله ، وفاجأته سيارة المسئول المغرم بجانيت ، وقد اعترضت سيارة كمال مدحت على الجسر ، وهبط منها رجل في الستين من عمره ، أشيب الشعر وقد صبغ الفروة من أعلى بلون أسود قاتم فأصبح شعر رأسه مثل فروة نعجة ، وأخرج صورة من جيبه ، بينما كانت أنفاسه تصعد وتهبط ، عيناه دمعتا ، وقال لكمال هل تعرف هذه الصورة .

فصمت كمال مدحت قليلاً وأحنى رأسه ، وقد شاهد فرط عشق الرجل وتعلقه ، كان يمسك بالصورة بكل الحنان الذي يمكن أن تبديه أية أم نحو طفلها الذي تعرف مدى قبحه .

كانت جانيت مصابة بالهوس الجنسي ، وقد فعلت في حياتها أشياء شريرة كثيرة ، وقد أحبها الرجال ذلك الوقت لأنها مثل حيوان تفتح ساقيها وتدعهم يفعلون كل ما يرغبون به . وهذا ما لا تفعله الزوجات المحترمات .

كتب كمال مدحت إلى فريدة :

(في زمن الحرب تتصاعد الغرائز الحيوانية كلها ، يصبح الجنس مرادفاً عكسياً للقتل ، لا أقول الحب ، هذا الشيء لا أحد يفكر به ، ولكن هناك

مكتبة الفكر الجديد

حـالة من اسـتـخـدام الجنس الذي يصل إلى أقـصى حـدود الشـذوذ واللاعقلانية ، سحاق ، خيانات ، نشوات من استعذاب الألم ، وكل صور الحنان والقسوة معاً ، إنها الحرب ، هذا يعني الجنون المطبق بسبب أفواج المتطرفين والحمقى والمصابين بالهستريا والهلوسة وجنون العظمة وأحلام اليقظة وأزمات الاكتئاب واليأس والبكاء . . إنها رغبة دموية وتعطش للقذارة على القياس المنطقي)

وفي رحلة صيد عائلية إلى ديالى ، أصرت جانيت على مرافقة وداد وأمجد وكمال ونادية العمري ، وبينما كانت جانيت واقفة بين النخل انطلق نحو صدرها طلق ناري وسقطت صريعة ومضرجة بدمها ، وبعد ساعة قبضت الشرطة على فلاح حامل بندقية يدور في المنطقة ، والكل كان يعتقد ذلك الوقت أن السياسي العاشق هو الذي سلط أحد حراسه على قتلها .

**

لقد اشتهر كمال مدحت ذلك الوقت بحياته المتهتكة المنطلقة والتي لا تراعي أي عرف أو تقليد ، لقد أصبحت له سمعة خاصة بين قاطني المدينة ، واشتهر هو بكثرة عشيقاته ، بل نظر إلى زوجته نادية بوصفها زوجة مجاملة ، لقد أصبح محبوباً من قبل النساء ، أسطورة جنس متنقلة ، لقد أصبح محبوباً بسبب شكله ، وعزفه ، وتعقيداته واضطرابه .

كتب لفريدة :

(إن نادية تغفر لي كل ما أفعله ، فقد كانت بالطبع سيئة في أمور عدة ، لكنها كانت أموراً بسيطة ، كما أنه ليس في وسعي أن أقول إني لم أؤذها ، لكن تجارب النساء تجعلني أكثر حبًا بالحياة . . شيء لا أستطيع الفكاك منه . إنني كثيراً ما أفكر بها ، والرهبة تخيم عليّ ، كلمة واحدة

مكتبة الفكر الجديد

يمكن أن تقضي علي)

هل كان يخشاها ، يخشى أن تشي به للسلطات ، فهي وحدها التي تعرف حقيقته . وهنالك ما هو أهم ما هي قصة كوابيسه؟ كان كمال مدحت يفيق على الدوام من النوم وصرخاته تسبقه . كانت تهيمن عليه الكوابيس في النوم ، مرتان أو ثلاث مرات أسبوعياً في أوقات عشوائية : عند منتصف الليل - في الواحدة بعد منتصف الليل ، في الخامسة صباحاً أحياناً .

يتقلب على الفراش ثم يطلق صرخة عالية تنتزعه من النوم ، صوت حاد ومتلاحق النبرات ، صوت جاف مثل رجل يموت ميتة عنيفة ، صرخة مثل صرخة منتحر وهو يرمي بنفسه من بناية ، صرخة شخص يفاجئ بسيارة مسرعة ترطمه بحديدها الصلب ، كان المنزل كله يرتج على صياحه ، فتستيقظ نادية العمري من نومها وتجلس إلى جانبه ، فتشعر بأن كل عضلة في جسده تنبض ، وإن قلبه يضرب مثل طبل ، وكل جسده يرتجف ، يعلو صوته ، يداه تضمان وجهه ، وعندما تخبو الصرخة فجأة ، يفتح عينيه ، ينظر إلى نادية العمري ، عيناه تومضان ، ثم يلفه الغموض ، يعاود الاستقرار فوق وسادته ، تتمسك هي به لتتأكد أنه ما زال يتنفس وقلبه ينبض بالحياة .

مرة كتب في واحدة من رسائله إلى فريدة : (إلى متى يبقى الإنسان خائفاً ، كم يصبح عمره كي يتخلص من الخوف ، ها أنا في الخمسين ، وإلى الآن أشعر بالخوف ، مثلما كنت أشعر به حينما كان عمري عشرة أعوام ، مثلما كان عمري في العشرين ، كم يصبح عمري كي أنام بلا كوابيس ، بلا بكاء ، بلا خوف!)

هذا هو كمال مدحت ، فكيف كانت نادية العمري؟

مكتبة الفكر الجديد

كانت نادية العمري هي الأخرى مريضة ، بل كانت تعيش بين نقيضين ، من جهة اكتسابها العطف والإعجاب والتقديس من بعض الشخصيات لجمالها ، أو لضعف في تكوين الشخصيات التي تتعامل معها ، ومن جهة أخرى الإحساس بالاحتقار من الآخرين الذين لا تؤثر فيهم والذين يفهمونها على حقيقتها .

كانت نادية العمري متعبة ، دعية ، مختلة ، لديها نوع من العجرفة التي ورثتها لابنها عمر ، ومع ذلك كانت متملقة لكمال كما لو أنها خادمة ، لم تجرحه يوماً مطلقاً ، وقد أوقفت نفسها على تربية ابنها ، بينما كان هو يعيش في حمى صداقاته ومغامراته وحبه للفن ، كان لاهياً عن كل شيء ، ولكن حادثة مقتل جانيت قد غيرت حياة العائلتين برمتها .

من الواضح أن وداد وأمجد وصلا حداً لا يمكن الاستمرار به ، لا أحد يعرف فيما إذا كان كمال هو السبب ، ولكن الجميع يؤكد أن علاقة أمجد بكمال لم تتأثر مطلقًا ، هذا يعني أن هنالك أسباباً أخرى ، أسباباً تتعلق بطبيعة العلاقة بين وداد وأمجد ، وهكذا فقد تطلقت وداد من أمجد وهاجرت إلى أميركا بعد مدة من الزمن ، وفي يوم اتصلت وداد بنادية العمري التي اعتادت أن تقضي الصيف مع ابنها عمر في بيروت ، اقترحت وداد عليها أن تلتقيها في بيروت ، كان ذلك في صيف العام ١٩٩٠ ، وقد تلقت خطابها قبل سفرها بأسبوع ، وبالفعل جاءت وداد إلى نادية في فندق هيلتون في شارع الحمرا ، كانت نادية جالسة في البهو وإذا بامرأة تسلم عليها ، وقد صعب على نادية معرفة وداد ذلك الوقت ، فقد أصبحت بدينة جداً ، وقصت شعرها حتى التصق بجلدة رأسها . وكانت عيناها ذابلتين وخاويتين تقريباً ، واعترفت لها بأنها خانت زوجها ، وأنها زنت ، ولكنها لم تنكر أن حب كمال كان طاغيا ومهدماً .

مكتبة الفكر الجديد

وحين عادت نادية العمري إلى بغداد ، عادت غاضبة وحاقدة على كمال ، وقد ازداد حقدها حينما رأت أمجد مصطفى وقد تحول تحولاً كبيراً ، لقد ترهل جسده ، وصار ينتقل من كازينو إلى آخر ، ويسهر إلى وقت متأخر من الليل في المنتزة ، ويشرب كثيراً .

كانت بغداد ذلك الوقت تحتفل بذكرى النصر على إيران وقد بدأت الاحتفالات أسبوعاً كاملاً ، وقد وقف كمال مدحت أمام صدام حسين للمرة الثانية بيوم النصر ، أمام قوس النصر الذي شيده صدام لهذه الذكرى ووضع عند النصب خوذ الإيرانيين المهزومين ، كان صدام سعيداً جداً ، عيناه تلصفان من البهجة والفرح ، زهو النصر يحيط به ، وكانت هذه المرة الأولى التي ينظر فيها كمال إلى وجه صدام ويدقق به ، كانت عيناه صفراوين ، لامعتين ، ووجهه أسمر تعلوه صفرة خاصة ، وكل شيء فيه مرتب إلى النهاية ، وحين يبتسم فإنه يبتسم من طرف الفم الأيسر ، حيث تنسحب شفتاه شمالاً لتظهر قسماً من أسنانه ، بينما عيناه تبقيان لتدققا بالشخص الذي أمامه ، لقد كان المكان صامتاً كلياً ، ولم يخف كمال منه ، ولكنه شعر به ، عرف أنه شخص لا يتورع عن فعل أي شيء على الإطلاق . إنه مدفوع إلى الأمام ، إنه قوة خالصة يمكنها أن تمحو كل ما يعترضها ، هو ليس مخلوقاً خرافياً ، ولكنه قوي وغرائزي . كان هنالك عدد من المهنئين من بينهم فنانون ومسرحيون وكتاب ومعماريون وأطباء ، في بادئ الأمر أخذ يحسب من العشرة إلى الصفر كي يداري اضطرابه ، تقدم نحوه ، نسي نفسه ، صافحه وقد أحنى رأسه كما يفعل أثناء أداء موسيقي ، قال له :

«أهلا وسهلا . . نريد منك حفلة خاصة . . أن تعزف لنا في القصر الجمهوري بيوم النصر»

«حاضر سيدي . .» قال ذلك مبتسماً .

مكتبة الفكر الجديد

كتب لفريدة فيما بعد يشرح لها ما دار بينه وبين الرئيس وأعقبها بملاحظة :

(كنت أنظر إلى الرئيس وهو سعيد بنصر حققه في المعركة ، عيناه تلتمعان ، وأسارير وجهه تضحك ، لا بد أنه مبتهج لأنه سحق خصمه ، وقد تجرع الخميني السم لأنه انهزم أمام صدام في المعركة ، أنا أتساءل ، ما معنى السعادة؟ هؤلاء السياسيون غرائزيون ، غرائزهم البدائية تجعلهم يفرحون ويستمتعون ويتلذذون ، وينتقمون بقوة لأتفه الخسائر ، ويغضبون بقوة ، ويسحقون بقوة أيضاً . . أما أنا فكل ما أشعر به هو العدم بعينه ، الموسيقى وحدها التي تمنحني نوعاً من الغياب ، نوعاً من النسيان المريح ، ما شعرته في حياتي الخوف والقلق ، لقد أمضيت حياتي بهذين الشعورين . .

لو سألتني عن هذا الذي تسبب بموت طاهرة ، وتغييب ابني حسين ، وهو المسئول عن تدمير حياتي بأكملها . . هل أنا حاقد عليه ، هل أريد الانتقام منه . . أبداً ، ليست لدي أية مشاعر من هذه ، كل ما أحمله تلخصه هذه الأغنية العراقية التي كنت تحبينها :

روح الله لا ينطيك . . يالصحت باسمه)

**

دفع كمال مدحت الكمان إلى الذقن ، وأمسك بها بذراع لينة ، كان ينظر إلى الشمس الساطعة وحوض السباحة في قصر الرئيس ، كانت الشمس تغريه بخلع ثيابه والدخول إلى الماء .

كان الرئيس يضحك مع المدعوين ، بينما كان كمال يشعر بالألم وهو يسري في أصابع يده التي تضغط على الأوتار ، الألحان تهرب من جوف الآلة متأوهة بلا مشاعر ، روح موتسارت تصرخ من الجحيم ، لأن العازف

مكتبة الفكر الجديد

لا يشعر بشيء مما يعزفه، لكنه مجبر على استخراج النغمات دون توقف، لا أحد ينتبه له، ليس عليه سوى أن يجعل النغمات تعلو، كان يفكر بموتسارت الذي كان يعزف للملك، وفي الظهيرة يجلس على مائدة الخدم كي يخضع لأوامر رئيس الطباخين، كان يشعر أن رئيس الطباخين هو الذي أصبح الملك هذه المرة، وعليه أن يعزف.. ويعزف للجالسين..

حينما يعزف كمال مدحت أمام الجمهور فإنه يصعد إلى أعلى حتى يغيب عن الوعي، أما جسده فيبقى في الأسفل مثل غلاف ميت. وبعد الانتهاء من العزف يشعر بأن الموسيقى وحدها التي تغسل روحه من الداخل، يشعر بنفسه مغسولة نظيفة وطاهرة، أما هنا فلم يشعر بأي شيء من هذا، كانت لديه رغبة واحدة هي أن يخلع ملابسه أمام الحاضرين ويقفز في ماء الحوض.

**

في واحدة من الرسائل التي بعثها إلى زوجته فريدة، ذكر لها أنه هو الذي أشار على صدام حسين بدعوة المعماري فينتوري للمشاركة في مباراة لبناء جامع في بغداد، وفينتوري هو سيد فن الكيتش في العمارة بلا منازع...

ما الذي جعله يشير على صدام بذلك؟

في الواقع ليس هنالك من سبب سوى أن الموسيقار كمال مدحت أدرك بحدسه واستقرائه معا أن صدام حسين، باقترابه الشديد من هذا الذوق الشعبي، يمكن له أن يعجب وبشدة بشيء يصممه هذا المعمار الألمع في العالم، والذي جعل من الابتذال والشعبية والسوقية قيمة جمالية عالية، وربما كان كمال مدحت يدرك وبشدة أيضاً أن ليس التصميم الكبير الذي صنعه لمقاهي فرانسيسكو بحد ذاته هو النموذج

مكتبة الفكر الجديد

الذي سيغرم به الرئيس، إنما بما يمكنه أن يضفيه على الجامع من ذوق شعبي، هذا هو الذي سيجعل التصميم جاذباً لصدام حسين وذوقه المبتذل ذلك الوقت، سيكون جامعاً أولاً، وغربيا أيضاً، ومقترباً من الذوق الشعبي، هو شيء من الحديث والغربي والشعبي في مكان واحد، مكان تتم فيه صلاة جامعة لأكثر من ثلاثين ألفا من المصلين، وسيكون قفزة في المعمار كما أرادها وحلم بها الرئيس.

دخل فينتوري القاعة.

كان الرئيس يقف في المنتصف، خلفه مكتبة ضخمة، السقف العالي يحمل ثرية كبيرة، أطقم فخمة من الكراسي المنجدة والعالية البدل، حراس خاصون بلا بيريات، الشوارب السود الكثة تغطي أفواه الحاضرين. وقف فينتوري وسط مجموعة كبيرة من المهندسين: المهندس الإسباني ريكاردو بوفيل، وجان بوندو، وقد عرض نموذجه أمام الرئيس، وكان خلفه مجموعة من المهندسين العراقيين، والرسامين، والموسيقار كمال مدحت يقف أيضاً ببذلته وبابيونه الأسود.

وقف الرئيس أمام جامع فينتوري: قبة مقرنصة عالية مأخوذة من الفن الإسلامي القديم، ومطعمة بصور استشراقية من روايات وأفلام هوليودية عن بغداد، إنها قبة مثل شجرة ضخمة داخل الفناء، مضيئة وطلقة الهواء، يلقي سقفها العالي بظله على الصحن والمصلين من تحتها، إنه جامع كبير جداً ولكنه يشبه صالة قمار، جامع يلاءم هذا الذوق الشعبي ويخفف من كآبة الجامع ورصانته، حيث يصبح دخول الجامع بهجة كبيرة مثل دخول مطعم أو كازينو..

**

في الواقع كتب كمال مدحت بدءاً من انتهاء الحرب العراقية

مكتبة الفكر الجديد

الإيرانية الكثير من الرسائل إلى فريدة ، يخبرها بالحياة الباردة في بغداد والتي تقترب من التجلد ، كان يعتقد أن الهدوء هو أخطر شيء في الشرق الأوسط ، ما إن يعيش البلد حالة من الرخاء حتى ينفجر مرة أخرى ، فضلاً عن الأخبار العائلية والتي يمكن إجمالها بمرض زوجته نادية ، وهجرة وداد ، ومقتل جانيت ، وأمجد مصطفى الذي تحول إلى سكير ومدمن لا يفارق الخمارات ، فهو من جهة لم تتوقف كونسيرتاته الموسيقية ، وكان يؤدي دعوات متعددة ، ومن جهة أخرى كان يشعر أن أعوام ما بعد الحرب هي أعوام ترقب ، فالسلطة في بغداد كانت تقوم على الحركة ، تقوم على المبادرة ، ولا يمكنها على الإطلاق أن تترقب طويلاً ، كان كمال مدحت يشعر أن السلطات السياسية لا يمكنها أن تقاوم ثقل الزمن إلا بالعنف ، وهي تخاف وتخشى هذا الركود الطويل . لقد شعر أن البلاد أصيبت بتشوش أذهان حقيقي عقب الثورات والحروب والقسوة والعنف . كان هنالك يأس قاتل يلف الناس ، لقد تحول الشعب إلى جمهور ، والطبقات انهارت كلياً ، لم تعد هنالك فوارق حقيقية ، الجميع يتشابه في كل شيء . لقد توحد الناس في الخوف ، والفقر ، والإذلال ، ولم يعد لكمال مدحت أي إيمان بأية محاكمة منطقية ، هذا الشرق الأوسط هو هوى من الأحقاد والقسوة والكراهية ، السياسة فيه هي الهوى وحده ، هي قيم منحطة تفرض على مجتمع لا يفرق بين أخلاق السياسيين وأخلاق العصابات ، فيتحول الجميع فيه إلى جماهير .

كان يسير في شارع الرشيد وحيداً ، الكل كان يسافر ، الجميع يريد أن يهرب . .

وقفت نادية على عكازة أمامه . . كانت ترتدي روبها الأزرق ، وجهها ذابل ومريض ، وشفتاها ترتجفان . . قالت له : «عمر لا يبقى هنا . .لا أريد

مكتبة الفكر الجديد

عمر أن يعيش أهوال الحرب . . سأرسله إلى مصر عند أختي . .»

يوم واحد فقط من هذه المناقشة بين كمال ونادية ، وفي اليوم التالي ودع كمال ابنه عمر إلى مصر وعاد إلى المنزل . فجلس على كرسي قريب من النافذة وعاد إلى متعته في مراقبة الأشجار والأزهار في الحديقة ، وفكر بمصير أبنائه الثلاثة : ابنه مثير في أميركا ، عمر في مصر ، وحسين في طهران . .

هكذا وقف أمام مصائر الأبناء ، وقف راجفاً أمام بلاد تخبىء شيئاً لا يعرف أحد ما هو ، فهنالك هوى آخر في الأفق ، ورومانطيقية جديدة ستعصف بالعقول والأفكار ، هنالك انكسار وغل بلا نهاية ، ومواجهات سياسية لا يحكمها إلا التأليه الحر لتركة العدمية والتمرد واللاعقلانية ، كانت السلطة السياسية تفرض تمجيداً رهيباً لقوى الغريزة والدم الغامضة ، وكان صدام حسين هو جزء من تركة العدمية ، كان حركة غامضة توجهها روح الدهماء ، وحسابات الكيد ، وبراعة الدهاء ، وكان جنونه لا يتشكل إلا عبر صورة الأعداء الدائمين الأبديين ، الشيوعيين أولاً ثم الإيرانيين وبعد ذلك الغربيين ، فلم يكن يعرّف العراق كأمة موجودة وكائنة إلا عبر الأعداء المحيطين بها ، وهكذا حول البلاد إلى طابور يسير ولا يهم أين يتجه ، حوله إلى قوة عمياء تتدحرج حتى دخلت في بؤرة الدمار الحتمي ، قوة تسير بسرعة مجنونة ، وكان الغرب يدفعه من الخلف ، من معركة إلى معركة ، من غزو إلى غزو نحو إقامة إمبراطورية الغل وجمهورية الدهماء ، هذه الدهماء هي التي أكلته فيما بعد ، وأكلت الدولة وأكلت المستقبل والتاريخ كله ، حتى وصلت البلاد إلى هذا التشوش الكبير في العقل ، والجنون ، والعنف غير المحدود ، والحركة الزائدة التي لا يمكن كبحها .

**

مكتبة الفكر الجديد

كانت الفكرة السياسية الرومانطيقية السائدة هي أن العراق يستمد هويته من تراجيديا وجوده، كموقع طرفي للأمة من جهة، ومحروم من البحر من جهة أخرى، وكانت الفكرة القومية في العراق تقوم على فكرة أن العراق المنقذ هو العراق الضحية، هو المعاقب بسبب دوره البطولي أو الرسولي، ولأن له التفويض الرسولي للأمة، والأمة لها تفويض إلهي، إذن هو خارج كل حساب وخارج كل حد، وهكذا خرج صدام حسين ببذلته الخاكية يصرخ أن العراق المسكين محاط بالأعداء، العراق مثل يوسف بين إخوته، لكن يوسف المسكين الذي يستسلم ويفوز في النهاية بقلب أمه وأبيه وأخوته، يختلف عن العراق الذي يضرب بعنف وبكل ما عنده.

نهض كمال مدحت صباحاً، كان يلهث من الخوف، وقلبه يخفق مثل طبل، صوت المذياع يصيح بأن الجيش العراقي دخل الكويت وضمها، نظر إلى نادية وهي في سريرها، وجهها الأصفر الذابل المريض، ضربات قلبها التي تخبو، الطاولة القريبة تحمل علب الأدوية والأشرطة والمسكنات وكأس الماء، خادمتها فوزية بشبابها العارم المكتوم إلى جوارها، كانت القوات الدولية تسد المنافذ جميعها على العراق، وبظرف ساعات خلت المحلات من البضائع وأقفلت، الشوارع لم تعد فيها بقايا أطعمة، والقطط التي لا تجد شيئاً تأكله في المزابل أو البيوت أخذت تلتهم الحشائش، الحيوانات النافقة من الجوع مرمية على الطرقات.

ما الذي يحدث في البلاد؟

شيء لا يصدق.. لا يمكن للعقل احتماله، كان يعيش نوعاً من اليأس القاتل، واللا أبالية الكبيرة، لم يكن قادراً على فعل أي شيء سوى قراءة الصحف، والاستماع إلى الإذاعة التي تبث البيانات السياسية.

كتب بعد سنوات إلى فريدة:

مكتبة الفكر الجديد

(كانت أسوأ أيام حياتي، الشارع يغلي، الوجوه عابسة، والأفق لا يخبىء سوى يوم الانفجار الكبير.. كل شيء مر بسرعة كبيرة.. صدام تمسك بالكويت، وجاءت طائرات الحلفاء لتهدم بغداد برمتها، لم تبق على جسر، أو مصنع، أو قصر، أو شارع، حتى القناطر بين قرية وقرية هدمتها، بغداد تحولت بغضون أيام إلى قرية حقيقية، وعادت الناس تحمل الماء على الحمير مثلما كانت أيام زمان، وكل غريزة بدائية كشرت عن أنيابها.. لم تعد للحياة طعم هنا.. وأنا لا أنتظر سوى أن أموت بسلام..)

**

كانت الأخبار التي يعرفها عن الحياة في الخارج شحيحة جداً، أكثرها أخبار مروية بشكل سيء عن طريق فوزية. أحيانا تقول له شيئاً فيطلق ضحكة في الهواء.. بسبب عدم قدرة فوزية على استيعاب الأحداث. هكذا ظهرت فوزية في حياته منذ عامين، جاءت بها إحدى قريبات نادية، كانت صبية جميلة، وجهها أسمر صاف، وعيناها كبيرتان عذبتان، شعرها كان منسقاً ومستوياً فوق جبهتها، يوم دخلت المنزل وقفت أمامهما ممسكة بكيس ملابسها وقد ظهر عليها التحفظ والارتباك، كانت ترتدي قميصاً أخضر بأزرار سود، وقد انحسر كماها عن معصمين جميلين، ترتدي بنطلونا رثاً وجوربين أزرقين وفي قدميها حذاءان سيئا التلميع.

وقد اندهش لرؤيتها، اندهش من بشرتها الطرية الصافية، والبريق اللاصف في عينيها، أحب حيوية الوجه النيّر، وهذه الثنية الخجلة على الشفتين، والحاجبين العاليين، والنظرة الصافية المندهشة من مشهد المنزل والسيد الواقف أمامها.

مكتبة الفكر الجديد

لقد أحبها من النظرة الأولى ، لقد أحب روحها الفطرية الريفية البدائية التي تطبع كل شيء فيها ، كانت فتاة غرائزية ، عواطفها بريئة تماماً ، ومنطلقة مثل سهم . وإن كانت أمية مقهورة ، فقد كانت منتشية ومتلذذة إلى أقصى حد . حين تأكل تتحسس كل شيء بحواسها ، هذه الحواسية هي التي بهرته ، هذه الروح كانت متوائمة مع الحياة الطبيعية بجانبها الصارم والعاري والمدهش ، فكانت تتحدث بلكنة ريفية مثيرة له ، وتتصرف بصورة فطرية تنبض بالروح الخصيبة ، وربما كانت على درجة عالية من الشهوة .

كتب إلى فريدة :

(لقد أحببت هذه الصبية من كل قلبي . . لم أكن يوماً مندهشاً أمام امرأة مثلما أنا مندهش أمامها ، لم أكن أعرف كم أنا جاهل بالحياة كما أرى نفسي أمامها . . لها معرفة فطرية حتى في الجنس ، معرفة لم تفسدها الحياة الحضرية أبداً ، هذه الأمية تعلمني الحياة من جديد)

الجميع كان يعرف أن علاقة سرية نشأت بينه وبينها ، الكل كان يعرف ، حتى نادية التي كانت على فراش الموت .

**

ذلك الوقت كفت نادية عن استشارة الأطباء ، فما عادت مسكنات الألم نافعة ، وشعرت بأنها عاجزة تماماً أمام الوجع الذي تمركز في نصف رأسها ، والذي لم يكن بمقدور أي دواء أن يخففه ، شيء ينخر في أعماق صدغيها ، ويثقب عينيها ، ويضرب على دماغها حتى تشعر بالغثيان ، كانت مسجاة وقطرات العرق تسيل ببطء من صدغيها ، كانت تريد أن تموت لتتخلص تماماً من الألم الذي يطوقها . وأثناء القصف على بغداد ، توفيت نادية . . هكذا فجأة تيبست على فراشها . . فصرخ كمال مدحت

مكتبة الفكر الجديد

صرخة ألم واحدة وارتمى على جسدها . . لم يكن أحد معه سوى فوزية ، فحملاها كلاهما إلى المقبرة . . وبعد دفنها توقف على قبرها المحفور وبكى من كل قلبه .

**

أمضى كمال مدحت أيام القصف على بغداد وهو جالس في الظلام ، أمام طاولة صغيرة عليها كتاب سميك وراديو ترانزستور ، وفي حجرة عارية مطروشة بالجص ، وكانت رائحة المنظفات الحادة تزكم أنفه ، كان يتسمع باهتمام شديد للأخبار الجديدة ، وقد عرف أن الجيش قد انهزم أمام قوات التحالف ووقع وثيقة الاستسلام ، وانتفضت الجماهير بقوة في الشمال والجنوب ، وقد انقطعت أخبار البلاد كلياً ، فأخذت الجماهير تسرق وتحرق وتهدم كل ما يقع أمامها ، ولترد الحكومة على هذا التمرد أخذت تقصف المدن بالصواريخ والمدفعية .

لقد عاش تلك الأيام وكان جسده كله يؤلمه ، لم يكن قادراً على التفكير أبداً ، ولا شيء يتراءى في ذهنه سوى تلك الصورة الزائفة ، وذلك البوح المقنّع أو العنيف ، روحه تعبر عن هذا الغموض الذي يلفّ تجربته الوجودية ، وتكشف عن صعوبة الوجود وصعوبة الحياة معاً . بينما كانت فوزية جالسة على الكرسي الهزاز أمامه ، أراد أن يعقد مقارنة صامتة بين صورتين أخذتا تلك الأيام تغذيان فكره ، لقد أحب في فوزية فطرتها وبدائيتها وأميتها ، عشق فيها هذه النزعة الباستورالية الشفيفة ، وشعر كم كانت الحكومات تفسد هذه الفطرية الشعرية الشفيفة لدى الجماهير بعد أن تذلها وتسحقها . كان كمال مدحت ينطوي على خوف شديد من النزعة الجماهيرية ، كان يكرهها ويحتقرها ويخاف منها ، أكثر ما كان يخشاه هو هذه النزعة المدمرة التي تنطوي عليها الجماهير الغاضبة وغير

مكتبة الفكر الجديد

المنضبطة ، إنها القوة الغرائزية التي تجتاح بعنف وتهدم ، هذه الروح الشعبية التي تنطلق مثل سرب من الجراد وتخرب كل شيء أمامها ، نزعة غرائزية تجعلها تقتل وتسرق وتبطش .

وكان يعتقد أيضا أن النزعة السياسية الجماهيرية قد حطمت النخب تماماً ، وأصبح الكل من الجماهير الرثة ، فالسلطات لا تصنع بابتذالها وقسوتها وهمجيتها النزعة الجماهيرية لدى الشعب وتغذيها فقط ، إنما كانت هي أيضا تنطوي على نزعة شعبية جماهيرية وغوغائية أيضاً . . وهكذا وقف الشعب والحكومة وجهاً لوجه ، أيهما يقتل أكثر ، أيهما يبطش ويخرب؟ كانت الحكومة تعتبر الشعب هو المسرح الذي تطلق فوقه صيحة عنف وصرخات غضب متواصلة ، كانت تريد أن تجسد فيه القسوة بصورة كاملة ، نوع من طقوس عبادة الدم ، نوع من الإرهاب كما هو في الديانات القديمة ، إنها تجعل الإيمان بالقتل مثل النشوة الروحية تشيعان بين الناس كالعدوى ، كانت تعيد لهذه العبادات سحرها ، فالشعب هو المسرح الذي تؤدي فوقه هذه المهمة ، تقتل وفقاً لطقوس ، تجعل للقتل شعائر يمكنها أن توقظ فيه هذه الغرائز جميعها ، والشعب هو الآخر يطلق صرخاته بعضاً على بعض ، إنه يفتك بنفسه ، ليتوهج ويبلغ النشوة من جديد . . يصبح الموت نوعاً من النيكروفيليا ، نوعاً من حب الأجساد المهشمة والمخلعة ، الشعب يحب الدم وهو يتدفق ، ليبث الروح في الأحاسيس جميعها .

كان هذا الوجود الشبحي الذي يجلس على كرسيه وينظر إلى مشهد الحديقة ، ثملاً ذلك اليوم برؤية فوزية ، أراد أن يشاركها ضحكها ، هذه الريفية العزلاء التي جابت الشوارع ذلك اليوم لتجلب له اللبن ، جلست أمامه وهي تحاكي مشاهد الجنود العائدين من الجبهة .

كانت دوائر زرق تحت عينيه بفعل الإرهاق ، وكانت عيناه سوداوين

مكتبة الفكر الجديد

من الألم ، كان يشعر بكائن هستيري في البلاد يريد أن يطلق يده ، قوة متوترة مهتاجة مليئة بالتشنج ، أراد أن يعبر عن الخلاص منها بالموسيقى ، الموسيقى وحدها القادرة على تغييب الجدران والحواجز والظلام ، وحدها التي تجلب الأضواء والبلور ذا الانعكاسات ، وتمنحه الأعصاب المخدرة ، لحظة توقف ووضع القوس والكمان على المسند وأخذ يرقب فوزية .

عيناها مفعمتان بالأسرار ، كانت تشعان كأنما من أعماق كهف .

الموسيقى والمرأة خففتا عليه أساه . وجعلتاه يرتعش ويتناغم مع موسيقى الكون كله .

**

في اليوم التالي خرج إلى الشارع ، الجنود يهرولون ، الرجال بالدشاديش كما لو كانوا قد عادوا خمسين عاما إلى وراء ، الوجوه متعبة وغاضبة . .

عاد مباشرة إلى المنزل ، جلس أمام نوطاته ، لقد فكر مندهشاً بالنزعة الابتذالية التي كانت تنطوي عليها السلطة والشعب معاً ، كان سلوكهما الغريزي المتعاكس شكلاً من أشكال تقديس الغائط ، شكلاً من أشكال عبادة الدم ، عبادة الفوضى والاضطراب ؛ إنه الإحساس الفظ والكريه في العيش في عالم معادٍ ، عالم من الأظافر الجارحة . وشكلاً من أشكال وجود الآخرين العدواني والمفروض أيضاً .

مقطع من رسالة أخرى :

(كل أصدقائي رحلوا ، نادية توفيت ، أمجد مريض ، وداد رحلت ، جانيت قتلت ، ابني عمر في مصر مع خالته ، أشعر بآلام في مفاصلي والمستشفيات لا أدوية فيها ، الشوارع متربة ، والدكاكين خلت من البضائع ، الفقر والجريمة في كل مكان ، الشعب كله جماهير لا طبقات ولا

مكتبة الفكر الجديد

شرائح اجتماعية ولا أي شيء من هذا القبيل ، هنالك فقط طبقة سياسية تحكم بالعنف الذي لا حدود له ، الموسيقى لم يعد لها وجود سوى الموسيقى الجماهيرية المبتذلة ، والأغاني الحماسية التي تبارك للسلطة انتصاراتها ، والحركة القومية تتحول شيئا فشيئا إلى حركة إسلامية . . صدام يصلي . . صدام يعتقد أن ما حدث هو مقدر من الله ، والناس تعيش في فقر مدقع ونوع من اليأس قاتل ، فأخذت تخفف هذه النزعة بالعودة إلى الدين)

**

لقد وجد كمال مدحت أعذب اللحظات برفقة فوزية ، كان قد وجد فيها نوعاً من الروح البطولية البسيطة والفطرية ، نوعاً من الدفاع عن النفس أمام زواج غير متكافئ وقاس ، لقد وجد كمال مدحت في حبه لفوزية نوعاً من تعويض كرهه للجماهير ، لقد قدس فيها عظمة الإنسان الأمي والبدائي حينما لا تفسده السلطة ، كانت تعبر فوزية عن حياتها بلغة بسيطة التركيب وتصوغها بعبارات عفوية ، كانت تنطوي على جانب مركب ، فهي أمية وفطرية ولكنها قاومت بشكل ضار من أجل حريتها ، كانت هذه الريفية متزوجة من مربي جاموس في الفضيلية ، وهو شخص مستهتر ومتغطرس أرغمها بشكل فظ على الزواج قسراً منه ، غير أنها قاومت سلطته بضراوة ، ووقفت بوجهه وطلبت منه الطلاق ، وقبل أن تحصل على ورقة الطلاق بأشهر قتل في الحرب ، وتنازلت عن كل شيء أمام القاضي لعائلته لأنها لم تكن تحبه مطلقاً .

**

كان كمال مدحت يجلس على كرسي قريب من النافذة ، يستمع إلى اسطوانة موسيقى ، أو يمسك الكمان ويعزف مقطوعات قصيرة ، أو يضع

مكتبة الفكر الجديد

أمامه دفتر النوطات ليكتب سيموفونيته التي حلم بكتابتها . وفوزية تسير حافية على البلاط البارد ، بنطلونها الأسود ضيق يبرز مؤخرتها ، وقميصها الضيق يبرز صدرها المندفع إلى الأمام ، تشد شعرها بشرابات إلى أعلى ، تسير وتعلك بصورة سريعة . فجأة تقف أمامه مباشرة ، تنظر نحوه بعينيها المثيرتين ، تغمز له بعينها ، ثم تستدير بسرعة وتدور بمؤخرتها أمامه كأنها ترسم دائرة في الهواء .

كانت هذه الحركات تثيره ، كانت تشعره بروح الحياة وقوتها ، الحب وحده يفسر هذه الطاقة الكامنة التي أراد أن يعبر عنها في الموسيقى ، حب جارف ، صارم غير مفسر ، لم يكن كمال مدحت كارهاً هذه الطبقات الفقيرة التي تعيش على ذل الخبز أمام البيروقراطية المدينية المتغطرسة ، كان محباً للأسطورة الشعبية بكل تفاصيلها راسماً في موسيقاه حياة هذه الشخصيات المهمشة ، والمقصية ، من الفلاحين السكيرين ، والجوعى ، والنساء الأميات ، والعمال الفطريين ، والأقنان الزراعيين ، بتعبير شعري جميل ، ولكن ما يرعبه حقاً ، هو النزعة المبتذلة لدى السلطات التي تسحق هذه الطبقات وتحولها إلى حيوان هائج يخرب ويدمر كل شيء .

**

ماذا حدث خلال هذه السنوات حتى مقتل كمال مدحت؟ في الواقع كانت المعلومات جد شحيحة ، لقد عاش كمال مدحت الأعوام التي تلت حرب الكويت منسياً ، يسير في الشارع فتواجهه موجة من الراكضين ، نحو مائدة تعقدها الحكومة في مكان فارغ في الساحات أو الحدائق ، يتوقف وينظر إلى جمع من رجال ونساء مهلهلين ، يتضورون جوعاً ، حفاة ، ورؤوسهم مغطاة بكوفيات متطايرة ، يدخلون راكضين من باب جانبي يفتحه لهم جنود الحراسة ، يندفعون جميعهم يندفعون إلى الموائد ليلتهموا

مكتبة الفكر الجديد

الرز الذي تقدمه الدولة للفقراء . . .كل ما عدا ذلك كان باهتاً ومبهماً ، وهذا ما كتبه في رسالة إلى فريدة :

(الحياة باردة وخاوية ، وبغداد لم تكن سوى عالم يلفه الغموض ، الشوارع قذرة ، الدكاكين فارغة ، الوجوه شاحبة مريضة ، وجوه الناس يابسة ويائسة ، وقاعات الموسيقى الكلاسيكية أصبحت صالات شعبية للأغاني المبتذلة . .)

الصورة الوحيدة الباقية في ذهن الناس عن هذا الموسيقي العجوز ، هي مسيرته اليومية ببطء في شوارع المنصور ، لم تكن في ذهن الناس غير صورة واحدة : صورة أرمل له علاقة مع خادمة ، شعره أبيض ، لحيته الخفيفة بيضاء ، وملابسه رثة ، ملابسه القديمة ذاتها التي كان يرتديها منذ سنوات ، يسير في الطريق وهو يحمل في الغالب معه كتاباً بالروسية ، يسير في الطريق ذاته كل يوم تقريباً ، بين منزله في المنصور إلى نهاية شارع الحارثية ، ويعود على الطريق نفسه ، ترافقه أحياناً خادمته فوزية ، وفي أحيان كثيرة كان يقف في طوابير الواقفين على توزيع البيض ، أو توزيع قطعة دجاج ، وهي حصة كانت توزعها الحكومة على موظفي الدولة المتقاعدين ، من وقت إلى وقت .

هذا في الواقع كل ما حصلنا عليه من حياته بين الحربين ، أما الحرب الأخيرة فقد كان يرقب نشرة الأخبار في التلفزيون ، فجأة سمع صوت الجرس ، نهض من مكانه وأزاح الستارة من الشباك ونظر ، كان أمجد مصطفى بالباب .

كان مفاجأة حقيقية لكمال مدحت ، ذلك أن أمجد مصطفى قد تغير كثيراً ، عيناه ذابلتان ، وكرشه مندفع إلى أمام ، يتكلم وهو يلهث ، مظاهر الإدمان واضحة على وجهه ، سيماء التعب والإرهاق ، الجسد المترهل

مكتبة الفكر الجديد

والملابس الرثة ، كان يرتدي جاكتة كحلية عتيقة ، تحتها بلوزة موبرة ، وبنطلوناً من الجينز ناصل اللون تماماً .

أدخله إلى الصالة ، وطلب من فوزية أن تعد لهما القهوة ، بينما اندفع أمجد مصطفى وراء الحاجز ليصب لنفسه كأساً من النبيذ الأحمر .

«شبيك أمجد . .كل شيء بيك متغير . .» قال له كمال مدحت . .

ابتسم . . وقال : «كلنا تغيرنا . .»

النبرة القومية اختفت كلياً من حديثه ، التفويض الإلهي لم يعد للأمة العربية كما كان يؤمن قبل سنوات ، سنوات الانتصارات والأمجاد والعودة إلى كتابة التاريخ كما في مدرسة بغداد ، أصبح التفويض الإلهي للأمة الأميركية ، اندفاعة عالية للنزعة التكوفيلية وهي الحلم بالديمقراطية وحقوق الإنسان ، كان هذا الحلم ذاته يؤمن به كمال مدحت ، مع خوفه من النزعة الجماهيرية ، مع خوفه الشديد من هذه الاندفاعة الشعبية التي تفلت من كل سيطرة . كان يريد التغيير دون شك ، ولكن من يعرف الثمن ، لا أحد يعرف ، لم يكن أي واحد منهما يعرف ماذا سيحدث لأنه شيء غير مجرب . شيء غير معروف بالمرة ، ومن ثم لا يمكن لأي واحد منهما دفعه ، أو الوقوف بوجهه .

«من يستطيع دفع الاحتلال الأميركي . .»هذا ما قاله أمجد مصطفى لكمال مدحت . .

«لا أحد . .» قال له .

«إذن ليكن . . وتتحقق الديمقراطية ، لتتحقق التنمية والحقوق الوطنية . . وبعد ذلك تصبح للأمة قدرتها على تقرير مصيرها . .»

كان كمال يشرب القهوة وينظر باستقامة واحدة من نافذة شرفته إلى الحديقة الغابية الكثيفة ، هل «تثق بأميركا . .؟» قال له مستغرباً ، لم يكن

مكتبة الفكر الجديد

لكمال مدحت أي إيمان بالإمبريالية ، كان يرفض أية سلطة ، أية قوة ، أي عنف . . وهذا ما جعله يرفض هذه الروح الانتصارية سواء مثلتها الروح القومية العراقية أو الأميركية . .

قال له أمجد كي يأتي على برهان ضده : « ألم تقرأ قصيدة سعدي يوسف الأخيرة . .دعوة إلى توني بلير . . إنه يطالب رئيس وزراء بريطانيا بلير باحتلال العراق . .»

وقف كمال مدحت مندهشاً من كلامه . . هل هذا صحيح . .ثم ابتسم قليلاً . . كانت هذه النزعة هي المهيمنة على المثقفين جميعهم ، وهو حلم التغيير بأي ثمن كان . وأمجد مصطفى كان ضحية لمشاعر القهر القصوى ، كان مدمناً ، يعيش أسى الإخفاق ، واللهاث وراء مجد ضائع ، مثل ملاح مبتدئ داهمته الريح فلم يعد يعرف أين يضع شراعه . كان نوعاً من الإحساس بالقهر الحقيقي يستولي عليه ، كان يقدم ملاحظات قصيرة ، يحرك ذراعيه ، ويشير ويدخن ، ويلعن ، ويحتسي النبيذ الأحمر بسرعة فائقة .

بعد أيام كان كمال مدحت جالساً على أحد المقاعد ذات المساند جوار النافذة في الصالة ، راح يتأمل الأشجار التي تتحرك أغصانها في الخارج ، كان من الصعب عليه أن يكون فكرة ، من الصعب عليه أن يشكل موقفا صحيحا ، كل شيء مشوش ومضطرب مثل ارتباك المد ، وحين رفع رأسه راعه ما يراه من صورة : بوارج حربية تتقدم في المحيط ، طائرات حزبية من كل نوع ، مارينز بخوذهم ومعداتهم العسكرية يسيرون بصورة منتظمة ، صواريخ بعيدة المدى تعد على القواعد في الصحراء ، قوات كبيرة جداً تتوغل في الصحراء تتقدمها مدرعات ومجنزرات ، قوات أخرى تلزم قواعدها في دول الخليج ، ومن هنالك ستنطلق لاجتياح

مكتبة الفكر الجديد

العراق . كانت البلاد في مهب الحرب ، والجماهير تترقب حركة القوات العسكرية وهي تبني مواضعها وخنادقها في الشوارع ، كان الطعام يشح شيئاً فشيئا ، وهنالك نقاط حراسة متعددة في الساحات العامة والحدائق ، دوريات عسكرية وأمنية تجوب كل زقاق وكل شارع .

استيقظ كمال مدحت من نومه ، كان ثمة صوت انفجارات كبيرة قرب المنزل ، وقد بقي دقائق وهو يتصبب عرقاً ، لقد شعر بنوع من الأسى والخوف ، كان ينظر الحجرة رطبة ، صدئة ، والظلام لصيق بها ، تقدم بقامته الطويلة المحنية قليلاً نحو فوزية التي كانت جالسة على مقربة منه ، ثم سمع دوي انفجار عنيف جعل فوزية تقفز وتذهب إلى النافذة ، كانت هنالك سيارة تحترق بمحاذاة الرصيف ومنزل تلتهمه النيران ، ومحل أزهار يتهدم بالكلية .

عاد إلى مكانه جوار الشباك ، نظر إلى القمر . كانت ليلة دافئة . النشرة الجوية وعدت بهذا . كل شيء على ما يرام حتى الآن . . .تبادل كلمات قليلة مع فوزية ، أعدا وجبةً سويًا ، جلسا ، تناولاها معاً . أطلق نكتةً . ابتسمت له . لم تذكر له شيئاً بشأن إسرافه في الخمر هذه الأيام . وهو لم يذكر لها أمر الحرب ، ولا خوفه ورعبه مما تخبئه الأيام القادمة ، رفع كأسه ، وشرب نخبها ، ثم نظر عبر الزجاج ، ورأى الحديقة قد تحولت إلى كتلة من ضياء .

**

مرت عشرة أيام على اندلاع الحرب ، وكمال مدحت ينظر من النافذة يرقب المدينة التي تلتهمها النيران ، كان ينظر الطائرات مثل الحشرات السود وهي تقصف كل مكان ، جسور ، منازل ، عمارات ، مصانع ، كان ينظر من النافذة إلى بغداد التي تحولت إلى قطعة سوداء من الدخان ،

مكتبة الفكر الجديد

كانت هنالك عاصفة ترابية تهب وتقلع ما يعترض سبيلها ، والقوات الحربية تتسرب هاربة بمعداتها ، كان الجنود يطلقون الصواريخ من بين المنازل ، ونقالات الجرحى تنقل الجنود السابحين بدمائهم ، جنود هاربون من الميدان ، وآخرون يحتمون بالمنازل والمستشفيات .

قرر أن يخرج من المنزل ، لفحه الهواء البارد أول ما فتح الباب ، دفن عنقه داخل ياقتي معطفه ، وانكمش على نفسه ، جر قدميه بصعوبة بالغة . سار على الرصيف ، كانت هنالك فيلا شبه محترقة ، نظر من خلال ما تبقى من نافذتها ، كانت هنالك مائدة خشبية محترقة أيضاً ومكتبة ، رجال إطفاء وإنقاذ يرفعون الجرحى والقتلى على النقالات .

واصل السير ، منزل مشيد من الطوب الوردي ، يحيط به سور خارجي كان يتصاعد الدخان منه ، ملصق يدعو إلى التبرع بالدم ، عبارة بطلاء أسود تقول «الموت للأميركان» ، نوافذ منزل بمستوى الشارع ، ثمة امرأة تتكلم مع رجل يمسك كيس نايلون .

**

في اليوم الأخير من الحرب كان جالساً في الصالة ، ينظر باستقامة واحدة نحو الزاوية ، كان الظلام يعم المنزل بسبب انقطاع التيار الكهربائي فأزاح الستائر لينير الصالة . دخلت فوزية عليه ، كانت مضطربة ، تتحدث بسرعة وتتدافع الكلمات مع بعضها ، كانت تصور له كيف اختفى الجيش كلياً من الشوارع ، وصار الناس ينهبون ويسرقون دوائر الحكومة . .لقد راعه ما سمع ، كان يعرف أن النزعة الشعبية ستصعد مرة أخرى ، لقد عرف أن الجمهور لن يكتفي بهذا ، ستلتهم هذه النزعة البلاد أجمعها ، فأخذ قلبه يخفق بقوة حتى ضاق نفسه .

عاد إلى نوطاته ، أخذ يرتبها مع بعضها ، حاول أن يكتب شيئاً فلم

مكتبة الفكر الجديد

يستطع ، فجأة انتبه أن فوزية غادرت المنزل ، أدرك أنها لن تستطيع مقاومة ما يجذبها في الخارج ، خرج وراءها راكضاً ، كان يمشي في الشارع وهو يلهث من التعب والاضطراب ، والشاحنات المحملة بالمسروقات تمر من جانبه . رؤية غريبة بعض الشيء عليه ، الشعب يسرق ممتلكاته . كل ما هو موجود من مؤسسات كانت عرضة للسرقة ، كانوا يهدمون حتى الطابوق . . أخذ يتلفت بين الناس ، كاد يصطدم بشخص حامل لكرسي ، وآخر يحمل كيساً من الطحين ، وامرأة تحمل ثلاجة على ظهرها وتركض بها ، ومن بين هذا الحشد المتراكض عثر على فوزية ، كانت تحمل كرسيين من الخيزران تحملهما وتركض بهما . قبض عليها بقوة من يدها ، وأمرها أن ترمي الكرسيين وتتبعه ، رمتهما وهي متجهمة ، ومدردمة ، وحين عاد بها إلى البيت ، احتجت بقوة في وجهه ، قالت له إنه مهرجان تسوق مجاني ، والناس كلها تأخذ وتذهب فلماذا يمنعها هو : «قل لي شنو العيب بهذا الموضوع . .»

كان من الصعب عليه أن يقنعها . سكت وعاد إلى كمانه .

**

كانت الأيام القادمة تظهر ما كان مخبوءاً . لمح في لحظة رجلاً أبيض ، لمح بريقاً أسود لسلاح يلمع قبل سقوطه ، لمح تمثالاً آخر ينهار بعد أن انفصل عن قاعدته ومال إلى اليمين ، لمح مجندة فوق المدرعة تصوب ببندقيتها وتطلق الرصاص ، لمح رجالاً يستمرون في العدو نحو جندي أميركي أسود شبه نعسان وغائص في الطين البني إلى الركبتين ، يتحدث وهو يمسك سيجارته بيد ، وبندقيته باليد الأخرى ، كانت الأصوات قبل أن تتلاشى تأتيه من النافذة ، شفتاه تتحركان دون انقطاع ، ووجهه أكبر من قبضة اليد طالع فوق رقبة من ياقة المعطف الصلبة ، وعلى امتداد الحائط

مكتبة
الفكر
الجديد

توقف المدنيون قرب المتاع العسكري الملقى على الأرض ، أشار لهم إلى الزقاق وتفرقوا ، بينما كانت الحرائق تتوهج بقوة من المدينة . وبالقرب من الرصيف توقف ضابط من المارينز واتكأ على السياج ، كان جامداً في زيه العسكري ، شعره معفر بالغبار ، بندقيته فوق رقبته ، وعلى مقربة منه جندي عراقي ممدد وفي صدغه ثقب أسود . . .

صرخت مجندة على الواقفين على الرصيف ليدخلوا بيوتهم . . كان الصوت مفخماً عبر مكبرة الصوت ، وصوت الرصاص يخطف أجساداً بعيدة ، صوت القذائف ترتطم بالجدران . . وعربات الجنود الكاكية كانت تجوب شوارع بغداد بصوتها الموحش ، شيء ما يتهدم في داخله ، شيء ما يهتز ، وأطرافه تهتز أيضاً . .

فجلس مثل كل يوم في المكان ذاته يرقب تحول الأشجار والأزهار ، شجرة السدر بلحائها الخشن المغطى بالأشنة ، جذعها منحن قليلاً ، أغصانها تمتد خارج سياج الحديقة ، نهايات الأغصان الأكثر طولاً تدلت بفعل ثقلها ، كان يرفع صوت الموسيقى من الغرامفون ، من بعيد كان يسمع في التلفزيون صوت مذيع متحمس ، بينما كان مشهد الموت في كل مكان . أصوات خوف واضطراب كبير ، صراخ نساء ورجال ، أصوات تفجيرات مفزعة ، حرب خنادق ساخنة ، اختطاف وذبح على الطريقة القروسطية ، بشر ينحرون وآخرون تتطاير أعضاؤهم وأحشاؤهم في كل مكان ، وبعد مقتل عشرات الآلاف ، هنالك صمت مطبق ومريب . لا شيء سوى النظر البارد إلى مشهد العنف عبر الشاشات ، النظر إلى سيارات إسعاف تنقل الجثث السابحة بالدم الرائب ، ولملمة أعضاء القتلى ببطانيات وخرق وسخة وممزقة ورميها في سيارات البيكاب .

الملابس مهملة ، الحوارات متعجلة ، المحادثات شفوية وقصيرة ، الكلام

مكتبة الفكر الجديد

ينجز بطريقة سيئة ومختزلة ، تفضي إلى تكرار جملة أفكار تغدو فقيرة وتتخذ صيغاً مبسطة ، إنه هاجس شمولية المعنى وعموميته ، هاجس الكلام الذي لا يصل إلى أي معنى . .

عودة الأبناء

الفصل المهم في حياته تلك الأيام هي عودة أبنائه الثلاثة مرة واحدة بعد الاجتياح الأميركي . منير جاء مع القوات الأميركية يحمل أفكار الديمقراطية والتغيير ، وقد عاد حسين من طهران مع الحركة الإسلامية الشيعية ، كان سعيداً بالعودة بعد التهجير القسري والنفي ، وعاد عمر من مصر إلى بغداد ، وهو يحمل حقداً وغلاً بلا حدود لخروج السنة من السلطة .

جاء حسين إلى منزل والده ، مستعيناً بكاكه حمه الذي اعطاه العنوان ، دخل الصالة وتوقف أمام والده مباشرة ، تفاجأ والده ، شعر ابنه الأسود مفروق من الطرف ، وهنالك خصلة تحد الجبين . لحية سوداء كثة ، ونظارة بإطار أسود ، يرتدي جاكيتة عريضة ، وبنطلوناً واسعاً ، وقميصاً أبيض دون رباط وقد زرّه من الياقة ، صورة القادم من متربول الثقافة الشيعية المعاصرة .

جلس بهدوء وخجل على الكرسي ، صوته الهادئ وبسمته الفاترة ، صورة بديلة لصورة المناضل الشيوعي في السبعينيات والتي اختفت تماماً من الحياة الثقافية في العراق . كان يحدث والده بهدوء عن حياته وزواجه . . وعن مجيئه . . فهو لا يروي قصته الشخصية حسب ، إنما يريد أن يصنع من مأساته صورة لهوية ، هوية تجد مدلولها الحقيقي في التراجيديا ، وهو الشيء ذاته الذي صادفه كمال مدحت مع ابنه عمر ،

مكتبة الفكر الجديد

عمر القادم من مصر ، كان يريد أن يجسد صورة المثقف القومي القديم ، بشواربه الكثة والممشطة على فمه حتى تخفيه ، وشعره الأسود المردود إلى وراء ، بخدوده السمينة ونظراته القاسية ، الصورة العربية للذكورة القومية الطاغية ، غير أنها اليوم ممزوجة بصورة السني الذي يريد أن يكتب تاريخ هويته من تراجيديا إزاحتهم عن السلطة .

جلس حسين بهدوء وهو يتحدث لوالده بنبرة التاريخ ، كان يؤمن أن فلسفة التشيع هي فلسفة التاريخ ، وهي الحتمية التاريخية ، ذلك أن الوحي النبوي قد اكتمل مع خاتم الأنبياء ، ولكن خاتمة التاريخ لم تحن بعد . قال لوالده إن للنبي مهمة إبلاغ الوحي ومهمة تأسيس الأمة ، وهذه المهمة انتهت بختم النبوة ، وكان على المهمة الثانية أن تتحقق وهي خاتمة التاريخ ، وهذه لن تتحقق إلا بالعدل المطلق . .

كانت اللهجة الورعة . . واللحية الخفيفة والنظارات السوداء تحجب صورة الابن عن الأب ، كان الابن يتحدث عن دين الحكم ودين المحكومين . . كان يعتقد أن الحضارة الغربية هي أشبه بضربة شمس بالنسبة للمسلم . . وهي نسيان للوجود . . والعودة للإسلام هي عودة للوعي وهي عودة للوجود . .هي التحاق الماضي بالحاضر والتأسيس لمجتمع العدالة في المستقبل . . فالإمام المنتظر والموعود والمخلص والمصلح هو الغاية وهو النتيجة معاً . . فعلينا إنجاز الثورة ضد المجتمع القابيلي . .

هكذا كان حسين يتحدث ، كان يعيد أمام والده قناعات أمجد مصطفى القومية فيما مضى ولكنها بصورة دينية هذه المرة ، كل مرة تقف هذه البلاد أمام ديالكتيك من أفكارها ، هذا الديالكتيك الذي يقودها إلى الهاوية ، لأن تناقضات الواقع هي غير ألعاب الفكر ، كان الابن يتحدث بأفكار محمد الصدر وعلي شريعتي . . والأب فاغر فمه ، مصعوق لا

مكتبة الفكر الجديد

يعرف ما يقول ، مثلما كان مصعوقاً من ابنه عمر الذي كان يريد أن يشيد هوية جديدة من نقائض هوية أخيه . . أما مثير فقد جاء هو الآخر يحدث والده عن مشاريع الديمقراطية التي تربط البلاد بالغرب ، صورة المستقبل الذي سينقل العراق إلى جنة الشرق الأوسط ، إنه اليابان في آسيا ، وألمانيا في أوربا . . صورة محلومة ومصنوعة في أجمل مختبرات الغرب . .

وحده الأب . . حارس التبغ ، وحده كمال مدحت كان ممثلاً حقيقياً لصورة الهامشي والخارجي والمقصي ، صورة المعادي لكل سلطة ، والخارج عن كل إيديولوجيا ، إنه صورة حقيقية لحارس التبغ بالتأكيد .

تذكر كمال مدحت قصيدة فرناندو بيسوا . أبناؤه الثلاثة هم شخصياته الثلاث أيضاً ، فمثير جاء من شخصية يوسف سامي صالح أي من حارس القطيع في كتاب دكان التبغ ، وحسين جاء من حيدر سلمان من شخصية المحروس في كتاب دكان التبغ ، وعمر من كمال مدحت من حارس التبغ ، هم أسماؤه الثلاثة وحالات تقمصه ، لقد كان كل وجه من هذه الوجوه يطابق هوية من هوياته المفترضة . لقد أدرك أن كل واحد منهم هو إسقاط حاد على ذاته الخاصة . وهو من خلال هذه الشخصيات يكتشف جوابه الأساس عن هويته . كل واحد منهم هو وجه من وجوهه ، إنهم شخصية واحدة ، منفصمة ومتعددة في آن واحد ، إنهم لوحة تكعيبية بثلاثة أبعاد لوجه واحد .

كان مثير يشبه الشخصية الأولى ألبرتو كايرو في قصيدة بيسوا ، وحسين يشبه الشخصية الثانية ريكاردو ريس ، وعمر يشبه الشخصية الثالثة الفارو دي كامبوس . مهمة مثير هي حارس القطيع الذي جعل من نفسه سيداً على ريكاردو رييس (حسين) الكائن المريض والضعيف ، أما ألفارو دي كامبوس فهو عمر ، قد سافر إلى الشرق (مصر-هنا) ليعود

مكتبة الفكر الجديد

محملاً بقدر كبير من الأمل ، مع تمزقه بين وعيه لعظمته وسؤاله الدائم ، ومن هنا كان تعبيره عن نفسه تعبيراً عبثياً وغير مستقر .

**

في اليوم ذاته ، كان كمال مدحت يسير في الشارع يحمل ديوان قصائد دكان التبغ لفيرناندو بيسوا ، ودخل دكان بقال قريب من منزله ليشتري سجائره ، ليشتري التبغ ، كانت الفسحة الداخلية شبه معتمة ، بسبب انقطاع الكهرباء ، كان الهدوء ثقيلاً ، وقد وقف متكئاً على عصاه الأبنوس ذات المقبض العاجي ، فمه راجف ، وكانت نظرته متأملة وعميقة ، رأى جاره وهو مهندس قديم ، كان أنيقاً جداً أيام زمان ، يرتدي القمصان الحريرية البيضاء الواسعة الياقة ، والبناطيل القطيفة السود بحمالات ، وأحذيته من نوع التاب الإنكليزي ، رآه ذلك اليوم يرتدي الدشداشة ، وقد أطلق لحيته أيضاً ، وقف عند عتبة الدكان ويدخن سيجارته بعصبية ، يتحدث باضطراب بالغ عن السنة والشيعة مع جار آخر له . .

كان الانقسام الاجتماعي واضحاً ، لقد وجد كمال مدحت الجميع وحتى أوساط الفنانين بدأت تعكس هذا الانقسام الثنائي ، وكان الجميع يهوون الانقسام كي يمدهم بعون ساكن . كمال الذي كان يعتقد أن لهذه البلاد قصة واحدة ورواية واحدة وبالتالي لها هوية واحدة ، فجأة وقف على ثلاث روايات متعارضة ومتناقضة ، كل واحدة من الجهات تكتب تاريخها وتروي وجودها بمعزل عن الجهة الأخرى ، فجأة وجد للشيعة رواية ، وللسنة رواية ، وللأكراد رواية ، وهذه الروايات لا تتمم بعضها ولكنها تناقض بعضها وتقف بمواجهة بعضها البعض أيضاً .

مكتبة الفكر الجديد

آخر رسالة

آخر رسالة أرسلها كمال مدحت إلى فريدة بيد ابنه مثير أثناء زيارته له في منزله في المنصور :

(سيصل الموت قريبًا ،لن أعيش طويلاً ، صحيح أني سأقاومه أول الأمر ، ولكني سأستسلم له بحب ، أنا أتحرق شوقاً إلى اللحظة الأخيرة ، ستكون نشوتي أمامه لا توصف ، لحظة اللذة القصوى؟ . .

حدثتك في المرة السابقة عن حارس التبغ أليس كذلك؟ أنا أفكر اليوم بالتالي : لم لا يكون الموت هو حارس التبغ . . أنا لا أراه بشعاً أراه سيداً وسيماً . . سأعانقه وأقول له يا أخي . .)

مكتبة الفكر الجديد

الجزء الثالث

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

-IX-
أسرار القتل، حياة على الحافة، وبلاد غريبة

«لا أعرف كم روحاً كنت أملك ، وأنا أتغير في كل لحظة»

Fernando Pessoa

صورتان متعاكستان

كنت أعيش صورتين متعاكستين في المنطقة الخضراء ، كان قصر صدام الصغير الذي تحول إلى الوكالة الأميركية للتنمية الدولية يبدو ممحواً في الظلام ، وقد رممه أحد المقاولين الأميركيين بعد تهديمه ، فقد أسقط الجيش الأمريكي عليه أثناء الحرب عدة صواريخ موجّهة بدقّة ، وحين رأيته بعد الحرب مباشرة فقد كانت سقوفه منهارة ، وأبواب مصاعده مخلعة ، وأعمدته مهدومة ، وتغطت طوابق رخام القصر بالغبار السميك ، وهنالك معادن ملتوية ، وطابوق مكسور ، إلا أنه تم ترميم كل شيء فيه ، أما القصر الكبير فقد أصبح هو السفارة الأميركية في بغداد ، وقد هدموا جميع التماثيل المحيطة بالقصر التي كانت تجسم صدام . وقد دعتني نرمين للسباحة في البركة أمام القصر والتي تحولت إلى مسبح عام ، وعندما وصلنا وخلعنا ملابسنا هناك ، جاءت مجندتان للسباحة أيضاً ، خلعن ملابسهن وسرن أمام البركة بالمايوهات والمدافع الرشاشة ، كانت المجندة

مكتبة الفكر الجديد

الجميلة ذات الوشم والتي رأيناها في الطائرة تعوم أيضاً ، وكان لها وشم آخر أعلى ردفها الأيسر .

وعلى مقربة من الحانة البريطانية وهي على شكل مركب قريب من المسبح ، والتي تقدم زجاجة البيرة بثلاثة دولارات ، هنالك مكتب بريد أمريكي رسمي وحيد داخل المنطقة الخضراء ويقع على مقربة من القصر ، وهو ليس كبيراً جداً . وفي بوابة البريد هنالك جندي أميركي يفتش الرزم الداخلة ، فاندهشت فيما إذا كان هنالك ما هو مخيف ، ولكن اتضح أن الجندي الأميركي يبحث عن الدي في دي المزيف ، وبعد أن يدقق الرزمة يختمها ، أما الإرسال فقد كان مجانياً .

في حدائق القصر هنالك بيت النادي الريفي ، إحدى الحانات الممتازة داخل المنطقة الخضراء ، وتقع على بضع خطوات عن نقطة التفتيش الأخيرة ، وهذه الحانة حارة ومزدحمة في أغلب الأحيان ، تصرخ موسيقى البوب التافهة منها ، وفيها مناضد لعبة البولنغ تقع على الجانب الأيسر من البار الدائري ، وعلى الجانب الآخر منطقة مفتوحة حيث يمكن للرواد الرقص عليها ، وفي منتصف الحانة بضع مناضد وكراسي .

أما حانة بونكير فهي تضج على الدوام بموسيقى عالية ، أما جدرانها من الداخل فهي مصنوعة من مادة خرسانية ، والغريب فيها أنها مزينة بالأسلحة ، فقد جصّصت قذائف الهاون على الحائط للزينة .

وهنالك البازار الذي يمكنك أن تشتري منه التذكارات ، والسجاد ، والصور . ومن الجهة الأخرى عدد من البنايات الصغيرة ، دكان حلاق ، شركة سيارات ، مخزن ، دكان ملابس ، مسجلات ، كتب ، مجلات ، أحذية ، دراجات ، محل للبرغر كنج ، أما فندق الرشيد فلا يبعد كثيراً حيث تقطن كاترين حسون ، وكل يوم نزورها أنا ونرمين ، ونبقى ساعة أو

مكتبة الفكر الجديد

ساعتين معها في الفندق ، فهنالك محلات راقية لبيع الصحف والمجلات الأجنبية ، ومخازن متنوعة ، ودكان لبيع ساعات Rolex ، ومحل لبيع الصور ، والبسط الفارسية ، وأقراص الدي في دي ، ومن الخارج كنا نرقب بركة المسبح ، والكازينو ، وصالة الجمنازيوم ، وأحياناً كنا نقضي الوقت في حانة صغيرة تقع في زاوية البهو ، صاحب هذه الحانة رجل هزيل ذو جلد متهدل ، ياقته عالية ، ويرتدي على الدوام بابيوناً أحمر ، يصب الواين من زجاجة بمنقار في كؤوس صغيرة ، والغريب أن لهذا البار رواداً دائمين ، كلما ندخل نجدهم هم أنفسهم ، وهم أربعة من ضباط الستراتيجيا الأميركية يتحلقون حول طاولة دائرية بالقرب من النافذة ، وينهمكون بلعب الورق ، يطلب الرابح على الدوام بيرة للأربعة ، وبالقرب منهم ، رجل وردي اللون ، ضخم الجثة ، وخط الشيب شعره ، يطلب الروم الثقيل ، ويدك غليونه وهو يتأمل اللاعبين بعينين ماكرتين .

هكذا كنا نقضي الوقت في المنطقة الخضراء ، أما في المنطقة الحمراء فقد كان الأمر مختلفاً تماماً :

كنا نسير متخفين في الظلام . العصابات المسلحة في كل مكان ، وعلى ركبنا تغفو خريطة المدينة التي رسمناها مثل مربعات شطرنج ، المربعات السود للشيعة ، والمربعات الصفر للسنة ، ارتكاب خطأ واحد يعني موت الملك لا محالة . كانت السيارة تتقدم في الظلام ، يصعد مرة أخرى في الفضاء ، برد الليل ، رطوبة قادمة من العمق تزيد الكلس صلابة ، جذوع الأشجار متيبسة ، الريح تهب ، ريح بغداد المصحوبة بالخطر . كان الناس يغلقون على أنفسهم الأبواب والشبابيك ، محتمين بالسقوف والجدران ، إنهم ينتظرون الموت في أية لحظة ، يجلسون يقظين كما لو كانوا يرصدون الليل من أعلى ، مصغين إلى همهمات القتلى والمخطوفين التي

مكتبة الفكر الجديد

تحملها الرياح من بعيد . البرد يجوس في الشوارع كما لو كان قادماً من باطن الأرض ، والخفافيش تحلق صائحة بصوت وحشي في الظلام .

من قتل كمال مدحت

من قتل كمال مدحت . . لماذا وكيف؟ هذا هو السؤال الذي كنت أسأله على الدوام ، وقد سبب لي صداعاً طويلاً ، شعرت كما لو كنت رجلاً آلياً يتبادل حوارات طويلة مع نفسه ، سطحية مرة ، وذات إيحاء مرات أخرى ، وحينما لا تكون هذه ولا تلك ، فإنها تسبّب لي سأماً مقرفاً . حينما كنت أعجز عن تفسير أي شيء ، يصبح كلامي أشبه بحكايات الببغاوات الناطقة ، يقرف الشخص من سماعها مرتين ، مع ذلك كان علي أن أنطلق ، وبالرغم من أنني أنطلق نحو الغموض والعدم ، غير أن الحديث عن كمال مدحت كان أشبه بألوان تلطيخية على جدار أبيض ، جرس يقرع كي نلحظ وجودنا في الهاوية ، جرس يقرع ليأخذنا في نزهة طويلة في قطار الحرب المملوء بالجماجم ، والأقنعة السود التي تعوي وتصرخ . . . وكنا كمن ندخل البلاد أول مرة ، هذه البلاد في رعبها الأسود ، وفوضاها التي بلا حد .

اختطاف

كان من الواضح أنه اختطف من المنصور ، من منطقة قريبة من مكتب البريد .

كان قد هبط إلى مكتب المهندسين القريب من البريد ، قال مدير المكتب إنه هبط عنده خمس دقائق ، لم يستطع شرب قهوته ورحل .

العامل الذي كان يقف على مقربة من الباب قال إن هنالك رجالاً

مكتبة الفكر الجديد

ملثمين هبطوا من مكروباص أسود وبأيديهم مسدسات بكواتم صوت . شخص آخر كان يقف على مقربة ومعه أسلحة إضافية .

دخل كمال مدحت البريد وذهب مباشرة إلى دورة المياه . خرج سريعاً ثم دخل من الباب المجاورة لمكتب الخدمات . عبر من خلال هذا الباب لينتقل إلى قسم سابق مهمل من مكتب البريد ، واصل طريقه في الممرات الخلفية وانطلق إلى القاعة الخلفية .

هل شعر بأنه مطارد؟ هل راوده إحساس بأن مساعدة الغير ليست ممكنة؟

هل توقع من يكون هؤلاء الرجال؟

حسنا كما هو واضح أن الجماعة المسلحة قامت بدمار كبير في محاولة منهم للقبض عليه قبل الهرب ، حدثت مجموعة من الانفجارات حطمت الجزء الخلفي من مكتب البريد .

غير أن كمال مدحت واصل طريقه ، فاخترق الحطام ، وصعد لصالة الاتصالات في الطابق الثاني ، ثم فتح باباً جانبياً ليهبط السلالم الخارجية ، غير أنه عاد حين رأى أحد الملثمين يقف قريباً من السلم ، هبط السلم الداخلي ، ومن باب خلفية ركض بقدميه المتعبتين وتخطى السياج ، سياج الحديقة ، لعله يفلت من خلال تجاوز أحد المنازل . أطلقت عليه ثلاث رصاصات أعاقت تقدمه .

وصل هناك عند عمارة من أربعة طوابق ، دخل بها ، وصل المصعد ، تأخر عليه ، شعر بسيارات قادمة من الشارع ، فقرر الصعود من السلالم ، وصل الطابق الثاني ، في تلك اللحظة وصلت سيارات المسلحين الملثمين بأسلحتهم ، دخلوا بسرعة إلى العمارة .

تحرك خلال غرفة طبيب ، ولاحظ أن الرجلين اللذين كانا يلاحقانه

مكتبة الفكر الجديد

دخلان الممر ، فجأة اختفيا ، ربما صعدا إلى الطابق الآخر ، بينما كان ينظر من زجاج النافذة في عيادة الطبيب ، وجد السيارات السود في الشارع ، ومعهم الملثمون وهم يحملون أسلحتهم .

فتح باب الغرفة التالية ، شعر بأنهم سيهاجمونه من الجهة الأخرى من الممر ، كيف يمكن التخلص والانفلات منهم ، تابع طريقه عبر المكاتب ، بدلاً من الانعطاف لليمين ومواجهة مجموعة الملثمين ، انعطف لليسار ، وهبط متجهاً للمكتب المنعزل عند نهاية الغرفة ، كان يريد سيارة للهرب .

شاهدهم وراءه ، ركض ودخل بناية أخرى ، كان المصعد مفتوحاً ، دخل به ، وصعد إلى الأعلى ، انفتح باب المصعد إلى الطابق الرابع ، التفت إلى اليمين وجد سلماً فصعده ، بعد مطاردة قاسية وجد نفسه أعلى السطح ، سطح بلا سياج ، عشرات الأشخاص قرب مطعم مهدم كانوا ينظرون إلى هذه المطاردة .

ربما فكر ، هل يقفز من السطوح؟

كان في السبعين من عمره ، وضع يده على قلبه وأخذ يلهث ، تعثرت قدمه بسلك ، كاد يسقط ، جلس وهو كان يلهث ، اقتادوه إلى أسفل ، كان هنالك حقل رطب مرشوش بالمياه تنتشر فيه شجيرات عُشبية ضارة ونباتات ورقية خضر ، وبعض الأشجار المعمرة التي لم تعد يافعة ، اجتازوا معه المساحة الخضراء الشاسعة ، وأدخلوه السيارة في الخلف ، وانطلقت السيارة بقوة .

مكتبة الفكر الجديد

معلومات

كل المعلومات عن هذه المرحلة كنا أخذناها من مصطفى شاكر . وكنا التقينا به في بناء حائل اللون على مقربة من شارع السعدون بعد حوالى أسبوع من وصولنا إلى بغداد . . فكيف كان اللقاء .

ذهبت إلى شارع السعدون ، كان فارس ينتظرني هناك ، ينتظرني في بناء حائل اللون ومتآكل ، يجد المرء نفسه في بابل حقيقية من اللغات واللكنات ، بناية يتعايش فيها صحفيون من كل نوع ومن كل جنس ، وهم لا يغادرون المكان ، أما الحي فهو مغلق تماماً بالجدران الكونكريتية ، ومحمي في نقاط معينة . في الداخل محلات لغسل الملابس ، دكاكين ، صالونات حلاقة ، بارات تغص بأمريكيين وأفارقة ، في كل مكان ، في مداخل البنايات وعلى النواصي ، أعداد من الجنود والعمال الفلبينيين ، وهناك نساء يجلسن في الشرف ، وغسيل على حبال ممدودة على أفاريز الشرفات والنوافذ . كانت شقة فارس حسن أصغر من تلك التي كنا نقطنها في المنطقة الخضراء ، أو هكذا بدت لي ، لازدحامها بالكراكيب والكراسي والطاولات التي تملأ الصالة الصغيرة ، وهنالك حجرة نوم ، ومطبخ وحمام ، وعلى الرغم من ضيق مساحة الشقة ، كانت ممتلئة بالكتب والاسطوانات ، إلا أنها لم تكن تسبب رهاب الأماكن الضيقة بفضل نوافذها المطلة على الشارع التي تدخل منها دفقات من نور بغداد الأبيض الحيوي . وللشقة شرفة صغيرة ، حيث يمكن للصحفيين أن يضعوا في الليل ، منضدة صغيرة ، ويتناولوا العشاء تحت النجوم .

**

سلمنا على مصطفى شاكر .

يعد هذا الأخير أهم صحفي في الشرق الأوسط ، كتب ريبورتاجات

مكتبة الفكر الجديد

هائلة في حياته، وأدار العديد من الصحف، وسافر إلى أكثر من ثلاثين دولة، وكانت له لغة رشيقة بشكل لا يصدق، وله إمكانية هائلة في إدارة الحديث مع أنه كان ينسى كثيراً، ينسى أحياناً حتى أسماء أصدقائه.

كان رجلاً قصير القامة وممتلئاً إلى حد ما، ملابسه بعيدة عن الأناقة بالمرة، أقدامه صغيرة حتى تبدو أحذيته مضحكة لصغرها، أحذية أطفال تقريباً، شعره أبيض وعلى وسط صلعته بضع شعرات على الدوام واقفة إلى أعلى، كانت عيناه متعبتين من الأرق، فهو لا ينام إلا قليلاً، وكان يعمل مثل ماكنة، حركاته السريعة، شعره المنفوش، وذقنه الذي لا يحلقه إلا في الأسبوع مرة أو مرتين، بحيث ترى الظلال البيضاء على وجهه مثل عجوز، من يدخل إلى صحيفة أو إلى أي مكان في بغداد: ناد، مقهى، مسرح، سينما، غاليري.. -طالما يتردد على هذه الأماكن- لا يرى فيه إلا أحد العاملين أو على أكثر تقدير شخصاً نكرة، ومن المستحيل لأي شخص أن يتخيل السهولة التي يكتب بها، أو كفاءته الخرافية في توليد أفكار وعبارات رشيقة. إنه أفضل صحفي كنت عرفته طوال سنوات عملي في مهنة الهداهد -هكذا كان يسمي مهنة الصحافة، ولا سيما المراسلين، ويستعير التعبير من هدهد سليمان- الجميع كانوا يدركون ذلك، غير أن أكثرهم كان يتجاهله غيرة وحسداً بطبيعة الأمر، لم يكن يطيقه أحد من جيله، أما نحن الجيل الأخير فكنا نحبه كثيراً على الرغم من العديد من مساوئه، منها: مبالغته في الخجل والكياسة، جشعه إلى احتكار الحديث، صبيانيته والتنافس معنا حتى ليبدو أحياناً كثيرة فظاً أو أخرق. غير أن ما يشفع له هو قدرته على استخدام لغة جميلة، وعبارات رشيقة، ولديه نبرة محببة، وليبدو ممتعاً في حكاية الطرائف، ورواية الذكريات السياسية، ومغامراته الصحفية في عموم العالم. لقد كانت

مكتبة الفكر الجديد

شخصيته العبقرية المبطنة بالولدنة الشقية تسحرني ؛ وكنت أقضي ساعات في نقاشه ومراوغته ، وكنت أدرك أنه يحب الحديث المداور والمراوغ ، ولأني أجيد المداورة في الحديث والمراوغة فقد توصل إلى شعور بمحبتي ، وكلما نتصادف في العمل نبقى فترة طويلة .

لقد أمضى حياته في مجلة كان يديرها وحده تقريبا ، وبعد سقوط نظام صدام حسين أخذت الصحف والمجلات تتنافس عليه ، وكذلك المؤسسات الإعلامية ، لكنه لم يقبل العمل قط في وظيفة ثابتة ، فكان يتقلب من مكان إلى مكان ، إلى أن رأيته في مبنى صحيفة حديثة قريب من المبنى الذي يقطنه فارس في شارع السعدون ، سلمت عليه بفرح حقيقي ، وتعانقنا ثم ذهبت هناك إلى مكتبه . .

كيفك مع مهنة الهدهد . . هكذا كان يسمي مهنة المراسلين . .

وأخذ يحدثني عن الوضع العام في بغداد ، كان يذهلني على الدوام في تعبيراته الغريبة ، وكان هو الذي زودني بتصريح للطبيب العدلي في المشرحة يذكر له أن هذا المقتول هو والدي كي أدفنه ، وزودنا باسم شخص لديه أرشيف كامل من معلومات الأمن والمخابرات كي يعطينا المعلومات مقابل مبلغ من المال .

العثور على الوثائق

زودنا مصطفى شاكر برسالة لشخص كان قد استولى على وثائق رسمية من المخابرات والأمن العام ، اسمه جبار حسين ، يقطن في شقة من عمارة تقع في حي صغير وفقير من أحياء الرصافة في العاصمة بغداد ، كانت العمارة قديمة جداً ، قرب جامع مهدم بالكامل تقريباً بقنبلة مدفع ، أما المنارة فقد سقطت سالمة على الأرض ، وقد قال لنا صاحب

مكتبة
الفكر
الجديد

الدكان الذي توقفنا عنده لنشتري سجائر إن هذا الجامع كان يسيطر عليه مجموعة من المسلحين قبل أشهر ، ثم حدثت بينهم وبين قوات المارينز معركة شديدة ، حيث هدمت الكثير من العمارات والمنازل والدكاكين القريبة ، أما العمارة التي يقطنها جبار فكانت هي الأخرى مهدمة الواجهة ، ومائلة ، ومظلمة ، وسلمها بلا سياج ، وعلى مقربة منها بقعة مملوءة بالقاذورات والأزبال ، والقطط النافقة ، والجرذان التي تنط من مكان إلى مكان في الظلام .

وصلنا في الظهيرة ، حين دخلنا إلى حجرته هالنا ما رأيناه ، هنالك أرشيف كامل ، وقد فهرس الأوراق بطريق نظامية ، وعليك أن تعطيه اسم الشخص الذي تبحث عنه ثم يحضر لك الأوراق بثمن بطبيعة الحال .

جلسنا على كراسيٍّ مقششة ، وكانت الأرض مبلطة ببلاط أصفر ومفروشة بسجادة عتيقة ، وكان هو شاب وسيم متوسط القامة لا يخلو من حس ساخر ، فقد كان يجلس خلف مكتب خشبي مسروق من إحدى الدوائر ، وضع على المكتب علماً عراقيًا ، وعلى الحائط خلفه علق صورة لوالده بدلاً من صورة الرئيس ، وكتب عليها صورة الوالد حفظه الله ورعاه ، وهي العبارة ذاتها التي كانت توضع على صور صدام فبدا الأمر كله مثيراً للضحك . إنه مكتب مصغر لبيع الوثائق في بغداد ، وبسبب انقطاع التيار الكهربائي فقد فتحت النوافذ والستائر ، ومن جهة اليمين وضع فانوساً على قطعة مشمع سوداء في الطرف ، وفوق طبلية صغيرة وضع نارجيلته المعمرة بالتبغ المعسل ، كان يسحب منها ثم يبخ الدخان ببطء .

«سألناه عن ملف لشخص اسمه كمال مدحت»

كان قد نظم عمله بشكل جيد فقد كان لديه سجل وضع به أسماء جميع ملفات الأشخاص الذين حصل على ملفاتهم . نظر في السجل

مكتبة الفكر الجديد

المرتب حسب الحروف الأبجدية ، ثم نهض من مكانه . وتقدم إلى الملفات المرتبة خلفه ، وتناول ملفاً قلب أوراقه بصورة سريعة ، ثم أعاده ، ثم تناول ملفاً آخر ، هز رأسه وناوله لي . .

أخذته بيدي وبدأت بتقليبه ، قرأت اسمه ، ومن ثم بدأت بتقليب الكتب الرسمية عنه والملاحظات الأمنية حول شخصيته ، كدت أقفز من الفرح بينما بدأ فارس حسن بالمفاصلة حول السعر ، لم تكن لدي رغبة بسماع فارس وهو يطاول مع أن ما طلبه لا يتعدى ثمن بنطلون أو قميص ، قلت له ادفع . . وخليني أشوف شغلي . .

هبطنا درجتين أو ثلاثة ، ثم اخترقنا مزبلة الشارع ، دسنا على القطط النافقة وانطلقنا ، وكانت الرائحة تمزق الأنوف .

صعدنا الميكروباص وانتقلنا مباشرة إلى منزله في المنصور .

**

أكثر ما هو موجود من الكتب في الملف هي تقارير ، أو خلاصات لتقارير أخرى ، بعضها معلومات عامة ، والأخرى معلومات خاصة ، تقرير واحد فقط هو الذي صدمني جداً ، كانت المخابرات تعلم بأنه من العراقيين المهجرين من التبعية الإيرانية ، وأنه وصل إلى دمشق وتزوج من نادية العمري ، وبعد ذلك وصل إلى بغداد والعمل في الفرقة السيمفونية الوطنية ، الشيء المهم في كل ما هو موجود من تقارير في هذا الملف ، هو الردود الأمنية التي حاول بعضها اعتقاله ، أو استجوابه ، والردود الأخرى التي طالبت بإبقائه تحت الرقابة ، ولكن ما هو مهم هو التقرير الذي يفصل بعلاقته مع وداد ، حتى الأشياء الشخصية ، وبعد ذلك هنالك تقرير آخر عن علاقته مع جانيت ، فالتقارير لم تكن محصورة على مواقفه السياسية ، والتي كانت تلخصها بأنه ليبرالي حر ، وحر تعني غير مرتبط سياسياً ،

مكتبة الفكر الجديد

ولكن لا علاقة له مع الحركات الدينية ، وليست له نوازع دينية ، وفي زحام كل هذه التقارير هو التقرير الذي كتبته وداد والتي خضعت إلى استجواب أمني بشأنه ، وقد زكته تزكية رائعة ودافعت عنه دفاعاً كاملاً .

السؤال هو : هل كان كمال مدحت يعرف بأن الدولة تعرف على الأقل شخصيته السابقة ، أشك بذلك؟

منزل الفنان في المنصور

يقع المنزل في المنصور ، على مقربة من تمثال أبي جعفر المنصور ، بمسافة مائتي متر تقريباً ، واجهته الطابوقية جميلة ، نوافذه المشيدة على طراز السبعينيات عالية ، حين دخلنا فارس حسن وأنا عبرنا الممر وأصبحنا مباشرة أمام المكتبة ، كانت كبيرة مملوءة بالكتب ، أمام طاولة الطعام هنالك دولاب من الساج يستخدم لحفظ بعض أدوات المنزل ، غير أنه رص في رفوفه مجموعة أخرى من الكتب ، وهنالك كومة من الروايات وضعت على الأرضية ، وطاولة قرب الكرسي الذي كان يجلس عليه على الدوام قرب النافذة وجدت على الطاولة كتابين أحدهما مذكرات عازف الكمان الفرنسي ستيفان غرابيلي ، والآخر مختارات من قصائد الشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا مترجمة للإنكليزية تحت عنوان دكان التبغ ، وكان الكتاب مفتوحاً على قصيدة بعنوان دكان التبغ ، وقد ملأها كمال مدحت بالشروح بقلم الرصاص ، ومن الواضح أنه كان يعتمد على أكثر من كتاب في شرح القصيدة ، غير أني وقتها لم أهتم للموضوع ، وقد أخذت الكتاب وقلم الرصاص معي .

كانت الصحف كثيرة وموجودة في حجرة النوم ، ومن الواضح أنه يقضي هو معظم الوقت في غرفة الطعام السابقة ، أما الباب فقد ظل مغلقاً

مكتبة الفكر الجديد

طيلة أيام الحرب هنا في الخلف حيث تقع غرفة الجلوس .

كانت هنالك صورة لنادية العمري ، امرأة جميلة في الخمسين من عمرها ، كانت تعقد شعرها الأشقر على هيئة جديلتين ملتفتين حول أذنيها ، تجلس مرتدية بلوزة ذات لون أزرق غامق ، كورة من الصوف وضعتها على الطاولة ، تلاشى نصفها خلف إبريق الشاي . كان كمال مدحت على مقربة منها ينظر مبتسماً ، بنظارته ذات الإطار البلاستيكي ، ولحيته الخفيفة ، وعينيه الكئيبتين خلف الزجاجات نصف المعتمة . كانت نادية العمري تنظر باستقامة بينما كان كمال مدحت شبه محني ، منهمكا في قراءة كتاب ، بشعره الرمادي ، يداه ضخمتان ، كأنه عامل وليس موسيقياً .

**

رن هاتفي النقال ، كان فارس على الخط ، قال إنه توصل إلى خادمته فوزية ، ويقع منزلها في مدينة الوشاش ، الحي الفقير الذي يقع خلف مدينة المنصور مباشرة .

« كيف الوصول إليها» قلت له .

«سهلة . . رتبت معها الموعد على الساعة عشرة صباحاً»

جاء التاكسي يوم الخميس صباحاً ، قال لي علينا أن ننتظر ساعة أو ساعتين لنسمع الانفجار ومن ثم ننطلق ، غير أن الصبر بدأ ينفد مني ، كنا جالسين في الصالة كمن ينتظر شيئاً ، ولكن أي شيء لم يحصل ، وقد انطلقنا وفي الطريق ، قرب الجسر سمعنا الانفجار ، وقد اضطربت أقدامنا .

كان علينا أن نعبر الجسر نحو الكرخ ، لم يكن الأمر سهلاً بالمرة ، لا أحد يستطيع أن يخمن العواقب ، لا نعرف ما هو مصيرنا هذه المرة ، بعد أن تجاوزنا جسر الجمهورية باتجاه الكرخ ، استولى علي شعور غريب ، مزيج من

مكتبة الفكر الجديد

الكآبة والندم ، قلت ما الذي جاء بي هنا ، ما كان علي أن أقبل بهذه المهمة على الإطلاق ، لم يكن الخوف من الموت تلك اللحظة هو الذي سيطر علي أبداً ، بل كان الرعب من التعذيب الذي كان يمكن لي أن أتعرض له .

وصلنا إلى حي فقير على مقربة من الحي الراقي ، مجموعة من المنازل الواطئة ، وعلى مقربة منها مزارع صغيرة تمر من داخلها قناة ، كانت هنالك مطبات ، ومصدات وليس من السهولة الدخول إلى المدينة ، كانت هنالك مجموعة من المسلحين ، ببنادقهم . هبط فارس وتكلم معهم ، وقدم لهم ورقة كان قد حصل عليها قبل يوم تقريباً وهي رسالة من أحد كبار المسلحين يبين لهم أهمية مهمتنا ويطلب منهم السماح لنا بالدخول .

لا أدري فيما إذا كان قد قدم للمسلح الكبير بعض المال ، لتسهيل هذه المهمة ، فقد قيدها فارس في الميزانية ، بعد ذلك سرنا في الشارع ، كان الماء الآسن في الحفر التي تغزو الشارع ، أما المنازل والتي تقع خلف حي المنصور الحي الراقي ، تعبر عن هذا التفاوت الطبقي وبشدة ، حيث يصبح الصراع على هذا الحي الذي ينتمي ساكنوه إلى الطبقة الوسطى والطبقة الراقية من قبل الجماعات المسلحة التي تأتي من المناطق الفقيرة ، السنية والشيعية ، ضارياً .

توقفنا أمام منزل فقير جداً ، واجهته مهدمة تقريباً ، طرقنا الباب ، خرجت لنا فوزية ، كانت ترتدي بنطلوناً عريضاً وقميصاً أسود ، وتضع على رأسها إيشارباً ، كانت تعيش مع ثلاثة من أخواتها وأمها على الراتب الذي يقدمه لهم كمال مدحت ، وكانت حزينة جداً .

دعتنا إلى الجلوس فجلسنا على كراسي من البلاستك ، متقابلين ، وأمامنا طاولة خشبية كسيرة ، وقد روت لنا أنه قبل يومين كان يشعر بشيء غريب ، فقد وصل له تهديد بالقتل .

مكتبة
الفكر
الجديد

كانت هذه المعلومة جديدة، ثم وصفت سلوكه بدقة .

كان جالساً على كرسي كبير، مفتوح العينين، كانت تظن أنها واحدة من أساليبه الكثيرة في التأمل، لكن حالة الذهول التي كان مستسلماً لها بدت وكأنها حالة شخص ليس من هذا العالم، اقتربت منه وسألته عما به، قال لها إنه تلقى رسالة تهديد، قال ذلك بصوت متحشرج، بعد ذلك كان قد جلس قرب النافذة، استمر حتى الليل، حتى ضربت العتمة كل المنزل، كانت ترى في العتمة عينيه الكبيرتين، شعره الأبيض، ووجهه الهادئ وهو يحمل بيده فنجاناً من القهوة .

كانت تجعيدات شعره الخشنة بدت وكأنها من رماد، وكانت عظامه قد اضطربت بفعل الشيخوخة المبكرة، كان ما زال مختلاً بسبب تنفسه المضطرب من الأرق، ثم أضاف بجد : سيقتلونني أنا أعرف ذلك . .

«سألتها لماذا برأيك أردوا قتله . .؟» ، قالت : «ربما لأن أحد الأميركيين زاره . . في المنزل . .»

شحب وجهانا أنا وفارس، وقلنا : «زاره أميركي . . أي أميركي . .»

«لا أعرف . . زاره أميركي في الليل ورحل . .»

«هل رأيتيه . .؟»

«كان ذلك في الليل . .»

«كيف عرفت؟»

«كنت موجودة في المنزل . . وشفته»

«وهل في التهديد أنهم رأوه مع الأميركي» ، قالت : « ما قال شي عن هذا . .»

(عرفنا فيما بعد أنه ابنه مثير) ثم شرحت لنا كيف خرج في اليوم التالي من غرفة النوم، بالبيجاما، وضع طاسة رغوة الصابون على المغسلة

مكتبة الفكر الجديد

المرمرية ، إلى جانبه جراب يضم أدوات الحلاقة ، وكانت هنالك شمعة بسبب ظلمة الحمام ، بسبب انقطاع الكهرباء ، كانت الشمعة توفر له ما يكفي من الضوء ، ارتدى نظّارة ذات زجاج مربع وإطار من البلاستيك الأسود ، كان يحملها دائماً في جيب بيجامته ، وضعها على عينيه ، وخفف شعر لحيته ، لم يكن يحلق لحيته ولكنه كان يخففها .

بعد أن انتهى أخذ يتمشى في الحجرة رواحاً ومجيئاً ، كان يحاول قدر الإمكان ألا يرى نفسه في المرآة ، ولّمع أسنانه المنتظمة بمعجون إنكليزي وفرشاة ، ثم قرض أظفار يديه وقدميه ، ثم تلفلف بالبطانية ونام .

كانت آخر زيارة تلقاها في الليلة السابقة هي زيارة هذا الرجل الغريب ، زائر الليل مع حراسه ومرافقيه ، منذ فترة من الزمن لم يعد يثق بأحد ، كانت له بعض أوراقه المهمة ، والصور والصحف يضعها في صندوقين ، كانت هي وحدها التي صدقته ، كما قال لها إنه راحل حقاً هذه المرة .

«هل كان بينكم حب . .»

قالت : « نعم . .»

كانت تدوس على تقاليد المجتمع المفرط في تزمته . كانا عاشقين سريين ، بل كانا عاشقين في وضح النهار ، وفي فضيحة عامة ، وقد أظهرت هي قدراً أكبر من الحب والعاطفة تجاهه ، قالت كان بصره يضعف ، لحمه يترهل ، وكان يدخن كثيراً ، وكانت هي تجلس إلى جانبه وتتحدث له ، وهو يصغي إليها مستلقياً على السرير ، يرتدي البيجاما وفي يده كتاب على الدوام ، لم يكن يُسمع في البيت الصامت خلال النهار سوى صوتها وقهقهاته .

**

حين تركنا فوزية لحزنها ووحدتها قررنا الذهاب إلى الطب العدلي لدفن جثة كمال مدحت . كان الموعد مع الطبيب صباحاً .

مكتبة الفكر الجديد

دخلنا فوجدناه باستقبالنا ، كان مصطفى شاكر قد اتصل به ، ثم ناولته الرسالة .

ناولني شاشاً لأضعه على أنفي ، تقدم أمامنا ونحن وراءه ، توقف ، ثم مد يده على مقبض وسحب بقوة ، كانت جثة كمال مدحت أمامنا ، نظرنا له فارس حسن وأنا ، كان فاغر الفم ، جبهته شبه مهشمة عدلت قليلاً ببلاستر ، عين واحدة مفتوحة محمرّة وغائمة .

ملأت أوراق المستشفى ، وأخذناه من البراد . سجلناه على أساس أنه أبي ، وكان علينا أن نأخذه مباشرة إلى المقبرة ، أية مقبرة؟ مقبرة اليهود في الحبيبية؟ مقبرة الشيعة في النجف؟ مقبرة السنة في الكرخ . .؟

«أين ندفنه؟» قال فارس؟

قلت له : «أقرب مقبرة . .»

كانت مقبرة الكرخ ، نزلت من التاكسي ، ذهبنا إلى «إدارة المقبرة»

فارس كان يعرف الدفان ، قال إنه يتعامل من المسلحين أيضاً ، تعامل معنا على أساس أننا من السنة . جلسنا في مكتب الإدارة ، وهو مكتب بسيط علقت على الحائط بعض الآيات القرآنية ، وهنالك دولاب خشبي رصفت فيه بعض الملفات . أراد المسئول أن يعرف درجة ونوعية القبر والكفن ، فهنالك قبر من المرمر ، وقبر من التراب فقط ، مع شاهدة ، وهنالك قبر بشاهدة من الطابوق . قلنا له قبر من المرمر .

أدخله الدفانون بتابوت ، ثم رفعوه ، جلس شيخ على رأس القبر كي يقرأ القرآن ، خلعوا عنه القماشة المدماة ، رأيته مثلما كان في الصورة التي بعثتها فريدة روبين ، نزعوا البلاستر عن رأسه ، كانت جبهته مثقوبة ، أنفه ناعم ومستقيم ، جاء شاب أخر بليفة وبصابونة ، وأخذوا يقذفون عليه الماء بالسطول وهم يرشونه بالكافور الأبيض .

مكتبة الفكر الجديد

بعد ذلك أدخلوه في القبر وأخذوا يهيلون عليه التراب . لحظتها فقط شعرت أن حارس التبغ مات .

**

اليوم التالي ذهبنا إلى سجن أميركي قريب من المطار ، للقاء أحد قادة العصابات المسلحة التي كانت مسيطرة على منطقة المنصور ، كنت أنوي اللقاء بأحد الذين قتلوا أو ذبحوا أكثر من مئة شخص على الأقل في مكان قريب من هذا المكان ، ومن المفترض أن كمال مدحت كان واحداً منهم .

هبطنا من السيارة ، تصافحت مع رئيس الحراس ، وبعض من هم أدنى مرتبة منه ، كانوا شباناً حليقين مسلحين ببنادق رشاشة ، فأخبرناهم عن مهمتنا ، غير أن الحراس لم يدعونا للدخول ، وهددونا بالقتل إن لم نتحرك خلال ثوان .

صعدنا السيارة وانطلقنا عائدين ، اقتربنا من كتلة كونكريتية وعلى مقربة منها مقهى صغير ، طلبت من السائق التوقف لشرب كأس من الشاي ، كنت أشعر بظمأ مر ، أشعر بأني منهك القوى ، ومجهد بصورة تامة ، بل أشعر بأني مشلول وميال إلى الاشمئزاز والشك بكل شخص تقريباً .

كان على أن استنتج أني لن أصل إلى نتيجة حول المليشيات ، والقوى المسلحة التي كانت تغزو البلاد وتحطم كل شيء ، مع ذلك كنت أريد أن أصل إلى نتيجة مقربة . أردت أن أرسم صورة تقريبية أو صورة تخطيطية لوجوه الذين اختطفوه وقتلوه . كنت ملأت صحن الشاي بأعقاب السكاير ، وحاولت تسمية بعض القوى المتنفذة في المنطقة ، بل أدرت في ذاكرتي كل ما سمعت ورأيت ، اتهامات للتورط الأميركي ، اتهامات

مكتبة الفكر الجديد

للتورط الإيراني، اتهامات لتورط الدول العربية في أعمال العنف في العراق، اتهامات من كل نوع، ويمكنك أن تسمع قصصاً كثيرة للاعتداءات سواء من الميليشيات أو الجماعات المسلحة أو من الجيش الأميركي: اغتصاب نساء، خطف، تعذيب، ضرب حتى الموت.

ولكن أين هي الحقيقة؟ لقد أصبحت قصة السنة والشيعة لا تقنعني على الإطلاق، وقلت لفارس حسن ستثبت الأيام المقبلة كم كان ما نفكر به هراء.

قال: «ولكن الانقسام حاصل»، قلت له «نعم، حصل بفعل العنف لا بشيء آخر»

طيب من يدير العنف؟

المجتمع ينهار، النساء يحملن المياه من البرك الآسنة لغسل ملابسهن وصحونهن، أسباب الموت عديدة ليس أقلها الكوليرا، فما هي الكلمات الملطفة التي يمكن استخدامها للذين يشكلون عصابات الخطف والقتل. وهنالك هذه الفوضى العارمة: قوى مخولة بالقتل سواء من قوات المارينز أو من الحراسات الخاصة، مليشيات شيعية، مليشيات سنية، عصابات جريمة منظمة، دولة ضعيفة تقريباً وغير موجودة في الكثير من المناطق، إذن كيف يمكن معرفة خطوط القتال، وكيف يمكن تحديد هوية العدو.. الطائفية، الإمبراطورية، التدخل الخارجي؟ هل هو دفاع مستميت عن الثروات الخاصة، عن الطبقات، عن القانون الدولي، عن صراع الحكومات.. ما هي تسمية ما يحدث؟

كل التقارير التي قرأناها - نانسي عودة وأنا - كانت غامضة، ومهلهلة، ومبنية على وقائع غير موجودة، وأكثر حججها متناقضة، ومنطقها غير مفهوم، وكل ما تورده من قناعات بحاجة إلى براهين، وأخيراً

مكتبة الفكر الجديد

ما قدم من وقائع يدحض القضية نفسها التي تحاول وزارة الخارجية الأميركية أن تقيم الدليل عليها ، أسلحة الجيش العراقي تركت لتنهب في العراء ، وهي أسلحة تقدر بالأطنان ، وهنالك شبكة معقدة من العصابات والقوى الملتبسة التي تشبه عصابات أميركا اللاتينية اليمينية المدعومة من قبل الأميركيين بوجه اليسار ، مع أنه ليس هنالك ما يؤكد أن الأميركان يدعمون أياً من الميليشيات ، ولكن لا رغبة حقيقية في تصفية الميليشيات نهائياً إنما هنالك رغبة حقيقية في صنع نوع من التوازنات ، ولكن كم كانت تكلف هذه الموازنات؟ يتحدثون أحياناً عن حرب مصالح دول متعددة لا تحدث إلا في شوارع بغداد ، ولكن من يستطيع أن يقول لنا من يقاتل من؟ شيعة يقتلون شيعة ، سنة يقتلون سنة ، ولا يستعمل هذا القتل إلا لنخر ذاكرتنا الوطنية الضعيفة؟

**

بعد يوم آخر من العمل ، جاء فارس حسن وقال نحن دخلنا المنطقة الخطر من عملنا . جاءتني إشارات عن قرار لخطفك وتصفيتك .

قلت له كنت متأكداً بأن الأمر سيصل إلى هذا الحد ، فجأة قفزت من المكان ، واتصلت بصديقة تعمل في الخطوط الجوية العراقية لحجز مقعد لي ولفارس في أقرب رحلة من مطار بغداد ، ثم ارتديت بنطلوني وقمصلتي ، وركضت لأهيء حقيبتي الجلدية الصغيرة السوداء التي أضعها على كتفي ، ووضعت ما أحتاجه بشكل ضروري جداً فيها ، وربطت بالحبال المعدات التي أحتاجها الأخرى مع بعضها ، لم أحمل معي أشياء كثيرة ، كنت تخلصت من أشياء متعددة لا أحتاجها ، ومن جهة أخرى كنت متقشفاً جداً في تحشية الأشياء التي أحتاجها في الحقيبة ، ذلك لأني كنت متوتراً جداً ، ومضطرباً أيضاً .

مكتبة الفكر الجديد

قال إنه سيذهب إلى المسلحين للتفاوض معهم .

صرخت بوجهه : «إياك . .لا تذهب لهم . . أنا حجزت لك بالطائرة . .»

غير أنه كعادته أصر على مقابلتهم لأنه يعرفهم وسبق له التعامل معهم ، وأشياء أخرى من هذا القبيل .

بعد منتصف الليل جاءتني إشارة من الصديقة التي تعمل في الخطوط أن الحجز قد تم . في الفجر هبطت السلم إلى البهو ، وطلبت من حارس البناية أن يضع جميع أغراضي التي لا أريد حملها معي في صندوق الأمانات ، كان الموظف يعمل في إحدى القواعد الأميركية ، واستهواني الحديث معه ، كان من طراز خاص ، يشبه ممثلاً آسيوياً بوجهه الأصفر المستنفد ، وأنفه الغليظ وشفاهه الكبيرة والسمينة ، ونظاراته السميكة ، وما إن كنت أتحدث معه كنت أراقب للمرة الأولى عاملات أجنبيات يعملن في المنطقة الخضراء ، يشبهن عاهرات مقاهي البيغال ، كن متأنقات جداً ، ناظرات في الوقت نفسه ، بكبرياء ، من تحت حواف قبعاتهن التي لها شكل المبولة .

غادرت النزل إلى الأسفل ، صعدت الميكروباص في الخلف ، وأخفيت كامرتي في الحقيبة ، كان السائق شاباً أسمر ، اسمه مروان من سكنة الكرخ ، كان شجاعاً جداً ، ومتمرساً ، قالت لي نرمين إنه يمكنني الاعتماد عليه .

كانت صورة بغداد تتذبذب بين عيني : الحرب ، التهجير ، الخطف ، الإرهاب ، الفشل ، الاحتلال . . صورة تتحرك أو تتأرجح بسلسلة يميناً وشمالاً ، كلام متلعثم يصدر مني ، كلام مضطرب وغير مفهوم . .كنت أفكر بأشياء متعددة تلك الساعة حتى أوصلني الميكروباص إلى آخر نقطة

مكتبة الفكر الجديد

تفتيش من المنطقة الخضراء وهي على مقربة من نصب قوس النصر . انعطفت السيارة قليلاً إلى الطريق الترابي ، هنالك نقطة تفتيش ، شخص بملابس مدنية ، يقف ويتفحص أوراق السيارات ، كان وجه شخص آخر وراءه غير معبر بالكامل ، عيناه جامدتان ، غير متحركتين وغير منتبهتين ، بل وغير مهتمتين أيضاً . في الطريق شاهدنا العديد من الدبابات والآليات العسكرية على الطريق نفسه معطوبة ، بسبب الصواريخ ، مما يدل على حدوث معارك في تلك المنطقة .

وما إن كنا في طريقنا إلى شارع المطار حتى شعرت بأن هنالك سيارة تطاردنا ودخلت وراءنا في طريق ضيقة ، كان مروان قد رآهم في المرآة الجانبية ، ثم قرر مراوغتهم بسرعة ، ولما بدأنا بالخروج من الطريق الضيقة حتى لاحقتنا سيارة أخرى فيها ثلاثة أشخاص ، وكانت رشاشاتهم مصوبة نحو سيارتنا ، وهذا ما جعل مروان يدخل في طريق ضيقة أخرى ، تفادياً لئلا يصوبوا نحو إطارات سيارتنا ، وما أن وصلنا نهاية الطريق حتى وجدنا على الرصيف جثة منزوعة الأحشاء ، وبترت رأسها ووضعت إلى جانبها ، وحين انحرف في الطريق المقابلة واجهتنا أكثر من جثة ممددة على عرض الطريق ، فصعد مروان فوقها بالسيارة ، كانت السيارة قد طست بها كما لو كنا صعدنا مطباً اصطناعياً صغيراً وسط الطريق ، وحين التفتُ إلى الوراء وجدت الجثة الممدة قد انبقرت مثل خرطوم ماء وقد سال منها الدم والسوائل .

«لا شيء . . لم تكن سوى جثة . .!»

بعد ساعة كنت في المطار منهك القوى تماماً . . أكملت الإجراءات بسرعة ، وحين حلقت الطائرة إلى أعلى ، ألقيت نظرة سريعة على بغداد . . كان الغبار يغطيها ، ونهرها بلون الطين ، فأخذت أردد كلمات

مكتبة الفكر الجديد

دكان التبغ الأخيرة : كلي الشوكلاتة يا صغيرة ، لا توجد ميتافيزيقيا تضاهي الشوكلاتة ، والديانات لا تُعلّم أكثر مما تعلمه المِقشدة ، كُلي أيتها الصغيرة القذرة كلي! فشعرت بقشعريرة اجتاحت جسدي كله ..

٢٠٠٦-٢٠٠٨

بغداد - طهران - دمشق

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

الفهرست

الجزء الأول

I	بيوغرافيا ، خرائط ، ووثائق خاصة	9
II	البلاك رايتر جنة متخيلة أم رحلة إلى المجهول	25
III	صحفيون في دكان التبغ	50
IV	المدينة الامبريالية وحانات الزمرد	70
V	بوريس وسمير ورسائل فريدة روبين	91

الجزء الثاني

VI	حارس القطيع	105
VII	المحروس في دكان التبغ	164
VIII	حارس التبغ	253

الجزء الثالث

IX	أسرار القتل ، حياة على الحافة ، ومدن غريبة	333

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

علي بدر

روائي عراقي

صدر له

* **بابا سارتر**، رواية، رياض الريس، بيروت/ ٢٠٠١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢ بيروت/ ٢٠٠٦.
  - جائزة الدولة للآداب في بغداد.
  - جائزة أبو القاسم الشابي في تونس.
* **شتاء العائلة**، رواية، دار الشؤون الثقافية، بغداد/ ٢٠٠٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ط٢ بيروت/ ٢٠٠٧.
  - جائزة الإبداع الروائي في الإمارات.
* **صخب ونساء وكاتب مغمور**، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٥، ط٢/ ٢٠٠٧.
  - منحة من مؤسسة الكوندور الثقافية.
* **الوليمة العارية**، رواية، دار الجمل، كولونيا/ ٢٠٠٥.
* **الطريق إلى تل المطران**، رواية، دار رياض الريس بيروت/ ٢٠٠٥.
* **خرائط منتصف الليل**، رحلات، أبو ظبي/ ٢٠٠٦.
  - جائزة ابن بطوطة للرحلات في أبو ظبي.
* **ماسنيون في بغداد**، دراسة، دار الجمل، كولونيا/٢٠٠٥.
  - شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس.
* **مصابيح أورشليم**، رواية عن إدوارد سعيد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/ ٢٠٠٦.
* **الركض وراء الذئاب**، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٧.

مكتبة الفكر الجديد

T O B A C C O K E E P E R

رواية
NOVEL

حارس التبغ

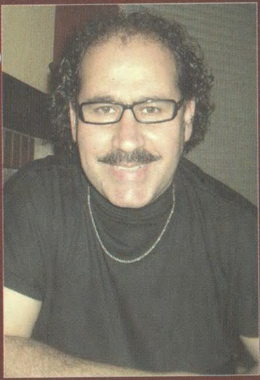

◆ عنوان الرواية مأخوذ من ديوان (دكّان التبغ) لـ (بيسوا) ، حيث تلتبس حياة واحدة بثلاث شخصيّات مختلفة ، أمّا (حارس التبغ) فإنّها تروي حياة الموسيقار العراقيّ كمال مدحت ، الّذي اختطف وقتل في العام ٢٠٠٦ على خلفيّة غامضة ، وتكشف عن شخصيّاته الثلاث : فهو الموسيقار اليهوديّ يوسف صالح الّذي هاجر إلى إسرائيل في الخمسينات ، ولم يطق العيش هناك ، فهرب إلى إيران بشخصيّة حيدر سلمان الّتي عاش بها في بغداد حتّى نهاية السبعينات ، حيث تمّ تهجيره مرّة أخرى إلى طهران لكونه من التابعيّة الإيرانيّة ، فزيّف شخصيّة ثالثة هي شخصيّة الموسيقار كمال مدحت ، ودخل بغداد ليصبح ، فيما بعد ، أحد أهمّ الموسيقيين في المنطقة ، ولم تكن شخصيّته وحدها لعبة من الأقنعة المتغيّرة والأسماء المستعارة مثل قصيدة بيسوا ، إنّما الحياة برمّتها هي لعبة من الهويّات المنتحلة والأقنعة المتغيّرة . تنطلق أحداث هذه الرواية من المنطقة الخضراء في بغداد ، حيث يكلّف أحد الصحفيّين بالتحقيق في مقتل الموسيقار ، وأثناء عمليّة البحث يتمّ الكشف عن أسرار المافيات السياسيّة والعصابات والميليشيات ، كما إنّها تكشف عن العوالم السريّة لحياة الصحفيّين والمراسلين وأسمائهم المستعارة . تنتمي هذه الرواية إلى أدب ما بعد الكولونياليّة في تكذيب سرديّات الهويّة ، والسرديّات الاستعماريّة ، وتستخدم تقنيّات الرواية التسجيليّة والميتافكشن وأدب الرحلات .

◆ علي بدر

حصلت روايته (بابا سارتر) على العديد من الجوائز ، وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبيّة .

ISBN 978-9953-36-253-X
9 789953 362533

مكتبة
الفكر
الجديد

القدس
عاصمة الثقافة العربية
Capital of Arab Culture
al-QUDS
2009

40 عاماً في خدمة الثقافة العربية
منشورات 2009
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com